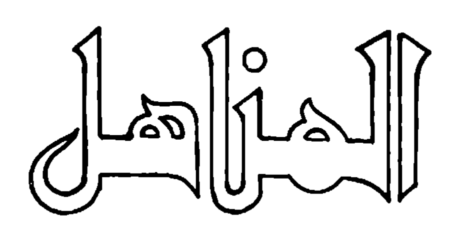
المناهل



5



تصدرها
وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية
الرباط - المغرب

العدد الخامس
السنة الثالثة

ربيع الأول 1396
مارس 1976

تهنئة "المناهل"
بعيد العرش السعيد

يسعد أسرة "المناهل" أن ترفع آيات التهاني والتبريك إلى مقام حضرة صاحب الجلالة الملك المعظم الحسن الثاني نصره الله وأيده، بمناسبة حلول الذكرى الخامسة عشرة لعيد جلوسه الميمون على عرش أسلافه الغر الميامين، ومملكته في فرحة وابتهاج بعودة الصحراء المغربية إلى الوطن، بفضل قيادته الحكيمة، وسياسته الرشيدة، وتعلق شعبه المخلص بعرشه.

و"المناهل" إذ ترفع عواطف محبتها وولائها إلى جلالته، تضرع إلى الله العلي القدير، أن يسعده بهذا العيد، هو وأسرته الكريمة، وشعبه الوفي، وأن يقر عينه الكريمة بولي عهده سيدي محمد وبصنوه مولاي رشيد، الأميرين المحبوبين الجليلين، وبأخواتهما الأميرات المصونات، كما تضرع إليه أن يحفظه ملكاً حكيماً محفوفاً برعايته الإلاهية.

المناهل

تائية أبى إسحاق الألبيري

عبد الله كنون

هذه القصيدة من أروع ما قالته العرب فى شعر الوصايا والحكم ، وقل ان تشابهها قصيدة فى هذا الباب ، من حيث متانة البناء وعمق النظرة وقوة التأثير ، الا قصيدة ابى الفتح البستي : (زيادة المرء فى دنياه نقصان)، ولكن نونية ابى الفتح هذه شهيرة ومتداولة ، وتجري ابياتها على الالسنة ، وقد تضمنتها الدواوين الادبية ، فقلما يخلو كتاب للمنتخبات الشعرية منها . أما تائية صاحبنا الالبيري فهي مهجورة منسية ، لا تكاد تعرف ، او يلتفت اليها أحد من الباحثين وأصحاب المجموعات الادبية والشعرية .

وهي تمتاز بالنفس الطويل ، والنظرة المستقصية ، والتناول المستوعب ، فتقلب المعنى على جميع وجوهه وتتعمق فيه وتستبطنه ، ولا تترك شيئا يخطر على البال مما يتعلق به ، الا ألمعت اليه واستعرضته فى وضوح تام وبيان لا مزيد عليه ، حتى ان أغراضها انحصرت فى مدح العلم وتفضيله على المال ، والتزهيد فى الدنيا فقط لا غير ، وهي مع ذلك تنيف على عشرة ومائة بيت ، والمدهش من امرها هو هذه السلاسة التي جعلتها فى بلاغتها وحسن سبكها كانها قطعة نثرية ، ونموذج انشائي

لأحد الكتاب البلغاء ، لا قصيدة شعرية مرتبطة بوزن وقافية ، وما ذلك الا لقوة عارضة صاحبها ومقدرته البيانية ، ونظمه بالسليقة لا بالتكلف .

ويرجع عهدي بهذه القصيدة الى ايام الطلب ، حين كان الوالد رحمه الله يورد بعض الابيات منها فى مجلسه ، ولا سيما البيت الذي يقول فى آخره حاضا على العمل بالعلم : (علمت فهل عملتا .) وهذا البيت الفذ المؤثر :

اذا القاك فهمك فى مهاو فليتك ثم ليتك ما فهمتا

ثم بعد ذلك اطلعت عليها أو على ما أورده الوالد منها فى شرحه لنصيحة الهلالي ، وهو القسم المتعلق منها بالعلم وطلبه وآدابه والعمل به، وهو قسم طويل يكون وحده قصيدة كاملة ، فلم أزل ألهج بأبياته واجعلها نصب عيني فى الدراسة والسلوك ، الى ان وقفت على ثلاث نسخ أخرى منها سأتحدث عنها فيما بعد .

وقد كنت الممت بها فى كتابي ادب الفقهاء ، فى فصل الاخلاق والآداب منه ، كما الممت بقصيدة الواعظ الاندلسي فى ام المؤمنين عائشة رضي الله عنها فى ذلك الكتاب ، ووعدت برجوعي اليهما فى موضوع آخر وهو هذا ، اذ لا يشفي نفسي الا اذاعة هذه القصائد ونشرها كاملة ، وعدم الاكتفاء منها بالشواهد والامثلة كما اقتضاه بحث ادب الفقهاء .

ابو اسحاق الالبيري

ترجم لابى اسحاق القاضي عياض فى المدارك ترجمة قصيرة قال عنه فيها : انه من أصحاب ابى عبد الله بن أبى زمنين رحمه الله ، وروى عنه كتبه ، وكان فقيها معظما فى وقته ، ولم يذكر له تاريخا . كما ترجم له الضبي فى بغية الملتمس بما لا يزيد على سطر فقال انه فقيه فاضل ، زاهد عارف ، كثير الشعر فى ذم الدنيا ، مجتهد فى ذلك .

والترجمة الوافية التي وقفنا عليها له ، هي ترجمة ابن الأبـــار فى كتابه التكملة فى القسم الاول المفقود من طبعة قديـــرة ، المنشـــور فى الجزائر بعناية الفريدبل وابن ابي شنب ونصها :

« ابراهيم بن مسعود بن سعيد (1) التجيبي ، الزاهد من أهل غرناطة، يعرف بالالبيري ويكنى أبا اسحاق . روى عن أبى عبد الله بن ابي زمنيـــن وغيره . وكان من اهل العلم والعمل ، شاعرا مجددا ، وشعره مدون ، وكله فى الحكم والمواعظ والازهاد . ومسلكه سلك ابو محمد بن العســـــال الطليطلي ، وكانا فرسى رهان فى ذلك الزمان صلاحا وعبادة . وقد حدث ابو اسحاق وروى عنه ابن اخته وابو محمد عبد الواحد بن عيسى وابـــو حفص عمر بن خلف الهمدانيان الالبيريان وغيرهم . »

ثم ذكر بسنده أبياتا من شعر المترجـــم وقال : « توفى فى نحـــو الستين والاربعمائة » .

وذكره ابن سعيد المغربي فى كتابه المغرب . وجعله من أهل حصن العقاب ، ولذلك لم ينسبه الى البيرة كما انه لم يذكره بنسبه التجيبـــي وانما قال فيـــه :

« ابو اسحاق ابراهيم بن مسعود . من المسهب : هو من حصـــن العقاب ،و كان قد اشتهر فى غرناطة اسمع وشاع علمـــه ، واتســـم (2) بالصلاح ، وكان ينكر على ملكها كونه استوزر ابن نغرلـــة اليهودي ، وعلى اهل غرناطة انقيادهم له ، فسعى فى نفيه الى البيرة فقال شعره المشهور:

الا قل لصنهاجـــة اجمعيـــــن ... بدور الزمـــان واسد العريـــــن
لقـــد زل سيدكـــم زلـــــة ... اقر بهـــا اعيـــن الشامتيـــن
تخيـــر كاتبـــــه كافـــــرا ... ولو شـــاء كان من المسلميـــن
فعـــز اليهـــود بـــه وانتخـــوا ... وكانوا من العتـــرة الارذليـــن

(1) فى الاصـــل : سعـــد
(2) بالاصل وارتسم ، ونظن ان الصواب ما اثبتناه

فاشتهر هذا الشعر ، وثارت صنهاجة على اليهودي فقتلوه ، وعظم قدر ابى اسحاق » ...

وبعد ذكر مقطوعتين شعريتين له ، احداهما فى محل سكناه ، حصن العقاب قال : « وله ديوان ملآن من اشعار زهدية ، ولأهل الاندلس غرام بحفظها » .

وهذا الديوان الذي اشار له كل من ابن الأبار وابن سعيد المغربي قد نشره المستعرب الاسباني الشهير ايميليو غرسية كوميس لأول مرة عن مخطوطة مكتبة الاسكوريال التي تحمل رقم 404 مع مقدمة ضافية بالاسبانية وتعاليق وكلمة تحليلية لكل قصيدة او مقطعة من اشعاره وفهرس عربي وآخر اسباني مفصل . وذلك فى مائة وستة وثمانين صفحة .

وممن ذكر أبا اسحاق صاحب الروض المعطار ، فقال فى تعريفه بمدينة البيرة : « ومنها ابو اسحاق بن مسعود الالبيري صاحب القصيدة الزهدية التي اولها :

تفت فؤادك الايام فتا وتنحت جسمك الساعات نحتا

ثم ذكر أبياتا أخرى من شعره ولكنه لم يذكر له تاريخا .

وذكره ايضا ابو الحجاج البلوى فى كتابه (الف با) بعد ان انشد ابياتا من قصيدته التائية فى تفضيل العلم على المال فقال :

« وهذا الشاعر هو ابو اسحاق ابراهيم بن مسعود الالبيري رحمه الله ، والقصيد حسن طويل ، كان الاستاذ الفقيه ابو عبد الله بن سورة شيخي رحمه الله ، يحمل طلبته على حفظه لجودته » .

وذكره كذلك المقري فى نفح الطيب فى اماكن مختلفة منشدا له اشعارا زهدية وغيرها ، كلها مما يوجد فى ديوانه .

القصيـــدة ونسخهـــا

تتالف هذه القصيدة من مائة وثلاثة عشر بيتا . وعند ناشر ديـوان ابى اسحاق ، الاستاذ غرسية كوميس انها مائة واثنا عشر بيتا فقـــط ، برغم البيت الذي يكمل ثلاثة عشر والـــذي قال انـــه يوجـــد بهامـــش الصفحة (11) من مخطوطة الديوان ، ليتخذ موقعه بين البيتين 29 و 30 . وهذا البيـــت هـــو :

فراجعها ودع عنك الهوينـــــا فما بالبطء تدرك ما أردتـــــا

وهذا البيت يوجد فى جميع النسخ التي بأيدينا ، حيث ذكر الاستاذ، وانما استبعده من القصيدة لان صاحبها يقول فى البيت الاخير منها :

وقد اردفتها (ستـــا) حسانـــا وكانت قبل ذا مائة وستـــــا

فالجميع اذن (112) بيتا لا غير ، لكن الذي عندنـــا فى النسخـــة الكاملة التي نصفها فيما بعد هو ما يلي :

وقد اردفتها (سبعا) حسانـــا وكانت قبلَ ذا مائة وستـــــا

فهي على ذلك (113) .

ونسخ القصيدة التي بيدنا الآن أربع :

1) نسخة شرح الوالد على نصيحة الهلالي ، (3) وهي تقتصر على 42 بيتا ، وتبتدىء من قوله : (أبا بكر) اي انها انما تحتوي القسم العلمي منها . وقد قدمها رحمه الله بقوله : « من قصيدة للامـــام ابى اسحـــاق ابراهيم بن مسعود بن سعيد التجيبي ضمنها وصية جامعة ، ونصيحـــة

(3) طبع هذا الشرح مؤخرا فى مصر باسم « النسق الغالي والنفس العالي » شرح نصيحة ابي العباس الهلالي للشيخ عبد الصمد كنـــون فى 640 صفحـــة

لامعة لابنه أو ابن اخيه رحم الله الجميع ، ونصها « وبعد ما أوردها قال : « انتهى المراد منها » .

فيلاحظ اولا انه سمى جده سعيدا لا سعدا كما ورد فى المغرب ، وانه نسبه الى قبيلة تجيب ولم يعرج على نسبته البلدانية ، ويظهر أن ذلك هو الصواب لانه فى الاصل من حصن العقاب كما سبق عن ابن سعيد ، فنسبته الى البيرة طارئة . ويلاحظ ثانيا انه عين (أبا بكر) الذي وجهت اليه القصيدة بابن الشاعر أو ابن أخيه ، واذا لم يكن فى الترجمة التي نقلناها عن ابن الابار تصحيف ، فربما كان أبو بكر هذا ابن أخت الشاعر الذى هو احد الرواة عنه . على أن تصحيف ابن أخيه بابن أخته ممكن ومحتمل جدا . وفى النسخة التى تأتى بعد هذه تعيينه بابنه على سبيل الجزم والقطع ، ويبعد فى نظرنا أن يكون ابنه ، وهو الذي يأتي فى القصيدة انه يوجه اليه ذلك العتاب المر ، وان كان على سبيل الفرض والتقدير ، وليس من المعهود ان يخاطب الولد والده بذلك النقد اللاذع ، أما ان كان ابن أخيه او أخته فقد يمكن ان يتجرأ عليه بذلك ، وان قالوا : العم أحد الابوين .

وعلى كل حال فقد توقف ناشر الديوان فى تعيين ابى بكر من هو ، لان القصيدة فى الديوان لم تصدر بشيء فى هذا الصدد .

2) نسخة أطلعني عليها الاخ الاستاذ الحاج أحمد بن شقرون عميد كلية الشريعة بالنيابة ، وقد نقلها حسبما ذكر لي من أوراق تالفة ، وهي تبتدىء كذلك من قوله (أبا بكر) وتحتوي على (63) بيتا ، فتزيد بواحد وعشرين بيتا على التي قبلها ، وتنقص بخمسين بيتا عن النص الكامل للقصيدة ، واكثر ذلك من قسم التزهيد وذم المال . وجاء فى تقديمها : « قال أبو اسحاق ابراهيم بن مسعود ينصح ولده أبا بكر ويحثه على العناية بالعلم » فذكر اسمه بدون نسبة أصلا ، كما فعل صاحب المغرب ، وعين المنصوح المدعو ابا بكر فجعله ولده من غير تردد .
3) نسخة كاملة توجد ضمن مجموع من كتب الخزانة العامة بتطوان يحمل رقم (536) وهو للعلامة أحمد بن عبد الرحمن بن عاشر

الحافي السلوي المتوفى سنة 1163 يشتمل على تقاييد ورسائل مهمة وجله بخط يده . فتاريخها اذن يرجع الى القرن الثاني عشر ، ومع ان ناسخها من أهل العلم كما قلنا ، فانه قد تقع له بعض الهفوات ، وأعظمها انه كرر اربعة أبيات منها وردت فى وسطها ، فذكرها مرة أخرى فى آخرها ولم ينتبه لذلك . على ان اثباتها فى وسط القصيدة انما جاء الحاقا بالهامش فلعله وقف على نسختين منها احداهما وقعت فيها هذه الابيات أخيرا وهي التي نقل عنها اول مرة ، والثانية وقعت فى الوسط فألحقها ولكنه لم ينبه على ذلك . وقد اتبعنا نحن ما فى الديوان من اثباتها فى وسط القصيدة وحذفناها من الآخر .

وسننبه عليها فى التعليق مع اختلاف النسخ فى بعض الالفاظ .

4) نسخة الديوان ، وهي نسخة كاملة أيضا باستثناء الملاحظة السابقة المتعلقة بالبيت الذي استبعده منها الناشر وقوفا مع ما جاء فى آخر بيت من قوله : « وقد اردفتها ستا حسانا » وهي نسخة صحيحة محققة بما عرف عن الاستاذ كوميز من معرفة دقيقة بالعربية وادبها ، الا بعض الالفاظ القليلة سننبه عليها فى التعليق ، وغالبها من اختلاف النسخ أو التطبيع .

ونشير الى هذه النسخ الاولى منها بحرف (ل) والثانية بحرف (ش) والثالثة بحرف (ت) والرابعة بحرف (د) .

وهذا هو النص الكامل للقصيدة ، وقد فصلنا بين اقسامها بنجوم ، وهذه الاقسام أكثر ما تدور ـ كما أسلفنا ـ على مدح العلم والترغيب فيه، وتفضيله على المال والتزهيد فى الدنيا وعتاب النفس :

تفت فؤادك الايام فتا وتنحت جسمك الساعات نحتا
وتدعوك المنون دعاء صدق الا يا صاح انت اريد انتا

اراك تحب عرسـا ذات غـدر ... أبت طلاقهـا الاكيـاس بتـا
تنام الدهر ويحك فى غطيـط ... بها حتى اذا مـت انتبهتـا
فكم ذا أنت مخـدوع وحتـى ... متى لا ترعوي عنهـا وحتـى

* * *

ابا بكر دعوتـك لـو أجبتـا ... الى ما فيه حظك ان عقلتـا (4)
الى علـم تكـون به امامـا ... مطاعا ان أمـرت وان نهيتـا
ويجلو (5) ما بعينك من عشاهـا ... ويهديك (6) السبيـل اذا ضللتـا
وتحمل منه فى ناديـك تاجـا ... ويكسوك الجمال اذا اعتريتـا (7)
ينالك نفعـه ما دمـت حيـا ... ويبقى ذخره لك ان ذهبتـا (8)
هو العضب المهند ليس ينبـو ... تصيب به المقاتل (9) ان ضربتـا
وكنز لا تخاف (10) عليه لصـا ... خفيف الحمل يوجد حيث كنتـا
يزيد بكثـرة الانفـاق منـه ... وينقص ان به كفـا شددتـا
فلو قد ذقت من حلواه طعمـا ... لآثـرت التعلـم واجتهدتـا
ولم يشغلك عنه هـوى مطـاع ... ولا دنيا بزخرفها فتـنـتـا (11)
ولا الهـاك عنـه أنيـق روض ... ولا خدر (12) بربربـه كلفتـا

---

(4) فى ت : الى مـا فيـه رشـدك ان قبلتـا
(5) فى د : وتجلـو
(6) فى د : ويهديك و تهديك
(7) فى د : اغتربتـا
(8) هـذا البيت ساقط فى ش
(9) هذا ما فى ل وفى بقية النسخ : مقاتل من ضربتا وقد آثرنا ما ظهر لنا انه اشعر
(10) فى ت : لا يخاف .. لصا وهو تصحيف
(11) فى ت : التتنتا
(12) فى و ش خـدن

فقوت الـروح أرواح المعانـــــي ... ولست بأن طعمت وان شربتا (13)
فواظبــه وخذ بالجـــد فيـــــه ... فان اعطاكه الله انتفعتـــــا (14)
وان أوتيت فيه طويـــل بــــاع ... وقال الناس انك قد سبقتـــا
فلا تأمـــن ســؤال الله عنـــه ... بتوبيخ : علمت فهل عملتـــا ؟
فراس العلم تقـــوى الله حقـــا ... وليس بأن يقال لقـــد راستـــا
واحسن ثوبك الاحسان (15) لا ان ... ترى ثوب الاساءة قد لبستـــا
اذا ما لم يفدك العلـــم خيـــرا ... فخير منه أن لو قـــد جهلتـــا
وان القاك فهمـــك فى مهـــاو ... فليتك ثم ليتـــك مـــا فهمتـــا
ستجني من ثمار العجز جهـــلا ... وتصغر فى العيون وان كبرتا (16)
وتفقد ان جهلت وانـــت بـــاق ... وتوجد ان علمت وقد فقدتـــا
وتذكر قولتي لك بعـــد حيـــن ... وتغبطهـــا اذا عنهـــا شغلتـــا
وسوف تعض (17) من ندم عليها ... وما تغني الندامـــة ان ندمتـــا
اذا ابصرت صحبك فى سمـــاء ... قد ارتفعوا عليك ، وقـــد سفلتـــا
فراجعها ودع عنـــك الهوينـــا ... فما بالبطء تدرك ما أردتـــا (18)

* * *

ولاتحفـل بمالك والـــه عنـــه ... فليـس المـــال الا ما علمتـــا

---

(13) فى ل : ولا شربتـــا وفى ت : او أن شربتـــا
(14) هـــذا مـا فى ل وفى بقيـــة النسـخ اخذتـــا
(15) فى ش : وعود نفسك الاحسان وفى د : وضافى ثوبك الاحسان
(16) فى ت و د : اذا كبرتـــا
(17) حـــذف معمـــول تعـــض للعلـم بـــه
(18) هذا هو البيت الذي استبعده ناشر الديوان

وليس لجاهل فى الناس معنى ... ولو ملك العراق له تاتى
سينطق عنك علمك فى ندى ... ويكتب عنك يوما ان كتبتا
وما يغنيك تشييد المباني ... اذا بالجهل نفسك قد هدمتا
جعلت المال فوق العلم جهلا ... لعمرك فى القضية ما عدلتا
وبينهما بنص الوحي بون ... ستعلمه اذا (طه) قراتا (19)
لئن رفع الغنى لواء مال ... لأنت لواء علمك قد رفعتا
وان جلسا لغني على الحشايا ... لأنت على الكواكب قد جلستا
وان ركب الجياد مسومات ... لأنت مناهج التقوى ركبتا
ومهما افتض أبكار الغواني ... فكم بكر من الحكم (20) افتضضتا
وليس يضرك الاقتار شيئا ... اذا ما انت ربك قد عرفتا (21)
نماذا عنده (22) لك من جميل ... اذا بفناء طاعته انختا
فقابل بالقبول صحيح نصحي ... فان اعرضت عنه فقد خسرتا
وان راعيته قولا وفعلا ... وتاجرت الاله فقد ربحتا (23)

* * *

فليست هذه الدنيا بشيء ... تسوءك حقبة وتسر وقتا
وغايتها اذا فكرت فيها ... كفيئك او كحلمك ان حلمتا (24)

---

(19) فى سورة طه آيات فى فضل العلم والتزهيد فى الدنيا كآية (وقل رب زدني علما) وآية (ولا تمدن عينك الى ما متعت به ازواجا منهم)
(20) فى ش : من المعنى
(21) فى ت : قد اطعتا
(22) فى ش : فكم ذا عنده
(23) فى ت : به ربحتا
(24) فى د : ان حكمتا . وهنا تنتهي نسخة ل

سجنت بها وانـت لها محـب — فكيف تحب ما فيـه سجنتـا
وتطعمك الطعـام وعـن قريـب — ستطعم منك ما منهـا طعمتـا
وتعري ان لبست بها (25) ثيابـا — وتكسـي ان ملابسهـا خلعتـا
وتشهد كل يوم دفـن خـل — كأنك لا تـراد بما شهدتـا (26)
ولم تخلـق لتعمرهـا ولكـن — لتعبرها ، فجـد لما خلقتـا
وان هدمت فزدها أنت هدمـا — وشيد (27) أمر دينك ما استطعتا
ولا تحزن على ما فـات منهـا — اذا ما أنت فى اخـراك فزتـا
فليس بنافع ما نلت فيهـا (28) — من الفاني اذا الباقـي حرمتـا
ولا تضحك مع السفهاء لهوا (29) — فانك سوف تبكي ان ضحكتـا
وكيف لك السرور وأنت فـان — ولا تدري اتفدي ام غلقتـا (30)
وسل من ربك التوفيق فيهـا — واخلص فى السـؤال اذا سألتـا
وناد اذا سجدت له اعترافـا — بما ناداه ذو النون بن متـى (31)
ولازم بابـه قرعـا عسـاه — سيفتح بابـه لـك ان قرعتـا
واكثر ذكره فى الارض دأبـا — لتذكر فى السمـاء اذا ذكرتـا
ولا تقل الصبا فيـه مجـال — وفكر كم صغير قـد دفنتـا

* * *

(25) فى د : لهـا
(26) فى ت : لما شهدتـا
(27) هذا ما فى ش وفى ت ود : وحصـن
(28) فى ش و ت : منهـا
(29) جهـلا
(30) غلقتا اى لم تفد وهذا البيت ساقط من ش
(31) هو يونس النبي عليه السلام وما ناداه به قوله لا اله الا أنت سبحانك اني كنت من الظالمين كما فى القرآن الكريم سورة الانبياء آية 86

وقل لي يا نصيح لأنت أولــــــى بنصحك لو بعقلك قد نظرتا (32)
تقطعني على التفريط لومــا (33) وبالتفريط دهرك قــد قطعتـــــا
وفى صفري تخوفني المنايـــــا وما تجري ببالك حين شختـــــا
وكنت مع الصبا اهـدي سبيـــلا فما لك بعد شيبك قد نكستـــــا
وها انا لم أخض بحر الخطايـــــا كما قد خضته حتـــى غرقتـــــا
ولم اشرب حميــا أم دفــر (34) وأنت شربتها حتى سكرتـــا (35)
ولم أحلــــل بواد فيـــه ظلـــــم وأنت حللت فيه وانهمكتـــا (36)
ولم أنشأ بعصر فيـــه نفـــع وانت نشأت فيه وما انتفعتـــــا
وقد صاحبت (37) أعلاما كبـــارا ولم أرك اقتديت بمن صحبتـــــا
وناداك الكتاب فلـــم تجبـــــه ونبهك (38) المشيب فما انتبهتـــا
ليقبح بالفتى فعــل التصابـــــي واقبح منه شيخ قـــد تفتـــــى
فأنت أحــق بالتفنيــــد منــــي ولو سكت المسيىء لما نطقتـــــا
ونفسك ذم لا تذمـــم سواهـــــا بعيب فهي أجـــدر من ذممتـــــا
فلو بكت الدمآعينـــاك خوفـــــا لذنبك لم اقل لك قــد أمنتـــــا
ومن لك بالامان وانـــت عبــــد أمرت فما اتمــرت ولا اطعتـــــا
ثقلـــت من الذنوب ولست تخشى بجهلك (39) أن تخف اذا وزنتـــا

---

(32) سقط هذا البيت وما بعده الى البيت 94 من ش
(33) فى ت : فتقطعنـــى
(34) ام دفر كنية الدنيا والدفــر النتــن
(35) فى ت : شكرتـــا
(36) فى د : وانهملتـــا
(37) فى ت : وكـــم صاحبـــت
(38) فى د : ونهنـــك
(39) فى د : بحلمـــك

وتشفق للمصر (40) على المعاصي — وترحمه ونفسك ما رحمتا
رجعت القهقرى وخبطت عشوآ — لعمرك لو وصلت لما رجعتا
ولو وافيت ربك دون ذنب — وناقشك الحساب اذن هلكتا
ولم يظلمك فى عمل ولكن — عسير ان تقوم بما حملتا
ولو قد جئت يوم الفصل فردا — وابصرت المنازل فيه شتى
لأعظمت الندامة فيه لهفا — على ما فى حياتك قد اضعتا
تفر من الهجير وتتقيه — فهلا عن جهنم قد فررتا
ولست تطيق أهونها عذابا — ولو كنت الحديد بها لذبتا
فلا تكذب فان الامر جد — وليس كما حسبت ولا ظننتا (41)

* * *

ابا بكر كشفت اقل عيبي — واكثره ومعظمه (42) سترتا
فقل ما شئت في من المخازي — وضاعفها فانك (43) قد صدقتا
ومهما عبتني فلفرط علمي — بباطنتي ، كأنك قد مدحتا
فلا ترض المعائب فهي عار — عظيم يورث الانسان مقتا
وتهوي بالوجيه من الثريا — وتبدله مكان الفوق تحتا
كما الطاعات تنعلك الدراري — وتجعلك القريب وان بعدتا
وتنشر عنك فى الدنيا جميلا — فتلقى (44) البر فيها حيث سرتا
وتمشي فى مناكبها كريما — وتجني الحمد مما قد غرستا

---

(40) فى د : للمضر
(41) فى ت : ولا زعمتا
(42) فى : وأعظمه
(43) فى ت : كانك
(44) فى ت : وتلقى

وانت الآن لم تعرف بعيـــب (45) ولا دنست ثوبك مـــذ نشاتـــا
ولا سابقت (46) في ميـــدان زور ولا اوضعت فيـه ولا خببتــــا
فان لم تنأ عنه نشبـت فيـــه ومن لك بالخلاص اذا نشبتـــا
ودنس ما تطهر منـــك حتــــى كانك قبـــل ذلـــك ما طهرتـــا
وصرت اسير ذنبك في وثـــاق وكيف لك الفكاك وقد اسرتـــا
وخف ابناء جنسك واخش منهـــم كما تخشى الضراغم والسبنتى (47)
وخالطهم وزايلهـــم حـــذارا (48) وكن كالسامري (49) اذا لمستـــا
وان جهلوا عليك فقل سلامـــا لعلك سوف تسلم ان فعلتـــا (50)
ومن لك بالسلامة في زمـــان ينال العصم (51) الا ان عصمتـــا
ولا تلبث بحي فيه ضيـــم (52) يميـــت القلـــب الا ان كبلتـــا
وغرب فالغريـــب له نفـــاق (53) وشرق ان بريقك قد شرقتـــا
فليس الزهد في الدنيا خمـــولا لأنت بها الاميـــر اذا زهدتـــا
ولو فوق الامير يكـــون فيهـــا سمو وافتخار (54) كنت انتـــا
فان فارقتهـــا وخرجت منهـــا الى دار السلام (55) فقد سلمتـــا

---

(45) في د : بعـــاب
(46) في ش : ولا سبقـــت
(47) السبنتـــى : النمـــر
(48) في ت : خدارا وهو تصحيـــف
(49) السامري : صاحب عجل بني اسرائيل ، عاقبه موسى عليه السلام بنهي الناس عن مقاربته ومماسته فالمراد اهرب منهم وهذا البيت والثلاثة بعده ساقطة من ش
(50) في د : ان عقلتـــا
(51) العصـــم : الجوارح والوعول المتمنعة في رؤوس الجبال
(52) في ت : ظلـــم
(53) نفـــاق اي رواج وقبـــول
(54) في د : تكون فيها سموا وافتخارا وهذا البيت ساقط من ش
(55) دار السلام : الجنة . وفي ش : اذا فارقتها وهي تنتهي عند هذا البيت

وان اكرمتها ونظـــرت منهـــــا　　باجلال فنفسك قـــد أهنتـــــا

* * *

جمعت لك النصائح فامتثلهـــــا　　حياتك فهي أفضل ما امتثلتـــــا

وطولت (56) العتاب وزدت فيـــه　　لأنك في البطالة قـــد أطلتـــــا

فلا تاخذ بتقصيري وسهـــــوي　　وخذ بوصيتي لك ان رشدتـــــا

وقد أردفتها سبعـــا حسانـــــا　　وكانت قبل ذا مائـــة وستـــــا

طنجـــة　　　　عبد الله كنون

---

(56) في د : وحولـــت .

من وحي

مهرجان ابن زيدون

مهداة إلى الأديب الوزير الأستاذ محمد اباحنيني

د. ناصر الدين الأسد

قال ابن زيدون قولا فى الهوى راقا : « انى ذكرتك بالزهراء مشتاقا »
وافتن فى وصفه زهراءه ومضى يبثها نفسه وجدا وأشواقا
أحيا لنا ذكرها شعرا نردده وكلما زاد عتقا زاد اشراقا
نشدو بأشعاره فيها وننشدها حتى أقمنا لهذا الشعر أسواقا

* * *

وضمنا فى رباط الفتح منه سنى فى مهرجان سما مجدا وأعراقا
ولم أزل أذكر الزهراء فى شغف والقلب يهفو الى الزهراء تواقا
حتى تمثلت الزهراء لى بشرا كأنها ملك . . . كالنور رقراقا
سبحان من أفرغ الالهام فى جسد وأحسن الخلق . . . جل الله خلاقا
وأشتق أنفاسها من روحه قبسا وأمتن . . حتى حباها السحر دفاقا
وزفها نسقا فى الخلق منفردا حورية كملت حسنا وأخلاقا

قد صاغت القدرة العليا محاسنها : جيدا وثغرا وأهدابا وأحداقا
ورقة وحنانا وارفا وسنى وعفة أورقت بالطهر ايراقا
أستغفر الله ، ليست هذه بشرا بل آية جعلت لله مصداقا

* * *

قد التقينا وما ندرى ، مصادفة ، والله يجمع مشتاقا ومشتاقا
ظللت فى حيرة منها تمزقنى وأحسب الأمر أحلاما وأشواقا
حتى احتضنت قوام البان أهصره وأجتنى من ثمار الروض أطباقا
ورحت أرشف شهدا من مراشفها وأستقى من رحيق الزهر ترياقا
فما انقضت ليلة ، ما كان أقصرها حتى أخذنا على القلبين ميثاقا
أن نحفظ العهد ما عشنا ونكتمه فلا نبوح به . . حرصا واشفاقا
فالحب سر رهيف الحس مترفه لم يحظ قط به الجافون أذواقا

* * *

يالهف قلبى كم طالت شدائده وناء بالعبء تنغيصا وارهاقا
أحلى مناه حياة لا قيود لها وأن يجوب بأرض الله آفاقا
وأن يكون له فى كل مرتحل حب مقيم يراه كلما اشتاقا

القاهرة د . ناصر الدين الأسد

سحر الألفاظ

الكلمة والكلام

محمد العربي الخطابي

للألفاظ سحر وأى سحر ، يعلــم ذلك الذين أوتــوا سر الكلمة ، وفتنوا بها منطوقة أو مكتوبة ، شعرا أو نثرا .

ليست الألفاظ مجرد مــواد معجمية جافــة أو مفردات لغوية جامدة ، بل انها سمات تحمل فى طياتها بذور التطور ، وتزخر بالايحاءات الفكرية والوجدانية .

وقد تعقبت طائفة من الألفاظ التى نستخدمها فى حياتنــا اليومية ، فتكشف لى من أبعادها ودلالاتها ما أدهشنى .

وسأقتصر فى هذا المقال على البحث فى لفظ « الكلمة » ، هذا الجذر الذى يتألف من كاف ولام وميم .

ولست أزعم أننى أقوم فى هذا ببحث علمى ، فليس هذا من شأنى ولا أنا من أهل التخصص فيه ، انما هى جولة أقوم بها ورائدى فى ذلك الذوق وحده وقصدى أن أوفق الى الكشف عن بعض مكامن الطاقة الفكرية والرمزية للكلمة .

* * *

تعلمنا ونحن أطفال فى المدارس أن للكلمة والكلام معنى اصطلاحيا يختص به علم النحو . وقد أدركنا فيما بعد أن « الكلمة » فيض من المعانى والدلالات والأفكار ، شأنها فى ذلك شأن « الكلام » .

وقد تكون الكلمة لفظا واحدا ، وهو ما عبر عنه ابن هشام فى (شرح شذور الذهب) بقوله : « الكلمة قول مفرد ، والمراد بالقول : اللفظ الدال على معنى ، والمراد بالمفرد : « ما لا يدل جزؤه على جزء معناه » ، فهى بهذا المعنى : « اللفظة الواحدة ». وتكون الكلمة جملة تامة ، كما فى قوله تعالى : « ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة . . . » فالمقصود هو الجملة التامة لا اللفظة المفردة ، وتكون أكثر من جملة ، فتسمى القصيدة من الشعر كلمة ، والخطبة كلمة .

وتجمع الكلمة على كلم وكلمات . والكلام اسم جنس ، وقد يكون جمعا لكلمة .

والكلام بمعناه الاصطلاحى هـو « ما تضمن كلمتين بالاسناد » ، كما جاء فى (التعريفات) للجرجانى ، ويوضح ابن هشام ذلك بقوله : « الكلام قول مفيد مقصود . . . أى الدال على معنى يحسن السكوت عليه » .

والكلم معناه الجرح ، يقال مكلوم الفؤاد أى مجروحه .

والكليم : الذى يكالمك أو الذى تكلمه ويكلمك . وكالمته :

حادثته . **والتكالم** أن يتكلم الواحد الى الآخر بعد هجر وقطيعة : « تكالم المتقاطعان ، أى كلم كل واحد منهما صاحبه ، ولا يقال : تكلما . ورجل **تكلام وتكلامة** : جيد الكلام فصيح .

ورجل **كلمانى** كثير الكلام .

* * *

يقابل لفظ « الكلمة » فى اللغة اللاتينية : verbum ومنه verbe بالفرنسية و verbo بالاسبانية . والمعنى الأصلى لهذه اللفظة هو حسب (المعجم الموسوعى الكبير

لاروس) : « الشيء المنطوق chose énoncée » ، وتـــدل هذه الكلمة فى جوهرها على الفعل والحركة ، رأى فيهــا النحويون القدامى العنصر الأساسى للشيء المنطــوق ؛ وهى تـــدل على « الفعل » كما تعنى « الكلمة » التى هى التعبير الشفوى عن الفكر . وفى هذا المعنى يقول الكاتب والمؤرخ الفرنسى جـــول ميشليه J. Michelet : « الانسان يسهر ، وكلمته تثـــير بـــلا انقطاع شعلة الحياة وتؤبدها » .

ونجد فى المعاجم الفرنسية لفظ Parole وأصله اللاتينى Parabola و Paraula ، ويقابلهـــا فى الاسبانيـــة Habla وفى الانجليزية Speech ولعل ترجمتها العربية « الكلام » .

يعرف قاموس روبير الكبير Grand Robert الكلام (parole) بأنه « ملكة التعبير ونقل الأفكار بواسطة نظـــام من الاصوات المنطوقة ، وهو أيضا ممارسة هذه الملكة » وفى هذا المعنى يقول موليير فى (مسرحية الزواج القسرى) « وهب الانسان الكلام ليعبر به عن فكره . ولما كانت الافكار هى صور الاشياء ، فان كلماتنا هى صور أفكارنا » .

وقد أدرك اللغويون العرب القدامى أن الكلام ليس مجرد أصوات ينطق بها أو رموز كتابية ترسم على الورق ، بل انها

كذلك المعانى التى تنطوى عليها الالفـــاظ . ويقـــول الراغـــب الاصفهانى فى (الغريب فى مفردات القرآن) : « فالكلام يقع على الالفاظ المنظومة وعلى المعانى التى تحتها مجموعة » .

يقـــول أصحاب الموسوعـــة الفلسفيـــة التى أشرف على وضعها م. روزنتال و ب. يودين (ترجمة سمير كرم) « ان الكلام هو نشاط الانسان الذى به يتواصل مع أقرانه من الناس، معبرا ومبلغا أفكاره بواسطة اللغـــة . والكلام هو استخـــدام اللـــغـــة » .

هذا ونجد فى اللغة الفرنسية كذلك لفظـــة Mot وأصلهـــا اللاتينى Mottum ومعناها الاصلى « الزمجرة grognement » . ويقابـــل Mot فى الانجليزية Word وفى الاسبانيـــة Palabra وتعرفها القواميس الفرنسية الحديثة بكونها صوتا أو مجموعة من الاصوات المنطوقـــة » يقـــول العالم اللغـــوى دارمستترير Darmesterer صاحب كتاب (حياة الالفاظ) بأنها « صوت أو مجموعة أصوات منطوقة يعيرها المتكلمون بها قيمة فكرية . . . » . وربما يكون المقابل العربى لـــ **Mot** هو « اللفظة » .

ونعود الى (الموسوعة الفلسفية) التى سبقـــت الاشارة اليها ، لنرى أن اصحابها يقسمون الكلام الى :

1) سلبى (حسى) مثــل الادراك الحسى وفهــم كــلام الآخرين ــ وهذا مــا عبر عنــه الراغب الاصفهانى بالكــلام « المدرك بحاسة السمع » كما سنرى .

2) ايجابى (فعلى) مثل النطق بأفكار ومشاعر ورغبات المــرء الخاصة . . . فى الحديث يسمع الانسان ويفهــم ، وحين يسمع الانسان ويفهم فانه يتكلم .

وفضــلا عن نوعى الكلام المعــروفين وهمــا الشفــوى والكتابى ، فهناك الكلام الداخلى وميزته الخاصة النطــق غير المسموع للاصوات .

ويرى بعض الفلاسفة المحدثين أن الكــلام الباطنى (أو الداخلى) هو تتابع صور سمعية تؤلف حياة الضمير .

معانــى الكــلام

ذهب ابن هشام الى أن الكلام ، من حيث معناه اللغوى ، يطلق على ثلاثة أمور :

أولها ، الحدث الذى هو التكليم ، وهو فى هــذه الحالــة يعمل عمل الافعال :

قالوا : كلامـك هنـدا وهى مصغيـة
يشفيك ؟ قلت صحيح ذاك لو كانا

وفى هذا يقول أبو هلال العسكرى فى كتابـه (الفروق فى اللغة) : « الفرق بين الكلام والتكليم هو أن التكليم تعليـق الكلام بالمخاطب فهو أخص من الكلام » .

ثانيها : المعنى الذى يقوم فى النفس ، فيسمى ذلك الذى تخيلته كلاما ، قال الاخطل :

لا يعجـبـنـك من خطيـب خطبـة
حتى يـكـون مـع الكـلام أصـيـلا

ان الكـلام لفى الـفـؤاد ، وانـمـا
جعـل اللسـان على الفـؤاد دلـيـلا

ولعل الكلام بهذا المعنى هو ما عبرت عنـه (الموسوعـة الفلسفية) التى سبق ذكرها ، **بالكلام الايجـابى** .

والثالث : الالفاظ المنطوقة والمكتوبة والرموز ، أو كمـا قال أبو هشام : ما تحصل به الفائدة سواء كان لفظا أو خطـا أو اشارة أو ما نطق به لسان الحال . والدليل على ذلك فى الخط :

« القلم أحد اللسانين » وتسميتهم ما بين دفتى المصحف (كلام الله) . والدليل عليه فى الاشارة قوله تعالى : « آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا » (آل عمران ، 41) .

والدليل عليه فيما نطق بـــه لسان الحال قـــول نصيب فى مدح سليمان بن عبد الملك :

فعاجـــوا فأثنـــوا بالذى أنـــت أهلـــه

ولـــو سكتـــوا أثنـــت عليـــك الحقائب

فاذا كانت هذه هى معانى الكلام ، فى اللغة ، فى نظر ابن هشام ، فان الراغب الاصفهانى يـــرى فى كتابـــه (الغريـــب فى مفردات القرآن) أن الكلم التأثير بحاسة السمـــع ، والكلـــم بحاسة البصر ، وكلمته جرحته جراحة بان تأثيرها ، ولاجتماعهما فى ذلك قال الشاعر :

والكلم الاصيل كأرعب الكلم

« الكلم الاول جمع كلمـــة ، والثـــانى جراحات ، والارعب : الاوســـــع » .

فاذا اعتبرنا أن الاشارة نوع من الكلام ، كما سبق ذكره ، فان ادراك الكلام بهذا المعنى لا يكون بحاسة السمع ، بل بالبصر واستعمال الذهن لفهم المعنى الاصطلاحى للاشارات .

الكلام والقول

يعرف ابن سيده الكلام هذا التعريف المقتضب : « الكلام القول » وهو تعريف يحتاج الى تمحيص وايضاح ، لذلك فان ابن منظور يعلق فى (لسان العرب) على هذا التعريف بقوله : « وقيل الكلام ما كان مكتفيا بنفسه وهو الجملة ، والقول ما لم يكن مكتفيا بنفسه وهو الجزء من الجملة » .

ويذهب الراغب الاصفهانى الى أن الكلام عند كثير من المتكلمين لا يقع الا على الجملة المركبة المفيدة وهو أخص من القول ، فان القول يقع عندهم على المفردات ، والكلمة تقع عندهم على كل واحد من الانواع الثلاثة ، (الاسم والفعل والاداة) ، وقد قيل بخلاف ذلك .

وقال سيبويه — فيما نقله عنه ابن منظور — : « اعلم أن قلت انما وقعت فى الكلام على أن يحكى بها ما كان كلاما لا قولا . ومن أدل الدليل على الفرق بين الكلام والقول اجماع

الناس على أن يقولوا : القرآن كلام الله ولا يقولوا : القرآن قول الله » فكلام الله اذن أعم وأوسع . وقوله تعالى جـزء من كـلامـه .

وعندى أن الكلام أعم من القول ، ذلك أننا حينما نقول « كلام العرب » فاننا نقصد ، ولا شك ، تراثهم اللغوى كله . جاء فى (المزهر) للسيوطى أن بعض الفقهاء ، قـال : « كلام العرب لا يحيط به الا نبى » والمعنى هنا لسان العرب وتراثهم الادبى . وفى هذا المعنى قال الامام الشافعى : « لسان العرب أوسع الالسنة مذهبا ، وأكثرها ألفاظا ، ولا نعلم أن يحيـط بجميع علمه انسان غير نبى » .

وكلام العرب هو شعرهم ونثرهم ــ قـال السيوطى : « ذهب علماؤنا أو أكثرهم الى أن الذى انتهى الينـا من كلام العرب هو الاقل . ولو جاءنا جميع ما قالوه لجاءنا شعر كثير وكلام كثير » ويقتضى الحال أن يكون المقصود بهذا « الكلام الكثير » هو النـثـر .

أما القول فهو مجرد حكاية جزء من الكلام . ومن قبيل ذلك ــ مثلا ــ قول الفرزدق :

والشيب ينـــهض فى الشباب كأنـــه

لـــيـــل يصيـــح بجانبـــيــه نهــار

ويعنى بالليــل هنا فـــرخ الكروان أو الحبارى ، وبالنهار فرخ القطاة . فهذا « قـــول » نستشهــد به من « كـــلام » الفرزدق ، أى ديوانه الشعرى كله .

ان « القول » شيء تحده ، فى حيـــز معلوم ، ألفـــاظ أو عبارات محدودة نحو قولك ــ من كلام على بـــن أبى طالب : « الناس أبناء الدنيا ولا يلام الرجل على حب أمه » . ان كلام على بن أبي طالب كثير فيه خطبه ورسائله ومواعظه وما تضمنه ذلك من حكم . والحكمة التى سقناها ما هى الا قول مستخلص من كلام على بن أبى طالب .

والكلام لا يحده ، فى الغالب ، حيز معلوم ، فهو بذلـــــك شامل مطلق . مثال ذلك قول كثير :

لـــو يسمعـــون كما سمعت **كلامهــا**

خـــروا لعـــزة ركـــعـــا وســـجـــودا

فكلام عزة هنا مطلق ، أى كل كلام يصدر عنها باللفظ أو بالاشارة والايماءة . ومن قبيل ذلك ، أيضـــا ، قـــول ابن أبى ربـــيـــعـــة :

أشــارت بطــرف العين خيفـــة أهلهــا

اشـــارة مـــحـــزون ولـــم تـــتكـــلـــم

فأيقنـــت أن الطرف قـــد قال مرحبـــا

وأهـــلا وسهـــلا بالحبـــيـــب المتـــيـــم

انها تكلمت باشارة من لحظها ولم تقل شيئا باللفظ والنطق.

ومن الطريـــف فى هذا البـــاب ، ما أورده ابن حـــزم فى (طوق الحمامة) من أنواع الاشارة بلحـــظ العين ومعانيـــهـــا المختلفـــة ، اذ قـــال :

« فالاشارة بمؤخر العين الواحدة نهى عن الامر ، وتفتيرها اعلام بالقبول وادامة نظرها دليـــل على التوجـــع والاســـف ، وكسر نظرها آية الفرح .

والاشارة الى اطباقها دليل على التهديد ، وقلب الحدقـــة الى جهة ما ثم صرفها بسرعة تنبيـــه على مشار اليه .

والاشارة الخفيـــة بمؤخر العينين كلتاهما سؤال ، وقلب الحدقة من وسط العين الى الموق بسرعة شاهد المنـــع ، وترعيد الحدقتين من وسط العينين نهى عام ، وسائـــر ذلـــك لا يـــدرك الا بالمشـاهـــدة » .

فهذا كله من قبيل الكلام بالاشارة ، تؤديه العين التى هى – كما قال ابن حزم – « رائد النفس الصادق ، ودليلها الهادى ومرآتها المجلوة التى بها تقف على الحقائق وتميز الصفات وتفهم المحسوسات » .

واذا كان القول لا يصدر الا عن العاقل ، فان الكلام قد يكون صامتا وقد نتخيل أنه يصدر عن غير العاقل ، من ذلك قول المعرى فى (اللزوميات) :

أراك حسبت النجم ليس بواعظ
لبيبا وخلت البدر لا يتكلم

وقوله :

وعظ الزمان فما فهمت عظاته
وكأنه فى صمته لا يتكلم

والناس شتى من حليم مظهر
جهلا يعز وجاهل يتحلم

والقول يسمع بالأذن حينما ينطق به اللسان ، ويقرأ بالعين المبصرة حين يجرى به القلم ، أما الكلام فانه ، زيادة

على اشتراكه مع القول فى الخاصيتين المذكورتين فانه ينفـــرد بخاصية ثالثة من حيث انه قد يكون كلاما باطنيـــا كما سبـــق أن بـــيـــنـــاه .

الكـــلام هو الاســـلوب

يرى ابن منظور « أن الكلمة الواحدة لا تسجى ولا تحزن ولا تتملك قلب السامع ، وانما ذلك فيما طال من الكلام فأمتع سامعيه لعذوبة مستمعه ورقة حواشيه » ، ونلاحظ أن الكلام بهذا المعنى يدخل فى باب الادب من حيث انه يصـــاغ فى قالب جمالى . والواقـــع أن هذا الوصف لا ينطبـــق على كل كلام ، فمنه ما هو بـــذىء أو متهالك ، ومنه مـــا لا يطـــرب السامع ولا يسجيه ، ومنه ما هو حوشى أى وحشى وغريب ، ومنـــه الواضح أى « الذى يفهمه كل سامع عرف ظاهر كلام العرب » ، كما قال السيوطى فى (المزهر) .

ومن الكلام المشكل « أى الذى يأتيه الاشكال من وجوه ، منها غرابة لفظة » كما قال أبو فراس فى (فقه اللغـــة) ونقله عنه السيوطى فى (المزهر) .

والكلمة ، بالافراد ، قد تكون طيبة أو خبـــيثة . جاء فى التنزيل الكريم « ألم تر كيف ضرب الله مثلاكلمة طيبة كشجرة

طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلهـا كل حين باذن ربها . . . ومثل كلمة خبيـثة كشجرة خبيثة اجتـثت من فوق الارض ما لها من قرار » (ابراهيم ، 24 ، 25 ، 26) .

وسميت القصيدة من الشعر « كلمة » لأنها ــ كما قال أبو هلال العسكرى فى كتابه (الفروق فى اللغة) ــ : « واحدة من جملة القصائد » ، والكلمة هى الخطبة ، يقال ألقى فـلان كلمة ، أى خطابا .

ويقال فلان « نافذ الكلمة » ، أى أنه ذو نفوذ وسطوة .

وتأخذ الكلمة ، فى علوم البلاغة أبعـادا مختلفة . فتكون فصيحة حيـنما تكون خالصة من تنـافر الحروف ، والغرابة ، ومخالفة القياس اللغوى .

ويكون الكلام فصيحا اذا كان خالصا من ضعف التأليف وتنافر الكلمات والتعقيد . وقد أفاض القول فى هذا علماء البلاغة من أمثال الخطيب القزيونى فى (الايضاح) ، وقدموا بين يدى ذلك شروحا وشواهد كثيرة يمكن الرجوع اليها . الا أنـه من المناسب فى هذا المقام ــ ونحن نتحدث عن الكلمـة والكلام ــ أن نبين الفرق بين الفصاحة والبلاغة كما أوضحه أبـو هلال العسكرى فى (كتاب الصناعتين) بشكل قد يلائم الذوق الادبى الحديث . قال : « . . الفصاحة تمام آلـة البيان فهى مقصورة على اللفظ ، لأن الآلة تتعلق باللفظ دون المعنى ، والبلاغة انما

هى انهاء المعنى الى القلب فكأنها مقصورة على المعنى » .

ويكون الكلام صناعة أو صنعة حينما يستعمله صائغوه ، كل حسب موهبته ، وفى ذلك يقول أبو هلال العسكرى : « والناس فى صناعة الكلام على طبقات : منهم من اذا حاور وناظر أبلغ وأجاد ، واذا كتب أحسن ، واذا حاور وأملى أساء . ومنهم من يحسن فى جميع هذه الحالات ، ومنهم من يسىء فيها كلها » فاللهم لا تجعلنا من هذه الزمرة الأخيرة !

ومن الكلام ما هو فضول ، وفضول الكلام الزائد منه والذى لا فائدة فيه ، ومثله الحشو .

وقد تتسم الكلمة بالجمال والصوت معاً ، أو بأحدهما دون الآخر ، وقد تخلو من الوصفين . قال حكيم الصين لاوتسو : « رب كلمة جميلة وهى خالية من الصدق ، ورب كلمة صادقة لا جمال فيها » .

اللغة والكلام

أن حدود الاختلاف فى المعنى بين « اللغة » و « الكلام » ضيقة جدا قد تسبب بعض اللبس ، وقد لاحظنا أن عددا من فقهاء اللغة العربية الأقدمين ربما استعملوا لفظ « الكلام » وأرادوا به اللغة . وقد سمى ابن هشام كتابه المعروف « شرح شذور الذهب فى معرفة **كلام العرب** » ، وهو يقصد بكلام

العرب لغتهم ولا شك ، مع ما تتضمنه هذه اللغة من شعر ونثر وحكم وأمثال . وهذا التضمين هو الذى يضع الحدود بين « الكلام » و « اللغة » بالمفهوم الحديث .

يقول ابن جنى فى الخصائص : « حد اللغة أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » .

ويعرف (لا روس القرن العشرين) اللغة language ، بأنها « كل وسيلة من وسائل التعبير عن الافكار » ويعرفها جسبرسين Jespersen فى (الموسوعة البريطانية) بقوله : « انها — أى اللغة — كل وسيلة من وسائل الاتصال (أو التواصل) بين الناس الكائنات الحية » أما معجم لالاند (Lalande, Vocabulaire technique et critique de la philosophie) فانه يقول ، ان اللغة هى كل نظام من الرموز يمكن استخدامه كوسيلة للاتصال (أو التواصل) .

ويمكن أن تشمل هذه التعريفات — زيادة على الحروف التى تستخدم فى الكتابة — عديدا من أنواع الرموز والاشارات التى تستعملها فئات من الناس فى أغراض خاصة ، من ذلك ، مثلا طريقة تعليم الصم والعمى ، ولغة الاشارة لبعض قبائل الهنود الحمر ، وطريقة (مورس) .

واذا كان ابن جنى يعرف اللغة بأنها « أصوات » ، كما سبق ان قلنا ، فان ابن الحاجب يعرفها فى مختصره بقوله : « اللغة كل لفظ وضع لمعنى » بينما يقول الأسنوى فى شرح منهاج الاصول : « اللغات عبارة عن الالفاظ الموضوعة للمعانى » .

ويحدث هاذان التعريفان اللذان نقلهما السيوطى فى (المزهر) بعض الالتباس فى فهمنا ، فاذا اعتبرنا أن المقصود بالمعانى هى الافكار ، فان ما قاله ابن الحاجب والاسنوى يمكن أن يكون تعريفا للكلام لا للغة ، وقد سبق أن استشهدنا بما قاله الراغب الاصفهانى وبعض المعاجم الغربية فى تعريف الكلام.

على كل حال فاننى أفضل ما قاله ابن جنى فى تعريف اللغة ، ولو أنه لم يوضح أن اللغة تعتبر وسيلة للتواصل بين الناس . فاقتصر على القول بأنها « أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم » ، والواقع أن التواصل موجود ، ذلك لان التعبير عن الاغراض لا يكون الا بين الفرد والفرد داخل الجماعة .

وما دمنا بصدد الخوض فى مسألة الاختلاف الموجود فى المعنى بين « اللغة » و « الكلام » فاننى لم أجد فى ذلك خيرا مما قاله الاستاذ العالم الصديق الدكتور تمام حسان فى كتابه

المبتكر (اللغة العربية : معناها ومبناها) : « فالكلام عمل واللغة حدود هذا العمل ، والكلام سلوك واللغة معايير هذا السلوك ، والكلام نشاط واللغة قواعد هذا النشاط ، والكلام حركة واللغة نظام هذه الحركة ، والكلام يحس بالسمع نطقا وبالبصر كتابة واللغة تفهم بالتأمل فى الكلام ، فالذى تقوله أو تكتبه كلام ، والذى نقول بحسبه ونكتب بحسبه هو اللغة فالكلام هو المنطوق وهو المكتوب واللغة هى الموصوفة فى كتب القواعد وفقه اللغة والمعجم ونحوها » .

وأود أن أضيف بأن الكلام نشاط انسانى فردى فى جوهره ، واللغة ظاهرة اجتماعية .

علم معانى الكلام

الكلمات تتطور ، من حيث المعنى والمبنى ، وذلك تبعا لتطور الزمان والناس الذين يستعملون الكلمات لأغراضهم اليومية .

فمثلا لم يكن أحد فى عصر المأمون ــ وهو من العصور الاسلامية الزاهرة ــ يتصور أن كلمة « صوت » يمكن أن يكون لها فى يوم من الأيام المعنى الذى يؤديه اليوم فى الأنظمة

الانتخابية حينما يقال أدلى ناخب أو عضو **بصوته** . وكذلك القول بالنسبة لكلمات من أمثال الطيار ، والخيل (قوة المحرك الآلى) والعقدة ، والتصميم (المخطط) ، والصاروخ ، والبرق (التلغراف) ، والتيار (الكهربائى) ، والاشتراكية ، والتضخم (المالى) ، والاعلام . . .

ليس هذا فقط ، بل حتى الكلمات التى نستعملها نحن قد يكون لها معان مختلفة بحسب ما يقصده كل منا . فكلمة « القانون » ـ مثلا ، قد تعنى ـ حسب المقصود ـ الآلة الموسيقية المعروفة ، أو الاحكام التشريعية الاساسية ـ وقل مثل ذلك فى كلمات كالحساب ، والجدول ، واللسان ، والفقرة ، والنظام ، والعهد ، والخاتم ، والورقة ، والعين .

ولدراسة معنى الكلمات وتطورها دراسة عملية نشأت فى العصر الحديث صناعة لغوية جديدة أطلق عليها (السمانتيات (Sémantique) أو علم معانى الكلمات . وهذا العلم يعنى عناية خاصة لا بالكلمات نفسها ، بل بتفاعل معانى الكلمات أو بتجاوب الانسان مع الرموز والاشارات والانظمة الرمزية ، بما فى ذلك اللغة كما قال العالم اللغوى س.ا. هاياكاوا ، الكندى الاصل ،

فى دراسة له نشرت فى كتـــاب (مغامرات العقـــل) ، ترجمـــة الدكتور محمد فيـــاض .

ويضيف هاياكاوا قولـــه : « من الافكار الاساسية ، فى علم تطور المعنى العام ، ان معنى الكلمـــات ــ أو غيرهـــا من الرموز ــ لا يكون فى الكلمات نفسها ، وانما يكون فى تجاوبنا نحن مع معنى هذه الكلمات » .

الفكرة قبل الكلمـــة

نقرأ فى كتاب (أصل التفاوت بين الناس) لجـــان جاك روسو : « اذا كان الناس فى حاجة الى الكلمة ليتعلموا التفكير فانهم لأشد حاجة الى تعلم التفكير كى يجدوا فن الكلام » .

وقد اهتدى الى نظرية مشابهة لهذه فلاسفة سبقـــــوا روسو بعدة أحقاب نذكر من بينهم ابن طفيل الطبيب الفيلسوف الاندلسى فى قصته الطريفة (حى بن يقظان) .

يحكى لنا ابن طفيل عن أول لقاء تم بين آسال وحى ابن

يقظان (*) ، فى الجزيرة الخالية التى ولد فيها هذا وكبر وكانت قد أرضعته ظبية وهو طفل ، وقد قصد آسال هذه الجزيرة لينعزل فيها عن الناس ، بعد أن غادر بلاده .

يقول ابن طفيل عن ذلك اللقاء :

« ولما رأى آسال (ان حى بن يقظان) لا يتكلم ، أمن من غوائله على دينه ورجا أن يعلمه الكلام والعلم والدين . . . فشرع آسال فى تعليمه الكلام أولا : بأن يشير له الى أعيان الموجودات ، وينطق بأسمائها ، ويكرر ذلك عليه ، ويحمله على النطق فينطق بها مقترنا بالاشارة ، حتى علمه الاسماء كلها ، ودربه قليلا قليلا حتى تكلم فى أقرب مدة . فجعل آسال يسأله عن شأنه ، ومن أين صار الى تلك الجزيرة ، فأعلمه حى بن يقظان أنه لا يدرى لنفسه ابتداء ولا أبا ولا أما أكثر من الظبية التى ربته . ووصف له شأنه . **وكيف ترقى بالمعرفة حتى انتهى الى درجة الوصول »** .

(*) الاشخاص الذين تدور حولهم حوادث القصة ثلاثة : **حى بن يقظان** ويرمز الى الفطرة البشرية السليمة والعقل النير القادر على الاهتداء الى الحقيقة . **آسال** ويرمز الى الانسان المستنير المتعلم الذى يحاول — وهو يعيش فى مجتمع متمدن — التوفيق بين النصوص والعقل ، **سلامان** ، الذى يرمز الى الاتباع والتمسك بظاهرة النص فى تلمس الحق وادراكه .

لقد تعلم حي بن يقظان التفكير حينما لم يكن في حاجة الى الكلام اذ كان يعيش وحده في جزيرة منعزلة ، وتوصل الى معرفة الله بالتفكير والتدبر ، وبلغ في ذلك درجة الوصول ، أي المعرفة المؤدية الى الاتصال بالذات الالهية .

ولم يصبح حي بن يقظان في حاجة الى الكلام الا حينما لقي مخلوقا من جنسه ، ودعته الضرورة الى التواصل عن طريق الاشارة أولا — وهو نوع من الكلام — ثم الالفاظ التى تعلمها من آسال ثانيا .

فالكلام ضرورة يفرضها فى الغالب التقاء البشر ورغبتهم فى التواصل والتعايش ، أما التفكير فهبة من الله خص بها بنى آدم ، وميزهم بها على سائر مخلوقاته الحية .

يروى السيوطى فى (المزهر) عن الامام فخر الدين الرازي واتباعه هذا القول : « السبب فى وضع الالفاظ أن الانسان الواحد وحده لا يستقل بجميع حاجاته بل لا بد من التعاون ، ولا تعاون الا بالتعارف ، ولا تعارف الا بأسباب كحركات أو اشارات أو نقوش أو ألفاظ توضع بازاء المقاصد ، وأيسرها وأفيدها وأعمها الالفاظ » .

لغة بابل

جاء فى سفر التكوين :

« كان الناس يستعملون لغة واحدة وكلمات واحدة

قال يهوه :

« هيا بنا ! لنهبط ! ولنخلط هناك كلامهم حتى لا يفهم بعضهم بعضا .

ومن هناك فرقهم يهوه شيعا فى جميع أرجاء الارض ، فكفوا عن بناء المدينة .

وهكذا سميت بابل ، لأن يهوه خلط فيها كلام جميع سكان الارض ، ومنها فرقهم شيعا فى كل أرجاء المعمور » .

هذه فقرات من قصة شتات أهل بابل كما وردت فى سفر التكوين .

لم يكن لهؤلاء الناس ــ الذين شتتهم (يهوه) أى ذنب فى الظاهر ، فهم انما كانوا يريدون أن يبنوا مدينتهم وأن يستقروا فيها تجمعهم لغة واحدة . ربما قصد (يهوه) الى منع سكان بابل من أن يطغوا ويتجبروا اذا قامت لهم حضارة وعمران ، وجمعتهم لغة واحدة .

وقد جاء الشتات كما يقصه (سفـــر التكوين) فتعددت الالسن واللغات ، فكانت تلك لعنة (بابل) التى أصبحت رمزا لاختلاف كلام الناس وتفرقهم شعوبا وقبائل .

ومن الطريف فى هذا الباب ما رواه السيوطى فى (المزهر) قـــــال :

« أخرج ابن عساكر فى التاريخ بسند رواه عن أســـد بن مالك موقوفا ، قال : لما حشر الله الخلائق الى بابل بعث اليهم ريحا ، فاجتمعوا ينظرون لماذا حشروا له ، فنادى مناد : من جعل المغرب عن يمينه والمشرق عن يساره واقتصـــد البيــت الحرام بوجهه فله كلام أهل السماء . فقام يعرب بن قحطان فقيل له : يا يعرب بن قحطان بن هود ، أنت هـــو ؟ فكان أول من تكلم بالعربية المبينة ، فلم يزل المنادى ينادى من فعل كذا وكذا فله كذا وكذا حتى افترقوا على اثنين وسبعين لسانـــا ، وانقطع الصوت وتبلبلت الالسن فسميت بابل . وكان اللسان يومئذ بابليـــا » .

وصدق الله عز وجل فى قوله : « وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم » .

كلمـــة اللـــه

يخبرنا القرآن الكريم أن الله تعالى علـــم آدم الاسماء كلها ، أى علمه الكلام ، ومنه كلمة التوحيد .

ولمـــا كانت العداوة هى الاصل فى الحيـــاة على الارض : « قلنـــا اهبطوا منها بعضكم لبعض عـــدو ، ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين » (البقرة ، 36) ، فان كلمـــة الله ، الدالة على وحدانيته والمنعمة بغفرانـــه ، كانت الطريـــق الى الهداية والطمأنينة والنظام : « فتلقى آدم من ربـــه كلمـــات فتاب عليه » (البقرة 37) « فاما يأتيكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون » (البقرة 38) وكانت هذه الكلمة ميراثا يتركه السلف للخلف من أنبياء الله وأصفيائه وأوليائه : « واذ قال ابراهيم لابيـــه وقومه اننى بـــراء ممـــا تعبدون ، الا الذى فطرنى فانه سيهدين ، وجعلها **كلمة** باقيـــة فى عقبه لعلهم يرجعون » (الزخرف ، 27) والمقصود هنا كلمة التوحيد . وقال تعالى : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين ، والزمهم كلمة التقوى ، وكانوا أحـــق بهـــا وأهلهـــا (الفتح ، 26) فهذه هى الهداية التى يمن الله بها على عباده المؤمنين المتقين . ومن معانى « الكلمة » فى هذه الآية الاخيرة الثبات والوفاء بالعهد .

وتحلق كلمة الله فى أجواء نورانية تنير السبيل لانبيائه وأصفيائه ، وذلك فى مثل قوله تعالى مخاطبا نبيه زكرياء : « فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب : ان الله يبشرك بيحيى مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين » (آل عمران ، 39) .

وتصدر عن الله كلمة تتجسم فى صورة نبى من أنبيائه الطاهرين : « اذ قالت الملائكة : ان الله يبشرك **بكلمة منه** اسمه المسيح عيسى بن مريم » (آل عمران ، 45) .

وتأتى الكلمة بمعنى الحكمة الالهية والمشيئة الربانية التى تسبق الحوادث والظواهر والموجودات : « وما كان الناس الا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم » (يونس ، 19) « وتمت **كلمة** ربك صدقا وعدلا ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم » (الانعام ، 115) قال الراغب الاصفهانى فى (الغريب فى مفردات القرآن) « ان الكلمة فى هذه الآية معناها القضية فكل قضية تسمى كلمة سواء كان ذلك مقالا أو فعالا » . وانا أرى أن الكلمة هنا تعنى الحكم والقضية فى آن الوقت ، وحكم الله صادق وعادل لا يقبل التبديل ولا التحريف .

وجاءت الكلمة بمعنى الحكم أيضا **فى** قوله تعالى « كذلك حقت **كلمـــة** ربك على الذين فسقوا أنهم لا يؤمنون (يونس ، 96) وفى قوله تعالى : ان الذين حقت عليهم **كلمـــة** ربـــك لا يؤمنون (يونس ، 96) .

وكلمة الله لطفه وجزاؤه العادل : « وتمت كلمة ربـــك الحسنى على بنى اسرائيل بما صبروا » (الاعراف ، 137) .
وكلمته ارادته تعالى ومشيئته التى تعلو على كل شىء : « **وكلمة** الله هى العليا ، والله عزيز حكيم » (التوبة ، 41) .

ومن معانى الكلمة **فى** القرآن الكريم « الوعد » كما جاء فى قوله تعالى : « أفمن حق عليه **كلمـــة** العذاب أفأنت تنقذ من النار (الزمر ، 19) والكلمة تقابل الكذب والفحش كما يفهم من هذه الآية الكريمة : « كبرت **كلمـــــة** تخرج من أفواههم ان يقولون الا كذبا (الكهف ، 51) وتؤدى معنى الوعد الكاذب فى قول الله عز وجل : « حتى اذا حضر أحدهم الموت قال رب ارجعون لعلى أعمل صالحا فيما تركت . كلا ، انها **كلمـــــــة** هو قائلها » (المؤمنون ، 100) .

وجاءت بمعنى الحكم الفصل فى قوله تعالى : « أم لهم من الدين ما لم يأذن به الله ولولا **كـلـمــــــة** الفصـــل لقضى

بينهم » (الشورى ، 21) وفى معناها : « ولـولا **كلمـــة** سبقت من ربك الى أجل مسمى لقضى بينهم » (طه ، 129) .

وفى القرآن الكريم آيـات ورد فيهـا ذكـر الكـلام ، والكلمات ، والكلم (جمعا) والتكلم (فى صيغة الفعل) .

قال تعالى : « يريدون أن يبدلوا **كـــلام** الله ، قل لن تتبعونا ، كذلكم قال الله من قبل » (الفتح ، 15) ولعل المراد بالكلام هنا أوامر الله . وقال تعالى « فتلقى آدم من ربـــه **كلمـــات** فتاب عليه » (البقرة ، 37) . ويفهم من ظاهر الآية أن الله تعالى غفر لادم خطيئته بعد استغفاره .

وكلمات الله أوامره ونواهيه وحكمته البالغة وآيـاته فى الاكوان والخلائق وعلمه بخفايا الأمور وظواهرها . وعلى ذلك تدل عدد من الآيات الكريمة التى نذكر منها :

« قل لو كان البحر مدادا **لكلـمــات** ربى لنفد البحر قبل أن تنفد كلمات ربى » (الكهف ، 109) ، « فآمنوا بالله ورسوله النبـى الأمى الذى يؤمـن بالله **وكلمـاتـــه** » (الاعراف ، 158) « ويريد الله أن يحق الحق **بكلمـــاتـه** (الانفـال ، 7) .

وجاء « الكلم » بمعنى القرآن الكريم فى قولـــه تعالى : « يحرفون **الكلـــــــم** عن مواضعه » (النساء 42 ـ المائدة 12) .

كما جاء بمعنى الدعاء الذى يتوجه به المؤمن الى ربـــه ، وذلك فى قوله تعالى : « اليه يصعــد **الــكـلـــــــم** الطيـب ، والعمل الصالح يرفعه » (فاطر 10) .

وفى القرآن الكريم آيات ورد فيها فعل « التكلم » نذكر منها قوله تعالى :

« اليوم نختم على أفواههم ، **وتكلمـــنــا** أيديهم وتشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون » (يس ، 65) .

ويعلم الله كيف تتكلم الايدى شاهدة بأعمال اصحابها ، ان خيرا أو شرا .

« **وكلـــــم** الله موسى **تكليمــــا** » **(النساء ، 164)**
أى أسمعه كلاماً من غير وساطة ملك ، ولا يمكن لعقولنــا أن تتصور كيف تم هذا التكليم الكريم .

وقد سبــق أن ذكرت فى معرض التحــدث عن الكــلام بالاشارة قوله تعالى : « آيتك ألا **تكلــــم** الناس ثلاثة أيام الا رمزا » (آل عمران ، 41) .

وقال تعالى : « واذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة **تكلمهـــــــــــم** » (النمل ، 82) أى تخاطبهم ، وقيل : تجرحهم من الكلم أى الجرح . ولعل المخاطبة أقرب الى المعنى المقصود اذا نظرنا الى الجزء الاخير من الآية « أن الناس كانوا بآياتنا يوقنون » وقال عز وجل : « وما كان لبشر أن **يكلمـــــــــــه** الله الا وحيا أو من وراء حجاب » (الشورى ، 51) والمعروف أن الله قد خص نبيه موسى بأن كلمه تكليما .

وفى اللاهوت المسيحى المستمـد من تعاليـم يوحنـا أن الكلمة ــ Verbun باللاتينية ــ هو الشخص أو الاقنوم الثانى الذى يجسده المسيـح عيسى ضمن الثالـوث المعروف عنـد المسيحيين الكاثوليك ــ جاء فى انجيل يوحنـا « فى البـدء كان الكلمة ، والكلمة كان عند الله ، وكان الكلمة الله » (الاصحاح الاول) . ولا حاجة الى القول بأن عقيـدة التوحيد الاسلامية تنكر التثليث وتاليه عيسى .

وقد أخذت التعاليم المسيحية الحديثة المستمدة من (سان توما) بتفسير آخر لكلمة الله لخصه (المعجم الموسوعى الكبير لاروس) كما يلى :

« أول ما صدر عن الله : الكلمة التى هى كون (أونولد) حقيقى ، وتصدر الكلمة بحسب معرفة الله لجميع الاشياء » .

يقول السيد الشريف الجرجانى فى (التعريفات) « وكلمة الحضرة اشارة الى قوله : كن ! فهى صورة الارادة الكلية » .

ونقل الدكتور صليبا فى معجمه الفلسفى عن الفيلسوف الفرنسى (مالبرانش N. de Malebranche) قوله : « الكلمة الالهية من جهة ما هى عقل كلى تعقل المعانى الاولية لجميع الكائنات المخلوقة أو الممكنة » وقوله : « وجميع العقول ليس لها الا معلم واحد ، وهو الكلمة الالهية » . (انظر : أحاديث حول الميتافيزقا والدين ، Entretiens sur la métaphysique et la religion)

علم الكلام

يمكننا أن نقول بأن « الكلام » هو علم الجدل فى العقيدة على النهج الاسلامى ، قال الشريف الجرجانى فى (التعريفات) : « الكلام علم يبحث فى ذات الله تعالى وصفاته وأحوال الممكنات من المبدأ والمعاد على قانون الاسلام . . . وقيل : الكلام هو العلم بالقواعد الشرعية الاعتقادية المكتسبة عن الادلة » وواضح أن « الادلة » هذه هى التى تجعل من « الكلام » علما قائما على الجدل .

واذا كان المعنى الأصلى للجدل فى لغة العرب هو « اللدد فى الخصومة والقدرة عليها » ، فان معناه عند الفلاسفة « هو القياس المؤلف من المشهورات والمسلمات . والغرض منه الزام الخصم واقحام من هو قاصر عن ادراك مقدمات البرهان » — كما فى (التعريفات) للجرجانى ، والمقصود به تصحيح كلام الخصم ، « وهو الخصومة فى الحقيقة » حسب نفس المصدر . وهو بهذا المعنى يقترب الى حد ما من لفظ Dialectique الفرنسى ، وذلك اذا جردناه من التعقيدات التى يضيفها اليه أصحاب المذهب الذين ينعتونه بالجدل المادى .

فالجدل اذن نوع من « الكلام » القائم على الحجة والبرهان ، بل حتى على اللدد والسفسطة .

يقول الامام الغزالى : المقصود من الكلام « حفظ عقيدة أهل السنة وحراستها عن تشويش أهل البدعة » . ويبدو أن هذا القول انما يتناول المقصود من علم الكلام فى أول نشأته ، وذلك أن من يسميهم الامام الغزالى بأهل البدعة يعتبرون أنفسهم ويعتبرهم غيرهم من « المتكلمين » ، وهم — ان شئت — الطرف الخصم فى هذا العلم الذى أعطى للكلام وطاقاته الخفية بعداً خاصا .

تتــابــع المعــانــى

الآن وقد وصلت الى نهاية المطاف ارى أن هذا المقال ربما يبقى مبتورا لو لم أختمه بعرض موجز لبعض الالفــاظ التى تقترب بشكل ما من الكلمة والكلام والتى تحضرنا غالبا بطريق تتابع الافكار وتداعيها . ومعلوم أن هذا الباب قد حظى بعناية بعض فقهاء اللغة وواضعى معاجم المعانى من القدماء والمحدثين .

ولنكتف فى ذلك بأمثلة من تلك الالفاظ والتعابير نوردهــا فيمــا يــلى :

الكلمــــــــة . العبارة ، اللفظــة ، المفــردة ، الجملة ، المقولة ، القصيدة ، الفكــرة ، الخطبة ، العبــارة ، المترادف ، المــتـــوارد . . .

الكـــــــلام . النطق ، القــول ، اللهجــة ، الحديث ، اللغة ، اللغو ، الجملة ، الاسناد ، الوضع ، الجدل ، الحوار ، الهمس ، الهس (الكلام الباطنى) ، العى ، الحصر ، الثرثرة ، الهذيان ، الهدر ، الرطانة (وهو كل كلام لا يفهمــه العرب) التعبير ، الاعراب ، المنطوق ، المفهوم ، البــذاءة ، الذلاقــة ،

السلاطة ، الركاكة ، الايجاز ، الاطناب ، البلاغة ، الفصاحة ، البيـــان ، المعنـــى . . .

* * *

وبعد ، فان قوام الكلمة الفكرة ، وحليتها حسن التبليــغ مع القصد ، وحكمتها أن تقرب الناس بعضهم من بعض ، وان تضفى على المجتمع البشرى معناه الخلقى ، وان تجعل المدنية أمرا مقبولا مستساغا . واذا لم تكن الكلمة كذلك فخير منها السكوت . وبعض السكوت أبلغ من الكلام المنطوق .

الربـــاط **محمد العربى الخطابى**

اليقين
بين الإسلام والفلسفة

د. تمام حسان

اختلف الفلاسفة حول امكان المعرفة كما اختلفوا حول كيفيتها ، وورثوا ذلك لعلم النفس الحديث . ومن يقرأ للفلاسفة المحدثين المعنيين بنظرية المعرفة يجد منهم المثاليين الذين يرون المعرفة فاعلية للذات ، ومنهم كانت وهيجل . فالمعرفة بالنسبة لهؤلاء نتاج العقل ، والحقائق لا وجود لها خارج الادراك ، والعقل سيد الموقف فما لم يشتمل عليه العقل فلا وجود له . ومنهم الواقعيون المراسيون (القائلون بالممارسة Impericists) وكذلك المحدثون وكلهم يقول أن للاشياء وجودا خارجيا (أى خارج الادراك والعقل) مستقلا ، ومن ثم تنسجم فلسفتهم مع الوضعية العلمية كما تبدو فى مناهج العلوم . ولتبسيط موقف الطرفين نقول ان المثاليين منطقيون ولكن الواقعيين حسيون .

فاذا نظرنا الى « حقائق » الاسلام ولا سيما ما يتصل منها بالغيبيات وجدنا أنها لا تخضع للفاعلية الشعورية ، فلا يمكن الوصول اليها بالعقل المجرد (المنطق) ، ومن ثم تفشل المثالية ، على الرغم من محاولات بيركلى وكانت ، فى مجال الاقناع بوجود الله . وهذه الغيبيات نفسها لا يمكن الوصول اليها من خلال المناهج العلمية التى تعتمد على

الملاحظة الحسية ، والتجربة أو المقارنة ؛ ومن هنا لا تعطينـــا الواقعية الفلسفية ما نستعين به للوصول الى معرفة يقينـــية للحقائق الدينـــية . ومعنى هذا بكل بساطة ان الفلسفة لا توصل الى الدين ، وان كل كتابة تبريرية تخضع الدين للفلسفة بحجة التوفيق بينهما انما تحاول أن تفرض التساوى على دائرتين (من دوائر المعرفة) احداهما فى داخل الاخرى . فالدائرة الداخلية (الصغرى) هى المعرفة الفلسفية ، سواء منها المثالية والواقعية ، والدائرة الكبرى هى اليقين الدينى الذى يشمل « عالـــــم الغيب » كما يشمل « عالم الشهادة » . وسنحاول أن نوضح ذلك فيمـــا يــــــــلى :

دعنـــا نتمش مع الواقعيين فنسلم أن المعرفة ممكنة (ولا أقـــول مقصورة) عن طريق الحواس ، وان المناهج العلمية التى ترتضى الملاحظة والتجربة تمثل حجة كبرى يحتج بهـــا الواقعيون ، مادامت هذه المناهج قد أدت الى بناء صرح العلم الحديث ، ومكنـــت للانســـان فى الارض ، ومكنته من اقطار الفضاء . فنحن لا نستطيع ان نعرف ابتداء الا ما وقع فى دائرة الحواس الخمس (السمع والبصر والشم والذوق واللمس) . ولقد كان الاعتراف بقيمة الحواس فى مجـــال الوصول الى المعرفـــة من جهة ، ثم الاعتراف بمحدوديتها فى الزمان والمكان من جهة اخرى ، كان هذا الاعتراف سببا فى بحث الانسان بحثا دائبا فى سبيـــل التخفيف من آثار هذه المحدودية ، باطالة مدى ادراك هذه الحواس بوسائل صناعية اعان العلم على اختراعها . وهكذا امكن للانسان ان يطيـــل مدى سمعه بالتليفون والاذاعة ، وان يطيل مدى بصره بالتليسكوب والميكروسكوب ، وان يطيل مدى اللمس باستعمال الموجات المرتدة التى تتضح انعكاساتها على شاشة الاوسيلوسكوب ، فيعرف منها مثلا ما يخبئـــه باطن الارض من المعادن والتكوينات الجيولوجية الاخرى . فلولا الحواس (وبخاصـــة السمع والبصر) لاصبح الكائن الانسانى كتلة من اللحم والدم ، مقطوعة

الصلة بما حولها ، فلا تعرف عنه شيئا . الى هذا الحد نذهب فى طريق الواقعية .

ولكن الادراك الحسى نفسه يوصلنا الى فاعلية أخرى هى التجريد . وهذا التجريد ركن هام من أركان المناهج العلمية يتمثل فى التبويب والاصطلاح والتقعيد . ولولا التبويب والاصطلاح لظل الباحثون يتخبطون فى خضم المفردات المنعزل بعضها عن بعض ، ولظلت الابواب والاقسام اضغاث احلام غير قابلة للتأويل ولا للفهم . وهذا التجريد نفسه يقف بنا من جهة اخرى على مشارف المثالية ، لانه عمل عقلى أولا واخيرا ، ولاننا لا نستطيع أن نعتبر القدرة على التجريد حاسة سادسة فى نطاق الشعور الانسانى ؛ أى أن التجريد لا يحتسب فى مكونات الفكر الفلسفى الواقعى . واذا لم يكن التجريد حاسة سادسة ، وكان أعلى فى مستواه من الادراك الحسى ، اصبح من المقبول أن نتصور أن الواقعيين فضلوا العناية بالطابق الارضى من بنيان المعرفة ، وتركوا الذى فوقه لعناية المثاليين ، فما موقفنا من هؤلاء ؟

دعنا كذلك نسلم مع المثاليين ان للعقل فاعلية هائلة فى المعرفة تتمثل فى اقليم المجردات بالذات ، ولكنها ، وليعذرونا ، تفتقر الى معطيات الحواس فى تكوين المادة الاولية التى تعين هذه الفاعلية على اداء وظيفتها . وهذا الافتقار نفسه يمثل قيدا من قيود التجريد فى الفكر الانسانى ، فلا يستطيع الانسان عالما كان أم فنانا أن يتصور أو يتخيل صورة مبراة تماما من تجاربه الحسية . ومن هنا كان من الصعب على العقل الانسانى أن يعزل مدركاته عن حدود الزمان والمكان والمقولات الاخرى ، وانعكست هذه الصعوبة على حقل الغيبيات بصورة خاصة .

الحس والتجريد اذن وسيلتان من وسائل المعرفة . ومن ثم فحين يريد الانسان أن يلتمس الدليل على ما يعرفه فسبيله الى ذلك أن يلتمس فى مجال الحواس دليلا حسيا ، أو فى مجال التجريد دليلا منطقيا ، فان لم يجدهما لنفسه لجأ الى نوع آخر من الادلة ان لم يكن مقنعا فهو

مفحم ، وذلك هو الدليل الخطابى . واذا كان الدليل الحسى أداة واقعية وعلمية للاثبات من خلال الملاحظة والتجربة ، وكان الدليل المنطقى أداة مثالية وعلمية ايضا من خلال التجريد ، فان الدليل الخطابى يقف خارج أسوار العلم ذا أهمية كبرى فى مجال المناظرة والجدل ، فهــو يبهــت الخصم ويسكته ويفحمه ويقطعـــه .

اذا عرفنا أن اليقين الفلسفى (وهو يشمل العلمى) يعتمـــد على الحس والمنطق ، وأن الحـــس والمنطـــق لا يوصلان بمفردهما الى يقين دينى بسببعدم صلاحيتهما للتوصل لمعرفة الغيبيات، لم يبق لنا الا أن نبحث عن وسيلة غير هاتين للمعرفة (أى لليقين) فى مجال الدين ، ولن نجد أمامنا الا الاعتقاد أو الايمان . ويتمثل الايمان فى هذا المجال فى التسليم بحتمية روحية غيبية قد تجد بعض ادلتها فى الحس وبعضها فى المنطق ، ولكنها لما فيها من الغيبية وعدم الخضوع المطلق للحس والعقل تصطنع الدليل الخطابى فتلزم به وتفحم . والذى عبرنـــا عنه بعبارة « عـــدم الخضوع المطلق » للحس والعقل يعود بنا الى تصور الدائرتين الصغرى والكبرى اللتين أشرنا اليهما منذ قليل . فالدائرة الصغرى (الفلسفة ومنها العلم) معرفة متخصصة فى داخل الدائرة الكبرى (الدين) وهى معرفة شاملة . ومعنى ذلك أن الدين يستطيع عند الامكان أن يستخدم أدلة الفلسفة (حسية كانت أم منطقية) لان الفلسفة دائرة صغرى من مجاله الاكبـــر . ولكن منطقة من الدين خارج هذه الدائرة الحسية والمنطقية (الصغرى) تظل غير خاضعة للدليل الاقناعى ؛ وهذه المنطقة من ثم تمثل صعوبة كبرى فى الاحتجاج الدينى ، لا يذللها الا الدليل الخطابى الافحامى .

فى الدين اذن غيبيات لا دليل عليها من الحسن ولا من المنطـــق . والغيبية الاولى والكبرى هى « الالـــه » نفســه . فلسنا بمستطيعين أن نخضعه للملاحظة ولا للتجربة ولا للمقارنة ، فلم يبق لنا من سبيل الا أن نعتقد وجوده اعتقادا نابعا من الضمير ، مبنيا على التصديق والتسليم . ومن هنا تأتى مشروعية استعمال الدليـــل الخطابى عندمـــا لا يتـــأتى الدليلان الآخران : الحسى والمنطقى . ولقد ساق القرآن حشدا عظيما من الادلة الحسية ، منهـــا :

1 ـ « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها » ، (ترونها جملة هى صفة لعمد وليست حالا من السموات ، اى انه ينفى العمد المرئية ويثبت غير المرئية كالتوازن من طريق الجانبية مثلا) .

2 ـ « وارسلنا الرياح لواقح »

3 ـ « وهو الذى يرسل الرياح فتثير سحابا »

4 ـ « افلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت »

5 ـ « وجعلنا من الماء كل شىء حى »

6 ـ « والارض بعد ذلك دحاها اخرج منها ماءها ومرعاها »

7 ـ « افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها »

وهذا النوع من الادلة مبنى على ان الظواهر الحسية المذكورة دليل على قوة غير مرئية ولا محسوسة ، تمثلها فى دلالتها على هذه القوة مثل « المجذوب » بالنسبة للمغناطيسية ، او « المتحرك » بالنسبة للطاقة . ولا شك ان دلالة الظواهر على القوى غير المرئية امر مسلم به فى العلم .

ولسنا نجد فى القرآن ادلة منطقية فى بنيتها الصورية التى تأتى فى صورة مقدمات ونتائج . غير ان بعض ما يسوقه القرآن يحمل طابعا منطقيا لا يخطئه الفهم ، كالذى نرى فى قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » ، او كالسبر والتقسيم فى قوله تعالى : « فان يك كاذبا فعليه كذبه وان يكن صادقا يصبكم بعض الذى يعدكم » ، وكذلك فى عدد آخر من الآيات . على ان المنطق الصورى لا يعتبر أداة نافعة فى الدين ، كما لا يعتبر فى العلم ؛ فهو غير صالح فى المجالين جميعا . ولو استعمل القرآن القياس الصورى فى الاستدلال لخضعت ادلته لما خضع له هذا المنطق من النقد والاتهام بالعقم ، وبالاحتفال بشكل القياس على حساب مضمون النتيجة . بل اننا لنلاحظ ان علماء الكلام حين اضطرتهم مطالب الجدل الدينى الى انشاء علم الكلام واستخدام هذا النوع من الاستدلال ، ادخلوا الضيم (دون قصد منهم بالطبع) على

قضية المحاجة الدينية ، ولم يكن نتاج فكرهم نتاجا دينــيا بقدر مــا كان فلسفيا . وهكذا ننظر اليه بعد مرور القرون .

ولكننا على العكس من ذلك نجد فى القرآن حشدا من الادلة الخطابية المفحمة بما تسببه من مباغتة ، كالذى نجده فى قوله تعالى :

1 ـــ « قال ابراهيم فان الله يأتى بالشمس من المشرق فأت بهـــا من المغرب فبهت الذى كفر » .

2 ـــ « أعنده علم الغيب فهو يرى » ؟

3 ـــ « أفرأيتم الماء الذى تشربون أأنتم انزلتموه من المزن أم نحن المـــنـــزلـــون » ؟

4 ـــ « من كان يظن أن لن ينصره الله فى الدنيـــا والآخرة فليمـــد بسبب الى السماء ثم ليقطع فلينظر . . . » .

5 ـــ « يا معشر الجن والانس ان استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات والارض فانفذوا » .

6 ـــ « قل فأتوا بسورة مثله » .

اذا كانت المعجزة بطبيعتها وأيا كان نوعها من اكبر الادلة الخطابية فى المحاجة الدينـــية ، فقد تمثلت المعجزة الاسلامية فى القرآن نفسه من حيث هو نص معجز .

ذلك هو أساس اليقين فى الاسلام . انـــه يقـــوم على أساس من الادراك الحسى للظواهر التى تملأ العالم من حولنا ، ومن ثم يدعو الناس الى امعان النظر فيها والاستماع اليها . وهو يقوم أيضـــا على أساس من العقل الذى يبنى المجردات على المحسوسات ، فلا يكتفى المـــرء بمجرد النظر والاستماع ، وانما عليه أن يتدبر المغزى الذى يجده وراء ما يراه ويسمعه . ولقد جعل القرآن موطن هذا العقل هو القلب (وليس القلب هنا هو الجارحة المعروفة فقط وانما هو « الداخل » بصفة عامة كما تقول: فى « قلب » المدينة) أو الفؤاد كما يسميه أحيانا . ثـــم جعل الاحساس (بالسمع والبصر) والفهم (بالفؤاد) مسئولية كبرى لـــدى المؤمـــن :

« ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » . ويقوم هذا اليقين أيضا على أساس الاعتراف بمحدودية الاحساس والفهم ، بدليل تعذر فهم الروح الانسانية نفسها ، وفهم كنه الحياة ، أو عملية الفهم ذاتها . فهذه كلها أمور غيبية بالنسبة اليه يسلم بوجودها لانه يدرك آثارها ، فيكون تسليمه اعتقادا وايمانا . ويقوم هذا اليقين أيضا على أساس أن الانسان اذا جهل فسلم بالعجز عن معرفة ما بين جنبيه ، فهو غير مؤهل لمعرفة ما وراء الظواهر ، بل ان هذه الظواهر نفسها ليس كلها فى متناول المعرفة الانسانية . فالانسان يعيش فى كوكب صغير نسبيا بين كواكب مجموعة شمسية هى جزء صغير من مجرة تضم مجموعات أخرى غيرها ، وهذه المجرة بدورها واحدة من عدد غير معروف من المجرات بين كل واحدة منها والاخرى مسافة تحسب بالسنوات الضوئية ، ويتعذر حسابها . ومن ثم يصبح الانسان شيئا غير ذى خطر فى هذه اللانهائية . والذى عرفه الانسان من هذا الكون لم يتجاوز قشرة الكوكب الذى يعيش فوقه ، ثم بعض المعلومات المبعثرة عن كواكب بيئته القريبة . ولو حاول الفهم خارج حدود هذه البيئة لكان من المحتمل أن يجد مقولات الفكر الانسانى كالزمان والمكان غير صالحة للتطبيق . وكما يجهل الانسان نفسه التى بين جنبيه ولا ينكر وجودها ، يجهل الكون الفسيح ولا ينكر وجوده . فلو حاول الانسان أن يقيم دليلا على الكون الفسيح لم يسعفه الحس ولا العقل ولم يجد أمامه الا الدليل الخطابى . عندئذ يحلو لى أن أسوق دليلا خطابيا هاما جدا يقول : اذا كان ذلك شأن الانسان فى جهله بالظواهر ، ثم فى اضطراره بالتسليم بوجود ظواهر كونية لا يعرفها ، فكيف يتطاول على الغيب فيسلط عليه عقله ايجابا أو سلبا ؟ لقد رأينا أن العقل غير مؤهل لاثبات الغيب فلا بد أن يكون غير مؤهل لنفيه أيضا . وقصارى ما يفعله العقل هنا أن يقف موقف العجز بالايمان أو الشك .

اذا وصلنا عند هذا الحد ، وسلمنا بما سبق ، بقى لنا أن نستنبط من جهل الانسان بما وراء المادة أن الانسان الحديث يعترف بأن حقل الدراسات الروحية ، كتحضير الارواح والتنويم والتليباثي ونحوها من الظواهر ، مايزال حقلا بكرا من جهة ، وأن نتائجه ومعطياته لا تدخل

فى باب الخزعبلات والخرافات من جهة اخرى . وفحوى ذلك ان المجال الروحى من مجالات المعرفة يحمل من العطاء ما لا نعرفه ولا نتصوره فى الوقت الحاضر ؛ ولعل اهم مسلماته الآن ان بعض الارواح أقوى من البعض (بدليل التنويم نفسه) ، وان بعضها أكثر استعدادا للتسامى من البعض الآخر . فليس هناك من ثم ما يحول دون بعض الناس وبين ان يكون ذا موهبة روحية خاصة لا تتهيأ لغيره من بني جنسه . افئن جاءنا هذا الموهوب فقص علينا بعض تجاربه الروحية ؛ افنسارع الى انكار ما يقوله بلا دليل ، أم نطالبه بدليل حسى او منطقى على أمر لا يخضع لحس ولا منطق ، أم هل نكتفى من موقفنا بالشك العاجز الذى لا يقدم ولا يؤخر ، ام هل نؤمن بما يقوله انطلاقا من أنه موهوب من الناحية الروحية ، اذ ليس لدينا ضده ما يدعونا الى تكذيبه ؟ هذه هى الاحتمالات الممكنة لموقفنا من هذه الدعوى الروحية التي يأتينا بها الموهوب .

لقد اعطانا الاسلام عطاءه الغيبى على لسان محمد صلى الله عليه وسلم . فقال بوجود الله ؛ وأن الله ارسله الى عباده بعقيدة وشريعة . فأما الله سبحانه وتعالى فان وجوده تفسير للكون لا أرى تفسيرا غيره يقوم مقامه . فلا الصدفة يمكن أن تنشىء نظاما كهذا ، ولا الطبيعة يمكن ان تسير نفسها ، ولا العلم يستطيع أن يمدنا بالنسبة لهذا الكون وتطوره بأكثر من نظريات فلسفية ظنية هى اضعف فى حجتها من الدين (كنظرية داروين مثلا) . وأما أن محمدا صلى الله عليه وسلم مرسل من عند الله ، فأقل ما نعطيه من التصديق ما نعطيه لاصحاب الموهبة الروحية من أبناء زماننا هذا الذين تكثر الروايات عن قدراتهم الروحية فى المجالات المختلفة ، كتحضير الارواح ، والاتصال بالنازحين الى أماكن بعيدة ، وهلم جرا . فاذا رأينا معجزته القرآنية التى انشأت أمة وحضارة وثقافة ودينا وشريعة تباهى الشرائع فتتفوق عليها ، كل ذلك من لا شىء ، زادنا ذلك ، ولو من الناحية البراجماتية ، استمساكا بتصديقه واعتقاد ما يقوله . واذا قال لنا : ان القرآن كلام الله ، وأن الحديث كلامه هو ، ثم رأينا اختلاف الاسلوبين ومستوى البلاغة فيهما ، آمنا بما يقول ؛ لان أحدث الدراسات النفسية ترى أن الاسلوب يعكس الشخصية ، فكما لا تكون للانسان شخصيتان لا يكون له اسلوبان (وأسلوبان متفوتان) فى نفس الوقت . فدلالة ذلك على ان القرآن كلام

الله من قبيل دلالة الظاهرة على ما وراءها . ولقد سبق أن اشرنـــا الى ان العلم لا يأبى الاخذ بهذه الدلالة .

لقد سبق أن قلت ان حواس الانســان قاصرة ، وأن مجال ادراكها من الضيق بحيث لا يتناول الا ركنا قصيــا منعزلا صغيرا من أركان هذا الكون اللانهائى ؛ وأن بعض ما فى هذا الركــن من المؤثــرات لا يعــرف الا بآثاره . فنحن نؤمن بوجود الطاقات والقوى المؤثرة لأننا نعرف آثارها فى الظواهر من حركة ، الى ضوء ، الى صوت ، الى احداث تحولات فى المادة وهلم جرا . ثم نحن لا ندرك سر الحياة ، ولا سر العواطف ، ولا سر الانفعالات ، ولا ندرك العلل الغائيــة للظواهــر ؛ وباختصـــار ، ينبغى لنا أن نعترف بأن الانســان ما أوتى من العلم الا قليلا . فلا ينبغى لهذا القليل أن يبطره ، ولا أن يغره عن حقيقة عجزه ، وضآلته وضعفه ، فيحاول أن يخضع الكون كله لعقله القاصر المحدود بحدود الادراك الحسى من جهة ، وأن يعمى عن فهم ما فى متناول فكره من ظواهر هذا الكون ، فلا يعطيه من التفسير ما يحتمله فى ضوء الايمان (اليقــين الدينــى) . فما هو هذا التفســير ؟

اذا نظرنا فى أمر الغيبيات ، وجدنا أشهرها :

الله سبحانه وتعــالى ،

والمــــلائكـــة ،

والــجـــــن ،

والــقــيــامـــة ،

والــجــنــة والــنــار ،

والــقــضــاء والــقــدر .

فكيف نؤمن بهذه الغيبيات ؟ أو بعبارة أخرى كيف نفهم هذه الغيبيات ؟ ان الصعوبة الكبرى فى فهم الغيبيات تأتى من جهة أن هذا الفهم لا ينبنى على أساس من الحس الخارجى ، وأنه تجريد يقع خارج نطاق العقــل البشرى ومقولاته . ومع ذلك فان لى رأيا خاصا فى فهم الغيبيات لا يتنافى

مع النصوص وان غاير آراء المفسرين . وانا اذ اتقدم بهذا الفهم على استحياء ، اعترف أنه ليس محاولة لانشاء كوزمولوجيا فلسفية جديدة ، وليس مجرد رأى اسطره فى مقالة ، ولكنه الصورة التى اتخذها ايمانى بهذه الغيبيات منذ حيرنى أمرها ففكرت فى حل لغزها . ولقد كان من نتيجة هذا الفهم الشخصى أن اطمأن قلبى بالايمان اطمئنانا عقلانيا ؛ وعبدت الله عبادة من لا يستعصى عليه فهمه . وقبل أن أسوق فهمى لفكرة الالوهية ، أود أن اتناول الغيبيات الاخرى ، حتى يكون القول فى الالوهية مبنيا عليها ، وواضحا بها .

فملائكة الله كثيرون . ولقد قال العلماء فيهم : انهم أجسام نورانية لا تأكل ولا تتناسل ، وانهم أقوياء حتى انه لا حدود لقوة الملك ؛ ويكفى أن نعلم أن نفخة اسرافيل فى الصور (البوق) تفزع من السموات ومن فى الارض ، ويكفى ايضا أن نعلم أن عزرائيل يصح منه أن يقبض أنفس آلاف الاحياء فى مشارق الارض ومغاربها فى لحظة واحدة ، وأن ميكائيل موكل بالرياح يصرفها بأمر الله ، وما أكثرها وأعقد تصريفها ! وهلم جرا . فما هى المخلوقات النورانية التى لا تأكل ولا تتناسل والتى يمكن ان توصف بهذه القوة العظيمة ؟ أهى قوى الطبيعة ؟ فلم لم يذكرها الله تعالى بأسمائها ، ويحدد فى قرآنه عمل كل منها تحديدا دقيقا ؟ أعترف اننى افهم الملائكة على هذا النحو . فهم قوى الطبيعة ؛ كالضغط ، والمغناطيسية ، والتفاعل ، وهلم جرا . والملائكة تتفاوت فى مراتب الاهمية ؛ فمنهم أربعة هم كبار الملائكة : ميكائيل ، واسرافيل ، وعزرائيل ، وجبريل . ومنهم ملائكة دون ذلك يتعددون ويتفرعون حتى يكون لكل انسان ملكان موكلان به . والملائكة الصغرى تتدرج متفرعة أو متولدة من الملائكة الاربعة : فالضغط يولد الحرارة ، والمغناطيسية تولد الجاذبية ، والتفاعل يولد التكون والتحلل . وهكذا تتوالد عن هذه الفروع فروع أخرى ، فتتعدد الملائكة الغلاظ الشداد الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون . وبهذا المعنى افهم ميكائيل باعتباره ملك الضغط الذى يولد الحرارة من جهة ، ثم يكون خفيفا هنا وثقيلا هناك فتنشأ الريح . ومن الحرارة والريح ينشأ البخر والسحاب . ويسوق الله السحاب بالريح الى بلد ميت فيحيى به الارض بعد موتها . وافهم اسرافيل باعتباره ملك المغناطيسية ، فهو موكل بتوازن النجوم والكواكب فى هذا

الكون ، فاذا كان كذلك فان نفخه فى الصور كناية عن اختلال هذا التوازن ، وتصادم الكواكب بعضها ببعض . عندئذ تتطاير الكواكب ذرات وقطعا فى الفضاء ، وتبدأ نظام جاذبية بينها من جديد ، وينشأ عالم جديد « كما بدأنا أول خلق نعيده وعدا علينا انا كنا فاعلين » . أما فهمي لعزرائيل فانه ملك التفاعل فهو ليس ملك الموت فقط وانما هو ملك الحياة أيضا ، وليس قبضه لارواح الاحياء الا كناية عن وصول عملية التحلل الى مداها ، فتصبح خلايا الجسم غير صالحة لاداء وظائفها ، ويموت الجسم الحى . وأما جبريل فى رايى فهو ملك الايصال والتوصيل ، اى التبليغ والربط . وهو الموكل بتيارات الطاقة يوصل سحابة بأخرى مثلا فيفرغ شحنة هذه وتلك فينشأ البرق فيسير بسرعة الضوء ، ثم يكون من أثر التفريغ رعد يسير بسرعة الصوت . وانتقال الضوء والصوت والكهرباء من وظائف جبريل .

لقد طرحت قبل ذلك سؤالا قلت فيه : لم لم يذكر الله الملائكة بأسمائها (اسماء قوى الطبيعة) ، ويحدد فى قرآنه عمل كل منها تحديدا دقيقا ؟ والجواب أن ذلك راجع الى ما يأتى :

أولا : ان القرآن ليس متنا فى الفيزياء أو الكيمياء او اية مادية علمية .

ثانيا : أن العرب الذين خاطبهم القرآن ما كانوا — وهم الاميون — ليفهموا أمورا لم يعرفها العالم المتحضر فى زمانهم . فلو سمعوا فى الدين بأمر الضغط والمغناطيسية الخ لما آمنوا ، ولكان جحودهم بسبب عدم الفهم اشد من جحودهم بسبب التعلق بتراثهم القديم . ومن ثم كان لا بد للقرآن أن يتخذ فكرة الملك واسمه رمزا لهذه القوى التى سخرها الله سبحانه وتعالى لاجراء ارادته فى ملكوته ، لنفس السبب وبنفس الطريقة التى ذكر فيها « يد الله » و « وجهه » و « عينه » وهو ينفى عن الله التشبيه والتجسيد . اى ان المسألة كلها مسألة مجاز فى التعبير حتمه عدم استعداد المخاطبين لفهم الاسلوب الحقيقى من جهة ، وعدم اتساع اللغة فى ذلك الوقت للتعبير الحقيقى عن هذه المفاهيم من جهة أخرى .

وأما الجن فهم بحكم اشتقاق الكلمة « المختفون » بحيث لا يرون بالعين المجردة . واذا كان ابليس زعيم الجن وكان الجن من قبيله فالجن ليسوا نورانيين كالملائكة ، وانما هم « ناريون » ، لان ابليس يقول لله

تعالى : « خلقتنى من نار وخلقته من طين » . وليس المحتم فى « النار » هنا أن تكون هى المحرقة ؛ اذ يصدق على النار أنها « غاز » من الغازات ، كما يصدق عليها انها مكونة من جسيمات دقيقة . وبهذا الفهم نستطيع أن نعد من الجن الميكروبات والبكتيريا ونحوها ، كما يمكن أن نعد منهم الاسس البيولوجية للدوافع والغرائز الانسانية ومن هنا تأتى كلمة (مجنون) ، ومنهم الاليكترونات والنيوترونات ، واخيرا ما يثبته الباحثون فى الروحانيات ويصدقه الناس بالمشاهدة مما يسمونه الاشباح ، أيا كان التفسير العلمى لهذه الاشباح . وبهذا يكون الجن أصنافا وطوائف بعضها صالح (أى نافع) وبعضها طالح (أى ضار) ، وكلها مسخر فى خدمة الملائكة .

وأما القيامة فقد سبق أن أشرت الى نهاية العالم عن طريق اختلال ميزان التجاذب بين النجوم والكواكب وتصادمها ثم تفتتها فى الفضاء اللانهائى ، ودوران أجزائها فى مدارات جديدة تحددها الاوضاع النسبية لهذه الاجزاء ، ثم تمر أعصر تتجمع فيها الاجزاء فى صورة نجوم وكواكب جديدة ، وهذا التجمع هو النفخة الاخرى : « ثم نفخ فيه أخرى فاذا هم قيام ينظرون » .

وهكذا ينشأ عالم جديد هو العالم الآخر ، ينعم فيه ناس فيكون لهم جنة ، ويشقى فيه ناس فيكون عليهم نارا ، وهذا فهمى للجنة والنار فى صورته العامة .

وأما القضاء فهو القوانين العامة للكون . هذه القوانين يخضع لها كل ما فى الكون حتى الملائكة ؛ فالضغط ، والمغناطيسية ، والتفاعل ، والايصال كل أولئك يخضع للقضاء (أى القوانين) . وأما القدر فهو دقة تنفيذ هذه القوانين «وحتمية» هذا التنفيذ . يتضح ذلك من قوله تعالى : « ثم جئت على قدر يا موسى » وقوله : « وكان أمر الله قدرا مقدورا » . وكما أن القضاء والقدر يتحكمان فى المخلوقات فلا تشذ المخلوقات عنهما ، نجدهما أيضا مسخرين للانسان فى تيسير العلم ؛ لأن حتمية تنفيذ القوانين الكونية عنصر أساسى لولاه ما كان العلم . وقد يسأل سائل : ما معنى أن يكون الانسان الفرد مقيدا بالقضاء والقدر حتى قال العامة ان قضاء الانسان مكتوب على جبينه ؟ وكيف يمكن تفسير هذا فى ضوء القول بأن

القضاء هو القوانين الكونية ؟ والجواب على ذلك يسير . فالقوانين العامة التى تتحكم فى مصير الفرد هى قوانين الوراثة والبيئة . فهذه القوانين تشكل حياة الفرد فهو يشقى بحسبها أو يسعد بحسبها ، فهى قضاؤه وحتميتها قدره .

لم يبق لنا من أمر الغيبيات الا أن تقودنا الى الايمان بالله تعالى ايمانا يستند الى الاستدلال عليه بمخلوقاته ما ظهر منها وما بطن . ان الله موجود ؛ ولكنه غير متعين ولا متشخص . انه لطيف لا يرى ولا يحس ؛ ولكن لطفه ليس كمونا ككمون الطاقة فى الظواهر ، اى على نحو ما تكون الكهرباء والجاذبية ، وانما هو لطف مهيمن غير مشروط بالمكان . فاذا تجلى الله تعالى فانما يتجلى لمخلوقاته ، ولا يتجلى فيها الا بقدرته ، وفرق بين معنى « اللام » ومعنى « فى » ، « فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا » . وليس الله فكرة ؛ لأنه لو كان فكرة لكان هو من خلقنا ولم نكن نحن من خلقه ، وكثيرا ما حاول الملحدون أن يجعلوه كذلك ، ولو كان فكرة ما صح له أن يتجلى للجبل الذى لا يفكر . والله هو الاول بلا بداية ، فهو أزلى (قديم) ، وهو الآخر بلا نهاية ، فهو أبدى (باق) . وهو الظاهر الذى يتجلى لعباده باظهار قدرته من خلال مخلوقاته ، وهو الباطن الذى لا يرى حين يتجلى . لا يحده الزمان ؛ فلا تصلح له قبلية ولا آنية ولا بعدية الا على سبيل المجاز المقرب للفهم ، ولا يحده مكان فلا يتصور معه هنا أو هناك أو شغل للفراغ ، لانه لا جسم له ولا صورة ولا مقدار كمى ولا هيئة كيفية . وهو « لم يلد ولم يولد » ، لانه ليس بحاجة الى عقب يرثه ولا الى والد يرعاه . وهكذا نرى أن الايمان بالله يتحدى المقولات العشر جميعا . ومن هنا كانت أكثر عبارات الافصاح عن هذا الايمان جملا منفية لا مثبتة ، لأن فى الاثبات تحديدا بالمقولات . وفى نطاق هذا التفكير أستطيع أن أدرك بعض صفاته ، فأتصور أنه قوة عظمى مهيمنة على الكون بقوانين كبرى تبدو واضحة فى امساك السماوات والارض أن تزولا كما تتجلى فى استطاعة الكائن الفرد أن يتنفس ، وان يتمثل طعامه ثم يفرزه ، وأن يفكر ويحب ويبغض ، وفى انفلاق الحب والنوى ، وتفتح الزهرة . « وان من شىء الا يسبح بحمده » باطاعة نواميسه (أى قضائه وقدره) حتى الصخرة الساقطة من أعلى الجبل تجعل سقوطها تسبيحا بحمد

خالق الجاذبية ، لمن شاء أن يفقه هذا النوع من التسبيح . فالله تعالى بقدرته فى فؤادى ، وفى عروقى ودمى ، وفى عينى وأذنى ، وفى أصغر ذرة ذات جزئيات تدور فى أفلاكها ، وفى أعظم مجرة من مجرات الفضاء اللانهائى ذات نجوم تدور فى افلاكها (ما ترى فى خلق الرحمن من تفاوت) . اينما بحثت عن قدرته وجدتها : « يخرج الحى من الميت ويخرج الميت من الحى ذلكم الله » . فهو الذى ينيمنا ويوقظنا ، ويميتنا ويحيينا ، ويسخر لنا القضاء والقدر لننشىء بهما العلم ، ويجعلنا بالعلم خلفاءه فى الارض ، فلا ينبغى لنا أن نجعل العلم حجابا منهجيا يحول بيننا وبينه ننكر بواسطته ذاته غرورا بما كشف لنا سبحانه من مكنونه « وما أوتيتم من العلم الا قليلا » . ذلكم الله ربى كما أفهمه .

عند هذا الحد تتضح حدود اليقين فى الاسلام كما أراه . انه يقين أوسع واشمل من اليقين الفلسفى والعلمى . فاليقين العلمى يواكبه فى الميدان الحسى والعقلى ، ولكنه يقصر دون غايته فى مجال الغيبيات . ولكننا نستطيع أيضا ان نلقى نظرة فى طبيعة اليقين العلمى ، لنرى ان كان حقا مبرأ من الغيبيات ومن ثم يكون اثبت دعامة واقوى ركنا من اليقين الاسلامى أو ان الامر فى شأنه لا يختلف عنه . وخير ما نفعله فى هذا المجال أن نختبر تماسك المنهج العلمى وصلابته من خلال التساؤل عن طبيعة بعض عناصره : أقصد الاستقراء والفرض والحتمية . وفيما يلى نسوق هذا التساؤل :

الاستقراء Induction : المعروف أن الاستقراء نوعان : تام وناقص . فالتام كاحصاء السكان ، اذ يعدهم ويحصيهم لا يغادر منهم أحدا . وهذا النوع غير مناسب للنشاط العلمى ؛ لأن مفردات الظواهر المدروسة علميا تستعصى على الحصر . واما الناقص فكالذى تقوم به معاهد استطلاع الرأى ، لسبر اتجاهات الرأى العام فى الانتخابات مثلا ؛ فتعرف به أن الرأى العام يتحول الى اتجاه هذا الحزب أو ذاك . ولا يقدم المعهد الاسئلة الى جميع السكان ، وانما يختار منهم نماذج تمثل مختلف الفئات السكانية ، ثم يرى أن آراء هذه النماذج صادقة بالنسبة لبقية السكان . ولكن رأيه هذا لا يكون على سبيل القطع ، وانما على سبيل أغلب الظن . وهذا النوع من الاستقراء هو المناسب

للنشاط العلمى ، ولاسيما فى مجال العلوم الطبيعية . فالباحث هنا يوجه الملاحظة الى عدد من مفردات الظاهرة ، فيدرسها ، ثم يدعى ان نتائج دراسة هذه المفردات المختارة صادقة على شبيهاتها التى لا حصر لها . يدفعه الى ذلك أولا استحالة الاستقراء التام ، وثانيا عدم ظهور ما يمنع من الاعتماد على صدق هذا الادعاء حتى الآن . ولكن هذا الادعاء من الناحية النظرية البحتة يظل ادعاء على اى حال ، أو هو ان شئت اعتقاد وايمان بأمر غيبى لا دليل عليه من الحس ، ولا سند له من المنطق ، الا كونه لم يظهر ما يناقضه .

الفرض : يمكن القول بادى الرأى ان الفرض ابعد ما يكون من الموضوعية ؛ بل انه حتى من حيث المنشأ لا صلة له بالمنطق ، لأن منبعه الخيال (ويخطىء من يظن الخيال بضاعة الفنان فقط) . فبعد أن يجرى الباحث ملاحظة المفردات ، ويتم استقراء سلوكها ، لا يصل مباشرة الى القانون أو القاعدة التى تنتظم هذا السلوك . انه يعمد الى افتراض تفسير لهذا السلوك ، اى يقترح قانونا مؤقتا يعرف هو قبل غيره أنه لا سند له من حس أو منطق . ومن ثم يضطر الى تحقيقه بالتجربة ، فيختبر ما اذا كان هذا الفرض يصلح قانونا أو لا يصلح . ان هذا الفرض قبل تحقيقه ليس أكثر من مغامرة شخصية ، ومبادرة ذاتية وان كانت فى اطار موضوع . بل انه طفرة الى عالم « غيبي » لا تقوم صلة بينها وبين اليقين الا بعد أن يجرى تحقيقها بالتجربة . فان لم تصدقها التجربة اهملت كما لو كانت ضغثا من أحلام المنام ، وان صدقتها التجربة استمدت يقينها من مبدأ آخر من مبادىء المنهج العلمى ، هو مبدأ الحتمية Determinism . وفيما يلى نظرة فى هذا المبدأ :

الحتمية : تعتمد الحتمية على ان لكل شىء سببا (وهو ما يعرف بمبدأ السببية) ، وتبنى على ذلك انه لا بد عند وجود السبب من وجود المسبب . ومن ثم فان الذى يحدث عند التجربة التى يتحقق بها الفرض العلمى لا بد أن يحدث أيضا فى الطبيعة كلما توفرت الظروف التى اقترن حدوثه بها . وهذه اللابدية هي الحتمية ، وهي نقيض الحرية والمصادفة كلتيهما . ومعنى هذا أن الباحث يستطيع بالاعتماد على مبدأ الحتمية أن يتنبأ بالمستقبل الذى مايزال فى ضمير الغيب ، وأن يضع نبوءته فى

صورة قانون أو قاعدة . ولست عند هذه النقطة اتصدى بالغمز لمبـــدأ الحتمية أو استخدامه فى المنهج العلمى ، ولست احـــاول ان أوحى بأن هذا المبدأ لا يعتمد عليه ، أو ان اطراحه واهماله أمـــر مقبـــول . على العكس . لقد سميته « القدر » منذ قليل ، وجعلته بين مـــا سخره الله لانسان ليقيم به صرح العلم . ولكن كل ما أرجوه هنا ان اقنع القارىء أن هذا المبدأ يحمل عنصرا كبيرا من اليقين الغيبى ، فيحمل بعض عناصر لشبه باليقين الدينى وهو الايمان . فليس للباحث من الادلـــة الحسية ا يمكن ان يسوقه لاثبات حدوث أمر ما يزال فى طى المستقبـــل ، ومن م لا تقع عليه الحواس فى وقتنا الحاضر . وليس له من الادلة المنطقية لى اثبات هذا الحدوث المقبل الا ايمانه واعتقاده فى مبدأ الحتمية ، وهو بدوره لا دليل عليه الا صدقه فى الماضى والى الآن ، ولا دليل على حدوثه بعد الآن . لهذا السبب لا نستطيع ان نخرج هذا المبدأ من اطار المسلمات 'لى اطار البديهيات . اضف الى ذلك ان مبدأ الحتميـــة ـــ ونحن نحرص لميه لفائدته الكبرى فى العلم ـــ لم يسلم من النقد من قبل بعض المحدثين ن علماء الفيزياء الذين أحلوا محله حساب الاحتمال Probability فى دراسة سلوك الجسيمات البالغة الدقة فى الذرة . ولكن الاحتمال عدو اليقين ، وهو يوهن من قوة الضبط العلمى . فاذا عرفنـــا أن الاحتمال يمشى ربع الطريق الى الحرية ، ويحمل عنصرا من عناصر اللاادرية ، وجدناه تفسيرا مناسبا لشواذ القاعدة وللمصادفة على حد سواء ، فلا تقوم عليه قاعدة الا مع شىء من التحفظ .

واذن تضعنا الحتمية أمام مقامرة فى حلبـــة المزاعم . فان صدقت الحتمية حتى الآن فلا دليل على ضرورة صدقها فى المستقبـــل الا الايمان بها كما نؤمن فى الدين بالقدر . ولسنا نجد مانعا من الاستمساك بهـــذا الايمان المنهجى العلمى النافع ؛ لأنه ايمـــان أدى الى تقـــدم البشرية ، ولولا مبدأ الحتمية لاضطررنا مع تعذر الاستقراء التام لمفردات الظواهر الى العودة الى المنطق الصورى نتخذه كما اتخذه القدماء منهجا للفكر ، وطريقا الى العلم ، مع ما فى ذلك من قبـــول شكل من اشكـــال التفكير ينصف نفسه ويظلم الحقيقة .

واحتفاؤنا هذا بالحتمية ، وترحيبنا بما فيها من ايمــان ، يفــرض علينا سؤالا ضروريا عن الايمان الدينى ، كيف ينبغى أن ننظر اليــه . هل نقبل الايمان فى العلم ونعطيه كل هذا الاهتمام ، ونبنى عليه الآمال العظام فى تحقيق خير الدنيا ، ثم نبيح لأنفسنا أن نرفــض الايمــان فى الدين ، ولا نبنى عليه الآمال فى تحقيق خير الآخــرة ؟ الايمان فى العلــم (واقولها بثقة تامة) اعتقاد بالغيب ، والايمان فى الدين اعتقاد بالغيب ايضا . ايمان العلماء ايمان بما غاب فى عالم الظواهر ، وايمان الاتقيــاء ايمان بما غاب مما وراء الظواهر . الايمان العلمى نافع فى السيطرة على الواقع المادى ، والايمان الديــنى نافــع فى تقويــم السلوك الفــردى والاجتماعى . ان فى سلوك الفرد جانبا ظاهرا تحكمه السلطة بالقانون ، وجانبا لا يطلع عليه الناس ، فلا يسيطر عليه الا الضمير . هذا الضمير يتمثل فى موقف سلوكى لا يتحقق الا بالاخلاق من جهة والدين من جهة اخرى . وبعض الاخلاق من عطاء المجتمع ، وبعضها الآخــر من عطــاء الدين . بذلك تصبح ثلاثة ارباع الضمير من صنع الدين . اى ان جانب العطاء الدينى فى تكوين الضمير اكثر ثراء وعمقا ؛ فهو من جهة يتســم بسمة السلطة التى لا تكتفى بعقاب المذنب ، وانما تثيب المحسن أيضا (وهو أمر لا يتحقق بالقانون ولا بالعــرف الاجتــماعى الا فى حــالات نادرة) ، وهو من جهة أخرى يوفر الطمأنينة للنفس فى ظل حماية الهية ، فيحمى الانسان من الخوف والقلــق والاضطرابات النفسيــة الاخرى . وبهذا يكون الدين منبع سعادة دنيوية وصحة نفسية قبل أن يكون منبع سعادة أخروية ، ويكون ذا نفع فى كف الفرد بواسطة الضمير عن مخالفة القواعد والنظم المقبولة ، فيعود الدين بالخير على المجتمع .

لقد رأينا موازنة بين يقين الاسلام ويقين العلم والفلسفة . فى كل من اليقينين عناصر الحس والمنطق والغيب . ولكن العلم يحلو له ان يبرأ من طريقة الدين فى الوصول الى المعرفة ، بل ينسب نفسه الى المعرفة دون العقيدة ، وينسب الدين الى العقيدة دون المعرفة . وهذا الموقف كمــا رأينا مردود على العلم بالذى ذكرناه عن الاستقراء والفرض والحتمية . ولقد سمعنا الكثير من التبجح على الدين والانتقاص منه من مختلف طوائف الملحدين . قالوا : الدين افيون الشعوب ، وقالوا : الانسان يخلق ربه على صورته ، ولو نحتت الارانب تمثالا للاله لجعلته فى صورة الارنب .

وسمعنا عن رائد الفضاء الروسى جاجارين يقول : « لقد بحثت عن الله فى الفضاء فلم أجده » . ولو أن جاجارين بحث عن الله باخلاص لتجلى له الله فى قلبه دون أن يضطره الى الصعود الى الفضاء . ولكل الاسباب التى تقدمت أجدنى مدفوعا الى أن أدافع عن الدين باسم الموضوعية . فاما أن يكون الايمان بالغيب مقبولا فى العلم كما رأينا ، فيقبل فى الدين من باب أولى ، ويصبح الدين كالعلم لفائدة الشعوب . واما أن يرفض الايمان بالغيب فى الدين ويرفض الدين معه لهذا السبب ، وحينئذ يتحتم أن نرفض العلم أيضا لما فى منهجه من الاستقراء الناقص والفرض والحتمية ، ويصبح العلم عندئذ ولنفس السبب « أفيون الطلاب » .

الرباط   تمام حسان

قصة

ومايزال في انتظارها

عبدالكريم غلاب

— هـو انت ... ؟

اطال النظر فى وجهي بعينين محايدتين ووجه متجمد . بعـد لاى بدأت الابتسامة تطفو على وجهه . غرقت عيناه فى ضحكة عارمة لا ينقصها الا صوت ظل مكتوما . امتدت يداه تحتضناني فى رفق ، امتدت شفتـاه بقبلـة ودود :

— هو انت ... ؟ لشد ما غيرك الزمان ...

انحلت ذراعاه عن معانقتي . اكتست عيناه طابع الفضول فتجردتا عن حيادهما ، وهما تبحثان عن الشخص القديم الذي تعرفـان . فى غمـرة الاكتشاف بدا سعيدا . لم يعرف كيف يعبر عن سعادته بلقائي :

— زمن طويل هذا الذي فصل بيننا ...

تنقلت عيناه فى كل ملامح وجهي ، استقرتا عند راسي وهو يضيف :

— ... شـاب راسـك ...

اجبت ضاحكا وانا اتخطى تجاعيد وجهه لتستقر عيناي على شعــــر راســـــــه :

— وأنت أتعني انك لم تشب ... ؟

استغرقنا معا في ضحكة عارمة وهو يغير موقعه فيحاذيني . امتدت يده في رفق لتستقر على كتفي في عناق ودي . نفس الحركة التـــي كان ياتيها وهو بعد فتى صغير حينما كنا نخرج من المدرسة الابتدائيـــة ، أو نتقابل في شوارع فاس ورحابها . كانت طريقته المحببة للتعبير عن الفــه واطمئنانه حينما يأخذ في الحديث الى اصدقائه . سرنا معا نخطو خطواتنا البطيئة في نفس الشارع الذي طالما ذرعناه متحدثين مناقشين ، لا يكاد أحدنا يحمل من مشاكل الدنيا الا مشاكل المدرسة ، ولم تكن أي منها ترقي لتصبـــح مشكلـــة .

كنت مغتبطا بهذا اللقاء . إعادت ذراعه ، وهي تطوق عنقي برفق ، ذكريات حبيبة الى نفسي . لم اكن لانسى أصدقاء الطفولة رغم ان الزمان طوح بكل منا في متاهة لم يكن أحد يحسب آنئذ أنها ستكون قدره . تطلعت الى وجهه في ود وانا اقول :

— رغم الزمان والابعاد اجدني مشتاقا اليك .

قال وكانه يمتح من ذكريات عميقة في الماضي :

— كانت أياما سعيدة بدون مسؤولية ولا هموم ...

خشيت ان يغمر هذه اللحظات — ولم يكن ينظر لها الا ان تكون قصارا— حديث عن المسؤوليات والهموم . احببت ان اغير المجرى :

— ما تزال في اسر فاس ، وفي مدينتها القديمة ؟

التقط الكلمة من فمي وهو يضيف :

— وفي هذا الحي بالذات .

حي القرويين : العدول، الشماعين ، العطارين ، رحبة القيس ، زنقة حجامة ، بوطويل ، سبع لويات ... عالم متكامل كنا نحس بانه عالم متفرد

يجمع فاس كلها . ولعلنا بمداركنا الصغيرة لم نكن نعترف لاى حي آخر بانه من فاس . ولذلك لم أستغرب حين آكد محمود بانه ما يزال مرتبطا بالحي نفسه . كان من عائلة محافظة . حدثني مرة عن والده وهو يبدي ملاحظة نندية على صديق كان يهم ان يغير سكناه فينتقل من الحي الى ((الطالعة)) ، كان والده ينقد بشدة صديقه هذا الذي يتسم تصرفه بالطيش ويقول :

— من سيعرفه في الطالعة ؟ لا الحمام ولا الفران ولا المسجد ، ولا من يبدأه بالسلام ...

كنا نعجب من حكمة والده وهو يوجه صديقه . وكنت أعجب في سري لشجاعة هذا الصديق الذي تخطى مشكلة الغربة في الحمام والفران والمسجد فيسكن حي ((الطالعة)) ليؤكد لنفسه وللناس ان مستواه الاقتصادي ارتفع ، وأنه لم يعد من سكان حي القرويين .

قلت : واين تسكن ... ؟

قال على الفور : منذ تركت منزل والدي ، الله يرحمه ، وأنا في ((زنقة حجامة)) .

رنت في اذني كلمتا ((زنقة حجامة)) وكأني أسمعها لاول مرة . عادت بي الذاكرة الى وراء . كان محمود قد ارتبط بهذا الزقاق — ولم يكن من سكانه — بحادثة غريبة ما ازال اذكرها كما لو كان قد قصها علي بالامس .

قلت ، وانا اتغافل عن هذه الذكرى مستلهما واقع التطور الاجتماعي في فاس :

— وهل اولادك يقبلون ان يظلوا مرتبطين بزنقة حجامة ؟

نظر الي ، وعيناه تزخران بابتسامته العذبة :

— فاتك الفرس قبل مارس ...

لم افهم فاتجهت عيناى الى وجهه تطوقهما علامة استفهام

— ... فاتنـــي القطـــار .

اضاف وهو يضحك كانه يطرد عن نفسه غمامة حزينة كادت تظلـــل وجهـــــه :

— ليس لي أولاد (وبسرعة حتى لا يتسرب فهم خاطىء الى نفسي) لان ... لان امهم لم تولد بعد .

احسست باني فى حاجة الى ان اغير مجرى الحديث حتي لا احرجه. وما تزال قصته القديمة تلح على ذاكرتي تنبعث تفاصيلها حية كانها بنـــت الامس . كنا قد اقتحمنا طريق القطانين ، فى زاوية منه توقفنا . انحلت يده عن كتفي . تماما كما كان يفعل حينما يريد ان يودع . بدا كانه لم يعد يجد ما يقول . فى مثل الود الذي استقبلني به كان يودعني وهو يامل ان ابحث عنه كلما زرت فاس . قبلة من هنا وقبلة من هناك ، واستـــدار فى سرعة ، لتغيبه ـ بعد خطوات ـ طريق راس الشراطين .

* * *

تسمرت قدماى حيث تركني . تعلقت عيناى بدكان وقفـــت ببابـــه عشرات المرات الح وارجو وآمل واستعين بكل صبر ايوب . ما تزال على ابوابه آثار الطلاء الاخضر رغم إنها تهشمت . الواجهة الزجاجية ما تزا ل، رغم بلاها واستحالة لونها ، تطفح بالساعات المعلقة . ساعات الجيب من كل الاحجام والاصناف ، بعضها مستدير ، كحق نشوق ، بغطائه الفضي اللامع. كثير منها انكسر غطاؤها ، او لعلها من الساعات الحديثة التي تصنع دون غطاء . خلف الواجهة ساعات منبهة او متربعة كسيدة عجوز تحتفظ بكـل تراثها وثرائها . على جدران المعمل ساعات فى طول الجـــدار برقاصهـــا المتدلي ، بعض هذه الرقاقيص يتحرك ببطء وبعضها جامد فى مكانه كان زمانه قد توقف ، الحياة بكل قدمها ما تزال تدب فى الدكان الذي تحـرك فيه الزمان بكل ساعاته ودقائقه وثوانيه . وهو ... هو نفســـه ما يزال يقتعد مقعده خلف الفاصل الخشبي يملأ الفتحة الصغيرة التي تركتهـــا واجهة الدكان . تطلعت فى وجهه ، ملاه الشيب والتجاعيـــد ، تفضنـــت

بشرته كتينة فى اواخر الخريف . نظارة سميكة تقتعد أنفه ، قب جلابته ما يزال يعلو طربوشه . جالسا كبوذا لعله الان ينتظر القادمين . كانوا يوم عرفته ينتظرونه ، يطمحون الى رؤياه كما لو كان هو زمانهم .

انه هو ... سيدي عزوز مصلح الساعات المعروف . لم يكن كغيره من الساعاتيين الذين كانت تطفح بهم احياء فاس . ولكنه كان فريد زمانـــه فى اصلاح الساعات التي تستعصى على الآخرين ، والساعات الثمينة التـــي لا يثق اصحابها ان يضعوها فى اي يد غير صناع ، والساعـــات التي يبـــدو لاصحابها ـ ولو انهم لا يعرفون شيئا فى علوم الساعـــات ـ معقدة لانهـــا مستوردة من بلاد ((الوندريز)) او بلاد ((السويس)) لم يكن لهذه الساعات جميعها على اختلاف اشكالها وأحجامها غير سيدي عزوز .

ولم يكن سيدي عزوز يبتذل علمه ومعرفته ، فقد كان يلقب نفســـه بالطبيب ولا يقبل ان يسمع من اي كان كلمة ((المواكني)) .. وكان يلقـــب دكانه بالمصنع ولا يقبل أن يسمع من أي كان كلمة ((الحانوت)) . لا يقبل اى ساعة ، ولا يتعامل مع اى من اصحاب الساعات ، الا الذين يعرفهم مـــن عائلات فاس المعروفين والموسرين . ويحتفظ معملـــه بثروة طائلـــة من الساعات التي تبدو ثمينة . لعل احدا لم يحل لغز هذه الثروة قط : هل كان يتاجر فيها ، او هي متحفه الثمين الذي يعيش منتشيا بدقاتها وتجاربها مع الزمان ، يراود هذه لتستتئيم ، ويعتز بتلك التي تحاسب الزمان حسابا عسيرا ، تحصي أنفاسه وتسجل ثوانيه ودقائقه وتشير للمؤذن : ان ارفع صوتك : الله أكبر . ويلجا اليها المغرمون بدقة الوقت يقيسون على دقتها ساعاتهم ، يسالون سيدي عزوز عن الساعة (بالضبط) ان كان فارغا من العمل هادىء الطبع ، او يسترقون النظر اليها ان كان بين ادواته الدقيقة وعلى عينه اليمنى نظارته السوداء يعالج عطبا فى ساعة او يكشف خللا فى اخـــــرى .

لم يكن سيدي عزوز محترفا ، ولكنه ـ فيما يبدو ـ كان هاويـــا . سعيدا فى معمله وبين صديقاتـــه القديمـــات ، لا يهمـــه ان يســـرع باصلاح ساعة ليعيدها الى صاحبها اكثر مما يهمه ان يتركها اكبر وقـــت

ممكن مع زميلاتها لعلها توحي له بمفارقة ، او لعلها تضيف الى المتحف قطعة فريدة كان حاجة اليها .

كان حارس الزمان يحصي انفاسه ، كما لو كان الجبار امسك بتلابيب العفريت يسجنه في قمقمه ـ فيما تزعم الاسطورة ـ ويتربع على عتبته ليلهو به ، لا يحفل بما يصنع بالآخرين ما دام يستطيع ان يضبط حركته في هذه الآلات الدقيقة الثمينة ...

لذلك لم يكن علي صلة وفاء مع زبنائه الذين تنتظر ساعاتهم عنده شهورا ذوات العدد ، ان لم تبلغ السنوات . ومع ذلك كانت علاقات ودية يلجاون اليه كلما حرنت لاحدهم ساعة ، وهم يعرفون مندما انها ستستقر في المتحف الى ان يرضى عنها . لم يكن احدهم يغضب او يسحب ساعته اذا طال به الانتظار والتسويف ، ولكن أحدا منهم لم يكن ييأس فيسأل عن الساعة كلما مر من شارع القطانين ، وهو يعرف أنه سيسمع الجواب التقليدي :

ـ يومان أو ثلاثة ... هي في طريقها الى الاصلاح .

كان والد محمود من زبناء سيدي عزوز . لا تكاد ساعة من ساعاته الكثيرة تصاب بعطب او تسرع او تتمهل في سيرها الا حملها اليه كأنه يحمل الى طبيب احدى بناته لا يرجو شفاءها الا على يده . ولم يكن سيدي عزوز يختلف في معاملته للحاج بوبكر عن معاملته للآخرين ، ولم يكن الحاج بوبكر يضيق صدرا بهذا الاخلال في المواعيد من الرجل الذي يرغم الآلة على الا تخل بثانية تتقدم بها او تتاخر .

ولعل محمودا كان هو الضحية .

لم يكن ، وهو فتى يافع ، يملك ساعة او يسمح له والده بان يحمل احدى هذه الساعات التي يحفل بها المنزل . ولذلك كان الزمان عنده يقاس بالليل والنهار ، وفي ايام المدرسة يقاس ببداية الدروس ونهايتها . ولكنه مع ذلك كان الزبون الذي لا يكاد يمر يوم دون ان يسعى الى دكان سيدي عزوز ويقف ببابه يسال ، واحيانا يتوسل ويضرع . كان والده يحمله مسؤولية استعادة الساعة من سيدي عزوز يبعث به كل يوم دون ملل ،

ويصرفه سيدي عزوز عنه كلما وقف بباب دكانه دون ملل ، حتى اصبح كرقاص الساعة الكبيرة يدفع به جدارها الايمن الى جدارها الايسر في غير رحمة ولا شفقة . وكلما نجح محمود في استخلاص ساعة كانت زميلة لها تتهيا لتزور متحف سيدي عزوز .

* * *

كان ذلك في رمضان في صباح من اصباحه المتكاسلة وكان محمود في القسم على غير عادته زائغ العينين تائه الفكر اصفر الوجه . لم الق بالا لهذا الذي بدا عليه من تغير . فقد كان يصر على أن يصوم رغم ان والده ووالدته يمنعانه من الصوم بحجة انه ما يزال صغيرا . كان يعمل على ان يؤكد رجولته بالصيام رغم ان الطقس كان يميل الى الحرارة والنهار كان يميل الى الطول ، ورغم أن بنيته لم تكن تساعده على ذلك فقد كان عنودا . لهذا لم يلفت نظري ما بدا عليه من اضطراب حتى انتهت حصة الصباح وخرجنا من المدرسة . وضع ذراعه على كتفي كعادته حينما يريد أن يفضي الي بشيء . وبدأ يهمس في أذني كانه يخشى ان يسمعه أحد غيري .

— اتدري ما حدث مساء امس ؟

تصاعدت انفاسه كانما كان يشق عليه ان يستعيد ذكريات لا يود ان يتذكرها . لم يثرني تساؤله الغريب ، وكعادتي أقابل مثل هذه الاهتمامات، التي يعتبرها غيري مثيرة ، بنوع من البرود يحسبه كثيرون اهمالا ، واستمر :

— ... سيدي عزوز ، هذا الساعاتي الذي لا تكاد ساعة تزور متحفه الا استولى عليها كعنكبوت تحتضن ضحيتها بخيوطها الحريرية الناعمة ، والذي لا يؤمن بغير سيدي عزوز كان الزمن لا يستقيم على غير يديه ...

قاطعته ساخرا ...

— بقية القصة معروفة : عمك ، خالك ، زوج اختك وسيدي عزوز.

هزته السخرية من اعماقه فافتر فمه عن ابتسامة غيرت ملامح همومه فاستانف :

— لا تعجل ... كان والدي على موعد سفر صباح اليوم ، وهو يثق في ساعته الفضية ثقته في سيدي عزوز .

— لعله يخشى أن يفوته القطار اذا لم تاخذ مكانها من جيبه .

ضاق محمود بمقاطعتي واستمر :

— ... والعنكبوت يخيم على الساعة ، فلم استطع رغم ترددي على دكانه طيلة شهرين ان استعيدها . وقد اقسم لوالدي امس ان يحملها بنفسه الى منزلنا بعد الافطار . مرت الساعات بطيئة ووالدي ينتظر ، يعد حقائبه وينهي مشاكله ويعود فيسال : الم يات سيدي عزوز ؟ تناومت ولو ان بي شوقا الى أن اسهر معه حتى ساعة الوداع ...

— ... وفي ساعة الوداع تتفتح ابواب السماء في ليلة القدر ..؟

استشاط غضبا من مقاطعتي فنظر الي عاتبا ، وقد انحلت ذراعه عن عنقي . واستانف كاني لم اقاطع :

— ... آمحمود ... آمحمود .

كان لا بد لي ان اجيب فقد كنت اميز جيدا بين النداء الغاضب الذي لا ينفع فيه تهرب ، والنداء الذي يمكن ان ابتعد عن مرمى اصدائه فلا يطول اذني . ووقفت امامه مشفقا كانما انتظر حكما قاسيا .

— الى سيدي عزوز ... لم يات ـ الله يهديه ـ بالساعة كما وعد ... لا تتاخر ... ليس بيني وبين مغادرة المنزل غير ساعات ... اسرع. ما تزال واقفا ... ؟

تسمرت قدماي .. طاشت احلامي . زاغت نظراتي . ولعلي لم اكن اعي الفقرات الاخيرة من اوامره . انتبهت مذعورا على صيحة مدوية ، وكان لا يصيح الا اذا احتدت اعصابه . اتجهت باذني وعيني جميعا الى مصدر الصيحة . قلت وانا لا اعرف ما اقول :

— ... ولكنه ... ولكن .. الدكان مقفــل فنحن نقتــرب من منتصف الليل ...

نظر الي كانما احس باني اداور . كتم غيظه وطامن من صوته وهــو يؤكد الحكــم :

— ... في منزله ... الم تذهب الى منزله عشرات المرات ...؟

نظر الى وجهي ، الى عيني وكانه يقرا ما في عمقهما . اضاف :

— في رمضان لا ينام احد ... ستجده في انتظارك ... اسرع الله يرضي عنــك ...

لم يكن في وسعي ان اعترض . طاطات راسي

تلفتت نحو محمود فوجدته مطاطىء الراس كانه كان يمثل وهو يحكي قصته ، لعله كان يفكر ، يتنقل بوعيه الى ما كان يفكر فيه ساعـة ان صدر الحكم بان يطرق منزل سيدي عزوز في تلك الليلة التاريخية من ليالي رمضان.

منزله في درب ضيق مظلم من هذه الدروب التي تعتبر في فاس حيا كاملا من الاحياء المهمة ، تسكنها قبيلة باكملها ، تتلوى طرقها وحواريهـــا كالحرباء ، قد تعرف مدخلها ، ولكنك لا تستطيع ان تخرج منها الا بدليل.. عشرات الازقة الجانبية التي تدهشك بشكلها المعتم وجدرانها المتآكلـة وسقوفها المطبقة كانها كهوف اهل الكهف ، عشرات الدور ومرائب البغال والحمير والخرائب ، سقوف محمولة على اعمدة خشبية متهاوية . لا تامن وحشتها في عز الظهر ، ولا يدخلها ليلا الا اشجع شجاع . تامن الانســـان فيها ، ولكنك لا تامن صراخا هائلا منبعثا من مواء قطط تتصارع على نفايات الازبال ، وقد يفزعك قط انحرف به زقاق ضيق يسابق فارا ضخما انطلق في الظلام يبحث عن غذاء . الصمت والظلام وهدوء الموت يفسح المجال لاصوات غريبة تنبعث ، لا ادري من اين ... لا تسمعها اذناك فقط ، ولكنك بكل حواسك وجوارحك تتسمعها موشوشة ، صاخبة ، ثائرة ، نادبــة ، ضاحكة . لا تملك ان تخرسها بالغناء او الحديث الى نفسك ، اصداؤهـــا تعلو فوق صوتك . تتجمع ذاتك كانما لتهرب من هذه الاصــوات ، مــن

الصمت ، من الصخب ، من الظلام ، من الليل ، من الوحدة ، من مـــواء القطط وسباق الفئران ، وتبقى ذاتك حيث هي فى عالم الدرب العجيب .

ــــ اتدري اى درب هذا الذي كان يسكنه سيدي عزوز ؟

انفجرت ضاحكا بعد ان ازاح عني هذا السؤال الكبت الذي غمرني به محمود وهو مطاطىء الراس يفكر .

ــــ لن يكون غير « زنقة حجامة » او « السبع لويات »

قال محمود وهو يستغرب ان أعرف الدرب الذي يقصده :

ــــ من أيـــن عرفـــت ؟

استانـــــــف :

كان علي ان احل المشكلة التي لم يفكر فيها والدي . لعلها ليســـت مشكلة بالنسبة اليه . لقد عاش حياته يقتحم هذه الدروب نهارا أو ليلا ، لا يخاف لانه ليس هناك ما يخيف .. وكان الحل ان أوقظ ابن عـــم لـــي ليصحبني . كنت اعرف العوض : اقتسم معه ما ينفحني به والدي ليلـــة سفره . أطار الاقتراح النوم من عينيه . كان إشجع مني وهو يقتحم الدرب. لم تتردد قدماه بمثل ما ترددت قدماي . كنت أقفز كلما فرت قطة من بين قدمي يلاحقها قط يمر بين قدميه كسهم غير طائش ، وكان هو يضحـــك بملء فيه وهو ينحني ليلتقط حجرا يقذف به الخصمين . تلفتت يمنة وأنا احاذر ان ينقض علي انس أو جان ، فالتقت عيناي بعينين تلمعان فى موجة من ظلام لم تتحركا . كانتا متجهتين نحوي كانهما تقدحان بشرر . حولت نظري عنهما وانا ابحث عن مصباح بعيد معلق بين السماء والارض كقنديل ينفث آخر ما بقي فى ذبالته . كان بعيدا لا يضيء ولكنه استطاع ان ينقــذ عيني من كتلة الظلام والعينين اللامعتين التائهتين فى الظلام . حاول ابن عمي أن يسرع وهو يشغل نفسه بكلام يعلو فيه صوته كما لو كان يتحدث الى جمهور . لم اكن أعي كلامه ، ولم يكن يشغلني صوتـــه عن الاصوات المتهافتة التي تنطلق من كل مكان فترجني من أعماقي . حاولت ان اتلخص منها فنطقت :

— سيدي عزوز هذا متى سيموت ... ؟

لم يدر معنى لسؤالي فانطلق ضاحكا ، ورد ساخرا :

— اتريدني ان اسال سيدنا عزرائيل ؟

ازداد ضحكه قوة وارتفع صوته ـ لعله ليطغى على الاصوات الهائمة في الظلام ـ واردف :

— الموت لا يعرف الطريق الى هذه الدروب ...

استمر يضحك وهو يضيف :

— ... لعله يخـــاف ان يدخـــل ..

قلت في نفسي وانا لا استطيع ان احرك لساني :

— ولعله ان دخل لا يستطيع الخروج ...

كنت اعرف الطريق جيدا الى دار سيدي عزوز . وكان ابن عمـــي يقف عند كل منحني ، عند كل التواء ، عند كل زقاق ، ليتركني اتقدمه حتى ادله على الطريق . اتوقف حتى تسبق خطواته خطواتي . كنت ادله على الطريق باشارة من يدي ، ولو ان الظلام لم يكن يسعفه ان يتتبع الاشارة .

كان آخر التواء . وكنا بباب دار سيدي عزوز .

ابتلع محمود لسانه وسكت ، كان بي شوق الى تتمة حديثه فقد كنت أوثر ان ارميه بضحكة ساخرة وهو يتحدث لي عن مخابىء زنقة حجامـــة . اذكر جيدا هذه ((الزنقة)) التي يمكن ان تضاف الى عجائب الدنيا السبع ولكنه سكت ، طاطا راسه مرة أخرى لعله كان يفكر في الزقاق الصغيـــر الذي تثوى به دار سيدي عزوز . انه زقاق ليس طويلا ولا عميقا ، تتربعه مجموعة من بوابات المنازل بعضها فخم فاره ، بعضها متواضع متهافت آئل الى السقوط . كنوز اثرية وراء هذه البوابات الضخمة ، ووراءها قصور لم تكن تحلم بان تثوى في قعر درب غارق في الظلام والوخم والقذارة تتسابق فيه القطط والفئران والكلاب الضائعة . لا ينفذ الى الزقاق هواء ولا نور

الا ما تتصدق به البوابات الفارهة ان تخللتها نسمة من هواء او بصيص من نور . وكان هناك مصباح يضيء ، ملتصق بالسقف . سقف منحدر يكاد يطبق على الارض . المصباح يكشف عن خروم الجدران المتآكلة ، تكـــاد تشعر بانها آئلة الى سقوط . يكشف عن ستائر العنكبوت السوداء ، ربما صنعها لتخفي السقف المنتفخ كبطن حبلى توشك ان تفع جنينها . الستائر السوداء خيمت ايضا على جنبات المصباح لترسم ظـــلالا على الجـــدران المتآكلة والارض المتربة والبوبات الصارمة والوجوه المرعوبة والقطـــط المتلصصة . بقع من نور باهت تلصصت من وراء الستائر السوداء هـــي وحدها كانت تؤنس غربة الزقاق الغارق فى الظلام والوحشة والخوف .

لوحة فنية رائعة ، ابدعتها ريشة فنان ...

هكذا إفكر الآن ، وانا اذكر هذا الزقـــاق الصغيـــر من زقاقـــات « زنقـــة حجامـــة » .

تلفتت الى وجه محمود أستزيد من بقية قصته . استعاد نفسه ولعله كان ضائعا فى ذكرى لم تترسب بعد فى اعماقه . استفـــاق فى حركـــة مفاجئة ، استمر كان شيئا ما لم يقطع حديثه :

ــــ ... رفعت « الخرصة » لأضرب ضربة قويـــة عنيفـــة ... تذكرت توصية والدي : فى رمضان لا ينام الناس ... لعله ينتظرك ... ضربت ضربة هادئة وانتظرت ... اعدت الضربة إقوى قليلا وانتظرت .. الهدوء والصمت ودقات قلبي قوية عنيفة . كانت هي كل الصدى . نظر احدنا فى وجه الآخر كاننا فى مشورة ، أبعدني بيسراه عن بوابة المنـــزل وامسك بيمناه الخرصة فى عنف كما لو كانت له معها ترة . حاولـــت ان اثنيه ، ولكني وجدتني مرتاحا لعنفه فقد يستجيب سيدي عزوز او احـــد من خدمه ليرفع عنا صوته كابوس الوحدة والصمت . تلاشـــت اصـــداء الضربات القوية العنيفة ، وعدنا الى موقعنا من الهدوء والصمت ودقات قلبي العنيفة . لم آكن استطيع العودة دون الساعة الملعونة ، ولو استطعت لاقتحمت مخدع سيدي عزوز وامسكت بتلابيبه او يعيد الي الساعة . كان العجز يهيمن علينا ، فلا نحن نستطيع العودة ولا نحن نستطيـــع اقتحـــام المنزل المغلق لنوقظ الرجل الفارق فى سبات عميق .

قلت ، وانا احاول ان اخرج بمحمود من هذه التفاصيل المملة :

— كان امامكما حل واحد : ان تناما بباب المنزل حتى الصباح ، فلعلكما تظفران به وقد إفاق ...

اتبعت كلماتي بضحكة قوية فنظر الي شزرا وكانه يقول :

— لا تسخر ... لو وقفت موقفي ذاك ...

استانف حديثه وكانه كان حريصا على ان يتخلص من عبء يثقل كاهله:

— ... ومع الصمت والهدوء وخشخشة قطة تبحث في ركام نفايات الدور كانت عينا ابن عمي تجحظان وتتسمران في نهاية الزقاق . لم يعد يتحرك .. زاد جموده من عنف المأساة . نظرت اليه في رعب وقد كان كل أملي ان يطرد عني وحشة الوحدة والخوف . باشارة من يده وكلمة مرعوبة من لسانه :

— انظـــــر ...

لم تتجه عيناي على بعدهما . كنت اخاف ان انظر الى ما وراء بقع النور الباهت .

— مالك ... ؟ انها قطة تبحث عن غذاء . اصبحت تخشى القطط

بصوت خافت يكاد يختنق اجاب :

— انظر هناك ... في آخر الدرب .

واتجهت عيناي الى امام ، آخر الزقاق ، كتلة من ظلام ينفذ اليهـا شعاع باهت من نور المصباح يخترق ستائر العنكبوت ليفسح الطريق امام العيون المرعوبة . كانت هناك بقامتها المديدة وجسمها البـض المكتنـز يموج في بحر لجي من بياضه اللامع ، بعينيها السوداويـن البراقتيـن المليئتين بالحنان والسلام والنداء ، بشعرها الطويل القوي الفاحم ينسدل على كتفين نابضتين ، بصدرها الناهد المندفع الى امام ، بوقفتها المتجلية في عريها الكامل ... ببسمتها الحانية ، بعطائها المتلهف .

وقف شعر راسي وارتعدت فرائصي وانا استمع الى محمود .

كان صوته جافا وهو يروي قصته . كان صادقا وهو ينقل مشاعره .

تغلبت على كل مخاوفي . عدت لمداعبته .

— تسابقتما اليها ، او جرت نحوكما ... ؟ طوقتكما بذراعيها الناعمتين فى حنان ... ؟

ابتسم كما لو كان يامل ... ثم عاد الى عينيه الرعب القاتل :

— عدت ادراجي وانا اجري فى لهفة . كان ابن عمي يلاحقني وانا اخرج من زقاق لأرتمي فى زقاق ، تفر من بين ارجلنا القطط والفئران والكلاب وكانها تشعر باننا نطاردها . لا ادري الوقت الذي قطعناه فى طريقنا الى خارج « زنقة حجامة » ولكنا ـ ونحن نتعثر فى جرينا ـ كنا نشعر بان احدا ما يلاحقنا ... بان اقدامنا لا تبرح مكانها . بان الضوء الذي بهرنا فى آخر الدرب يكاد يغشي عيوننا فلا نتبين مواطىء اقدامنا .

وفى باب زنقة حجامة كان الناس ما يزالون يسهرون مع ليالي رمضان .

• • •

ما يزال محمود ينتظرها ، كان يزور مسرح اللقيا القصيرة كلما هف به الشوق . وانتقل الى زنقة حجامة يسكن فى نفس الزقاق الذي كان يسكنه سيدي عزوز ، لا ليبحث فيه عن الساعة الضائعة ، ولكنه ليبحث عنها ، تلك التي ضاعت منذ كان يقف تحت المصباح الباهت يرجو فى رعب أن تفتح له بوابة دار سيدي عزوز .

الربـــاط   عبد الكريم غـــلاب

الشعر المغربي في مرحلة النهضة

د. عباس الجراري

اسمحوا لي في بداية هذا اللقاء إن اعرب عن مدى السعادة التـــي إشعر بها تغمرني وأنا أعتلي هذا المنبر الذي أقيم في هـــذه الدار مـــن اجل التثقيف والتوعية والتصحيح . وان هذا النشاط الذي يلقى متوسلا بالخطاب ليضاف الى ما يذاع مسطورا ، والى غيره من إلوان النشاط التي تتوسل بشتى اساليب التعبير ، ليشكل في النهاية مناهل للثقافة ثـــرة فياضة ، هي لا شك في بداية عطائها ولكنها تنبىء بالشيء الكثير ، طالما ان الآمال كبار والهمم كذلك .

معالـــي الوزيـــر
حضـــرات الســـادة

موضوع هذه المحاضرة هو « الشعر المغربي في مرحلة النهضة » ؛ وإعترف منذ البدء انه موضوع مهم وصعب ؛ فهو يكتسي إهميته من حيث

---

* شارك الكاتب بهذه المحاضرة في الموسم الثقافي المنصرم لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، وقد القاها بقاعة الوزارة في جمهور غفير وبحضور معالي وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الاديب المبدع الكبير الاستاذ الحاج امحمد ابا حنيني .

ارتباطه بفترة مصيرية في تاريخ المغرب المعاصر . أما الصعوبة فناتجة عن قلة المادة الشعرية التي بين أيدينا بسبب ظروف النشر ، وحتى حين توجد فهي مشتتة . ثم هي ناتجة عن غموض كثير من الظروف التي عرفتها هذه المرحلة والتي يكمن فيها تفسير الكثير من ظواهر الشعر وملامحه ، ولكنها ما زالت تاريخيا واجتماعيا لم تحلل لكي تعرف حقيقتها . والصعوبة بعد هذا ناتجة عن حساسية المعاصرة التي هي أبدا موجودة فى التاريخ وفى كل المجتمعات ، وان اتسمت عندنا لاسباب كثيرة ليس هذا مجال ذكرها بشيء غير قليل من الحدة والافراط .

وسوف أحاول إن اطرح في هذه المحاضرة تخطيطا للشعر واتجاهاته فى مرحلة النهضة ، وان أشير الى أبرز الملامح ، واثير أهم القضايا التي يمكن طرحها فى الدراسة .

وبدون ان أدخل فى تفاصيل التاريخ ابادر الى القول بأن مرحلة النهضة الحقيقية بدأت منذ حوالي خمسين سنة تزيد او تنقص قليلا . هذه المرحلة ظهرت فى أعقاب دخول الحماية وجاءت كرد فعل لها :

1 – بدأ رد الفعل متمثلا فى القيادات الشعبية التي وجهت المقاومة المسلحة فى كثير من المناطق ... فى الشمال والجنوب والاطلس الكبير والمتوسط ، وابرزها ثورة الريف .

2 – بمجرد ان توقفت المقاومة الشعبية المسلحة – أو كادت – ظهرت القيادة الفكرية فى الميدان ، وتجلت هذه القيادة فى الحركة السلفية التي لم تلبث ان تطورت فى خط يلحم بين العملين الثقافي والسياسي ؛ وكان حادث الظهير البربري سنة 1930 بداية لهذا الالتحام وبالتالي بداية الحركة الوطنية .

ثم وجدت بعد ذلك أسباب كان لها تاثيرها المباشر فى خلق النهضة، من اهمها :

1 – انتشار التعليم على الصعيد الحكومي والحر

2 – ازدهار الصحافة

3 ـ الاتصال بالمشرق العربي بواسطة الصحف والمجلات والكتب ، والبعثات كذلك .

4 ـ الاتصال باروبا ـ وفرنسا خاصة ـ عن طريق المدارس والبعثات ومختلف وسائل التثقيف .

5 ـ وجود وعي وطني ورأي عام مغربي وقيادة شعبية تلتف حولها الجماهير .

ماذا كان حال الشعر ؟

لا بد ان نعرف ان الشعر في الفترة التي سبقت الحماية مباشرة كان قد ضعف ، اذ لا نصادف بعد ابن زاكور وابن الطيب العلمي وابن ادريس شعراء في المستوى الممتاز .

ويبدو ان الزعامة الشعرية كانت قد انتقلت لطائفة جديدة من الشعراء، مزجوا بين القول في المعرب والملحون ، امثال التهامي المدغري والحاج ادريس بن علي المعروف ب « لحنش » . وربما كان من مظاهر ذلك موقف الادباء من حرب تطوان ، وهو موقف لم نقرأ فيه الا لشعراء غير مجيدين ، لعل أهمهم المفضل افيلال . ومن ثم فان الارضية الشعرية ، واعني تلك التي كان يقف عليها شعراء النهضة الاوائل (الاتجاه التقليدي كما سنرى بعد قليل) كانت ارضية هشة وضعيفة . ولهذا حاولوا الرجوع الى التراث العربي القديم عامة ، والعباسي والاندلسي خاصة .

وحين نتامل اطوار الشعر في هذه المرحلة نجدها متداخلة :

1 ـ استمرار للتيار القديم : اتجاه تقليدي ـ كلاسي . من اعلامه محمد غريط ، احمد بن المامون البلغيثي ، محمد السليماني ، المكي البيطاوري ، محمد بوجندار ، العباس الشرفي ، محمد بن موسى ، احمد سكيرج ، عبد الرحمن بن زيدان ، احمد النميشي ، محمد الجزولي ، ابو بكر بناني ، احمد الزبدي ، عبد الله القباج ، محمد اليمني الناصري والطاهر الايفراني .

2 ـ ظهور شعراء مجددين : اتجاه تقليدي جديد ـ كلاسية جديـــدة .
وتميزت فيه فئتـــان :

ا ـ الذين اعتمدوا على التراث وعلى حركة البعث فى الشـــرق ، ومن بينهم محمد المختار السوسي ، محمد القري ، علال الفاسي ، المكي الناصري ، محمد بن ابراهيم ، عبد المالك البلغيثي ، عبـــد الرحمن حجي ، الحسن الداودي ، محمد العثماني والحسن البونعماني
ب ـ جيل تاثر بمدرسة الديوان فى اتجاه العقاد الواقعي الرومانسي وكذلك بمدرسة ابولو والمهجر . ومن شعرائه الحلوي ، عبد القادر حسن ، عبد الكريم بن ثابت وعبد المجيد بنجلون .

3 ـ بعد الاستقلال : شعراء جدد (شبـــاب)

اما الاتجاه الاول ، وهو التقليدي ، فكان ينطلق من مفهوم معين للشعر وهو مفهوم يربط الشعر بثقافة العالم او الفقيه ، باعتباره عنصرا مكمـــلا لهذه الثقافة ، ووسيلة لاظهار القدرة التعبيرية ، وباعتبار دوره لا يتعدى الترويح عن النفس وتبادل العواطف مع الآخرين . ولعله يتضح لنا من قول احمد البلغيثي فى هذه الابيات :

ما نظمت القريض ابغي به الفخـــــــر ولا سائلا فضول نـــوال
شغلتني عنه العلوم ولـــم ار ض اسمى بشاعر ســـــوال
انما قلت ما نظمت من الشعـــــــر ولوعا ورغبة فى الكمـــال
ان اتاني للخوض فيه رجـــال كنت تاجا على رؤوس الرجال
او تشوقت للحبيب ترانـــــي مظهرا حبه بسحـــر حــــلال
ليس نظم القريض بالحبر عيبا بل كمالا مكملا للمعالـــــــي
انما العيب ان ترى شاعرا خلـــــــوا من الفضل والعلوم العوالي

وكان تبعا لهذا المفهوم ان جاءت الموضوعات متنوعة في هذا الاتجاه، وكانـــت تشمـــل :

1 ـ موضوعات ذاتية تعتمد الغزل ووصف الطبيعة
2 ـ اخوانيـــات ومطارحـــات ومساجـــلات

3 ـ شعر المناسبات من مدح ورثاء وهجاء

4 ـ يضاف اليها المديح النبوي الذي كان موضوعا خصبا عند شعراء هذه الفترة .

وهذه كلها موضوعات لا اريد ان أمثل لها في هذا المجال المحدود ، خاصة وانها غير جديدة على الاتجاه ، ولكن الجديد ان بعض هؤلاء ممن تجاوبوا مع حركة النهوض كانوا يقولون في موضوعات غير مالوفة كمحمد غريط الذي نظم نشيدا مدرسيا يقول في لازمته :

يا بني العصر أجيبوا داعي النصح المنير
واستجدوا ذكر قطر كان ذا صيت شهير

ومن هذا ما نجده عند احمد سكيرج في اكثر من قصيدة يحث على العلم كقوله :

ردوا من ينابيع العلوم مواردا بها ينجلي الجهل الكثير المعاطب
فكل بلاء اصله الجهل في الورى وما الجهل الا مرتع للمعايب
عليكم باحراز العلوم وبثها فتحت لواء العلم أعلى المناصب

ومثل ذلك نشيد محمد الجزولي المعروف ب « نشيد الشباب » وكان قد نظمه في وقت مبكر على اثر الحوادث التي عرفتها الرباط وسلا حين فرضت السلطة ضريبة « الكياب » ، يقول في اوله :

زمان المجد هل لك ان تعودا وتنشر فوق مغربنا بنودا

وفي حرب الريف تذكر قصيدة السليماني التي اولها :

دع الفتيات تمرح في القصور ويمم مسعفا وادي النكور

كما يذكر في هذه الحرب نشيد ابي بكر بناني الذي دعا فيه الى مساندة الثورة الريفية ، وفي اوله يقول :

يا بني المغرب ما هذا الرقاد ما لكم صرتم كامثال الجماد
فدعوا النوم وقوموا للجهاد واسالوا الله انتصار المسلمين

واما الاتجاه التقليدي الجديد ، فانطلق من مفهوم آخر للشعر ، يجعله معبرا عن الذات والاحساس ، ومعبرا كذلك عن الشعور العـــام . وهـــو مفهوم يؤكده المختار السوسي فى هذه الابيات حيث يقول :

ما الشعر موزون بقافيـة لـــه ... معنى باسماع الجليس سديـــد
لكنما الشعر الذي ان جـال فـي ... الاسماع يذهب بالفتى ويعـــود
ويرن اثنـــاء الضميـــر برنــة ... نغماتها يحيي بهـــا المـــوءود
فيثير مكنون الضميـــر كانـــه ... وحي من اكناف السماء جديـــد
ويبث روحا فى الشعوب فتنثني ... عـــاد الـى عليائهـــا وثمـــود
هذا هو الشعر الذي اختـــاره ... ويـــروق لـــي واوده واريـــد

كما يؤكده محمد القـــري فى قولـــه :

الشعر وحـــي صـــادق ... وعن الحقائق ناطـــق
ما قالـــه الا حكيـــــــــم المعي حـــاذق
والشعر كم تبـــدو بـــه ... للمصلحين حقائـــق
والشعر كم تحيـــا بـــه ... بين الشعـــوب خلائـــق
والشعر وحـــي سائـــل ... متناسب متناســـق
ما جاء جبريـــل بـــه ... بل جاء وهو السابـــق
والشعر يوحيه الخيـــا ... ل الى العقول الرائـــق
مهما صفـــت نفس الحكيـــم صفا الشعور السائق
ان الدواعـــي للكـــلا ... م تجيء وهي شقائـــق

وقد سارت الموضوعات عند شعراء هذا الاتجاه فى خطين :

1 ـ الفئة الاولى : ظل الشعر عندها مرتبطا بالاغراض التقليدية ، وخاصة الموضوعات الذاتية والاخوانيات . وعند هذه الفئة ظهر تطـــور فى الشعر يتجه به نحو التعبير الوطني . وشعراؤها متاثرون فى الغالب بالتراث القديم ، كما انهم متاثرون بمدرسة البعث . ومع ذلك فان فان بعض شعراء هذه الفئة كانوا لا يحيدون عن الموضوعات الخاصة، امثال عبد الرحمن حجي والحسن الداودي . بل اننا نجد من شعرائها من وقف شعره للتكسب كمحمد بن ابراهيم .

2 ـ الفئة الثانية : وهي التي لمحنا عندها التأثر بالاتجاهات الشعرية الجديدة (الديوان ، ابولو ، المهجر ، مع النظر فى التراث القديم عند البعض) فقد تعاملت مع مختلف الاغراض السالفة ، وان غلبت عليها موضوعات الذات والتغني بالطبيعة والجمال .

وعند هؤلاء الشعراء جميعا تطور الشعر ليواكب التطور السياسي الذي عرفته الفترة . وكشف هذا التطور عن ثلاث مراحل :

1 ـ حماية الوحدة المغربية والذود عنها على اثر حادث الظهير البربري.

2 ـ المطالبة بتحقيق بعض الاصلاحات ، وخاصة فيما يتصل بالمجالات الحيوية فى الامة وأهمها التعليم .

3 ـ الكفاح من اجل الحرية .

ما ذا نجد من شعر فى الدعوة للوحدة الوطنية ؟ النصوص غير كثيرة، وهذه بعض نماذجها :

1 ـ نشيد لعلال الفاسي اوله :

صوت ينادي المغربي ... من مازغ ليعرب
يحدو شباب المغرب ... للذود عن حوض الوطن

2 ـ نشيد آخر له يقول فى مطلعه :

كلنا من عربي ... خالص او بربري
قد تعلقنا بعرش علوي ... واعتصمنا بلوائه

3 ـ نشيد للمكي الناصري يقول فيه :

فؤادي الى وطني قد صبا ... تعشقته منذ طور الصبا
وديني فى حبه رغبا ... فيا وطني عنك لن ارغبا
ويا وطني لا تخف أن اميل ... واخلف وعدك اني امين

كفيل بنيل مناك ضمين

4 ـ قصيدة لمحمد بن عبد الله العثماني السوسي بعنوان ((اين اللواء))

انشاها حين ازال رجال الاستعمار العلم المغربي من الادارات المخزنية بسوس تمهيدا لفصل هذا الاقليم عن الوطن .

وفيها يقول :

فسلام عليه يوم تولى ... يوم غابت الراية الخضراء
يوم ضمت ممالكا وشعوبا ... وحدة تحت ظلها واخاء
وشذا طائر الوئام عليها ... وجرى النصر حولها والدماء
ساءنا ان نرى سوان جم سوء ... علم المسلمين فيه اساءوا
ايها المسلمون هذا الذي لم ... تك الا لمثله الهيجاء
لم لا تصبح البلاد وفيها ... الويات من الدما حمراء ؟

وفى اطار الدعوة للوحدة الوطنية تظهر الدعوة للتمسك باللغة العربية فى اشادة بها وتمجيد ، على حد ما تكشف هذه الامثلة :

1 — قصيدة للمختار السوسي مطلعها :

باى خطاب ام باى عظات ... اوجه وجه الشعب شطر لغاتي

2 — قصيدة « زفرة على اللغة » لمحمد القري ، اولها :

رويدك قد طغت علي انات ... وظلم ما تلاقي من اداة

بالنسبة للشعر الذي يمثل الدعوة للتعليم وتوجيه الناشئة نكتفي بالاشارة الى هذه النصوص :

1 — قصيدة لمحمد المهدي الحجوي ، مطلعها :

الى متى نترك التعليم مهجورا ... ونحسب العلم فى الافرنج محصورا

2 — قصيدة للمكي الناصري بمناسبة اختتام الشيخ ابن الحسني جامع البخاري ، اولها :

كم انادي مستنهضا لبلادي ... وارى الكل سابحا فى رقاد

كذلك تذكر فى الدعوة للتعليم قصيدة عبد الكريم سكيرج ، ومطلعها :

ما بال قومي لم ينهض بهم عمل ... والناس كلهم بالعلم قد عملوا

وفى الدعوة لتعليم الفتاة نختار قصيدة لنفس الشاعر ، أولها :

ما للفتاة تغيــرت احوالهـــا ... وتضاعفت مع ضعفها اهوالهـا

اما الكفاح الوطني فالحقيقة انه تجلى فى أكثر من غرض شعـــري ، ابسطها ما كان ينشىء الشعراء من قصائد فى التنويه بالبطولات والاشادة بالانتصارات ، على حد ما نقرأ لمحمد اليمني الناصري من قصيدة مولديـة يقول فيها متحدثا عن بعض المواقع التي انتصر فيها ابن عبد الكريـم على القوتين الفرنسية والاسبانية :

انظر لما تلقي فرنسـا منـــــه اذ ... قصدت بشامخ مجده استخفافـــا
جاءت بمعظم جيشهـا وعتادهـــا ... فاستنزفته رجاله استنزافـــا
وأدال دولتها بفـــرط دهائـــــه ... وتمزقـــت أحزابهـــا أطرافـــا
حتى اثار بمجلسيهـــا ثـــــورة ... شعواء ترجو الهدنـة استعطافـــا
واذا ليوطي قد تردى ساقطــــا ... متحمـــلا مما جنـــاه اكافــــا
وحليفه دى ريفيرا قد فـــــر لا ... يلوي على شيء بـــه يتلافــــى
وتنافـــرت آراء دولتــــه بمـــــا ... اضحت رؤوس مجنديه قطاعــــا
سل عنهم باب المروج وتـــــازة ... وسلاس والبيبان والاجرافـــــا
وسل البرانس والتسول وجايـــة ... والسبت والكيفـــان والاكنافـــا
تلك المواقع روعـــت ابطالهـــم ... وجلت لنا عن روعهم اسجافـــا

وليس من شك فى ان شعر المنافي والسجون كان من اهم اغراض شعر الكفاح الوطني ، وقد برز فيه شعراء فى طليعتهم المختار السوسي وعلال الفاسي ، وخاصة الشاعر السوسي الذي ضمن كثيـــرا من هـــذه القصائد فى كتبه ولا سيما ((الالفيات)) . ولكن شعر المختار كان الى شعر الغربة اقرب منه الى شعر النضال ، وربما تفوق عليه فى هـــذا البـــاب شعـــر عـــلال .

وسنمثل لهذا النوع من الشعر بقصيدة لشاعر آخر كثيـــرا ما كان يتعرض للسجن ، وهو عبد القادر حسن ، يقول فيها وقد غلب عليه التفاؤل بالنصـــر القريـــب :

خلوا سبيل الهوى ياخـذ بايدينـــا ... فقد سئمنا من النطس المداوينـا

ياليت شعري وكف الدهر قد بطشت أي المصائب لم تنزل بوادبنـــا
سجن ونفى ولا رسـل ولا كتـب كأنما قد وئدنـا فى فيافينـــا
ناسى عليكم ولا ناسي بحادثـــة مهما انتشى سكرة منهـا اعادينـا
فقد رأيت صروف الدهر وهي تهي فيبتني فوقها الاحرار تحصينـا
وان الوية الحريـة ارتفعـــت فى جو أودية كانـت كوادينـــا
خفاقة تبعث البشرى بمن خطبـوا يمينها وفنوا فيهـا مغالينـــا
فلم يعد بيننا والنصر غير خطـى قليلة سوف نخطوها ميامينـــا
وسوف ننتزع استقلالنـا فتـرى منا شعوب الورى نبلا كماضينـا
فقد نفاجئكم ان طارقين مســـا او مبكرين ونادى النصر حادينـا

ويعتبر شعر العرش من اهم الاغراض التي دار حولها هذا الموضوع ، فهو شعر وطني بكل البعد الذي يعطيه الوصف ، وفى الاطار الـــذي كان مطروحا لمفهوم الوطنية ، وهذا مهم فى التحليل . ولكن لا شك ان هناك قضية تطرح نفسها على الدارس فى هذا الشعر ، لعلها تشكل الخيـــط الفاصل بين ان يكون شعر مناسبات يدخل فى اطار المدح التقليـــدي او شعرا وطنيا كما نقول . هذه القضية هي عنصر الصدق ، ولكن هذا العنصر مطروح دائما على الباحث فى الادب العربي وفى جميع اغراض هذا الادب، وليس من السهل عليه ان يبث فيه لارتباطه باشياء لا بد ان تتوفر له ـ أى للباحث ـ حتى يستطيع ادراك مدى الصدق عند هذا الاديـــب او ذاك ، بعضها يرتبط بالظروف العامة ، وبعضها يرتبط بظروف الاديب الخاصة ، بالاضافة الى تصور الناقد للصدق من حيث هو تعبير عن حالة تضغط على نفسية المبدع وتحثه على التعبير ، ومن حيث هو كذلك يطابق فى كثيـــر من الوفاء والاخلاص بين هذا التعبير وبين التجربة الانفعالية التي يعانيها، فيكون لتنفيسه عنها اراحة له واثارة للمتلقين ، فيتحقق بذلـك عنصـــر الانفعال وبعده عنصر الفعالية او هما فى نفس الآن . والقضية كبيرة ويكاد امرها يختلف من منتج لآخر . ومع ذلك لست ادري لماذا نطرحها باستمرار؟ فنحن دائما نتعامل مع الاديب انطلاقا من الشك فيه . ولا اريد ان ادخل فى تفاصيل هذه القضية ، ولكن يبدو انها بدات منذ قال القدماء بان اعذب الشعـــر اكذبـــه .

ومن شعر عيد العرش قول عبد المالك البلغيثي فى قصيدة :

العيد جاء يقبل الاعتابا لينال من عليائك الالبابا
العيد عاد بليلة القدر التي نالت من الفضل العظيم نصابا
وافى يجرر فاخرا أذياله اذ نال ما بين الورى اعجابا
والشعب رتل آى عرشك بينه ودعا لنصرك ربه فأجابا
ان الزمان ليغبط الايام من أيام ملكك يرتجى لوآبا
من يستطيع بيان ما أهديته للشعب من أمل يفوق حسابا
نبغت بفضلك امة العلم الذي جددت معهده وكان خرابا
فازحت عنها ما يعرقل سيرها نحو الرقي فهاجمت أبوابا
ونسجت من كل الفنون مطارفا فكسوتها التثقيف والآدابا
فسل المدارس كم بها من طالب قد نال منذ حلولها الآرابا
وسل المكاتب كم يؤم رحابها أهل النجابة يملاون وطابا

ومنه كذلك قول محمد بن المهدي العلوي من قصيدة :

أيها العيد ألهم الشعب روحا واسكب النور من سنائه فينا
ولتكن مشعلا يشع فنمشي فى سناه الى الهدى سالكينا
ان مغزى يذكيه عيدك فى الشعب جدير بأن يسلي الحزينا
ان مغزاه عروة واعتصام وعهود ووحدة لن تبينا
ثم رمز الى شعور خلود خلفته الجنود كنزا ثمينا

ونضيف فى التمثيل لهذا الشعر الذي كان يصدر عن مختلف طبقات الادباء قصيدة لعبد الله ابراهيم نقتطف منها هذه الابيات :

قم حى ملكا جدد الآمالا يبغي لامته علا وكمالا
يبني لامته حياة حرة ويجد كي تسمو بها وتنالا
يخطو بها للمجد خطو محنك ويقودها لتحطم الاغلالا
يتقحم التجلى بثغر باسم ويرى الحياة عقيدة ونضالا
يسعى لغايته النبيلة مقدما ليخط للشعب النبيل مثالا
الغاية القصوى لديه قريبة آلى ليلحقها قريبا آلى

هي غاية للشعب يسعى نحوها لا بد أن يحظى بها وينالا
المغرب الاقصى حماس كله يبغي العلا ويريد الاستقلالا

وشعراء العرشيات كثيرون ، منهم محمد العثماني ، عبد الرحمن الدكالي ، علال الفاسي ، عبد الله جنون ، محمد الحلوي ، محمد بن علي العلوي ، عبد القادر المقدم ، الحسن البونعماني ، المدني الحمراوي ، علي الصقلي ، ادريس الجاني ، عبد الكريم التواتي ، ابن الكبير العلوي ، محمد العلمي ... وغيرهم كثير ومن مختلف الاتجاهات والاجيال ، لا سيما وأن موضوع هذه القصائد مستمر فيه القول .

وقد احرز بعض هؤلاء على جوائز فى المباراة التي كانت تنظم – ولا تزال – بالمناسبة . بل ان بعض الشعر الذي كان يلقى فى الجماهير ، سواء بهذه المناسبة أو غيرها من المناسبات الوطنية كان يترك صدى يتمثل فى أبيات تظل محفوظة فى الالسنة ومتداولة ، كهذا البيت الذي قاله عبد الرحمن الدكالي وهو من أبرز شعراء العرش :

ان لم نعش تحت السماء أعزة فدم العروبة فى العروق مزور

وما كان يقال فى عيد العرش كان شبيه به يقال فى مناسبات اخرى، وحتى بعد الاستقلال ، وخاصة فى ذكرى المولد النبوي . ومن الشعراء الذين برزوا فيها علال الفاسي الذي نقتطف من احدى قصائده هذه الابيات متحدثا عن جلالة الملك :

لقد ذب عن حق البلاد وأهلها نضال مضح بالرغائب باذل
وناصر دين الله فى كل وجهة وشاهده للنصر خير الوسائل
أعاد لنا استقلالنا بعد ما عدت عليه العوادي واغتدى طعم آكل
ووحدنا حتى غدونا وراءه صفوفا كما البنيان عند التفاعل
فخضنا غمار الذب فى كل وجهة وجئنا بنصر باهر الشكل شامل

والملاحظ أنه حتى الشعراء الذين طغى على شعرهم طابع التكسب والارتزاق كانوا يتحركون من حين لآخر ، وفى طليعتهم محمد بن ابراهيم ؛ فقد كانت نفسه تهتز ليعبر عن راي متحرر ، كقوله حين سجن عباس العقاد فى حكومة صدقي :

من كان ينوي فيك مصر بانـــــه ظلما بارضك يسجــن العقـــــاد
واذا سطا صدقي على العقاد فـــد تسطو على أضدادها الاضــــداد
عباس لم يسجن فما سجن امــرؤ له فى القلوب ممالـــك وبـــــلاد

وكقوله فى هذه الابيات من قصيدة يهجو باشا فاس الذي كان يسجن الوطنيين ويضربهم :

يسوس بفاس من بنيه كرامهـــم يقلبهم بطنا ويجلدهــم ظهـــــرا
اسجن وضرب مؤلـم واهانــــــة وزجر وتعذيب وما اقترفــوا وزرا
فقل لكثيف الروح هاتيك ضربــــة ملايين قد اضحت بمغربنا عشــرا

وربما أول هذا الموقف بتفسيرات قد تكون صحيحة ، ولكنا لا نريد الدخول فى تفاصيلها .

الى جانب هذه الموضوعات ، كان شعراء الاتجاه التقليدي الجديـــد يتغنون بالطبيعة والجمال ، على حد ما نقرأ لمحمد الحلوي وعبد المجيـــد بنجلون وعبد الكريم بن ثابت وعبد المالك البلغيثي وعلال بن الهاشمـــي الفيـــلالــــــي .

ويكفينا فى هذا الباب أن نختار نموذجا من عبد الكريــم بن ثابـــت صاحب ((ديوان الحرية)) وهو شاعر مغرق فى الرومانسية ، حتى الحرية فهي تاخذ عنده أبعادا رومانسية ، وكل قصائده ذاتية باستثناء أربع ، هي :

1 ـ ((ثورة)) التي انتهى فيها الى أن الحق لا بد منتصر وأن الباطل زاهق
2 ـ ((قيد)) التي غلب فيها الجانب الذاتي عليه مركزا على ضحك القيد منه وعليه ومتسائلا عن وجوده
3 ـ 4 ـ قصيدتان فى الرثاء بآخر الديوان

والنموذج الذي نختار من شعر ابن ثابت ذي الطابــع الرومانســـي المهجري ، نأخذه من قصيدة ((ليل وصباح)) التي يقول فى أول مقاطعها، وكلها تنتهي بنفس البيت :

سهرت وكان شعـــاع القمــــر ينام ويحلم فـــوق الغصـــــون
وبــت أشاهد ظــل الشجـــــر كاني أشاهد بعـــض الظنـــــون

ونـــام الانام وحـــل السهــــــر لمن أتلفتــه سبيـــل الفنـــــون
ومن بات يشكو الاسى والضجـــر ومن قاده الحب نحو الفتــــون
ومن ظل يطلب خيـــر البشــــر ومن ألبســـوه رداء الجنـــــون

وناديت يا نفس هل نعلميـــــن
لماذا وكيف أقضـــي السنيــــن

ونختار من شعر الذات والحب عند عبد المجيد بنجلـون قصيـــدة « عناياتي » ، وهذا أول مقاطعها :

وداعا سجــن احزانــــي وداعا ليل أشجانـــــي
وداعا وحدتي الخرســا ء ان الانس ناداني
ويا صحبي من الاشبــا ح كنتم مثل خلانـــي
ادا ما الليل بالأتـــرا ح والاوهام وافانـــي
وداعا ... رغم تاريـــخ عريق في الخيــــالات

والشاعر بنجلون ـ كما يتضح من ديوانه « براعـم » ـ مغـــرق في الذاتية ، تطغى عليه موضوعات الحب والجمال والطبيعة ، وهو ـ كما صرح بنفسه ـ لا يومن بالالتزام .

اذا تركنا هذه الطبقة من الشعراء الى طبقة الشعراء الجدد ، وقـــد بدأت تظهر بوادرها في سنوات الخمسين وفي أعقاب الاستقلال ، ما ذا نجد ؟

نبادر في أول الامر فنسجل انه في السنوات التي تمثل المرحلـــة الاولى بعد الاستقلال اى قبل 1960 لوحظ توقف ـ في الشعور ـ للمد النضالي الذي سبق فترة الاستقلال ، حيث كان الناس في نشوة . وربما تناول الشعراء بعض المواقف النضالية السابقة في اجترار كان يقصد به الى التلذذ بالذكريات ، ولكنهم لم يغنوا هذه المواقف . وقد سبـــق لي ان تناولت هذه المرحلة فاعتبرتها مرحلة استهلاك عاطفي على صعيد الـــذات الفردية والجماعية ، وعند المنشىء والمتلقي على حد سواء . ومن هنــــا ظهرت انطلاقة الشعر الجديد متاثرة بكل التناقضات التي كشفت عنهـــا المرحلة . وقد عرف المغرب تطورات سياسية واقتصادية واجتماعيـــة وثقافية ، كشف من خلالها واثناء حركيتها عن مضاعفات وتناقضات كانت

فى بعض الاحيان تصل الى العمق لتمس الجذور . وهذا كله كان عامـــلا اساسيا فى توجيه النظر وتحويل الرؤيا على مستوى الفكر والادب ، وفى اطار علاقة جدلية بين الفن والحياة .

ونمثل بشاعرين تجاوبا بصدق مع هذه المرحلة :

اما احدهما فمصطفى المعداوي ، وديوانه يكاد كله ان يكون فى شعر النضال من اجل الحرية والكرامة ، فى محاولة لتوسيع آفاق الرؤيـــا ، ليعانق قضايا الانسان العربي والافريقي . ونحس بالشاعر صادق التجربة مكتملها وصادق المعايشة والمعاناة ، وان فى غير عمق . وهو ينسج على خيوط رومانسية مفعمة بالامل والبسمة والتفاؤل . ثم ان صياغته سليمة وممتازة فى بعض الاحيان . ونختار من شعره هذا المقطع من قصيـــدة « اغنية للنسر العربي » حيث يقول :

يا ايهـــا النســـر الجمـــوح
انا لن اغادر معقلي حتى تهب بشارتك
وتمـــد لـــي ريـــش الجنـــاح الناعـــم
انا لن اغادر معقلـــي حتـــى تعـــود
ويعـــود لـــي شـــرف الحيـــاة
بموطنـــي ارض الجزائـــــر
وبارض « يافـــا » الطيبـــــة
وبكـــل شبـــر مغتصـــــب

كما نختار من قصيدته « شعوب تطلب الحرية » هذا المقطع :

نحبك لحنا يذوب انفعالا على شفة الحاصد
نحبك فجرا وفير الضياء لاعيننا فى السنا الوافد
نحبك فجـــــرا وفيـــر الضيـــاء
نحبك اغنية للخلود تهيم على شفة العائد

لأرض الجدود كريم الخطى يعانق وهج السنا الشارد
نحبك هلا فتحت ذراعيك للقارة الظامية
ولونت آفاقنا بالعبير وزخرفت جبهتنا القانية

واما الشاعر الثاني فهو الحبيب الفرقاني صاحب « نجوم فى يدي » ويكشف شعره عن الدعوة الى الالتزام والالتحام مع المجتمع ، فى اطار رومانسي ، منه يستقي صوره الشعرية ويستوحيها ، وان حاول داخل هذا الاطار ان يتعدى ذاتيته الفردية الى الذاتية الجماعية . وقيمة الديوان فى مضمونه ، اذ نلاحظ عنده اخلالا واضحا بجانب الشكل .

ونختار من شعره فى تناول المشاكل الاجتماعية قصيدته عن « ماسح الاحذية » ، وفيها يقول هذا المقطع التصويري :

ودجا كسير القلب	مجروح الفتوة والاباء
وحنا على الاقدام	يمسحها ضلوع الكبرياء
ويدين ترتعشان	للتلميع فى ظهر الحذاء
واطل وجه الطفل	ينطق بالكآبة والشقاء
نفح الزبون رفيقه	قطعا وولى فى اعتلاء
مصقولة اقدامه	فى زهو خطو وانتشاء

ويصبح ماسح الاحذية ويمسي وقد ربط مصيره بصندوقته التي دفن فيها امله والى الابد :

ودفنت فى احضانها	امل الحياة بلا رجوع
حملتها بؤس السنين	وعشتها بئس الصنيع
احنو على الاقدام	امسحها وتمسحني الصدوع
صدري يكاد من الابا	يهوى وتنفجر الضلوع

ولا شك ان نظرة الفرقاني الى ماسح الاحذية باعتباره ظاهرة اجتماعية مزرية تختلف عن نظرة الحلوى الذي لا يملك امام قدر هذا الطفل ومصيره الحتمي الا ان يرفع من معنوياته فيقول :

ايها الراكع المكــب على الاقــــدام في وقفة من الرمضـــاء
انت تحت الاقدام اسمى ولو كــا نوا جميعا من ساكني الجـــوزاء

وبدأت مرحلة جديدة بعد 1960 ، هذه المرحلة لا بد ان ننظر اليهـا من خلال ما حدث من تطور في مفهوم الشعر والرؤيا السياسية والفكرية ، وفي التجربة ومدى التفاعل معها ، وفي المضامين والوسائل الفنية للاداء، وما نتج عن ذلك كله من عناصر الجودة والجمال في التعبير .

وكما سبق لي ان قلت في غير هذا المجال فانه لا ينبغي ان ننســى اننا نعيش فترة يعاني فيها شبابنا من الاضطراب الفكري والنفســي مــا يجعلهم في شعرهم يبدون وكانهم يبحثون عن ذواتهم الضائعة ، في خضم مجتمع لا يواجهون واقعه بغير الانطوائية والرفض ؛ وهي ظاهـــرة ـ على الرغم من التبريرات التي قد تطرح حولها ـ تدل على عـدم القـــدرة على امتلاك الوجود . لذا هم يعتمدون على مواهبهم الذاتية،ويحاولون الاستفادة من الاساليب الوافدة كاستغلال الرمز والاسطورة والفلسفـــة والطـــرق التعبيرية الجديدة . ولكن رؤاهم مشتتة وغير موحدة لانها وليدة التفاعل الشخصي مع الاحداث والتيارات الشعرية المتباينة ، وليســت وليـــدة تفاعل جماعي من شانه ان يولد خطا فكريا ووجدانيا موحــدا . والقيمـــة الفنية عندهم كامنة في اتجاه الشعر الانساني الجديد (المدلول الانساني في اطار الرومانسية) . لكن اذا حكمنا هذا المقياس واكتفينا به فان ذلك يكون على حساب مقاييس اخرى نتنازل عليها تتصل بالشكل .

من هنا فان الشعر عند غير قليل من شبابنا ليس غير نظم مجاني لا طعم له ، وليست له سمة خاصة به تميزه ، وان حاول ابراز بعض الملامــح السياسية والاجتماعية لبلادنا ، وهي ملامح مشتتة تعوزها الرؤيا الواضحة والمحددة ؛ ربما لان معظمهم ينقصهم التكوين الفكري الذي من شانـــه ان يحدد الرؤيا او يساعدهم على خلقها وعلى القدرة على التصوير ، وقبل ذلك القدرة على التجاوب مع القضايا الوطنية والقومية والانسانية في فهـــم وتعمق ، اذ لا بد من ارضية او خلفية ثقافية متينة تؤهل ـ بالاضافة الى ما سبق ـ لطرح بعض القضايا المتصلة بالشكل والمضمون ، وهو شيء لم يتحقـــق بعـــد .

وعلينا ان نعترف بان انتاج اغلب شعرائنــــا الشبــــاب ما زال فى ارهاصاته الاولى للابداع ، ولنهم ما زالوا فى مرحلة النشاة والعنفوان وعز الطموح . ولا شك أن كثيرا منهم يمثلون طاقات وقدرات فنية هائلة لولا ما يعوزها عند البعض من صدق المعاناة واتقان التعبير .

والمتتبع لحركة الشعر المعاصر عند هذا الاتجاه ، لا يلبث ان يلاحظ وجود العديد من الشعراء ، فهناك شعراء لهـم دواوين نذكــر منهــم : السولامي ، عبد الكريم الطبال ، حسن الطريبق ، محمد بن دفعــة ، محمد الهواري ، عنيبة الحمري ، محمد بنيس ، مفدي احمد ، ادريس المليانى ، صبري احمد ، محمد الميموني ، احمد بنميمون ، رشيــد المومنــي ، مصطفى الزباخ ، حسن الامراني ، هناوي الشياظمي ، المريني ، الحجام عــلال ... وغيرهم .

وهناك شعراء لم ينشروا دواوينهم بعد ، يذكر من بينهــم : محمد الخمار ، المعداوي ، محمد السرغيني ، حسن الغرفــي ، عبد العلــي الودغيري ، محمد بنطلحة ، المهدي الدليرو ، مالكة العاصمي ، حبيبــة البورقادي ، عبد الله راجع ، بنسالم الدمناتي ، عبد السلام الزيتونــي ، احمد البقالي ... وآخرون كثيرون .

لو حاولنا بعد هذا الاستعراض لمختلف الاتجاهات الشعرية التــي تشكل مرحلة النهضة ان ننظر فى قضية الشكل لالفينا هذه الانماط :

اولا : القصيدة ، وهي تخضع عند شعرائنا للاشكال التالية :

1 ـ القصيدة التقليدية العمودية ، وهي النوع الغالب

2 ـ الموشحات ، ونجدها عند بوجندار والبلغيثي وابن ثابت والعلوي وبنجلون والحمري

3 ـ شكل يصطنع الخروج على هيكل القصيدة التقليدية ، فى محاولــة لتنويع القافية من مقطع لآخر ، وكذلك فى توزيع الابيات ، على حد ما فعل ابن ثابت وبنجلون .

4 ـ الاناشيد ، وهي نوع منظم من الشكل الاخير يعتمـــد اللازمـــة بين المقاطع ، وقد نظم عليها ابو بكر بناني وعلال الفاسي والناصري .

5 ـ الشعر الحر ، ونلاحظه عند الشباب أكثر من غيره ، وهو يعتمـــد التفعيلة ويتحرر من القيود الاخرى . وتجدر الاشارة الى ان بعـض شعراء الاتجاه التقليدي الجديد حاولوا ان ينظموا في هذا الشعر، ولكن جاءت محاولتهم متكلفة . والحديث عن الشعر الحر يجر الى اثارة ما يسمى بالشعر المنثور او القصيدة النثرية على حـد ما نجد عنـــد محمد الصباغ ، ولكن لست ادري اذا كان جائزا لنا ان نعتبر هـــذا النوع من الشعـــر .

ثانيا : وفي القالب الشعري ، الى جانب القصيدة المحدودة البناء ، هناك :

1 ـ القالب القصصي وهو قليل ، كقصة علال عن كعب بن مالك وتخلفه مع بعض الصحابة عن غزوة تبوك ومقاطعة المسلمين لهم حتى نزلت توبتهم في القرآن الكريم .

2 ـ القالب المسرحي ، ومن نماذجه :

أ ـ بقيت وحدي لابي بكر اللمتوني ، وتحكي ثورة الملك والشعب

ب ـ مصرع الخلخالي لاحمد البقالي ، وهي تحكي قصـــة حاكـــم مستبد باصيلا انتهى امره بقتل السكان له .

ج ـ الشهيد لمحمد الطنجاوي ، وتتناول مصرع الفدائي الاول علال بنعبـــد الله .

د ـ وادي المخازن لحسن الطريبـــق .

ويؤخذ على معظم المسرحيات الشعرية جوانب نقص فنية لعل مردها الى هذه الاسبـــاب :

أ ـ عدم تمرس هؤلاء الشعراء بالفنية المسرحية ، وربمـا كـــان البقالي والطريبق اجودهم في معالجتها .

ب ـ طبيعة الاداة التي يستعمل معظمهم وهي الشعر العمودي ، لا سيما وان بعضهم ـ وخاصة اللمتوني والطريبق ـ يحرصون على عدم الوقوع فيما يشينه او يمس صياغته .

ج ـ طبيعة الاحداث وكونها وقائع جاهزة تحد من قدرة الشاعر على الخلق ولا سيما فى مجال الصراع .

ونود ان نقول بان التكوين الادبي وما ينتج عنه من حس فني يؤثران على تشكيل الوتر الوجداني الحساس والاداة الصادقة للتعبير عن تصور خاص للشعر ولواقع ظرفى معين وكذلك التعبير عن تمثل المستقبل والآفاق . وربما كان هذا هو السبب فى أن شعراء مرحلة النهضة الاوائل لم يحاولوا تطوير شعرهم وتجديده على حد ما فعل شعراء المشرق المعاصرون . فقد كانوا بحكم تكوينهم ومحدودية افقهم يجدون الاطار الشعري التقليدي مناسبا . ولن نرى حدوث تحول فى الشعر الا بظهور طبقة اخرى من الشعراء ـ هم الشباب ـ مالوا بحكم نوع ثقافتهم ، وبحكم نوع مطامحهم وتطلعاتهم ، وبحكم وجودهم الهامشي فى الغالب الى تطوير اداة التعبير .

ولا بد لنا أن نثير هنا مشكل الشكل والمضمون اللذين تكمن فى علاقتهما الجدلية القيمة الحقيقية للعمل الفني . فالقضية ليست قضية الشكل كما فهمها كثير من شعرائنا الشباب ، ولا يكفي الخروج على الشكل القديم ، بل هي قضية تعبير ، أي التعبير عن مضامين جديدة باساليب نابعة ومنسجمة مع هذه المضامين .

وشعرنا خلال هذه المرحلة يتميز بخصائص ، منها الروح الديني الذي يتضح عند مختلف شعرائنا على اختلاف فى قوته وفتوره على هذا النحو :

1 ـ عند شعراء الاتجاه التقليدي كان طاغيا الى حد كبير وكان يمس الشكل والمضمون .

2 ـ عند شعراء الاتجاه التقليدي الجديد حدث تطور داخل اطار هذا الروح ، وهو تطور من جانب المضمون وجانب

الشكل كذلك ، حيث بدانا نسمع « الاستعمار » بدل « الكفــر » وبدانا بالتالي نسمع كلمات جديدة كالوطن والحرية ، بل ان شخص الملك نفسه تطور فى الشعر الوطني ولا سيما فى قصائد العرش ، فلم يعد ينظر اليه باعتباره حامي الدين وهادي الامة فقط ، بل غدا بالاضافة الى ذلك رمز الوطن وقائد الشعب والمحرر من الاستعمار .

3 ـ عند الشعراء الجدد ، ومع اختلاف اتجاهاتهم وتاثرهــم بالافكــار المتضاربة المطروحة فى السوق ، نجد بعض التأثر الديني على نحو ما نلاحظ عند الطريبق الذي يبدو فى شعره يعاني صراعا بين اليأس والامل،ولكن الامل فى النهاية يشده اليه اما بحافز من الحب او الايمان. ومثل هذا نجده كذلك عند البقالي الذي يميل فى بعض قصائــده الذاتية الى الايمان فى نزعة تصوفية رومانسية .

والواقع انه يغلب على طابع الشعر عندنا النفس الرومانسي ، وربمــا كان ذلك بسبب عوامل نفسية واجتماعية . وليس هذا عيبا ، فان الشاعر من خلال ذاته ينظر الى العالم الخارجي ، والا فهو سلبي وخاصة اذا سيطر عليه الشك والتشاؤم والحيرة وانعدام الاختيار والثورة الداخلية ، وهي ثورة غير منتجة لا تنظر الى العالم الخارجي ولا تستهدف التغيير ، ولانها تنبع من داخل فردية النفس وتصب فيها .

كذلك فان الوعي الجديد الذي ظهر ابتداء من هذه المرحلة المبكرة (اواخر سنوات العشرين وبدايات الثلاثين) وجه الشعر للنظر فى قضايا الشعب وللارتباط بهذه القضايا . والحقيقة ان الشعر حتــى فى اطــاره السياسي ـ وكما راينا ـ لم يكن ليغفل بعض الظواهر المرضية فى المجتمع مثل الجهل والفقر . فالشعر فى هذه المرحلة وعند طائفة شعراء الوطنية او السياسة كان ملتحما مع الوجدان الجماعي .

وهو بهذه الخصائص حاول ان يتخلص من الاسراف فى المحسنات البديعية ومن الغلو فى التعقيدات اللغوية ، ومن كثير من القيود التي تعوق التعبير او تجعله يتسم بالتصنع والتكلف ، مع اختلاف الشعراء بطبيعــة الحال فى القدرة التعبيرية . فنحن حين نقيس مثلا شاعــرا كالمختــار

السوسي وعلال الفاسي نجد متانة الاسلوب عند الاول ونوعا من التساهل فى التعبير عند الثاني .

ثم ان بعض شعرائنا الشباب يحاولون ابتعادا عن الاسلوب التقريري المباشر أن يتوسلوا بالرمز والاسطورة ، وهم فى هذا متاثرون ببعض الشعراء العرب . ولكن لا ينبغي ان ننسى ان الشاعر الذي يستعين بالاسطورة ـ عن وعي وليس عن تقليد ـ يفعل ذلك فى اطار التوسل بها كما يتوسل بشخصيات من التاريخ وبالتراث العربي او الانساني . وهو حين يفعل يقصد الى تعميق التجربة واعطائها ابعادا تجعلها اقرب الى الخلود والشمول واقرب الى ان تكتسي صبغة انسانية تخرج بها عن نطاق المحلية ، فضلا عن اطار الاحداث المباشرة والمحدودة .

ومن ابرز خصائص شعر النهضة بعد هذا : التاثر بالشرق :

1 ـ عند الاتجاه التقليدي الجديد كان التاثر اولا بالبعث ثم الديوان وابولو والمهجر .

2 ـ عند الاتجاه الجديد نجد التاثر :

ا ـ بشعراء الشرق الذين يكونون جيل ما بعد الحرب الثانية ، وهو جيل قلق مضطرب تعرض لهزات سياسية وفكرية واجتماعية

ب ـ بشعراء الوجدان الجماعي او الواقعي او الاشتراكي الذي ظهر بعد 1952 ، فى مقابل الوجدان الذاتي ، وفى ميل الى التحرر من وحدة البيت لجعل القصيدة كلها وحدة موسيقية متصلة مع اللجوء الى الاقصوصة الموضوعية والدراما القصيرة ليتخذ منها موضوع للشعر .

ج ـ بشعراء الشعر الحر من حيث التكوين عامة .

وللتمثيل يكفي ان اطرح بعض النماذج :

1 ـ عند الاتجاه التقليدي الجديد :

ا ـ المختار السوسي فى قصيدته عن اللغة العربية :

باى خطاب ام بـاى عظات اوجه وجه الشعب شطر لغاتي

متاثر بقصيدة حافظ ابراهيم سواء في الشكل او المضمون ، وهـي التـي اولهـا :

رجعت لنفسي فاتهمت حصاتي وناديت قومي فاحتسبت حياتي

ب ـ مثل هذا التاثر واضح كذلك في قصيدة القرى « زفـرة على اللغـة » :

رويدك قد طبعت على اناة وظلم ما تلاقى من اذاة

2 ـ عند الاتجاه الجديد : كثير . ويكفي منه ان اشيـر الى قصيـدة المعداوي « من كلام الاموات » لالمح التاثر بالشعراء المعاصريـن وخاصة البياتي الذي يعتبر الموت هو الجسر الذي يعبر به نحـو الافضل والاكمل ، وفيها يقول :

يا احبائي ، مضى عمر لم يمتد جسر بيننا
ما عادت الافراس تجمح او تصول الريـح
شد خناجر الفرسان في اغمادها صـدا
سابقى ها هنا ظلا على سفح الجدار يلمني
جزر وينشرني هدير الموج ، ما الانهار ؟
انا المنسي عنـد مقالـع الاحجـار

واذن فتاثر الشعراء كان بالشرق ، اما التاثر بالغرب فلم يكن مباشرا وانما كان بالواسطة ، علما بانه وجد شعراء رحلوا الى اوربا ولكنهم لـم يستفيدوا في تطوير شعرهم ، كعبد الرحمن حجي الذي اقام مدة بلندن ولكن هدفه كان التجارة ، ولا نجد من آثار لهذه الاقامة في شعـره الا في بعض القصائد التي تحدث فيها عن لدن وعن جوها وما تجشم فيها وتحمل. ومثله عبد المجيد بنجلون ، وكذلك امحمد الناصري الذي رحل الى فرنسا لدراسة الحقوق دون ان يفيد من حركة الشعر هنالك .

ومع ذلك ، واذا نحن تاملنا الشعر العربي عامة سواء في المشرق او المغرب ، فاننا لا شك منتهون الى ان مسيرة هذا الشعر اتسمـــت على تعاقب العديد من العصور بغير قليل من البطء والرتابة ، لا سيما حين ننظر الى اطاره وصورته في المرحلة الحديثة ، فنجدهما غير متغيريـــن الا في حدود لا تؤثر على ملامح الشعر الجوهرية ، من حيث نوعه وموضوعاته ومن حيث شكله كذلك . ولعل السبب في ذلك ان الذين عادوا للتراث يحاولون بعث الشعر القديم لم يكونوا مؤهلين للنفاذ الى أعماق هذا الشعر ، فقـد كانت تنقصهم لا شك المعرفة بتاريخه وتيارات نقده ، ومن ثم كانوا غيـــر قادرين على غربلته وتذوقه وبقوا واقفين أمام واجهته الخارجية يطربـــون لاوزانه وايقاعاته وصوره ويتمثلونها ويستوحونها في محاولة لتطويعها حتى تناسب العصر في غير جهد ولا تعمق . بل انهم حتى في هذا الاحياء للقديم، ظلوا بعيدين عن الشعر الذي يحتاج الى شيء من المعاناة في فهمه كشعر المعري مثلا . كما ظلوا بعيدين عن التيارات الشعرية الاجنبية لم يستطيعوا هضمها ولا التفاعل معها . كل ذلك جعل حركة الشعر العربي الحديـــث لا تعدو أن تكون امتدادا للتيار القديم ، وجعل الشعراء يدورون في حلقات فردية يعبرون عن ذواتهم . وحتى حين ظهر التعبير عن الشعور العام عند شعراء البعث فانه لم يكن صادقا وتلقائيا بقدر ما كان مجرد عملية مسايرة للاحداث والظروف . ولهذا لا نستغرب اذا وجدنا شعراء الديوان والمهجر يدعون الى الرومانسية والى أن يكون الشعر تعبيراً عن النفس ، في حين كان هذا الاتجاه قد ولى في اروبا وحلت مكانه الرمزية والواقعية . وعلى الرغم من أن بعض الشعراء العرب حاولوا تقليد هذا المذهب او ذاك ، فان تاثرهم بالرومانسية كان أقوى من غيره . ولعل هذا راجع الى ان هـــذا المذهب غير غريب على طبيعة الشعر العربي المتسمة بالغنائية والتعبير عن ذات الشاعر . ولعله راجع كذلك الى بعض العوامل النفسية والاجتماعية التي تكيف عواطف الشاعر واحاسيسه وذهنيته ، كالشعـــور بالوحـــدة والضغط وظروف الاستعمار وما الى ذلك مما يحث على العزلة والياس ، ويؤدي الى الشعور بالفردية والانصراف الى النفس للعزاء . وهي ظروف عانى منها العرب في المشرق والمغرب على السواء .

ولا باس ونحن بصدد انهاء هذه المحاضرة ان نشيـــر الى الشعـــر

الشعبي ، فلا يمكن الحديث عن الشعر المغربي دون الالتفات اليه وخاصة منه « الملحون » الفني باغراضه واشكاله ؛ ولكن موضوعه يطول . ومع ذلك لا بد ان أسجل إن هذا الشعر كان ابدا يرفد مجالات القول سواء على صعيد الذات الفردية او الجماعية ، واشتهر فيه « اشياخ » كبار على مر مرحلة النهضة من امثال الحاج محمد بن عمر الملحوني ومحمد بلكبير وعثمان الزكي وبنعيسى الدراز واليعقوبي وعبد القادر الجراري والحاج محمد العوفير . وقد استمر هذا الشعر في المرحلة المعاصرة نابضا بالحياة عند « اشياخ » من الشباب ساروا به في اتجاهين :

1 ـ احدهما محافظ ، ومن خير من يمثله احمد سهوم ومحمد بن بوستة
2 ـ والثاني جديد ، ومن خير من يمثله الطيب لعلج وحسن المفتي .

كذلك لا بد أن إشير الى الشعر المغربي المكتوب بالفرنسية ، ولست اريد ان ادخل في تفاصيل هذا الشعر باعتباره مقبولا او مرفوضا في مجال الادب المغربي ، حيث انه يتوسل بلغة اجنبية ، فهذا مما سيحيد بي عن الموضوع ، ولكن يكفي ان أذكر من الاسماء التي برزت فيه : كمال الزبدي، عبد اللطيف اللعبي ، الطاهر بنجلون ، محمد الوكيرة ومصطفى النيسابوري؛ ومثلهم محمد ابو طالب الذي يتوسل باللغة الانجليزية . وتجدر الاشارة الى أن بعض هؤلاء تجاوبوا الى حد بعيد مع القضايا والمشكلات الوطنية .

وبعد ، فماذا عن هذا الشعر ؟ ومن خلاله ما ذا عن ادبنا ؟

الواقع انه على الرغم من الرؤيا التشاؤمية التي ينظر بها البعض ، فان لدينا ادبا ثابت الوجود ، وان لم يرق الى المستوى المنشود ، لانه ما زال يتكيء على أشكال ومضامين غير منبثقة من تجربته وواقعه ، ولانه ما زال مقلدا وتابعا يكتفي بالتسجيل أو السير في دروب الآخرين والنسج على منوالهم . ثم ان اتجاه الادباء غير واضح ، ولا متبلور ، ولا ثابت الاصول او متعمق الجذور . ومن ثم فانهم يجدون انفسهم في اشياء ، ولكنهم في مواطن اخرى يفلت منهم الزمام . فليس في كل مرة يتوفر لهم الموضوع الحيوي الفعال ، ويتسنى لهم التجاوب التلقائي مع انفسهم والآخرين ، في موقف ينم عن صدق التجربة والالتحام مع قضايا الذات والمجتمع ، بما

يساعد على سبر الاغوار واكتشاف الجديد ؛ وهي عناصر لا بـــد منها في تحديد قيمة الشعر والادب عامة .

واقول هنا ما كررته غير ما مرة من اننا في حاجة الى ادب يكون لـــه تاثير قيادي في الجماهير ويعرف كيف يخاطبها لتفهمه . فقد انتهى العهد الذي كان فيه الاديب يخاطب فئة معينة . ونريد لادبنا أن تكون له قيمـــة ذاتية يعترف بها الآخرون ، وأن يكون أصيلا تتوفر فيه سلامـــة التعبيـــر والاخلاص الفني وصدق الموقف . ثم نريده بعد هذا ان يكـــون طليعيـــا ومثقفا واعيا واسع الافق متجاوبا مع المجتمع ومشاكله وقضايـــاه ، وان يكون قادرا على ان يستقبل كل التيارات الاجنبية الوافدة .

ان عندنا طاقات ابداعية تتجلى في المضامين المختلفة ، وعندنـــا وسائل متعددة للتعبير ، كما أن عندنا تعددا في الرؤى يزيـــد في اغنـــاء طاقات التعبير الفني ؛ ولكن لابد من رؤيا مجتمعيه جماعيه ، ولا بد كذلك من تجارب تكون واضحة الافاق مميزة الملامح ، ثم لا بد من عناصر فنية اخرى تنتج عن هذه التجارب وتلك الرؤيا لكي يكون للادب دوره ، اى لكي يكون في خدمة قضايا الانسان المغربي . وهذا يستدعـــي تجاوز النظـــر الفردي المحدود الى النظر الشامل المتكامل . واذا ما توفـــرت هـــذه المقومات استطاع الاديب ان يتجاوز نطاق التمرد الذاتـــي الى تفجيـــر الطاقات على صعيد مواطنيه ، واستطاع بالتالي ان يخـــرج من مرحلـــه الشعارات والهتافات الى مرحلة التعبير الفني الناضج والواعي والملتزم .

ان الالتحام الحق مع الجماهير لا يعني فقط ان يتناول الاديب بعض القضايا والمشكلات التي تعاني منها هذه الجماهير ، ولا يعنـــي فقط ان يحاول تعرية بعض البنيات المزيفة او المريضة في محاولة للكشف عـــن بعض مواطن الداء والفساد ، ولكن يعني كذلك ان يعانق المشاكل بصدق وعمق ، وان يكون له راي فيما يتحدث عنه نابع من الاحساس بهذه المشاكل ومن الانصهار مع المجتمع وادراك مطامحه وتطلعاته . وبهذا يكون الاديب حاضرا وعلى الدوام وبصورة فعلية ايجابية .

والحديث عن الابداع يحث دائما على التعرض للنقد من حيث دوره في التوجيه والتصحيح ، ولكن النقد عندنا يتمثل في محاولات هي اقرب اما

الى التقاريظ او الى الخصومات ، مما يجعله ليس نقدا بقدر ما هو رد فعل. فهو يواجه العمل الادبي من احدى هذه الزوايا :

1 ــ اما من خلال ذات الناقد ومدى العلاقة الشخصية التـــي له مـــع المنتج ، دون النظر الى الانتاج نفسه . وقد يصل هذا الموقف الى حد الاشادة والتنويه كما قد يصل الى حد الطعن والتحطيم ، بل انه يتجلى حين العجز عن مواجهة الانتاج في اهماله والاعراض عن ذكره.

2 ــ واما من خلال مفاهيم او مبادىء هيئة معينة ، وهنا يتدخل عنصر الانتماء السياسي فيوجه النقد سلبا وايجابا ، حيث يتم النظر الى الانتاج من خلال انتماء صاحبه ، ان كان هو نفس انتماء الناقد او هو غيره ، فيتغير النظر تبعا لذلك .

3 ــ وحتى حين يوجد نقد ، فهو ــ بحكم عدم توفر الشروط في الناقد غالبا من ثقافة وحس نقدي وقدرة على التعبير ــ يبقى نقدا سطحيا لا يستطيع صاحبه ان يتعمق فيـــه .

4 ــ على انه لا ينبغي ان ننسى شيئا آخر في موضوع النقد ، وهو قلة الانتاج الابداعي وضعفه .

والحقيقة ان هذا موضوع كبير وهام ، يحتاج الى محاضرة خاصة او الى ندوة نامل ان تدعو لها الوزارة الموقرة في القريب .

الربـــاط   عباس الجراري

الرمال تموج بحراً

د. نذير العظمة

لا بد أن نجتاز هذا المضيق
لا بد أن نختار
لا بد أن نلبس ثوب الحريق
ونضرب الموج بسر القرار

* * *

ما لم تكن « سبتة » لا لن نكون
لم يبق غير البريق
لم يبق غير المنون

فلندخل الآن حدود الحصار

ولنطعم الساحة أشلاءنا

ولنعبر البحر أكاليل غار

ولنحرق السفن ، مرايا الحريق

ترسم تاريخ الهدى والغمار

لم يبق فى العدوة غير الصدى

لم يبق غير الغبار

فلندخل الآن طقوس الفدا

ولنبدأ الآن فصول الشرار

وليغمر الماء مدار الردى

خصبا ، ورحم النوق

طال النوى والحوار

يود أن يجهض فجر البروق

وليكسر الفجر ظلام المدى

ونفجر الليل بلغم الشروق

ونملأ السفن حنينا ونار
ونغسل الرمل بضوء العروق
ونعبر الأمداء
قبل نفاذ الماء

* * *

يا ابن زياد
يا أنت يا سارية تعبر فوق الموج
يا أنت يا قامة شوق طلعت من وهج
اسمع ! تقول الرمال
سألت حتى لم يعد لى سؤال :
أقسم يا أفريقيا بالوردة السوداء
أقسم بالدم الذى يبزغ كالضياء
أقسم بالبرق الذى يلمع فى الدموع
بفارس السطوع

أن أنحر المظلوم
والغم السدود والتخوم

* * *

يا زمن الابحار
يا « سبتة » الاحلام والأغوار
أقسم « بالساقية الحمراء »
أقسم بالطاهرة « الصحراء »
لم يبق غير المنون
بها بها
نكون أو لا نكون !

* * *

فلنعبر « الصحراء »
انا فتحنا رحمها « أسماء »
انا كتبنا فجرها سورة
تعبق بالأضواء

من يلغم الأسوار
يزيح عن فجر بلادى الحصار
يبدع للحب جسور اللهب
ما بيننا وبين « وادى الذهب »
يقرأ للأغبياء
ملاحم الأنبياء

*   *   *

يا ابن زياد خل وهج السراب
يصير ماء . . . خل أرض اليباب
ولينبع البحر دما والرمال
تموج بحرا فى حنين الرجال
وخلنا نجتاز هذا المضيق
وخلنا نختار
لا بد أن نلبس ثوب الحريق
ونضرب الموج بسر القرار

الرباط **د . نذير العظمه**

أضواء على رحلة التجاني
في البلاد التونسية وطرابلس
وأهميتها التاريخية والادبية

د. شوقي عطا الله الجمل

الرحالــة المغاربــة :

ان الرحلة التى قام بها التجانى فى اوائل القرن الثامن الهجـــرى - الرابع عشر الميــلادى ، 706 - 708 هـ / 1306 - 1308 م ، والتـــى قضى فيها عامين اثنين وثمانية اشهر وأياما - كما يقول هـــو (1) ، وزار فيها البلاد التونسية وطرابلس - لتثير قضية هامة ألا وهى قضية الرحلات المتواصلة التي قام بها كثيرون من العلماء العرب - المغاربة بالـــذات - واهميتها العلمية .

فقد شغف المغاربة بالانتقال من بلادهم مشرقين - كما يقول التجانى فى رحلته - وتسفر الرحلة عاده عن تحقيق أهداف متعددة . فالهدف الأساسى غالبا من وراء هذه الرحلات هو اداء فريضة الحج . لكن يقترن الامر عادة بطلب العلم والمعرفة ؛ وهكذا ينفتح المجال لدراسات متعددة ويكشف النقاب عن حقائق هامة .

ولم يكن الوقت فى ايامهم ضيقا فلم يكن الرحالة يهتم بالوصول لوجهته ، والعودة فى اسرع وقت ممكن ــ كما نفعل فى ايامنا هذه ، ولكن قد تستغرق الرحلة سنوات ، ويستقر الرحالة فى كل بلد يمر به شهورا تطول او تقصر يتصل فيها بفقهائها وعلمائها ، ويزور مساجدها ، ومقابر المشهورين من أوليائها ، وغير ذلك من معالمها ... ويسجل كل هذا ويتحدث عنه . وقد يطيب العيش للرحالة فى بلد ما لسنوات يشارك فيها فى الحياة العامة بها ، وهكذا الى ان تبرز دواع للسفر والانتقال ، وعادة اذا ماتحقق الهدف بأداء الفريضة يقفل الرحالة عائدا الى بلاده ، وقد يتكرر نفس الشيء فى رحلة العودة . ويضيق المجال عن حصر الرحالة المغاربة الذين كانت اسرهم بالمغرب أو هاجرت للأندلس واستوطنته فى وقت كان ينظر اليه على انه فردوس العرب والذين اشتهروا فى هذا المجال .. مجال الرحلة ــ قبل التجانى وبعده ــ لكننا نذكر البعض كمثال فقط لهذه الظاهرة وليس على سبيل الحصر .

ــ ولعل الفقيه ابو بكر محمد بن العربى (468 ــ 543 / 1076 ــ 1148) يعتبر من اوائل الذين برزوا فى هذا الميدان ــ ميدان الرحلة ، واصله من اشبيلية لكنه غادرها الى المشرق فذهب الى الشام ، وبغداد حيث استمع لدروس الغزالى ، ومن بغداد اتجه لاداء فريضة الحج ، ثم رجع الى بغداد فمصر ، وعاد الى وطنه بعد تجوال دام ثمانية أعوام وقد توفى اثناء رحلة قام بها الى مدينة فاس ، وخلف عدة مصنفات فقهية (2) .

ــ ومن الذين برزوا فى مجال الرحلة الرحالة محمد بن احمد بن جبير الكنانى ، وكانت أسرته قد استوطنت بلنسية (Valencia) وعمل كاتبا لحاكم غرناطة ، وغادر غرناطة فى عام 578 هـ / 1183 م للحج فمر بسبتة ، وسار بمحاذاة ساحل افريقية الشمالى الى الأسكندرية ، ثم وصل الى ميناء عيذاب المصرى حيث ركب البحر الى جدة ، وبعد اداء الفريضة عاد الى الكوفة وبغداد والشام ــ وكانت سواحله فى ذلك الوقت فى قبضة الصليبيين ــ فركب سفينة من ميناء عكا الى صقلية فوصل غرناطة بعد غيبة اكثر من عامين ، وله قصيدة فى مدح صلاح الدين الايوبى الذى تعلقت به انظار المسلمين فى ذلك الوقت . وقد قام برحلتين اخريين الى الشرق .

لكن رحلته الأولى فقط هى التى وصلنا ما كتبه عنها على هيئـــة يوميات ، وكانت هذه الرحلة مصدرا هاما اخذ منه الرحالة اللاحقون كابن بطوطة ، والمؤرخون كابن الخطيب والمقريزي (3) .

ـ ومن الرحالة المغاربة الذين استوطنت اسرهم مدينة بلنسية ايضا الرحالة ابو محمد العبدرى ؛ ويغلب على الظن أنه من مواليد مدينة فـــاس وان زوجته تنتمى لاحدى قبائل حاحة وقد خرج فى ديسمبــر 688 هـ / 1289 من ميناء الصويرة (موجادور) حيث ترك اسرته وجهته مكة ، وفــى اثناء رحلته هذه توقف الرحالة وقفات طويلة بالمدن الكبـــرى بالشمال الافريقى حتى وصل الى مصـر حيث رافق قافلة للحج ، ثم عاد الى مصـــر عن طريق فلسطين وبعد قضاء فترة فى القاهرة والاسكندرية عاد الى وطنه مارا بتلمسان ، وفاس ومكناس حتى بلغ أزمور حيث لحقت به أسرتـــه ـ ويلاحظ انه اخذ فى معظم مراحل الرحلة طريق البر ، ودون لنا رحلته على هيئة يوميات واهتم بوجه خاص بالكلام عن المدن الكبرى بشمال افريقيا ـ والرحلة حافلة بمعلومات جغرافية دقيقة ، فهو يهتـــم بوصف البـــقاع المختلفة ويتميز وصفه بالدقة والصدق ، وهناك اوجه شبه عديدة بينـه وبين الرحالة التجاني ـ موضوع هذا الحديث ـ فهو اديب واسع العلـم يضمن رحلته عددا كبيرا من قصائده الشخصية من ابيات شعرية ، كمـــا تضمنت كلاما من المسعودى والبكرى وغيرهما ، كما أنه يهتـم بالحديـث عن العلماء الذين التقى بهم فى اثناء رحلته ـ وسنشير الى ذلك بالتفصيـــل عند الحديث عن رحلة التجاني نفسـه (4) .

ـ ومن الرحالة المغاربة ايضا ابو عبد الله محمد بن عمر المعروف بابن رشيد الفهري ولد بسبتة فى عام 657 هـ / 1259 م ، وقام برحلـــة طويلة لأداء فريضة الحج ، امتدت لبضعة سنوات زار فيها أقطـار الشمال الأفريقي ومصر والشام والحجاز وعاد الى المغرب حيث قضى بقية عمـره حتى وفاته عام 721 هـ / 1321 م فى فاس فى كنف بوسعيـد عثمـــان بن يعقوب المريني ـ وقد سجل مشاهداته فى سبعة أسفـار ، المعروف منها حاليا خمسة اسفار موجودة بمكتبة الاسكوريال باسبانيا ، وقد اختار لها عنوانا تغلب عليه الصنعة « ملء العيبة بما جمع بطول الغيبة فى الوجهـة

الكريمة الى مكة وطيبه » ـ وقد تعرض بالذات للكلام عمن قابلهم من العلماء ، والاجزاء الموجودة بمكتبة الاسكوريال يعالج فيها الكلام عن علماء الإسكندرية والقاهرة فى وقته (القرن الرابع عشر الميلادي) (5) .

ـ ويذكر فى هذا المجال بالطبع ابن بطوطة (ابو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد اللواتى الطنجى 1304 ـ 1377 م) فهو معاصر للتجانى ، وقد ولد فى طنجة وطاف معظم بقاع العالم القديم فى وقته (زار بلاد افريقية ، وفارس ، وبلاد التبت) وقد جاوز تجواله مقدار مائة خمس وسبعين الف ميل (6) .

ونذكرمن رحلاته ثلاث رحلات هامة ـ قصد فى الأولى منها بيت الله الحرام عن الطريق المعتاد فى وقته ، فوصل من الشمال الافريقى الى مصر ، ووصل الى ميناء عيذاب على امل ان يخترق البحر الاحمر الى شبه جزيرة العرب لكنه اضطر ـ لاضطراب الاحوال فى هذه الجهات ـ لأن يعود الى الشام ومنها الى الحجاز ، وفى الثانية زار شرق افريقيا حيث تحدث عما رآه من مظاهر الحضارة فى الامارات العربية هناك ، وفى الرحلة الثالثة زار بعض سلطنات غرب افريقيا . (7)

ولا بد فى هذا المجال من الأشارة الى فضل المرينيين على الثقافة العربية بل العالمية فقد اعتبر بنو مرين انفسهم ورثة الحضارة الاندلسية الزاهرة على الرغم من ان الدولة العربية بالاندلس كانت لا تزال على قيد الحياة ـ لكن كانت رقعتها قد تقلصت بشكل ملحوظ ، ولذا فقد اهتم بنو مرين بتشجيع الآداب والأدباء كأسلافهم عرب الاندلس واجتذبوا الى بلاطهم عددا كبيرا من الأدباء اللامعين ، فعاش فى كنفهم ابن خلدون وابن الخطيب وهما معاصران لابن بطوطة ـ ويبدو انه كان للسلطان ابن سعيد عثمان بن يعقوب المريني الفضل فى ظهور كتاب وصف رحلة ابن بطوطة فهو الذى عثر له على (محرر ادبى) محمد بن جزى الكلبي ـ ان صح هذا التعبير .

ويعتبر بعض الجغرافيين انه بانتهاء عصر ابن بطوطة تقفل صفحة من الرحلات الجغرافية ـ لتبدأ صفحة جديدة من الكشف الجغرافى بعد ذلك بما يقرب بثمانين عاما حين بدات حركة الكشوف الجغرافية الحديثة (8) .

ـ على أننا نشير الى ان جهود الرحالة المغاربة ومساهمتهم في الرحلات التى اثرت معلوماتنا فى مجالات متعددة ـ لم تتوقف فى العصور الحديثة فقد ظهر مثلا بعد ابن بطوطة بما يقرب من قرنين الرحالة حسن بن الوزان (ليو الافريقي) (9) .

ـ ومن الرحالة المتأخرين الذين ظهروا فيما بعد فى القرن التاسع عشر محمد بن عمر التونسى الذى وصل الى دارفور بالسودان (سودان وادى النيل) ، كما سافر الى واداى وقضى فى جولته هذه ما يقرب من عشر سنوات (1803 ـ 1813) (10) .

وبعد هذه المقدمة التى لا تعدو أن تكون اشارة لهذه الظاهرة الهامة التى تدخل رحلة التجاني فى نطاقها ـ ننتقل لرحلة التجانى نفسها .

عبد الله بن محمد بن احمد التجاني وظروف رحلته :

يكتنف الغموض سيرة حياة التجانى ، بل ان حقيقة اسمه ظلت موضع شك ولبس (11)

ويرجع الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب الاضطراب الكبير الذى أثير حول اسمه الى امرين :

الاول ـ عدم وجود تعريف بحياة الرحالة فى كتب التراجم المتداولة وهو يعجب لاغفال أصحاب الطبقات الذين تعرضوا لتراجم رجال الحركة العلمية والأدبية فى عصر الدولة الحفصية ـ لمركز (بنى التجاني) رغم انه برز منهم أكثر من واحد من الأعلام فى العلم والأدب .

والثاني ـ ابدال أسماء الرجال بالكنى ـ وهى طريقة كانت شائعة كثيرا فى أثناء القرون الوسطى وأوائل الحديثة فى المغرب بالـــذات . لكنه خرج من محاولته لتحقيق اسم الرحالة بأن اسمه الصحيح (ابو محمد عبد الله ابن محمد بن احمد التجانى) ، بل انه حاول أن يرسم شجرة لآل التجاني بقدر ما علم من انباء أفراد هذه الاسرة واعطى لمحة عن افرادها الذين وصلت اخبارهم الى علمه (12) .

وهو يرجعهم الى قبيلة (تجان) بكسر التاء ـ من قبائل المغـــرب الأقصى ويرجح أن رحيلهم من المغرب الى تونس كان مع جيش الموحدين بقيادة أمير المؤمنين عبد المؤمن بن على (13) .

وقد نشأ الرحالة فى بيت علم وادب ، وكان ابوه واجداده من أصحاب الأقلام فى خدمة الدولة الحفصية منذ قيامها ـ فى ديوان الرسائــــل وغيره من الوظائف الادارية والكتابية (14) .

وعاصر رحالتنا فترة حاسمة فى تاريخ الدولة الحفصيــــة ، فقـــد أدى تنافس أفراد البيت الحفصى على الحكم الى انقسام المملكة الحفصية الى شرقية كانت حاضرتها تونس ، وغربية فى بجاية .

وحين تولى الأمير ابو يحيى زكرياء بن احمد اللحيانـــى مشيخـــة الموحدين فى تونس قرب ابا محمد عبد الله بن محمد بن احمد التجانـــى اليه ، ولما عزم الأمير على السفر الى المشرق اصطحبه معـــه ، وفوض اليه الاشراف على رسائله وذلك فى آخر جمادى الاولـــى عـــام 706 هـ (ديسمبر 1306) ، بينما كان ابوه بديوان الأمير فـــى تونس لمباشرة شؤونـــه (15) .

وقد ظل الرحالة مصاحبا للامير مدة عامين وثمانية أشهر وبضعـــة أيام (تسعمائة يوم وخمســة وسبعون يوما) .. كما يذكر الرحالة ـ وكان ركب الأمير قد وصل الى طرابلس ، لكن الرحالة اضطر لأسباب صحيـــة للعودة الى تونس (16) .

وكانت عودته من طريق آخر ـ الطريق الساحلى ـ غير طريق الذهاب ، وقد أتاح له هذا الفرصة لتسجيل مشاهداته لنا فى هذا الطريق الجديد .

ويبدو أن عبد الله التجانى ظل فى خدمة ابى يحيى زكرياء اللحيانى بديوان الرسائل حتى وفاته ، وتاريخ وفاة التجاني ـ كما يقول صاحب تاريخ الأدب الجغرافى العربى ـ كتاريخ ميلاده مجهول لنا جهلا كاملا (17) .

الموضوعات التى تناولها الرحالة ومنهجه فيها :

لعل أصدق توضيح لما حرص الرحالة على تسجيله هو ما ذكره هو نفسه فى صدر رحلته ـ فقد قال : « هذا تقييد يشتمل على وصف ما شاهدته فى هذه السفرة المباركة من البلاد ، مضمن ذكر أحوالها وصفاتها ، وبيان طرقها ومسافاتها ، والاشارة الى مفتتحيها وبناتها ، واحوال من اشتملت عليه من اصناف العوالم ، وما يتميز به كل بلد من الآثار والمعالم ، وما يتشوف اليه ، ويتشوق الى الاطلاع عليه ، وقد البس ذلك من حلة النظم والنثر مما ورد فى هذه السفرة الي او صدر عنى استفتاح خطاب ، اورد جواب » (18)

فالرحالة يذكر كل بلد صغير او كبير مر به فى هذه الرحلة ، وقد كان سيرها بطيئا محدودا رغم الوقت الطويل الذى استغرقته ـ وكان ذلك من دواعى الملاحظة الدقيقة لكل ما مر به فى طريق سيره منذ خروجهم من تونس وتسجيل انطباعاته عنه .

ويبدأ عادة بمناقشة اسم البلدة ، ومصدر اشتقاقه وهو يتميز بالدقة الفريدة فحين يشتبه لبسا فى نطق الاسم او انحرافا عن النطق الصحيح يشير الى ذلك ويرجع الأمر لأصله اللغوى (19) .

ويشير عادة الى من بنى المدينة او المكان ومتى بنيت والظروف التي بنيت فيها،وما طرأ عليها منذ ذلك الوقت من تقدم وازدهار أو اضمحلال ودمار (20) .

وكثيرا ما يتعرض الرحالة لوصف المدينة التى زارها فيعبر لنا عن احساسه الاول عندما وطئت قدماه ارضها ، وتغلب عليه الصنعة والأسلوب الملتزم بالسجع فى هذا الوصف ، ولو ان القارىء قد يشعر ان اسلوب الوصف لا يخلو من التكلف — الا ان من حق الرحالة أن نذكر انه فى الوقت نفسه يكتب بحرية ويسر بحيث انه قلما يصل الى درجة المبالغة الممجوجة او الى الحد الذى يجعل من مصنفه مجموعة من الجمل والألفاظ الأدبية المنمقة فحسب وسنعود للحديث عن هذا بشىء من التفصيل عند التعرض لأسلوب الكاتب (21) .

وذكر المدينة يتبعه عادة اشارة لتاريخها الطويل ، والرحالة واسع العلم ، واقف على تاريخ هذه البلاد ولذا كثيرا ما جرنا الى الحديث عن احداث تاريخية مرتبطة بالبلدة او بالمنطقة قد تصل الى فترة زمنية بعيدة ، لكنه غالبا ما يلتزم التسلسل التاريخي السليم ، وقد يأخذ البعض عليه هذا الاسلوب فى المعالجة ، لكن بالاضافة الى ان هذا لا يخلو من الفائدة يجب الا ننسى أن هذا المنهج كان من سماة عصره — كما أنه من الانصاف للرحالة أن نذكر انه فى هذا العرض التاريخي يشير الى بعض المراجع التاريخية ، وقد يناقش بعض القضايا المختلف فيها ، وهذا ما يجعل للرحلة قيمتها التاريخية بالاضافة الى القيمة الجغرافية والأدبية (22) .

ويورد الرحالة عند الحديث عن الاحداث الهامة — اقوال بعض الكتاب والمؤرخين المعروفين وذلك لتأكيد راى او توضيح فكرة — وهذا يدل على أنه بالاضافة الى سعة اطلاعه — فقد كانت فى متناول يده مجموعة من الكتب والمخطوطات النادرة ، ولعل مكتبة السلاطين الحفصيين الشهيرة بقصبة تونس كانت من المصادر الهامة التى استقى منها معارفه ومعلوماته . ومناقشته للأحداث التاريخية المختلفة الواردة فى المصادر المتعددة — تدل على انه لم يكن مؤلفا موسوعيا (Encyclopedist) ولكنه كان باحثا مدققا يجيل الفكر ، ويقلب الرأى ، ويمحصه ليصل الى الحقيقة (23)

ويهتم الرحالة عادة بالاشارة الى أصل سكان المدينة موضوع حديثة ويشير الى ما طرا على المدينة من هجرات سكانية منها او اليها حتى يصل الى العناصر السكانية التي تسكنها وقت زيارته لها (24) .

ويتجه اهتمامه على الخصوص الى ذكر من ينتسب الى المدينة من البارزين والعلماء والفقهاء والشعراء الذين التقى بهم فيها او الذين ينتسبون اليها أو الذين تضم ارضها قبورهم ـ فيذكر طرفا من تاريخهم ومؤلفاتهم ـ ان وجدت ـ وينتهز هذه المناسبة ليشبع ميوله الأدبية ـ فيذكر بعض قصائد هؤلاء العلماء أو المأثور من نثرهم بالاضافة الى ما ينشده هو من قصائد مرتبطة بالظرف الذى يتحدث عنه ، فهو يستعين بالشعر لتأييد أقواله كلما وجد لذلك سبيلا ، يعينه على ذلك ما تميز به من قدرة عجيبة على ارتجال القصيدة فى مناسبتها بيسر وسلاسة نادرين ، بالاضافة الى حافظة قوية ـ ولذا فقد ضمن رحلته عددا كبيرا من القصائد الشعرية التي قد تبدو احيانا لا علاقة لها البتة بموضوع الحديث.. وعندما يورد قصيدة لشاعر ينتسب للمدينة موضع حديثه يشير عادة الى بحر القصيدة بالاضافة الى المناسبة التى ذكرت فيها ـ وقد يعلق على القصيدة فيذكر عنها مثلا انها تتميز بعذوبة اللفظ ، أو التوصل الى المعنى البعيد بطلاقة وسكون جاش ... الخ (25).

ولعل هذه الناحية ـ اى الاهتمام بسير العلماء والادباء والشعراء المنتمين لكل بلد مر به الرحالة من ابرز ما يميز رحلته ، فلا يكاد يسمع أو يعرف أو يلتقى باديب او شاعر ينتسب للبلد الذى يتحدث عنه الا واسهب فى الحديث عنه متمثلا بالمأثور عنه من كرامات او من علم وادب ودراية بالفقه والحديث أو من بلوغ درجة عالية فى مجال الشعر ... ويورد من أقوال المتحدث عنه ما يدلل به على صحة بروزه ويستطرد فى ذلك استطرادا ملحوظا فهو يغتنم هذه المناسبات ليبين مهارته الأدبية وليشبع ميوله الشعرية فيسوق بعضا من قصائده فى نفس المناسبة التى تحدث عنها الشاعر ، او يصوغ الوصف فى نثر مسجوع تغلب عليه الصنعة ، لكن القارىء يشعر ان هذا كله لا يطغى على الموضوع الذى يتحدث عن الرحلة ، ولا يشعر بالملل ولا يفقد الرحلة شيئا من

اهميتها ومكانتها بل بالعكس يشعر بمكانة الرحالة وبسعة أفقه وبما هو متلح له من المراجع الأصلية يسترشد بها في كل مناسبة يأخذ عنها ويناقش اقوال كاتبيها (26) .

ومهما يكن فهو لا يكتفي بأن يسجل ما ذكره الكتاب الآخرون عن الشخصيات التى تناولها او ما يوردونه من اشعارهم أو نثرهم ، لكنه يستدرك ما فات غيره من الكتاب والأدباء فعند اشارته مثلا لشعراء صفاقس ـ يذكر (ابا عمرو عثمان بن ابى بكر بن حمود الصدفي ـ المعروف بابن الضابط) ويتعجب من أن ابن رشيق لم يذكره في الأنموذج رغم انه من المعاصرين له . ويورد هو بعض شعره (27) .

كما يذكر ان بعض شعراء القيروان بعثوا له يطلبون قصائد من شعره ، فأرسلها لهم في مسوداتها مع اعتذار رقيق ـ فأجابوه بدورهم برد مهذب جميل (28) .

ورغم ما وصل اليه الرحالة من علم ومعرفة فقد كان حريصا على أن يحضر هو بنفسه مجالس العلماء من ذوي المكانة في المدن التي طالت اقامته فيها ، فعند زيارته لطرابلس يشير الى ان القائم برسم العلم فيها في وقته هو (الشيخ ابو فارس عبد العزيز بن عبد العظيم بن عبد السلام) ويصفه بأنه نال من المعارف ما اشتهى وحاز فيما حاز من العلوم الأصولية والفرعية الغاية والمنتهى ، وانه حضر دروسه بمسجد مجاور لداره ، فرأى رجلا متضلعا من العلم ذاكرا بالمذهب لا يجاريه فيه أحد ، ولا تكاد مسألة من مسائله تشذ عنه ، حسن العبارة ، مشاركا في علوم جمة ، وله اعتناء بحفظ كلام القرويين فيالمذهب من تعليل أو تفسير او تفريق أو تخريج ، واعتماده في الأصول الدينية والفقهية على كلام الامام ابى المعالي ، وكلام الشيخ ابى حامد الغزالي ، ويسترسل في ذكر الشيوخ الذين قرأ عليهم هذا الفقيه ، والكتب التى قراها (29) .

وهو لا يكتفي بذكر العلماء الذين التقى بهم أو المعاصرين ، فكثيرا ما يرجع بنا للعصور السابقة ، فيذكر العلماء المنتمين للبلدة المشار اليها من

السابقين ـ فنجده عند الحديث عن طرابلس مثلا بذكر « ان من فضلاء طرابلس المشهورين بالعلم والمشاركة فى الأدب المتقدمين عن عصرنا هذا قليلا (يقصد السابقين) ابو محمد عبد الحميد بن ابن البركات بن عمران » ـ ويعطي فكرة عن حياته .. مولده ، ارتحاله الى المشرق لقضاء فريضة الحج ـ عودته الى تونس ثم طرابلس حيث تولى القضاء بهـا ـ ويذكر مؤلفاته ... وهكذا يسترسل فى ذكر غيره من العلماء والفقهاء السابقين (30) .

ولاشك فى ان هذا المنهج فى الكتابة يعرض الرحالة للنقد الذى وجه لغيزه من كتاب الرحلات والقصص الأدبى العربى ، فقد شاع ـ خاصة منذ النصف الثانى للقرن السابع الهجرى (الثالث عشر الميلادي) ـ هذا الاستطراد الذي فسر بانه محاولة من الكاتب ليبين المدى الذى بلغته معارفه (31) .

لكن لابد أن نستدرك أن التجانى لم ينحدر الى ذلك المستوى .

هذا على ان الامر لم يقف عند حد اشارته الى العلماء والفقهاء والأدباء ، فكما ذكرنا انه كان حريصا ـ كلما سمح له الوقت ـ على زيارة قبور الاولياء ، وهى عادة كانت شائعة فى ذلك الوقت لكن المهم ان الامر بالنسبة له لم يقف عند حد الزيارة فهو لم يقصد كغيره مجرد التبرك بزيارة قبور هؤلاء الأولياء ـ ان صح هذا التعبير او الاتجاه ـ لكنه اتخذها فرصة لقراءة شواهد هـذه المقابر وللدرس والبحث والسؤال ـ فربط بين ما وصل الى عمله من حياتهم وبين الظروف التى احاطت بهذه البلاد ، كما اشار الى مؤلفات هؤلاء الفقهاء والأدباء السابقين وما اسهموا به من علم ومعرفة ، او ما كان لهم من دور اصلاحي فى مجتمعهم (32) .

وبالاضافة الى الشخصيات التى تمت بصلة الى المدن التى زارها الرحالة فقد اهتم بتحقيق انساب القبائل العربية التي مر بها ، ويستطرد الى الحديث عن تاريخ هذه القبائل ، ومتى هاجرت لهذه الجهات ، والدور

الذى لعبته فى تاريخ المنطقة . وهو يرجع الى كتب الانساب وغيرها للتحقيق من نسب القبيلة وصحة اسمها ، وهذا دابه فى كل ما يذكر . فهو محقق مدقق لا يسلم بيسر بكل ما يسمع او بكل ما هو شائع الاستعمال قبل ان يستوثق من صحته . فحين يتحدث مثلا عن قبائل (زغب) يرجع نسبها الى (زغب الأصفر بن زغب الاكبر بن جرو بن مالك) . ويذكر ان غالبية الناس ينطقونها بالزاى المضمومة لكن ذكرها الاجدابي (33) فى كتابه بالكسرة وقد سمع ـ كما يقول ـ الفصحاء من العرب ينطقونها بهذا النطق الأخير ، كما ذكرها الرشاطى (34) بالزاى المكسورة (35) .

هذا ويشير فى رحلته الى الطوائف الاسلامية والمذاهب التى عرفتها هذه المنطقة من الشمال الأفريقى ، ويحلل الظروف التى ادت لقيام وانتشار كل منها ؛ فيتحدث مثلا عن مذهب الخوارج المنتشرين بين قابس وطرابلس خصوصا بين اهل الساحل ، ويبين الظروف، التى سكنت فيها هذه الشرذمة بهذه الجهات ونشرت فيها مذهبها ، ويذكر بالذات طائفتين من الخوارج اشتهرتا بالغلو فى مذهبهما ـ فرقه تعرف (بالوهبية) انتشر اتباعها فى الجهة الغربية من جزيرة جربة ، وفرقه (النكارة) انتشرت فى الجهة الشرقية من الجزيرة ، وفيما والاها من جهة الجنوب ـ ويتطرق للفرق بين مبدأ الخوارج ومبدأ المعتزلة ويوضح معتقدات كل فريق منها (36) .

فاذا انتقلنا الى المعالم التي اهتم الرحالة بذكرها فى كل مدينة زارها وافاض فى وصفها والحديث عنها ـ نجد ـ المساجد فى مقدمة ما جذب اهتمامه ، ففى كل مدينة يذكر ما بها من مساجد قديمة أو حديثة فيتحدث عمن كان له الفضل فى بناء كل منها ، وينتقل لوصف الجامع نفسه ـ صحنه وأعمدته وغير ذلك مشيرا لما يلفت النظر من النقوش او غير ذلك . فمثلا عند حديثه عن جامع سوسة يشير الى ان بناءه كان فى ولاية ابى العباس محمد بن الأغلب بن ابراهيم بن الأغلب سنة ست وثلاثين ومائتين ، وبصحنه وعلى اعمدته نقش فى الحجر بخط قديم « القرآن كلام الله ليس بمخلوق » ـ ويرجع ذلك الى انه تنبيه

على مذهب اهل السنة وتثبيت له بسبب كثرة ما كان بسوسة وبجميع بلاد افريقية فى القديم من المذاهب المنحرفة عن المذهب السنى (37) .

وهكذا نجده يقف عند كل مسجد تقريبا من المساجد القديمة المنتشرة بالساحل ويذكر عنها « انها مساكن للصالحين قديما وحديثا شهيرة ، والناس يزورونها ويتبركون بها وانها لمن احسن المساكن لمن يرغب الانفراد لعبادة ربه ، والساكن بها يجمع بين الاحتراس ، ومجانبة الناس ، واكثرها من مبانى ابن الأغلب متبنى المحارس من الاسكندرية الى مجاز سبتة » (38) .

ولا يمنعه تعدد المساجد فى البلد الواحد من ان يذكرها واحدا تلو الآخر مشيرا لظروف انشاء كل مع وصف دقيق له ، ولعل مساجد طرابلس المتعددة التى ذكرها خير مثال لذلك (39) .

كذلك يهتم الرحالة بالاشارة الى المدارس الموجودة فى البلاد التي مر بها فعند حديثه عن مشاهداته فى طرابلس يذكر انه بداخل البلد مدارس كثيرة احسنها المدرسة المستنصرية التى كان بناؤها على يد الفقيه ابى محمد عبد الحميد بن ابى البركات بن ابى الدنيا فيما بين سنة خمس وخمسين ، وسنة ثمان وخمسين ، وهذه المدرسة ـ كما يقول ـ من احسن المدارس وضعا واظرفها صنعا ـ ويسجل ابياتا نشرها احد الشعراء (ابو الحسن على بن موسى بن سعيد) عند زيارته لهذه المدرسة والروضة المحيطة بها . (40)

ومما يلفت نظر الرحالة فى المدن التى مر بها **الحصون والقلاع** ـ فيصفها وظروف انشائها ويشير الى الاحداث المرتبطة بها ، فهى تحكى التاريخ الحربى لهذه الجهات خاصة ان الرحالة استطاع بعلمه الواسع ودابه على التنقيب وراء الحقيقة ان ينسج حول هذه المبانى ذات الصبغة الحربية قصة تاريخ المنطقة فى عصورها التاريخية المتباينة .

فحين يتحدث مثلا عن الحصن المعروف (بالجم) يذكر انه من اعظم حصون افريقية ، ويصفه ، فشكله مستدير وارتفاعه فى الهواء يصل الى مائة ذراع ويشير الى ما ذكره البكرى من ان تكسير دائرته فى الأرض ميل (41) .

ويضيف أن الكاهنة (كاهنة لواته) فى حروبها مع المسلمين حوصرت فى هذا الحصن ، لكنها نجحت فى أن تحفر سردابا فى الحجر نفذت عن طريقه الى مدينة (سلقطة) فكانت تاتيها المؤن عن طريق هذا السرداب ـ ويسترسل فى ذكر ما يروى من احداث اخرى مرتبطة بهذا الحصن ، فيذكر ان الروم اعتصموا به حين زحف جيش عبد الله بن سعد بن ابى السرح أيام خلافة عثمان بن عفان الى غير ذلك من أحداث تاريخية لعب فيها هذا الحصن دورا حاسما (42) .

وعند الحديث عن قابس يتحدث عن اهم آثارها وفى مقدمتها (قلعة بنى حماد) (43) . المشتملة على معالم منها (العروسان) وهو مبنى بناه الناصر بن علناس بن حماد (44) ، والمنار وهو مبنى بناه المنصور بن الناصر (45) ، وعين سلام وهى عين بالوادى المعروف بوادى جراوه ـ ويورد قصائد يتغنى فيها الشعراء بما كانت عليه هذه المبانى والتى اصبحت اطلالا بعد أن جار عليها الزمان (46) .

وفى جزيرة جربه ـ التى كان النورمان قد استولوا عليها والتى كما ذكر الرحالة ان مخدومه يهدف من رحلته الى العمل لاسترجاعها الى ايدى المسلمين (47) ـ يشير الى حصن القشتيل فيصفه بأنه حصن يهول الناظر اتقانا وتحصينا ، وهو مربع الشكل ، وفى كل ركن منه برج ، فاثنان منها مستديران واثنان مثمنان وبين كل برجين من هذه فى وسط الحائط برج صغير مربع ... ويدور بجميع ذلك حفر متسع (اى خندق واسع) (48)

ويهتم الرحالة ايضا بالمبانى الأثرية الاخرى القديمة بل ويحاول أن يستكشف تاريخها ودلالتها وأن يستنطقها الظروف التى مرت بها ،

ويسترشد فى ذلك بمن يعتقد انهم أدرى منه بتاريخها ، ويذكر لنا ذلك بصراحة ـ فحين وصل الى موضع يعرف (بتجفت) بفتح التاء وتشديد الجيم وسكون الفين المعجمة ـ يشاهد أثارا قديمة ومبانى مختلفة الأشكال وقد سقطت من كثير من تلك المباني أحجار مرسومة بخطوط غريبة عليه ـ فاستدعى بعض (النصارى) فلم يعرفوها .. (49) .

ولم تقتصر رحلة التجانى عما امدنا به من معلومات جغرافية عن المدن التى مر بها ، او عن تاريخها وسير علمائها ، وما صادفه بها من دور للعبادة او للدرس والتعليم ، او من آثار باقية او دارسة او عمن سكنها من قبائل او طوائف لكنه ايضا امدنا بمعلومات نافعة عن انتاجها الزراعى وما يمارسه السكان فيها من الوان النشاط الاقتصادى او ما كانت تشتهر به فى الماضى من ذلك .

فيشير مثلا الى ان سوسه تنسب اليها الثياب السوسية الرفيعة الدقيقة الصنع (50)

ويتحدث عن الثروة النباتية للساحل الافريقى عموما ـ فيذكر انها كانت قديما تتركز فى اشجار الزيتون والكروم ، وان الزيتون كان بهذا الساحل مفروسا على حالة معلومة ، واسطر متناسقه منظومة ، وعلى هذا الزيتون كان مدار غلات افريقية فى القديم ومصدر ثرائهم ... ويذكر انه يروى ان ابن ابى سرح لما افتتح افريقية وجد اكثر اموالهم من الذهب والفضة فسألهم انى لكم هذا ... فجعل احدهم يلتمس شيئا فى الأرض حتى اتاه بنواة زيتون فقال له من هذا اصبنا هذه الاموال .. (51) .

وينقل عن الرشاطي فى (اقتباس الأنوار) قوله ان تسمية الموضع بالساحل ترجع لكثرة ما كان فيه من مواد الزيتون ، والتمر ، والكرم (5) .

وعند الحديث عن جزيرة جربه يذكر ان ارضها كريمة المزارع ، عذبة المشارع ، واكثر شجرها النخيل والزيتون والعنب والتين ، وبها

اصناف كثيرة من سائر الفواكه ، وتفاحها لا يوجد في جميع بقاع الأرض له نظير ، لما يوجد بها منه صفاء وجفافا وطيب مذاق وعطارة استنشاق ، ورائحة توجد من المسافة البعيدة ، والأميال العديدة .... واختصت هذه الجزيرة ايضا دون غيرها من البلاد بحسن الأصواف المحمودة الاوصاف التي ليس لها بافريقية لما ينسج من اثواب نظير ، وذلك معلوم من امرها شهير (53) .

وفي (توزر) يلفت نظره غاباتها الجميلة ، وعيون المياه التي تتجمع خارج البلد في واد متسع . وتتشعب منها جداول كثيرة ، ويشرح طريقتهم في تقسيم المياه ، وكيف يشرف أمناء منهم على توزيع المياه بين الأحياء حسب ساعات محددة من النهار والليل (54)

ويتحدث عن نبات العشر الذى يملأ القيعان وبطون الاودية في المنطقة الشرقية من طرابلس . فيذكر انه نبات شديد الخضرة يضرب الى سوادها ، وله أوراق عظيمة ونور مشرق حسن المنظر ، وثمره أخضر تملأ الواحدة يد حاملها وهي مملوءة بشيء يشبه القطن يسميه العرب (الخرفع) بضم الخاء المعجمة وسكون الراء وضم الفاء — وربما حشيت منه الوسائد ، وذكر ان أحد الذين يثق بهم اخبره انه رأى ثيابا صنعت منه — ويشير الى ان البيطار أشار الى وجود هذا النبات بهذه الجهة وانه لم ير منه في بلاد الأندلس لكنه رآه بديار مصر بظاهر القاهرة . واشار الى ان بعض العرب كانوا يظنون انهم يمكنهم استجلاب المطر — اذا احتبس عليهم — بشجر العشر . فيأخذون أغصانه ويجعلونها في أذناب البقر ويشعلون النار فيها ثم يصعدونها الى الجبل فيزعمون انهم يمطرون من وقتهم — ويشير الى ان هذا ضرب من السحر . وذكر قول الشاعر (أمية بن ابى الصلت) يعيب عليهم فعلهم هذا .

اسلوب الرحالة :

يتميز الاسلوب الذى سجل به الرحالة مشاهداته وملاحظاته بالسلاسة والرقة ، كما تميز عرضه بالصدق والحيوية والقدرة على

التصوير الدقيق ، فالصورة اللفظية التي يقدمها تكاد تشبه من دقة التصوير صورة واقعية يرسمها فنان ماهر لا تترك ريشته شيئا الا بينته ـ فرغم علو كعبه فى الادب ، ورغم ما قد يؤخذ عليه من محاولته التدليل على سعة معارفه ومهارته ككاتب وكأديب وكشاعر ـ فان القارىء لا يشعر بملل ولا يضيق بما يقرأ بل يتابع رحلته بشغف وبرغبة فى الاستمرار مع الرحالة فى رحلته وفى وصفه .

وشعره سهل مسترسل لا يتعمد اللفظ الغريب ولكنه يهتم بالصورة الواضحة، تعينه على ذلك قدرته على التعبير =نظما ونثرا= عن أحاسيسه فى كل مناسبة دون جهد ودون عناء ، فلا يقع بصره على ظاهرة طبيعية أو يدق سمعه خبر حتى ينطلق منشدا من شعره أو من شعر غيره من الأدباء او معلقا بنثره الحلو المفهوم بما يتلاءم والمناسبة ـ ولعله من المناسب ان نورد بعض الامثلة القليلة على ذلك .

فحين يلمح فى كبد السماء الكوكب المعروف (بسهيل) يسجل ذلك ، وكيف يبدو لناظره فى احمرار واضطراب شديد لقربه من الأفق ويتمثل بقول ابى العلاء المعرى :

وسهيل كوجنة الحب فى اللـو ن وقلب المحب فى الخفقان

ويسرع اللمم فى احمرار كما تسـ رع فى اللمم مقلة الغضبان

ويشير الى ان الاعراب يعتقدون ان طلوع الكوكب يستتبعه موت الابل ووقوع الوباء فيها ، ويعقب على ذلك بأن هذا لا يخرج عن كونه من خرافات الأعراب ويؤيد ذلك بأشعار أخرى للمتنبى وغيره من الشعراء (55) .

ويجذبه جمال الطبيعة فى مدينة (توزر) فلا يكتفى بوصف ما يرى بالاسلوب العادى ، لكنه يورد قصيدة لأحد شعرائها يتغنى فيها بجمالها ـ جاء فيها :

زر توزرا ان شئت روضة جنة
تجرى بها من تحتك الأنهار

جناتها مثل الجنان فأرضها
مسك ونشر نسيمها معطار

والنخل مثل عرائس مجلوة
تبدى بديع حليها الأطوار

قطر من الاقطار اشرق حسنه
فكأنما الليل البهيم نهار (56)

اما عن شعره هو فلا تفوته مناسبة الا ويعبر بالقصيد عن مشاعره ، ولا تكاد تصله قصيدة او خطاب من والده او من قريب او صديق الا ويرد عليه بقصيدة من الشعر من نفس قافية القصيدة الواردة ومن نفس البحر حتى يخال للقارىء انه فى مباراة شعرية حافلة يتبارى فيها فحول من الشعراء ، والرحلة حافلة بعشرات القصائد من هذا القبيل فى مختلف المناسبات ، وقد حرص الرحالة على اثبات كل ما ورد اليه من قصائد مدة رحلته ـ يعبر اصحابها عن مشاعرهم تجاهه بعد غيبته الطويلة ، كما سجل أيضا ردوده على تلك القصائد ـ ولا اعتقد ان القارىء يشعر بالملل من جراء ذلك بل بالعكس تجذبه الصور الشعرية المختلفة وتبهره القدرة الفائقة على اخضاع الالفاظ لمطالب الشاعر ومشاعره وقلبه فهو يتخير اللفظ المناسب دون عناء ودون جهد ، ولنضرب بعض الأمثلة لذلك .

فحين وصلته قصيدة من الفقيه (ابى بكر محمد بن أحمد بن شيرين الجذامى السبتى) يشير فيها الى ما حل ببلده سبتة التى اضطر لتركها وترك أحبابه فيها الى غرناطة ـ يرد عليه الرحالة بقصيدة طويلة من نفس بحر وقافية القصيدة المرسلة له ـ جاء فيها : (57)

حدث عن الحادث الذي وقعــــا تلف مصيخـا اليــك مستمعـــا

وهات ما قد سمعــت منـــه وان تركـت قلبـــى بذاك منصدعـــا

هل معهد الأنس كيف كان ففـــــد عهدتـــه للكمـــال مجتمعــــا

وهـــل حمـــى العزفيه محتـــرم أم سلب العـــز منـــه وانتزعا

وايـــن ناس هنـــاك أعهدهـــم علـــى المعالـــى جميعهم طبعـــا

يا ليت شعرى وفى المنى سعـــة أن ابقيت الحادثـــات مستمعـــا

هل يرجع الدهر ما مضـــى فلكم قد عاد مـــن ذاهـب وكـم رجعا

والرحالة ـ كما ذكرنا ـ يشارك بالنظم فى كل مناسبة ، فقبل وصولهم لطرابلس ـ مثلا ـ وصل الى علمهم خبر الجدب الذى يصيب برقه والـذى ترتب عليه انتشار الموت والمرض والفاقه بين ربوعها ، كما اصاب مخدومه مرضا شديدا ـ فاتجه راي المرافقين له ـ على حضه على الرجوع لتونس وعدم المضى فى وجهته للحج ـ وطلبوا من الرحالة مشاركتهم بالنظم ـ فأجابهم الى رغبتهم بقصيدة طويلة جاء فيها مخاطبا مخدومه : (58)

ارجـــع لمحـــل حـــال بمــا يشكـــو لفراقـــك مـــن علـــل

فاقـــم للديـــن تجـــــدده فـــى عـــز بـــاق متصـــل

واخلـــع اثـــواب السقم بمـــا تكســـى للصحـــة حلـــل

فشـــروط الحـــج قـــد ارتفعـــت لـــزوال القـــدرة والسبـــل

ومما كتبه لابن عمه يشكو له امتداد البعد قوله : (59)

احبابنـــا هـــل ينال حظـــا مـــن وصلكـــم مـــن بكم يهيم

هبـــوا لأجفاننـــا منامـــا فعهدهـــا بالكـــرى قديـــم

لازمهـــا بعدكـــم سهـــــــاد تعـــرف مقـــداره النجـــــوم
ان حكـــم الدهـــر بافتـــــراق موقعـــه فـــى الحشـــا اليـــم
فكـــل شـــىء الـــى كتـــاب قـــدره القـــادر الحكيـــــم

والرحالة يتميز فى سلوبه النثرى بسلاسة وعذوبة لا تقـلان عمـا لمسناه فى شعره ـ فنراه مثلا عندما يتحدث عما عانوه من المشـــاق فى سلوكهم ، سبخة تامكرت ، فى الطريق لقابس يقول :

« بتنا على غير ماء . ثم هببنا ثلث الليل الاخير . فلم نزل نحف بأيدي المطايا ونعد ذلك ان شاء الله تكفيرا لما ارتكبنا من الخطايا ـ الى عصـــر الغد » (60)

واذا تأملنا وصفه ما فعله جنودهم بقريـــة مجـــزم) القريبـــة مـــن (نفزاوة) نلمس نفس الشيء ـ فهو يقول « وجد الاجناد أهلها قد فروا عنها جلاء وتركوها خلاء . فانطلقت أيديهم بالعبث فى ربوعها ، والرعى لزروعها ، وكثيرا ما كانوا يحتفرون ارضا فيجدون أهلها قد أودعوا هنالك ما صعب عليهم نقله ، واثقلهم من الأثاث حمله . فأذهبوا بالافساد رسمها ولم يبقوا منها فى الحقيقة الا اسمها » (61) .

وهكذا نجده رغم التزامه بالسجع ـ وقد كان شائعا فى وقته يلتزم به كثيرون من الكتاب والأدباء ـ فان ذلك لم يفقد أسلوبه حلاوته ومعناه ودقته ولم يصل للدرجة التى يضيق بها القارىء او السامع .

فهو حين يذكر قصر وزدر (بكسر الواو وسكون الزاي ، وكسر الدال مهملة) مثلا ـ يقول « انه مكان قد محى رسمه وبقي اسمه » ، ويذكـر ان هذا القصر كان يسكنه قوم اعتادوا خطف الرجال من القوافل التى تمر بهم وبيعهم فى أسواق الرقيق ، فالذين يمرون بهذا المكان كانوا فـــى رعب « لخوفهم على سرقة الرجال أكثر من خوفهم على سرقة الرحال » .

فالسجع كما نرى لم يفقد الحديث حلاوته وجماله ولا المعنى دقتـــه وجـلالـه .

رحلة التجاني
طريق الذهاب
طريق الرجوع

تونس
رادس
حلق الجزيرة
جزيرة شريك
باشو
الحمامات
الفلاحين
المرصد
اهريقلية
سوسة
السبخة الحمراء
القيروان
المنستير
الوردانين
جمال
المهدية
الجم
ابيار الاصابع
قصر زياد
جبنيانة
برشانة
سفاقس
نقطة
الحرس
جربة
قرقنة
جودرف
قابس
اجيم
الحمة
توزر
نفطة
سبخة تاكمرت
الجرف
كتانة
مارث
غدامس
طرابلس
زوارة
صبرة
زواغة
زنزور
تاجورة
تاعرمت
مسراتة
افريقية
البحر الأبيض المتوسط

كلمـــة تقييـــم ختاميـــة للرحالـــة :

تكتسي الرحالة أهمية جغرافية وتاريخية وأدبية ، فالرحالة يعطينا من خلال اشاراته للمدن التي زارها ، وفى لغة أدبية ـ صورة دقيقة عن هذه المدن ، وما بها من آثار قديمة ومنشئات أحدث . ودورها فــى الأحداث التى مرت بالمنطقة ، بل انه يتطرق لتاريخ المغرب العربى كلـــه وعلاقاتـــه بالمشرق العربى ـ بمصر ، وبدولة الخلافة فى بغداد . وبالدول الأجنبية التى بدات تتجه بانظارها للأقطار العربية الاسلامية فى هذه البلاد ، فهــو يشير مثلا لمدينة (سبتة) وما أصابها ، كما يشير الى اطماع النورمان فى صقلية وغيرها واغاراتهم على تونس والمهدية وغيرهما من البـــلاد العربية بالشمال الأفريقى ، كما أن دراسته لأدباء وعلماء هذه البـــلاد وانتاجهم الأدبى والعلمى تتميز بالأصالة والعمق ـ وهو يرجع فى ذلك لكثير من الكتب والمخطوطات وبعضها ليس فى متناول الأيدى الآن .

هذا واشير الى ان ابن خلدون قد ابدى تقديره الكبير للرحالة ، وأفاد من مصنفه كثيرا فى الأجزاء التى افردها من تاريخه للشمال الأفريقى .

بل ان الاجانب اعترفوا بقيمة رحلته فنجد امرى (Amari) يشير الى « أن التجانى يقدم لنا فى رحلته معلومات تاريخيـــة وجغرافية ذات قيمة كبرى ـ من ذلك مثلا ما كتبه عن جزيرة (جربه) بل وعن صقليـــة نفسهـــا » (62) .

وقد قام روسو (Rousseau) فى الخمسينات من القرن الماضى بترجمة شذرات هامة من الرحلة (63) .

كما اشار بل (Bel) ايضا الى اهمية الرحلة (64) .

ومهما يكن من شىء فلاشك فى ان رحلة التجانى تقدم نموذجا طيبـا لجهود الرحالة المغاربة ومساهمتهم فى هذا الميدان ـ ميدان الرحلـــة العلمية الهادفة ، كما تعطى صورة مشرقة لما وصل اليه ادب الرحلات عند العرب فى هذا القرن (الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى) ، وهـــى

تستحق من طلاب العلم فى الميادين الجغرافية والتاريخية والأدبية دراسات واعية متعمقة للافادة منها .

والله المعيـــن .

الرباط **د. شوقي عطا الله الجمل**

هوامـــش البحـــــث

(1) انظر رحلة التجاني ـ نشر كتابة الدولة للتربية القومية ـ تونس 1958 ص 393 ، وهي التي سنشير لصفحاتها هنا باستمرار لأنها الطبعـــة المحققة والتى يسهل للقارىء الرجوع اليها) .

(2) المقرى ، ابو العباس احمد بن محمد : **نفح الطيب من غصن الأندلس** الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب (**المطبعة الأزهريـــة** بمصر 1304 هـ ـ 1886) حـ 1 ص 483 ، 484 .

(3) نشر المستشرق البريطانـــي رايـــت (Wright) الرحلة **كاملة فى** عام 1852 ، ثم ترجمت بعد ذلك لعدة لغات ـ وقد **اكتشفت مخطوطة** للرحلة **بفاس** .

(4) انظر ـ كراتشكوفسكى : اغناطيوس يوليا نوفتش ، **تاريـــخ الأدب** الجغرافى العربى ، نقله الى العربية صلاح الدين عثمـــان هاشـــم) القسم الاول 1963 ص 367 .

(5) انظر مقال الأستاذ محمد الفاسى عن هذا الرحالة (بمجلة معهد المخطوطات العربية ـ المجلد الخامس 1959)

ـ كذلك انظر : ابن‌سوده ، عبد السلام بن عبد القادر : (دليل مؤرخ المغرب الأقصى حـ 2 ، 1965) ص 363 ، 364.

(6) انظر ما كتبه عنه : Schefer : Description de l'Afrique I.P. VII

(7) اتخذ للرحلة عنوان « تحفة النظار ، وغرائب الأمصار ، وعجائب الأسفار » وتوجد بعض اجزاء من النسخة الأصلية بباريس تحت رقم 907 .

ـ وقد ترجمت اجزاء عديدة من الرحلة الى عدة لغات ؛ كما عثر على نسخ كاملة للرحلة فنشرت فى باريس ، بتحقيق العالمين (فريمرى ، وسانجوينتى) .

ـ ونشرت الرحلة فى طبعتين بالقاهرة 1875 ، 1904 . وتعددت بعد ذلك طبعات الرحلة .

(8) Jacobs Joseph : The Story of Geographical Discovery (N.D.) P. 79

(9) انظر ما كتبه عنه كاتب هذا المقال بمجلة المناهل العدد الثانى .

(10) نشر خليل محمود عساكر ، ومصطفى محمد مسعد ـ رحلة التونسى الى دارفور اعتمادا على النص العربى للمستشرق بيرون (A. Perron) الذى نشر فى باريس 1850 ، لأنهما لم يعثرا على الأصل الذى دونه التونسى بنفسه . ـ أما رحلة التونسى الى (واداى) فلم تنشر بالعربية بعد ، لكن النص الفرنسى لها منشور بعنوان :
Voyage Au Soudan Oriental-Le Ouadday

(11) يشير صاحب كتاب تاريخ الأدب الجغرافى العربى اليه باسم محمد بن احمد التجاني ، ويذكر ان اسمه لم يثبت حتى الآن بصورة قاطعة .

انظر : كراتشكوفسكى : مرجع سابق ـ القسم الأول ص 383 .

(12) انظر مقدمة الرحلة المنشورة فى عام (1958)ـ ص 10 وما بعدها ـ وكذلك ص 39 .

(13) بويـــع بالخلافة بعد وفاة محمد المهدى بن تومـرت (524 هـ ـ 1130 م) ، وبعد أن استتب له الأمر فى المغرب الأقصى قاد جيشه واسطوله لغزو بلاد افريقية وطرد النورمان منها ، فاستولى علـــى بجاية ، وقسنطينه ، وباحة ، وفى 18 رجب 554 هـ سقطت تونـس فى يديه ، كما سقطت المهدية فى يوم عاشوراء سنة 555 .

ملاحظة : النورمان قبائل هاجمت اوربا الوسطى فى القرن التاســع الميلادي فاستولوا على قسم من شمال فرنسا الغربي (لا يزال ينتسب اليهم الى يومنا هذا ـ نورماندى) ، ثم استولوا على جنـوب ايطاليا وصقلية وغزوا بعد ذلك سواحل المغرب ومن أشهر ملوكهـم رجـــار الثاني أو (روجى) وقد ازدهرت صقلية فى ايامه ازدهارا كبيرا بسبب الحضارة التى يرجع الفضل فيها أصلا للعرب .

انظر : الجيلالي ، عبد الرحمن بن محمد : تاريخ الجزائر العـام ج 1 (1953) ص : 334 .

(14) تضاربت الاراء حول الدوافع التى دفعت الأمير الحفصـــى للقيام بهذه الرحلة ، فالرحالة يذكر ان القصد الاول من الرحلة انمـا هـــو التوجه لأداء فريضة الاسلام ، الا ان الحـــج طـــوى على النـــاس ـ فى هذه الحركة ـ ذكره .

على ان الملابسـات وتطور الأحداث تدل على ان الحج لم يكن الهدف الوحيد على الأقل ، ويفهم من سياق الرحلة ان من اهدافها تفقـد شؤون المملكة فى الوقت الذي كانت رياح الاضطرابات تنذر بالهبوب فيها ، كذلك يفهم من أقوال الرحالة أن تخليص جزيرة جربة مـن يد النورمان المغتصبين كان من اهداف هذه الرحلة (كـان تغلـب النورمان على جزيرة جربة فى هذه المدة الأخيرة سنة ثمان وثمانين وستمائة) ، انظر الرحلة ص 4 ، ص 126 .

هذا وقد يكون من أهداف الرحلة التأهب لفرض قبضته الكاملة على تونس ويرجح هذا الراى ما حدث فعلا بعد عودته من الحج ، فقد استقر فترة فى طرابلس ؛ ثم لم يلبث بعد أن رتب أمره أن هجم على تونس بمجموع من الاعراب ، وتمت له البيعة فى العاصمة (تونس) .

(15) الرحلة ص 393 .
وانظر خط سير الرحلة ذهابا وايابا .

(16) كراتشكوفسكي : مرجع سابق ص 383 .
ملاحظة : تذهب بعض المراجع الى أن عبد الله التجاني توفى فى عام 721 هـ ، بينما يرجح البعض انه مات هو وعدد كبير من أفراد اسرته فى عام 718 أثناء الحروب التى أطاحت بحكم ابى يحيى زكرياء بن احمد الحياني وولى عهده . وان كان أبو يحيى زكرياء نفسه قد فر بعد هذه الأحداث الى مصر ، وقد توفى بالاسكندرية فى محرم 727 (ديسمبر 1326)
ــ انظر مقدمة الاستاذ حسن حسنى عبد الوهاب للرحلة ص 27 وما بعدها .

(17) الرحلة ص 3 .

(18) ــ فمثلا حين يتحدث عن بلده (صلتان) يذكر انها سميت بذلك لأن أقواما من البربر يعرفون ببنى صلتان نزلوا بها فى أول الزمان ، ولذا كانت تعرف فى القديم بقرية بنى صلتان .. الرحلة ص 22
وحين يتحدث عن بلدتى (زرمدين) و (جمال) مثلا ــ يقول : (زرمدين) مفتوحة الزاى ساكنة الراء ، مكسورة الدال المهملة ، و (جمال) مفتوحة الجيم مشدودة الميم ــ الرحلة ص 55 ، 56 ــ وكذلك يذكر (طينه) بكسر الطاء وفتح النون ، ويذكر (نقطه) بفتح النون وتشديد القاف ، وهما نقطتان قريبتان من صفاقس ــ الرحلة ص 84 .

ــ وحين يتحدث عن موضع خارج قابس يعرف بـ (سوانى خلف الله) يذكر ان التسمية ترجع الى توفر الباقل به حيث يقصده

العربان بمواشيهم ، ويستدرك فيذكر ان الباقل اسم مرعى من النبات مخصوص ، وهو فى اللغة اسم لكل موضع انبت البقل ، والبقل كل نبات تخضر منه الارض ، وقد ابقل (رباعيا) فهو باقل وهو الشائع وقد سمع فيه مبقل على القياس ـ الرحلة ص 132 .

ـ ويتحدث عن (توزر) فيذكر ان بعض الناس ينطقها بفتح التاء والبعض بالضم ويذكر ما يستند اليه كل فريق .

ـ ويناقش النطق الصحيح لاسم مدينة (طرابلس) فيذكر ان الاشهر نطقها بفتح الطاء وضم الباء واللام ، ويسترشد بقول البكرى فى ذلك لكنه يذكر ان البعض يضيف ألفا فى اول الاسم (اطرابلس) ، والبعض كالكاتب ابى الحسن على بن ابى بكر بن بلال يسكن لام طرابلس .

انظر الرحلة ـ ص 270 ، 271

ـ البكرى ، ابو عبيد : المسالك ص 6 ، 7 (طبعة الجزائر) .

(19) فيشير مثلا الى اسم (جزيرة شريك) فيذكر انها تنسب الى شريك العبسى احد العاملين عليها فى قديم الزمان ، وهو والد (قره بن شريك) والى مصر من قبل الوليد بن عبد الملك ـ الرحلة ص 11 .

ـ وقرية الوردانيين تنسب كما يقول الى (ابى محمد يونس بن محمد الوردانى) ، ويستطرد فى الحديث عن هذا الرجل وما عرف عنه من صلاح وعلم ـ الرحلة ص 56 .

ـ ويتحدث عن بناء عبد الله المهدي ـ (للمهدية) وظروف اختياره لهذا المكان وابتداء بنائه لها سنة ثلاث وثلاثمائة ، وعن الدافع لبنائها ويستشهد بما كتبه ابو اسحق ابراهيم بن القاسم الرقيق فى كتابه ـ ـ الرحلة ص 320 ـ 324 .

(20) انظر كيف يصف قابس بانها بلد قد استوفى المحاسن واستغرقها ... ويستطرد قائلا .. واذكر منظره الأنضر ، وورقها الأخضر .. جنة الخلود واستبرقها ، وقد أحدقت غابته من جميع

جهاته ، وبهذه الغابة من الجواسق ، والنخل المتناسق ، ما يستوقف الطرف ، ويستوفى الحسن والظرف ، ويحقق ما قيل ان قابس جنة الدنيا ، وانها دمشق الصغرى ـ الرحلة ص 86 .

(21) فعند حديثه عن سوسه) يشير الى فتح العرب لها وضمها الى ولاية افريقيا فى عهد عمرو بن العاص ـ وانها منذ ذلك التاريخ اصبحت مركزا تخرج منه جيوش المسلمين لمهاجمة الروم فى صقلية وغيرها،ويصف اهلها بالبأس والنجدة ، فقد امتنعوا على الخوارج وبايعوا ابا القاسم الشيعى ، كما حالفوا المعز بن باديس صاحب افريقية ، وهكذا يتابع تاريخها حتى دخولها فى حوزة الموحدين ، وهو يتمثل فى كل ما يذكره من احداث بأبيات من الشعر أنشدها الشعراء فى هذه المناسبات .

الرحلة ص 26 ـ 30

ـ وبالمثل يتحدث عن ، قابس) فيتطرق لتاريخها منذ ان خضعت لسلطان الدولة العبيدية ، ثم آل أمرها لصنهاجة لما بسط العبيديون (الفاطميون) نفوذهم على مصر ، ويذكر كيف خضعت لقبائل بنى جامع العربية المهاجرة من مصر ومنهم اخذها الموحدون ، ثم تغلب عليها ، شرف الدين قرقوش) الأرمنى مملوك الملك المظفر تقى الدين بن شاهنشاه بن ايوب بن شادى ابن أخى صلاح الدين ، وتحدث عن حصار على بن اسحاق اليورقى لها ـ وهكذا حتى نجح السلطان محمد الناصر من استرجاع سلطان الموحدين على افريقيا (601 هـ) فخلف عليها وزيره أبا محمد عبد الواحد بن ابى حفص من امراء الحفصيين الذين توارثوا الحكم فيها مدة من الزمن .

الرحلة ص 96 ـ 110

ـ ويتحدث عن مدينة (طرابلس) وقد لفت نظره لاول وهلة نظافتها ، فيتحدث عن ذلك ويرجعه الى انه من المتفق عليه ان لأهلها حظا من مجباها يصرفونه عليها ، ثم يتتبع تاريخها منذ افتتاحها على يد عمرو ابن العاص حتى وقته ، ويشير الى أن موقعها المتوسط فى الشمال

الأفريقي جعلها تتأثر بأحداث المشرق العربي (مصر بالذات) ـ كما تأثرت بأحداث المغرب ، فتاريخها هو صورة لتاريخ الشمال الأفريقي كله ، فقد لعبت دورا حاسما في تاريخ دولة الأغالبة ، كما لعبت دورا في تاريخ العبيديين ، فلما انتقلوا الى مصر أصبحت طرابلس مثار نزاع بين الصنهاجيين وبين الزناتيين ، كما تعرضت للغزو الأجنبي من صقلية ، وعادت للموحدين بعد اثنى عشر عاما ، فدخلت ضمن دولة الأمير عبد المؤمن بن علي الموحدي ، لكن حاصرها قراقوش في عام 586 فملكها الى أن طرده منها يحيى الميورقي ، لكن ثار أهلها عليه ودخلوا من جديد تحت طاعة الموحدين .

الرحلة 237 ـ 246

ـ ويتحدث عن (المهدية) ونشأتها ويتتبع تاريخها في ظل حكم العبيديين ، ثم في مدة الدولة الصنهاجية ، ويشير بتفصيل الى كفاحها المرير ضد أطماع أهل (جنوة) و (البندقية) وكذا (صقلية)ـ ويورد قصيدة لأبي الحسن علي بن محمد بن الحداد يشيد فيها بكفاح أهلها ضد الغزاة ـ ويتحدث عن حروب الأمير (عبد المؤمن بن علي الكوفي) ضد النورمانديين واستخلاصه المهدية من أيديهم في يوم عاشوراء سنة 555 هـ ، ويسترشد في ذلك بما جاء في تاريخ (ابن شداد) . ويذكر ان الامير نقل مركز الحكومة الى (تونس) وبقيت كذلك في عهد دولة الحفصيين ومن جاء بعدهم من الدول .
الرحلة ص 328 ـ 349 .

(22) فعند الحديث عن جيش الأمير عبد المؤمن بن علي صوب تونس يشيد بنظام هذا الجيش،وما عرف عنه من الترفع عما يخص السكان، ويستند الى ما جاء بتاريخ ابن شداد من « أن عبد المؤمن لما سار الى تونس بالجموع العظيمة كانوا يمرون بالمزارع في الطرق الضيقة فلا يؤذون شيئا منها . . . وكان هذا المعسكر يمتد اميالا كلهم يصلون الصلوات الخمس وراء امام واحد وبتكبيرة واحدة ولا يتخلف احد منهم كائنا من كان عن الصلاة ـ وكانت مقدمة هذا المعسكر اثنى عشر الفا قد كلفوا بحفر الآبار في الطريق لاستخراج المياه فكانوا

يمتدون قبله بيومين فلا يأتي الا وقد هيئت الفلات وملئت الأحواض بالمياه » ... الرحلة ص 346

ـ وفى حديثه عن تاريخ بلدة (طرة) يشير الى ما جاء فى « مياومة » الفاضل البستاني من « انه فى سنة ست وثمانين وخمسمائة وصل الخبر بأن الميورقى حاصر (ياقوتا) نائب قراقوش فى طرة حتى اخذه واخذ من الغز الذين كانوا معه مائة فارس أضافهم الى جنده فأطبقت على طاعته العربان واستولى على بلاد الجريد » ... الرحلة ص 147

ـ وكذلك يذكر ما جاء بتاريخ ابن نخيل قوله « انه لما وصل الناصر الى افريقية فى سنة احدى وستمائة خرج الميورقي من تونس ووصل بعسكره الى (القيروان) ، فأقام بها أياما ثم انتقل منها الى قفصة ، وفى خلال تنقله الى تلك الجهات بلغه من أهل (طره) ما غيره عليهم فوصل اليها وقاتلها حتى افتتحها ثم اطلق الجند عليها فقتلوا الرجال وانتهبوا الأموال ، وترك طرة خاوية على عروشها » الرحلة ص 417

(23) عند حديثه عن سكان مدينة (توزر) مثلا يذكر أن أصل اهلها من بقايا الروم الذين كانوا بافريقية قبل الفتح الاسلامى ثم سكنها قوم من العرب بعد الفتح ومنها أيضا من البربر الذين دخلوها فى قديم الزمان .

الرحلة ص 161

(24) فعند حديثه عن (سوسه) يذكر من شعرائها (محمد بن الحسين ابن ابى الفتح) و (علي بن احمد بن الصفار السوسي) و (ابو الفتوح بن محمد) و (أبو موسى عيسى بن ابراهيم السوسى) و (عبد الوهاب بن خلف بن القاسم) و (محمد بن عبدون السوسى) و (عبد الحليم عبد الواحد بن عبد الحميد السوسى) و (التراب السوسي) و (أبو عبد الله محمد بن عبد الجبار الرعيني السوسي)ـ ويورد لكل منهم ابياتا من شعره نقلا عن الانموذج لابن رشيق ، أو خزانة الأدب لابن سعيد ، او عن الخريدة لعماد الدين الأصبهاني ، أو عن تاريخ ابن شرف ، او تحفة القادم لابن الآبار ، او غير هذه من

كتب الادب والتاريخ ــ ويورد أحيانا تعليق صاحب الكتاب أو تعليقه‌هو على القصيدة . . . الرحلة ص 33 ــ 53

ــ وفي قابس يروى من قصائد شعرائها (على ابن حبيب التنوخي) . و (مضر بن تميم الفزاوي) وغيرهما . . . الرحلة ص 76 ــ 84

ــ كما يشير الى ان (لبانة الانصاري) من سادات الصحابة مدفون بها (بقابس) وهو ممن شهد العقبة وبدر ، ويشير لظروف هجرته الى هذه البلاد ــ ووفاته في خلافة على بن ابى طالب .

الرحلة ص 91 ــ 92 .

ــ وفيما يتعلق بالمهدية يجد تحت يديه مادة وافية فى كتاب : ابــن رشيق « الروضة الموشية فى شعراء المهدية » فيمده هذا الكتاب بالكثير عن شعرائها فيسهب فى ذكر كل منهم ومولده وحياته ويورد له بعض قصائده .

الرحلة ص 366 - 393

(25) عرف هذا الاتجاه عن ابن جبير ، وعن الرحالة المغربى محمــــد العبدري وقد اشرنا اليهما فى مقدمة هذا البحث .

(26) مما اورده له قوله :

اذا مــا عـــدوك يومـــا سمـــا الى حالـــة لم تطـــق نقضهـــــا
فقبـــل ولا تأنفـــن كفـــــــــه اذا أنـــت لـــم تستطع عضهـــا

(27) أورد ذلك ابن بشكوال ، ابو القاسم : الصلة عدد 131 ، ويذكر انه بعث مع مسودات قصائده بيتين يقول فيهما مخاطبا طالب قصائده :

خطبـــت بناتـــى فأرسلتهـــن اليـــك عواطـــل من كـــل زينة
لتعلـــم أنـــى ممن يجـــــود بمحض الـــوداد وليس ضنينـه

فكان الرد عليه :

اتتنـــا بناتـــك يرفلـــن فـــــى ثياب مـــن الوشى يفتـــن زينـــة
فلمـــا سفـــرن فضحن الشموس وســـرب الظبـــاء واخجلن عينـــه

الرحلة ص 80

(28) الرحلة ص 255 وما بعدها .

(29) الرحلة ص 272 وما بعدها .

(30) كراتشكوفسكى : مرجع سابق ص 367 .

(31) انظر حديثه عن قبور الأولياء التي زارها بخارج طرابلس وما ذكره عن حياة كل منهم ودوره الذى لعبه فى المجتمع ومؤلفاته .

الرحلة ص 259 ـ 266 .

(32) الأجدابى ـ هو ابو اسحق ابراهيم بن اسماعيل الأجدابى ـ صاحب « كفاية المتحفظ ونهاية المتلفظ » ـ انظر بغية الوعاة : للسيوطي ص 178 .

(33) الرشاطى ـ هو صاحب كتاب اقتباس الأنوار .

(34) انظر الرحلة ص 141 ـ 142 .

(35) الرحلة ص 119 ـ 123 .

(36) الرحلة ص 26 .

(37) الرحلــــة ص 220 .

(38) ذكر بطرابلس عدة مساجد وتحدث عن كل منها : (مسجد العشرة) ، (مسجد الشعاب) ، (مسجد خطـــاب) ، (مسجد الجـــدود) ، (مسجد البارزى) ، (مسجد المجاز) ، (جامع طرابلس الاعظم) ، و (مسجد ابن فرج) .

انظـــــــر الـــرحلـــة ص : 237 ، 247 ، 248 ، 249 ، 251 ، 253 ، 265

(39) انظر الرحلة 251 ، 252 .

(40) البكرى ـ مرجع سابق ص 31 .

(41) الرحلة ص 57 ـ 59 .

(42) الدولة الحمادية ـ انشأها بالجزائر (حماد بن بلكين بن زيري الصنهاجي) الذى نجح فى الاستقلال بالجزائر فى 405 هـ / 1014 وبقيت هذه الدولة قائمة حتى قضى عليها خليفة الموحدين عبد المؤمن ابن علي فى 547 هـ (1153) م ،وكانت ولاية تونس خاضعة لدولة بني حماد يتولاها ولاة من بني خراسان .

ـ انظر الجيلاني ؛ مرجع سابق جـ 1 ص 308 ـ 339 .

(43) حكم 447 ـ 454 هـ (1055 ـ 1062 م) .

(44) حكم 454 ـ 481 (1062 ـ 1089 م) .

(45) انظر قصيدة (ابى عبد الله محمد بن على بن حماد) فى هذا المعنى ومنها قوله :

اين (العروسان) لا رسم ولا طلل   وأين ما شاد منه القادة الأول

ومجلس القوم قد هب الزمان به   بحادث قل منه الحادث الجلل

وما رسوم (المنار) الآن ماثلة   لكنها خبر يجرى بها المثل

الرحلة ص 116 ، 117

(46) انظر مقدمة الرحلة ص 4

(47) الرحلة ص 128 .

(48) الرحلة ص 133 .

ملاحظة : اشار فيما بعد الى انها آثار رومانية ، اما الآثار الاسلامية فى البلاد التى مر بها فقد كان تاريخها معروفا له كل المعرفة ، ولم يترك أثرا منها الا تحدث عنه وعن الظروف التى احاطت به منذ ذلك الوقت حتى عصره

(49) الرحلة ص 26 .

(50) الرحلة ص 65 .

ـ وانظر ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص 185 .

(51) الرحلة ص 66 .

(52) الرحلة ص 122 .

(53) الرحلة ص 157 ، 158 .

(54) الرحلة ص 313 ، 314 ، 315 .

(55) الرحلة ص 62 ، 63 .

(56) الرحلة ص 159 .

(57) الرحلة ص 168 ـ 170 .

(58) الرحلة ص 193 ، 194 .

(59) الرحلة ص 285 ، 286 .

(60) الرحلة ص 172 ، 173 .

(61) الرحلة ص 141 .

(62) Amari, M. : Bibloteca Arab-Sicula racolta da Michele Amari — Versione Italiana 1-11 Torino e Roma 1880-1881 (Appendice).

(63) Rousseau, A. : Voyage du Scheikh el Tidjani (Journal, Asiatique-Paris) 4 Série XX. P. — 572 — 5 Série I.P. 101.

(64) Bel, A. : Les Benau Ghanya — Publications de l'école des lettres Alger — XXVII (1903-Appendice).

د : ش . ع . ج .

حضارة الأخضرار

محمد الصباغ

. . . فتفتق امتلاء السر فيك ، وفاض
على الكون وسال مسيرة بليغة مغربت
وَمَشّيَرت العالم مركبة كونية ، عجلاتها فى
اتجاه الصحراء .

المغرب .

ويا « ميمه » الذى ينفتح على شمم القمة ، وينغلق على شميم الوردة ، مطلات بطولات ، ومذهلات خوارق ومفاتن لا قرار لهدير ملاحمها ، ولا نهاية لمدهشات نمانمها .

فى ثنائية الهبوب تعيــش :

هينمة رخاء ، والزمن خدر بال ، على موعد ممرع مــع الهزجة ، والنقرة ، وهشة الأملود ، والعريشة ، والغدير .

وزلزلة أسنة ورماح ، آوان العمــرة ، واحتدام القضية جهرة نفير ، على سفح مصير .

بلادٌ أنتِ حلوةُ التأنيــث ، فى امتشــاق بــراءة ، وهلــة وداعة ، يوم الحديث عن سنابــل الخير ، وزنــابق العفــة ، وكروم السخاء .

وبلدٌ أنتَ ماردٌ فحلُ التذكير ، عريــق الرجولة فى نطــاف الــتــأريــخ .

شظايا لفح تتشتت اذا امتدت أظفار جَسُور الى افتضاض كرامة عمامتك .

بشهامة الذروة ، ووزن القصيــدة ، وحكمة المثــانى ، ورصانة الدهر والغــور ، تستقبــل الأنــواء ، والزعــازع ، والنوازغ ، فتفصلها بمقص نبلك الصامت ، وتخيطها بإبــرة وخيوط وقــارك الأبيض ، أزيــاء فضفاضة ـ تخلعهــا على

مسنونات الأيام وموجعاتها ــ ولا أثر فيها لقص ؛ أو وخز ، أو نــزغ ؛ أو خمش . أو دم نسيج .

أزياء فصيحة تحكى أبعاد بصيرتــك التى تعــدو بمحال النصاعة الى المنــتــهى .

* * *

احتشد فيك السَّيْرُ امتلاء حركة ، ودفق خطى ؛ ووثب ، واندفاع ؛ حتى لم يعد فيك مكان لقعدة ، أو هــدأة ، فتفتــق امتلاء السير فيك ، وفــاض على الكون وســال مَسِيرَةً بليغــة مُغَرِّبَت وَمُشَرِّقة سَيَّرَتِ العالم مركبةً كونيةً ، عجلاتهــا فى اتجـــاه الــصــحــراء .

خيط حمام امتد مسيرة هديل وترتيل ؛ فَجَــرَّ الصحراء ولملمها على علم الوطن ؛ ثم أطلقها فى نسيجه رفـــة خماسية خــضراء .

خيط حمام . لا أكثر . ذلك وسع عنادك .

فشل الحديد وفل على رهافة خيطك .

خاب عنفوان النار وماع على رقة خيطك .

بعد ندم فاجع . التــأمت « الــذرة » حبــة بُر . فــ « هيروشيما » متعلقة بخيطك .

ويُقرأ بطش « الدينــاميت » انفجار دخان . ودمــار . وهول أيــام . في كتب « نوبــل » الفائزة بهاجس الغفران . فتنهار مهابة بطشه جاريةً صاغرةً تحت وارف خيطك

خيط حمام . لا أكثــر .

وتبقى النار تلتهب مهزلة باردة . وفشلا ذابلا . وخيبــة زحف وفــتــح .

* * *

برائعة خيطك الهادل السيار . فاجأتَ العالم ــ صبيحــة المسيرة ــ فغيرتَ منطقه المنثور ــ على هاويــة الدخان . الى منطق منظوم ببهاء الاخضرار على رفعة التلــة ــ في عــلاج أوابد المعضلات . فأقمتَ حضارة الاخضرار . ووزعتها معادلة كيماوية جديدة لعافية العالم . واستــشفائه من مرض الدخان المــزمـــن .

عدتَ بالزمن الأشيب ، المهمــوم ، المحــرور ، بحــرق السعير ، الى براءة طفولته ولدنتها ، قبل أن تشب نار الصخر فى أنامله ، وقبل أن يَتَزَوّبَعَ أول فجر وينتشت جريــة ضوء ، وقبل أن يخرج الوحش السائب ــ من حدة الناب والمخلب ــ الى الغاب ، للانقضاض على فريسة البهاء ، واخضرار السنى .

عدتَ به الى شفوفه ، وهو فرخ وداعة ، زغب الحواصل ، يلثغ ، متهجياً أبجدية الضوء .

* * *

بسحر الانسان ، الخارق ، الخلاق ، المسترسل فيك نطاف خير ، حطمت « نــواة القمحة » ، فانفلقتْ على الكون وفارت سنابل ينع ويمن ، وأرج خضرة .

يوم العبير ولدت ، فسموت فى الوله اليانع .

أَضفتَ الى ديوان الشعر الإنسانى رعشــة مغناة جديدة من ألــق اخضرارك ، كانت تعــوزه ابتغــاء منــتهى رسالتــه الإنسانية ، والكمال .

الربــاط **محمد الصباغ**

قصة

النهر الدافئ

للكاتب الأمريكي بورسكن كالدول
ترجمة عبد المجيد ابن جلون

وصلت بى السيـــارة الى شاطىء النهـــر الذى يجرى بين الجبال فغادرتها ودفعت لسائقها أجرته ، ثـــم سرت فى الظلام لاعبر الجسر الخشبى الصغير ، ولما سمعته يئز تملكنى رعب شديد ، ولكننى حينما عبرتـــه وجدت نفسى فى مواجهة المنزل حيث وقفت جرتشن تنتظرنى ، ولمـــا سمعتهـــا تنـــادى اسمى شعرت بالخجل من الرعب الذى ساورنى .

ولما وصلنا الى الشرفة استقـــبلنى والدهـــا وأختاهـــا ، فقدمتنى اليهم وقالت لى : والدى ، واختاى آن ومارى وكان الوالد يرفع مصباحه ليرى وجهى ، لانه يقابلنى لاول مرة .

ولما قلت له اننى عثرت على المنزل بسهولة ولكن الذعر اصابنى وانا اعبر الجسر الخشبى الصغير ضحك منى ، واضاف انه كان ينتوى أن يستقبلنى عند الجسر بمصباحه ولكن جرتشن قالت انه لا حاجة الى ذلك ، ثم ان السقوط فى النهر غير مهم لان مياهه دافئة ، فقالت لى جرتشن : لم يكن من الممكن أن تصاب بأذى فقد كنت أراقبك من الشرفة منذ اللحظة الاولى التى غادرت فيها السيارة .

كنت على وشك ان أشكرها ولكنها نهضت وطلبت منى أن اتبعها الى داخل المنزل حتى اذا وصلنا الى الغرفة التى سوف أقضى فيها ليلتى ووقفنا مليا ونحن نتبادل النظرات فى صمت ، ثم طلبت منى أن أناديها اذا كنت فى حاجة الى أى شىء فشكرتها وهى تغادر الحجرة ، فغسلت وجهى واصلحت من شأنى ثم عدت الى الشرفة مرة اخرى .

سألنى الاب : هل هذه أول مرة تجد فيها نفسك بين هذه الجبال يا رتشارد ؟

ـ لم اقترب منها قط يا سيدى ، ولو لمسافة مائة ميل ، انها مناطق غريبة ولكننى احسب أن نفس الشعور سوف

يعتريك اذا زرت مناطق الساحل ، فقالت جرتشن : ان أبى عاش فى نورفولك ، أليس كذلك يا أبى ؟

ــ عشت هناك ثلاث سنوات تقريبا

وكنت على وشك أن أسأله لماذا يفضل أن يعيش بين هذه الجبال ، ولكنه كان قد لاذ بالصمت هو وجرتشن ، فلذت به أنا أيضا ، وكان الاب ساهما ينظر الى قمم الجبال . ثم أخذ يتحدث كما لو كان يوجه حديثه الى شخص غير مرئى ، قال وهو يعتمد بمرفقيه على ركبتيه ويحملق عبر النهر الدافىء .

حينما ماتت أم البنات عدت لاعيش بين هذه الجبال ، اذ لم أعد اطيق الحياة فى نورفولك ، لان هذا المكان هو المكان الوحيد الذى أشعر فيه بالامن والراحة ، فلقد ولدنا معا ــ الام الذاهبة وأنا ــ بين هذه الجبال وعشنا فيها معا عشرين سنة كاملة ، وقد خطر على بالى أن أهجر المكان التماسا للنسيان ، ولكن تصرفى كان صبيانيا ، فان الآباء لا يستطيعون نسيان أمهات أولادهم ، ولو كانوا على يقين من أنهم لن يروهن بعد ذلك أبدا .

نهض الاب وغادر المكان بجسمه الضخم بخطوات بطيئة الى أن اختفى عن الانظار فسحبت كرسيها لتقترب منى ، ثم

وضعت اصابعها فى يدى ولمست بخدها كتفى وقالت وقد اختلط صوتها بصفير قطار يصرخ وهو يبتعد فى الظلام

ــ رتشارد ، لماذا جئت لزيارتى ؟

وعندما استدرت اليها حسبت أن نظرى سوف يلتقى بنظرها ، ولكنها كانت تحملق فى مياه النهر الدافئة وهو يجرى بعيدا ، فانها كانت تعرف لماذا أتيت ، ولكنها لم تكن تريد أن تسمع الرد على سؤالها .

كانت جرتشن تعجبنى ، وقد تمنيتها لنفسى أكثر من أى شخص آخر ، ولكن لم يكن فى استطاعتى أن أقول لها اننى أحبها بعد أن سمعت حديث أبيها عن الحب ، وكنت أعرف أن جرتشن على استعداد لان تمنحنى نفسها لانها كانت تحبنى ، ولكننى ندمت على قدومى بالرغم من أنها كانت جميلة وجميلة جدا ، وكنت أتمناها لنفسى ، ولكن هذا كان قد مضى وانقضى ، واصبحت على يقين من أن الاستعداد الذى كان يتملكنى عند قدومى قد تبخر وتلاشى .

ــ لماذا جئت يا رتشارد ؟

ــ لماذا ؟

ــ نعم يا رتشارد ، لماذا ؟

فاقفلت جفنى وأخذت استعيد ذكرى الوادى والنهر الدافىء وأنا أشعر بأصابعها تلمس ذراعى .

ـ أرجوك يا رتشارد ، قل لى لماذا أتيت ؟

ـ اننى لا اعرف لماذا أتيت يا جرتشن ؟

ـ لو كنت تحبنى مثلما أحبك يا رتشارد لعرفت لماذا أتيت

ارتعشت أصابعها فى يدى وقد كنت اعرف انها تحبنى ، ولم يكن عندى أى شك منذ البداية فى أنها تحبنى

قلت : ربما كان يجب أن لا آتى ، ارتكبت خطأ يا جرتشن بمجيئى ، كان يجب أن أبقى بعيدا .

ـ ولكنك لن تقضى معنا أكثر من ليلة واحدة يا رتشارد ، فهل أنت نادم على مجيئك لتقيم معنا مجرد ليلة ، فسوف تغادرنا غدا صباحا يا رتشارد .

ـ لست نادما على وجودى بينكم يا جرتشن ، ولكن كان يجب أن لا آتى ، اننى لم أكن أعرف ماذا أصنع ، ولم يكن عندى أى حق فى القدوم الى هنا ، فان الذين يتبادلون الحب هم الذين من حقهم وحدهم . . .

ـ ولكنك تحبنى ولو قليـــلا ؟ أليس كذلك يـــا رتشارد ؟ وأعرف حقا أنك لا يمكن أن تحبنى بالقدر الذى أحبك ، ولكن أليس فى استطاعتك أن تقول لى أنك تحبنى ولو قليلا ، فاننى اذا فعلت سوف أشعر بأننى أكثر سعادة عندمـــا تتـــصرف فى الصباح يا رتشارد

ـ اننى لا أعرف

ـ أرجوك يا رتشـــارد .

وشعرت بشىء يصيبنى فجأة كالطعنة ، ربما كان مصدره صفاء كلمات والدها ، اذ لم يكن يخطر على بالى أن هناك حبا كالذى تحدث عنه ، ولم أكن اصدق أن الرجال يحبـــون النساء بنفس القوة التى يحب بها النساء الرجـــال ، ولكننى أصبحت على يقين من أن لا فرق بينهما .

وجلسنا فى صمت وقد تماسكت أيدينا فترة طويلـــة الى أن أطفئت الاضواء فى الوادى ، لكننا لم نكن نحفـــل بمـــرور الـــزمـــن .

وتعلقت جرتشن بى فى نعومة وهى تنظر الى وجهى وقد التصق خدها بكتفى ، وكانت ملكا لى بقدر مـــا يمكن أن تكون

أمـــرأة ملكا لرجل ، ولكننى كنت أعرف أنه ليس فى استطاعتى أن أرغم نفسى على استغلال حبها . ولم يخطر على بالى شىء من هذا القبيل عندما قدمت ، فلقـــد قطعت كل هذه المسافات البعيدة لاضمها الى صدرى لبضع ساعات ثم انساها بعد ذلك ، وربما للابـــد .

وحينما حل ميعاد دخولنا المنزل نهضت ووضعت ذراعى حولها فارتعشت عند لمسى لها ، ولكنها شدت نفسها الى بحيث كنت أحس دقات قلبها الواحدة تلو الاخرى ، وكانت تختـــرق صدرى من صدرها كما لو كانت سهاما صغيرة .

ثم همست : رتشارد ، قبلنى يا رتشارد ، قبل أن تذهب .

ثم جرت نحو الباب وفتحته لى ثم التقطت المصباح ثم صعدت السلم امامى الى الدور الاعلى .

وعندما وصلت الى باب حجرتى وقفت تنتظرنى لاشعل لها مصباحها ثم مدت الى يدها .

قلت : عمى مساء يا جرتشن

ــ عم مساء يا رتشارد .

ثم عبرت البهو فى الطريق الى حجرة نومها ، وهى تقول : سأوقظك فى الصباح فى الوقت المناسب حتى لا يفوتك القطار .

ـ حسن يا جرتشن فلا تتركينى اتجاوز الحدود فى النوم ، فلن القطار يغادر المحطة فى السابعة والنصف .

ـ سأوقظك ليكون لك مزيد من الوقت قبل ذلك .

ثم دخلت واغلقت باب حجرتها فاستدرت لاذهب الى حجرتى واغلقت بابها وأخذت أخلع ملابسى ، وبعد أن اطفأت المصباح واندسست فى الفراش عدت فجلست واخذت أشعل سيجارة بعد سيجارة ، وأنا أنفخ دخانها فى خصاص النافذة ، كان المنزل هادئا ، وكان يخيل الى من آن لآخر أننى أسمع الحركة فى حجرة جرتشن ولكننى لم أكن متأكدا من ذلك .

ولا أستطيع أن أحدد على وجه الدقة طول المدة التى جلستها على حافة الفراش فى توتر وتصلب وأنا أفكر فى جرتشن ، ولكننى أذكر أننى وجدت نفسى أقفز واقفا لافتح الباب وأجرى عبر البهو ، فوجدت باب حجرة جرتشن مقفلا ولكننى كنت أعلم أنها لا يمكن أن تكون موصدة فأدرت أكرتها فى نعومة فامتد نور الحجرة من خلال فجوة الباب التى احدثها تصرفى ، ولم يكن من الضرورى أن أوسع من فتحة الباب ،

لان نظرى وقع عن جرتشن على بعـــد خطوات فقــط منى ، تكاد تكون فى متناول ذراعى فاغمضت عينى لحظة لافكر فيهــا كما فعلت خلال الرحلة كلها من منطقة الساحل فى طريقى اليها .

لم تسمعنى جرتشن وأنا افتـــح الباب ولذلك فانهــا لم تشعر بوجودى ، وكان مصباحها يضىء الغرفة فى توهج فوق المنـــضـــدة .

ولم أتوقع أنا أن أجدها مستـــيقظة وانما كنت على يقين من انها مستلقاة فى نوم عميق ولكننى وجدتها على ركبـــتـــيها فوق البساط المفروش بالقرب من سريرها ، وقد ألقت برأسها على ذراعيها وهى ترتعش فى انتحاب .

كان شعر جرتشن ينسدل على كتفيها وقد ربطتـــه فوق رأسها بشريط أزرق باهت ؛ وترتدى قميصا للنوم من الحريرى الابيض ، واستوعبت مدى جمالها على الفـــور حينما وقـــع عليها بصرى ، وبالرغم من أننى كنت انظر اليهـــا دائمـــا على أنها وسيمة فاننى لم أر فتـــاة أجمل من جرتشن كما رأيتهـــا الليلـــة ، وكانت منحنية تبكى بكاء مـــرا .

لم أكن أعرف ماذا أفعل حينما فتحت البـــاب ، ولكننى الآن وقد رأيتها تصلى فى حجرتها بالقرب من سريرهـــا وهى

تنتحب ـ دون أن تشعــر بوجودى ـ أصبحت على يقين من أننى لن استطيع أن أحفل بأحــد غيرها . وفى غمــرة لحظات قصيرة عرفت أننى أحبها .

أقفلت الباب دون ركــز ، لاعود الى غرفتى حيث وجدت كرسيا وضعته الى جانب النافذة فى انتظار بزوغ ضوء النهار ، جلست الى النافذة أسرح النظر فى اعماق الوادى حيث يجرى النهر الدافىء ، ولما أخذت عيناى تستــأنسان بالظلام شعرت بأننى أزداد قربا منه وأزداد ، حتى خيــل الى أن بمستطاعى أن أمد اليه يدى لالمس دفء مائه بيدى .

وعندما أقترب الصباح خيل لى أننى أسمع حركة خفيفة فى حجرة جرتشن ، ولما تأكدت من ذلك شعرت بعد ذلك بوجود شخص فى البهو بالقرب من باب حجرتى .

ثم ظهر قرص الشمس فوق قمة الجبل فنهضت لارتدى ثيابى وسمعت جرتشن تغادر حجرتها ، فعرفت انهــا تسرع الى اعداد وجبة افطارى لاتنــاولها قبــل أن التحـق بمحطة القطار ، ثم سمعتها تصعد بعد ربع الساعة لتطرق بابى طرقا ناعما ، وهى تنادى اسمى عدة مرات .

أسرعت الى فتح الباب لاقف أمامها ، فأدهشها أن ترانى مستعدا ، بينما كانت تظن أننى لا أزال أغط فى نوم عميق .

قلت لها وأنا أشد على يديها : جرتشن ، دعيك من استعجال اننى سوف أظل هنا . . . لا أدرى ماذا أصابنى ليلة أمس . . . اننى الآن على يقين من اننى أحبك . . .

ـ ولكنك قلت ليلة أمس أنك . . .

ـ قلت لك يا جرتشن ليلة أمس أننى سوف أعود صباح اليوم ، ولكننى لم أكن أعرف عم أتحدث ، لن أعود الآن الا اذا عدت معى ، وسأكشف لك عن نواياى بعد تناول طعام الافطار ، ولكننى أود أن ترشدينى قبل كل شىء الى الطريق المفضية الى النهر ، فان على أن أنطلق اليه فى الحال لتستشعر دفء مائه يداى . . .

الرباط **عبد المجيد ابن جلون**

انطباعات حول
سيكولوجية الطفل
ومكانتها من الدراسات النفسية

د. رشدي نكار

عرفت الدراسات النفسية بعد تبلورها فى نهاية القرن التاسع عشر تشعبا وتعددا فى اتجاهاتها ومدارسها خلال النصف الاول من هذا القرن.. بين بنيوية تعنى بتشريح خبرات الشعور وأحاسيسه وتكوينه وتركيبه ، ووظيفية تهتم بفزلجة خبرات الشعور ودوره ووظائفه ، وربطية تصدر أهمية التنشئة والتعليم ، وتحليلية ترفع راية الرغبة وتتكلم بلغة أغوار اللاشعور فى مراحل النمو النفسي ، وجشطلتية تركز على ادراك كم الشكل والصورة اكثر ما تركز على جزئياتها وخلفياتها ، وسلوكية تنطلق من مبدا الاثارة والاستجابة ... الى جانب اتجاهات أخرى ثانوية تتنوع وتتباين تحت فيض من المسميات والاصطلاحات المظهرية ... ولقد تم هذا التشعب والتعدد فى الاتجاهات والمدارس بفضل عقول مجتهدة آلت على نفسها أن تتصدى للنفس وخصائصها وذلك بالنظر والملاحظة والبحث والاختبار ، وهكذا طالعتنا أسماء لامعة فى هذا المضمار نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر .. بافلوف ، جيمس ، فرويد ، أدلر ، يونج ، هورني ، البورت ، ماك دوجال ، مورينو ، ميد ، وسطن ، ماير ، هنتر ، هول ، كولر ، فون ، اهرن فلس ، لاجاش ... والقائمة طويلة تعد بالمئات

هذه الاتجاهات بدورها أدت فى العشرين عاما الاخيرة الى مزيد من التخصص والاختصاص ، سواء على مستوى تفسير الظاهرات النفسية أو نوعيتها ، ومرحليتها ، فمن حيث التفسير ربطت الظاهرات أكثر فأكثر ببيئتها الاجتماعية كمؤثر بها ومتأثر فيها ، مما دعم معطيات ((السيكولوجيا الاجتماعية)) حاليا ، نظرا لتداخل العلاقات وتشعب وسائل التوصيل (الماسميديا) فى المجتمع ، وتكثفها وتوجيهها للسلوك وما حدا أيضا ((بمدرسة التحليل النفسي)) أن تنحى أخيرا الى التحليل الجماعي للبيئة وتخريجها . ومن حيث نوعية الظاهرات ومرحليتها برزت أهمية ((سيكولوجية الطفل)) ونضجت بفضل ما قيض لها من مجتهدين أصلاء أمثال : جان بيجيه ، اندرسن ، جيزيل ، كايل ، باركر ، كلوغ .. وغيرهم الكثير . وتعددت زوايا طرحها من منطلق خصائص تحليل مراحل النمو النفسي ووضع انسقة شارحة لها فى المرحلة الاولى حيث يعتبر الطفل كلما حوله جزء منه ، ومرحلة النرجسية حيث يصل الاهتمام بالذات لأعلى درجاته ، ومرحلة الكمون الجنسي بمعنى التوقف المظهري للطاقة الجنسية ، ومرحلة الجنسية المثلية حينما يرى الطفل نفسه ينعكس على من يشبهه ، الذكور للذكور ، والاناث للاناث ، ومرحلة الجنسية الغيرية لفترة التغيرات الفيزيولوجية . أو طرحها عبر طرق التعرف على الفوارق الفردية وذلك حين وحدة التكوين الوراثي بما فيه من مؤثرات على الجنين فى بطن أمه من نظام تغذيتها ، ومعاناتها ، وحالتها اثناء الحمل ، وما تتناوله من أدوية ... (هذه الوحدة التي يبحث عنها بالنسبة للدم والجنس وقزحة العين ونموذج بصمات الاصابع وراحة اليد وأخمص القدم ولون الشعر وشكله وشكل صوان الاذن) ، ليحدد مدى الاكتساب بعد ذلك من طبيعة الاستجابة لمؤثرات البيئة ، بفضل الاختبارات والاستبيانات واللعب ووسائل الاسقاط ... الخ . كما أن هناك من طرح سيكلولوجية الطفل على ضوء كيفية تكوين النفس الانسانية لديه ، ومولد ذكائه ،

وتكوين رموزه ، ولغته ، وعواطفه ... وهكذا حاولت ((سيكولوجية الطفل)) من خلال هذه الدراسات المرحلية والنوعية أن تعدد اجتهاداتها في تفسير السلوك الطفلي وان تستوعبه ليس فقط على مستوى خبرة الطفل الشعورية ، وانما في عمق مكنون رغباته وأغواره اللاشعورية مما أسبغ على هذا التخصص مكانة هامة في حقل الدراسات النفسية . ولم لا؟ وسيكولوجية الطفل تتخصص في السنوات الاولى من العمر (هذه السنوات التي تشكل جذور حياة الانسان وأساس تكوينه) . وتسهر على فهم الطفل وتدعو الى تفهمه بدلا من قهره وزجره والمغالاة في ردعه ، وتتعرف على الخصائص النفسية لنموه في محاولة لضمان صحة مسيرته ، وتحاشي ما يدفع الى الكبت ، وانما الى التسامي ، واذابة ما يسوقه الى الحصر ، وتشجيع ما يحثه على التفتح باكتشاف دوافع الحصر الكامنة ، وما يعرضه للعصاب وآلياته العقلية قبل استفحالها ، وما يترتب على ذلك من نتائج قد تدفع به الى الذهان ... ولم تسقط سيكولوجية الطفل ـ مهما كانت نزعة الباحث فيها وانتماءته المدرسية ـ أهمية البيئة الاسرية والاجتماعية ، وأنسقة التنشئة والتربية والتوجيه ، سواء في داخل بيئة الاسرة ، أو على مستوى الرفاق ، وأثر ذلك في بلورة نزعات الطفل وميوله ، والاتجاه بها الى ما فيه خير له .

ولقد أعطانا القرآن الكريم ، وكذا الاحاديث النبوية الشريفة ، والسلوك المحمدي الاصيل ، أمثلة رائدة نقتدي بها في التوجيه والتهذيب ، والالتزام بمعايير سلوكية سوية ، وأكد ((القرآن)) بصفة خاصة واجب التربية والتهذيب على الوالدين بالنسبة لابنائهم ، اللذين عليهم بدورهم ان يحتفظوا باصدق معاني العرفان لمن سهروا على تربيتهم وهم صغار ، وكمجرد مثال نسوقه الآية الكريمة : ((... وبالوالدين احسانا اما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما ، واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربياني صغيرا)) .

راشد اليوم هو طفل الامس ، وطفل اليوم هو راشد الغد ، ولا يمكن استيعاب سلوك هذا الراشد وأبعاده دون تعرف على نشأة هذا السلوك

وتكوينه وكما يقول استاذنا وصديقنا عميد علماء « سيكولوجيــة الطفــل » المعاصر في العالم جان بيجيه ، « الطفولة هي مستـــودع الاستشهادات والاحالة ، ليس فقط مستودع تستقي منه الاحلام بعض معالمها ، وانمـــا معيار الاستشهاد والاحالة في قياس أنسقة سلوك الراشد وخلفياته » . ان الشباب الذي يعاني من الحصر والعصاب بمختلف أنواعه وآلياته ، ومنهم من يلازمه ذلك حتى الشيخوخة او قد يقوده الى الذهان في النهاية ، كان الممكن اذابة الحصر لديهم في مهده باكتشاف دوافعه والعصاب في منبعه، والتعرف على آلياته العقلية قبل استفحالها ، وذلك بفضل هذا التخصص الهام في « سيكولوجية الطفل » ، الذي فرض ذاتيتـــه العلميـــة الآن ، بفضل فاعلية عطائه ، وقدرة علمائه ، ورصانة نتائجه .

الرباط — رشدي فكار

حياتي بدون حنانك

للشاعر المكسيكي : أمادو نيرفو
(1870/1919)

أن أعيش بدون حنانك ، شيء مهيب .

حياتي بدون كلماتك ، وحدة قاسية .

حياتي بدون نظراتك الساذجة ، الصافية ،

الحبيبة ، ظلمة ووحشة .

ترجمة 

فاس
جولة في أحداثها الكبرى

محمد ابن تاويت

اول حدث هام بالنسبة لفاس ، هو تأسيس مدينة فاس نفسهـــا ، فلقد كان ذلك بمثابة وضع الاساس الاول لصرح الحضارة المغربية العريقة ولهذا فان تأسيس هذه العاصمة يعد من الاحداث الكبار فى تاريخ الاسلام وحضارته التي خلقها . فلقد كانت عواصم الفاتحين المسلمين ، عبارة عن معسكرات ، كالفسطاط ثم القيروان ؛ الاولى كانت نواتها مضارب الخيــام لهؤلاء الفاتحين ، والثانية حلت بها قوافلهم وقيروانهم ، فسميت القيروان لذلك ، ثم كانت المدينة العتيدة التي حملت مشعل المعرفة طيلة أربعة قرون وتلتها سجلماسة الصفرية ثم كان تأسيس « تاهرت » بالقطر الجزائري ، كمدينة يركز فيها دولتهم ، خوارج الاباضية .

فهذه عواصم تأسست فى الشمال الافريقي ، بعضها تابع للخلافة ، وهو القيروان ، وبعضها مستقل ، وهو سجلماسة بجنـــوب المغـــرب ، وتاهرت بالجزائر ، ثم يكون تأسيس فاس ، عاصمة ثالثة الدول المستقلـة بالشمـــال الافريقـــي .

وفى هذا التأسيس كثير من الاختلاف ، أوضع اللبنة الاولى فيه ، ادريس الاكبر ، فأتم البناء ابنه ادريس الاصغر ، أم وضع هذه اللبنة لاول الامر ادريس الاصغر ، رضي الله عنهما ، ولعل هذا هو الواقع .

كما وقع الخلاف في منشأ هذه التسمية ، اهو لفاس تناولها المولى ادريس في وضع هذا الاساس ، ام هو لغير ذلك ، كما سنرى .

وجريا وراء العادة المتبعة آنذاك ، فان الاماكــن لم تكن تتخــذ لها اسماء مخترعة ، فالفسطاط كان معروفا من ذي قبل ، وبغداد كانت كذلك معروفة بهذا الاسم قبل تأسيس العاصمة بها ، والقيروان كذلك ، كما ان تاهرت وسجلماسة ، كانتا معروفتين كمدينة من ذي قبل .

واذن ، فهل فاس من هذا القبيل ؟

ربما ، وما زلنا حتى الان نسمع بفاس البالي ، على بعــد تسعيــن كيلومترا منها ، فالمفهوم ان هذه جديدة بالنسبة للاولى . ويقول الباحث « ليفي بروفنسال » أقوالا في ذلك ، تعد من قبيل هذه الافتراضات .

أما ان رجعنا الى روض القرطاس ، فانه يفتح لنا بابا نستفيد مــن دخوله في هذا البحث ، يقول من جملة ما قال ان فاس ، تحولت ، عــن « فارس » وأن الالسن تلعبت بهذه فصارت تنطق فاس ، هكذا .

ويقول أيضا ان جماعة من شيعة الفرس قصدوا المولى ادريس ، وهو يبني عاصمته ، فأنزلهم بها .

ونحن من هذه القاعدة نتوجه الى فارس نفسها ، فنجد من عواصمها الاولى مدينة « فاسة » ويلاحظ ان هذه الهاء لا تنطق في الفارسية ، ولهذا يسمونهــا « ها مخفي »

ومن المعروف تاريخيا ، أن الاسكندر ، لما قضى على دولة فارس ، وملكها « داريوس » كان من جملة مستعمرات الفرس « قرنية » على ساحل طــرابلــس .

فأين انسحب رجال هذه المستعمرة ، بعد ان تمكن الاسكندر مــن الساحل الشرقي لافريقيا وأسس عاصمتها الاسكندرية ؟

لا شك أن هذه الفلول الفارسية لم تلتجيء الى الشرق ، وانها التجأت الى الغرب . وربما كان هذا الالتجاء عن طريق البحر . واذا كنا لا نملــك أن نسائل البحر وامواجه فاننا نملك أن نسائل البر ومعالمه وأحداثه .

كانت عاصمة الفرس ، لما سقطت دولتهم تحت اقدام الاسكندر ، هي « سوس » وربما كانت تكتب كما كانت فاس « سوسه » بالهاء المخفي .

وبذلك وجدنا « سوسه » بل سوسات ، عديدة فى هذا الطريـــق ، الممتد من سواحل تونس الشرقية الى سواحل المغرب الغربية ، وسمعنا سوس الاقصى كما سمعنا سوس الادنى . بل وجدنا فى سوسنا معالـــم للفرس فى مجوسيتهم الاولى وفى صناعاتهم بل حتى فى مفردات عديـدة من لغتهم ، سبق منا نشرها ، كما أن بعض الحانهم وما يستعملـــون فى موسيقاهم من أدوات وطريقة قرعهم للصنج منها تجعــل الملاحـــظ فى تســـاؤل مطـــرد .

وكما وجدنا فى فنونهم الصامتة والناطقة هذه القرابة ، كذلك وجدن روح الاتجار فيهم متأصل الروح التي اتسمت باقتحام أخطارها فارس ، قديما وحديثا . . .

افلا يكون بعد هذا ، أن هؤلاء الفارين المنهزمين ، قد أسسوا هـــذه المدن او القرى ودعوها باسم عاصمتهم التي وقعت فى يـــد أعدائهـــم التقليديين « اليونان » ؟

ثم الا يكون من جملة قراهم قرية دعوها باسم « فاسه » التي كانت من اهم مدنهم ، فحصل فى النطق بفاس ما حصل بالنطق بسوس .

اذن فيمكن أن يقال ان مدينة فاس اتخذت لها اسما قديما ، وان هذا الاسم كان من صنيع الفرس المنهزمين من وجه أعدائهم ، أما ان اسم فاس أصله فارس ، كما قال ابن زرع ، فهو مقبول من وجه ان المولـــى ادريس سر بهؤلاء الشيعة ، لانهم شعيته فسمي العاصمة بهم .

كما يذكر أن المولى ادريس أنزل هؤلاء الفرس فى المكان المعروف بعين « علو » فهذا المكان « عين علو » يوحي بشيء غير ما ذكر المؤرخون من أن عبدا أسود كان يقطع الطريق على الناس به ، وكان يدعى « علون » ، بل ربما كان المكان قد سماه الفرس أنفسهم « عين علي » ، وهم ينطقـــون عليا قريبا من النطق « بعلو » بعد تحويل العين همزة .

هذا ما يتصل بالحدث الاول ، من احداث فاس. العريقة فى القـــدم والحضارة المترفة الناعمة .

والحدث الثاني : هو بناء جامـــع القرويـــن .

وهذا الحدث قد ترتب على حدث آخر له خطروته ، فى هذه العاصمة الادريسية ، فقد صادف ان تعرض أهل القيروان لصدمة شديدة من قبل الاغالبة ، كما كان قد تعرض أهل قرطبة لمثلها من قبل الحكم الربضـــي الامـــــوي .

فهاجر افواج من هؤلاء واولئك ، قصدوا المغرب ، حيـــث مملكـــة الادارسة الفتية ، خصيمة الاغالبة والامويين معا .

ويبدو ان هؤلاء فيما بينهم ، لم يكن لهم من الانسجام ما يجعلهـــم يساكن بعضهم بعضا ، ولهذا اختص القيروانيون بعدوة واختص الاندلسيون بعدوة اخرى ، فنسبت العدوتان الى الجاليتين .

واذا كان الاندلسيون المهاجرون ، لا يحتفظ التاريـــخ الا بعـــدد بيوتاتهم ، فان القيروانيين احتفظ لهم التاريخ ، زيادة على ذلك ، بأسماء لافراد منهم ، كان لهم الشأن الخطير فى هذه الدولة الناشئة ، فالوزيـــر والكاتب والقاضي ، لدى الامير الادريسي جميعهم كانوا من القيـــروان ، مما يدل على انهم كانوا من الطبقة الراقية فى مجتمعهم .

ومهما يكن فان سير الاحداث تساير ما كان للقيروانيين من صيـــت ويسجل لهم اعظم حدث فى هذه الدولة هو بناء جامع القرويين .

حقيقة ان هذا الجامع ، لم يكن لاول الامر بالمعنى الذي نريده له من كونه جامعة علمية ، ولكن اليس المسجد نفسه ، تلازمه المدرسة بمفهومها العام ، فالمسجد بيت من بيوت الله يجتمع فيه قوم يتلـــون كتـــاب الله ويتدارسونه فيما بينهم « كما فى الحديث » .

لقد بني هذا المسجد بما ورثته امراة قيروانية ، وهي فاطمة بنـــت محمد الفهري ، من زوجها واخواتها القيروانيين ، وذلكم فى منتصف القرن الثالث ، ونسب المسجد اليهم ، فان النسبة الى القيروان تكون هكـــذا

بالقرويين ، حيث عوملت الالف والنون معا معاملتها في المثنى،وحذفت كذلك الياء كما تحذف نظيرتها في النسب ، أو تكون النسبة الى القروان ، لغة فيه وقد عرب من كروان الفارسية .

وعلى كل حال فالقرويون هي القيروانيون ، وليست نسبة لقريــة ، كمــا يتوهــم .

ان بناء هذا المسجد ، لم يكن على ما هو عليه الان من عظم ، كما انه لم يكن أول مسجد بني بفاس ، بل كان هناك مسجدان بنيا ايام المولــى، ادريس ، مسجد الاشراف ، بعدوة القرويين ومسجد الاشياخ بعــدوة الاندلس ، ولكنهما معا لم يكن لهما ما للقرويين من ذكر حيث أن مسجــد القرويين نقلت اليه ، أوائل القرن الرابع ، الخطبة من مسجد الشرفاء ، فظل المسجد الجامع ، يحظى بالاهتمام ، من ورثة الادارســة فزناتــة فالامويين ، الذين زادوا في الجامع ، وأزالوا الصومعة ، التي كانت بموضع القبة المقامة على راس العنزة ، وبنوا الصومعة الموجودة الآن . فهي من بناء عبد الرحمن الناصر الاموي ، على يد عامله أحمد بن أبي بكر الزناتي ، الذي كتب اسمه على بابها ، في منتصف القرن الرابع ، وركب في أعلــى المأذنة سيف الامام ادريس مؤسس العاصمة . وبقيت المأذنة بحالها حتى أواخر القرن السابع فلبست وبيضت بأمر من السلطان المريني يوسف بن يعقوب بن عبد الحق . ولم يكن المرابطون فالموحدون قد غيروا منهــا شيئا حينما وسعوا في خطة الجامع الذي صار قبلة لرواد العلــم ، مــن افريقية والاندلس نفسها ، وخصوصا بعد سقوط جامع قرطبــة بيــد النصرانيــة .

اما الحادث الثالث : فشهدت فاس في القرن الرابع حدثا خطيرا هو قيام دولة العبيديين الشيعة ، ومناهضة الامويين لهم . فكان المغــرب مسرحا لهذا النضال ، وكانت فاس ، تقاسي منه امره ، فهي تقع في يــد العبيديين آونة وفي يد الامويين آونة أخرى ، وكانت الانحرافات من قبل العمال ، تجعل المغرب عامة وفاسا خصوصا ، ضحية لذلك ، فقد انحرف اولا موسى بن أبي العافية عن العبيديين الى الامويين ، فأتى اليه صاحب تاهرت من قبل العبيديين ، وهو حميد بن ياصلتين المكناسي ، فدخــل

فاسا ، وفر عنها مدين بن موسى بن أبي العافية . وما استقرت فاس برهة من الزمان لنائب حميد عليها ، حتى ثار بها أحمد بن بكر الجذامي ، داعيا الى الامويين . فسرح العبيديون عليه ميسورا الخصي الذي انتزع فاسا مرة أخرى من شيعة الامويين . ثم ثارت فاس على العبيديين ، واضطرب حبلهم بالمغرب عامة ، فراوا ان يوجهوا اليه قائدهم المظفر ، جوهرا الصقلي ، فأتى بفرسانه وأناخ على المغرب ، بهم وحاصر فاسا وأدار القتال حولها حتى اقتحمها بالسيف على يد زيري بن مناد الصنهاجي . وقبض على صاحبها احمد بن بكر الجذامي ، الذي كان قد عاد اليها واستخلصها من العبيديين وهكذا انفصلت فاس عن الامويين الذين كانوا قد ثبتوا اقدامهم ببعض سوحال المغرب ، فوجهوا الى فاس غالبا مولاهم الذي دخلها عام 363 هـ .

ولكثرة ما كانت فاس تتردد بين العبيديين والامويين ، فقد رأى هؤلاء، الا يكتفوا بعامل واحد عليها ، بل صاروا يقيمون عاملا على القرويين وآخر على الاندلس ، وغالبا ما كانت هذه العدوة الاخيرة تصمد فى وجه منافسيهم وان كان السور الذي اقامه من قبل الزناتيون يضمهما معا . وقد أصبحت عدوة الاندلس فى أواخر القرن الرابع تضاهي عدوة القرويين ، بعد ان مدنها عاملها أبو يوسف بن محارب الازدي ، وكانت حتى الربع الثاني من القرن الرابع ، حصونا ، كما يقول ابن خلدون . وكانت عدوة القرويين بيد العامل علي بن قشوش ، والاندلس بيد العامل عبد الكريم بن ثعلبة ، ولكن العبيديين عادوا الى فاس ، فجاء اليها بليكين بن زيري صاحب افريقية ، بعد العبيديين ، فقتل عامليها ابن قشوش وابن ثعلبة ، واستعمل عليها محمد بن عامر المكناسي .

وفى هذه الاثناء كان بالاندلس ، محمد بن ابي عامر ، قد انتهت اليه دولة الامويين ، فوجه الى المغرب جعفر بن علي بن حمدون لمحاربة بليكين . وكان هذا قد حل بجبال تطوان ، وتسنم هضابها واحدق بسبتة التي كانت تحمي ظهر الاندلس ، ولكنه انسحب ناجيا وتقدم ابو الحكم عسكلاجة ، وهو ابن عم المنصور ابن ابي عامر ، نحو فاس ، فاستولى على عدوة الاندلس عام 375 ، ولكن عدوة القرويين ظلت بيد عامل العبيديين

محمد بن عامر المكناسي . وبهذا انشطرت فاس الى عمالتين مختلفتين ، احداهما اموية والاخرى عبيدية . وبعد عام واحد ، كان أبو بياش يقتحم عدوة القرويين ويقتل عاملها العبيدي ، فأصبحت العدوتان كلتاهما تابعتين للامويين بالاندلس .

وفي عام سبع وسبعين وثلاث مائة ، كانت فاس دار ملك زيري بن عطية ، من قبل المنصور بن ابي عامر ، ولكن هذا ما أمر امره وقوى سلطانه حتى ناء بجانبه ، واستبد بنفسه ، وطرد عمال الاندلس من بلاده . وهذه اول مرة يخالف فيها على الامويين في المغرب من قبل ولاتهم .

والان نجد المنصور يهتم بهذا الانقلاب ، ويوجه مولاه واضحا الفتي في جيش لجب ، فتوجه هذا من طنجة الى فاس . ووقع قتال انهزم فيه واضح الى طنجة ، حيث بعث الى المنصور الذي سارع ، فأجاز ابنه عبد الملك الى المغرب ، واشتبك مع زيري الذي أصيب في المعركة بجرح . ثم عاد الى فاس حيث سقط في يده بأن وجد أهلها قد أوصدوا أبوابها في وجهه ، فتركها هائما في البراري . وتقدم عبد الملك المظفر ، قد خلها عام 387 وقرىء عهد المظفر على منبر جامع القرويين بالولاية على المغرب. وقد استوطن المظفر مدينة فاس ، وأقام بها ستة أشهر ، الى أن خلفه صاحب الشرطة لقرطبة عيسى بن سعيد ، فأقام هذا بفاس الى عام 389 . ثم خلفه عليها واضح الفتي المذكور ، الى أن توفي المنصور ، وخلفه ابنه المظفر فصرفه عن المغرب ، وولاه المعز ابن زيري الذي كان أبوه قد توفي أيضا . وكتب بذلك عهد ، بتاريخ ذي القعدة عام 396 ، قرىء على منبر القرويين ، فاتسق أمره الى أن توفي عام 417 . فتولى بعده حمامة ابنه ، فقصدته الشعراء بفاس ، كما قصده العلماء بها والامراء . وكانت فتنة البربر قد استفحلت في الاندلس ، والدولة الاموية تلفظ نفسها الاخير ، فاستقلت بذلك الدولة المغراوية بفاس واستقل المغرب عامة استقلالا تاما عن الاندلس . ولكن النزاع قد قام بين حمامة وتميم بن زيري اليفرني ، الذي زحف من سلا على فاس ، عام 424 ، فاستولى عليها ، وأقام بها خمس سنين أو سبعا ، الى أن أخرجه حمامة الذي عاد اليها ، فتملكها مرة أخرى من عام 429 الى عام 431 ، حيث توفي ، فخلفه ابنه دوناس على فاس وسائر ما كان لابيه . ثم ثار عليه ابن عمه حماد بن معنصر ، فحاصر فاسا

حصارا شديدا ، وقطع عن عدوة القرويين جرية الوادي . واحتفر السياج المعروف بسياج حماد ، ويعرف اليوم بمكانه حومة السياج ، وظل محاصرا لها حتى توفي سنة 435 . فاستقامت الاحوال وقد عظمت فاس وعمـــرت بالخيرات وكثرت أرباضها ، وقصدها الناس من الاندلس وغيرها . وبنيت بها الحمامات والمساجد الكثيرة والفنادق العديدة التي كانت تستقبـــل التجار من جميع البلاد ، وانهمك دوناس فى البناء والتشييد بها ، الى ان توفـــي عـــام 452 .

فخلفه ابنه الفتوح ، الذي اختار لنفسه عدوة الاندلس ، ولكن اخاه الاصغر ، عجيسة ، نازعه الامر ، واستولى على عدوة القرويين فقامـــت الحروب بين العدوتين من جديد . وبني الفتوح بالكدان ، قصبة منيعة ، وبنى عجيسة قصبة كذلك برأس عقبة السعتر الواقع فيه باب الجيسة . فاختلت أحوال فاس وعظم الهرج والمرج وغلت الاسعار واشتدت المجاعات واستمر القتال الى ان قتل الفتوح أخاه عجيسة ، واستولى على عـــدوة القرويين . وظل الفتوح قائما بالامر وحده ، الى أن طلع فجر المرابطين . فغادر فاسا حيث وجد بليكين صاحب قلعة حماد ، الفرصة سانحـــة ، فزحف على فاس عام 454 فدخلها . وفى نفس الوقت كان الضغط المرابطي بدأ يتحرك نحو فاس ، وبذلك تكون المدينة قد وقعت بين قبيلـــن مـــن الصنهاجيين ، بني حماد والملثمين . ولكن معنصر بن حماد بن منصور بـن المعز بن عطية ، جمع حوله قبائل مغراوة عام 455 بفاس ونواحيها فاشتبك مع المرابطين فى قتال مرير كما سنرى بعد .

وهنا يكون الحدث الرابع الذي تحول به مجرى فاس والمغرب عامة

فى هذا التاريخ ، الذي هو بداية للنصف الثاني من القرن الخامس ، نجد امارة لسقوط البرغواطي قد تأسست بسبتة وطنجة .

وكان سقوط هذا من موالي الحموديين استبد بهذه الجهات ، بعد ان دالت دولة الحموديين بالاندلس ، وهذه الجهات بالمغرب . وكان خطـــر المرابطين يتهدد كذلك امارة سقوط وابنه ، كما كان يتهدد امـــارة هؤلاء المغراويين بفاس . ولم يكن سقوط ينتحل نحلة البرغواطيين كما ظن بعض المؤرخين المحدثين ، بل كان على مذهب السنة والجماعة ، ونال العلماء

والادباء فى عهده ما ناله زملاؤهم فى عهد المغراويين . وبذلك وجدنا وشائج قوية بين سبتة وفاس ، على حين كان القطيعة بينهما وبين البرغواطيين بتامسنا ، الذين كانوا فى حرب دائمة منذ الادارسة الى اليفرنيين فاللمتونيين المذكورين .

لقد كانت فاس قبلة يوسف بن تاشفين ، وهو متوجه الى الشمال ، فاستولى عليها بعد مواقع شديدة ، كانت بين رجاله وبين معنصر ابن حماد. فلما تمكن منها خلف عليها عامله ، واستمر فى طريقه نحو الشمال ، ففتح كثيرا من أقاليم غمارة . ولكن معنصر عاد الى فاس فاستولى عليها وقتل عامل المرابطين . وما سمع يوسف بالخبر حتى كتب الى صاحب مكناسة او استدعاه ، وهو مهدي بن يوسف الكزنائي ، يستجيش به على فاس ، فاستجاب هذا لامره وتوجه اليها ، ولكن معنصر اعترض سبيله ، قبل ان يتصل بيوسف نفسه وناجزه القتال الذي قتل به مهدي وانهزم رجاله . فاستغاث اهل مكناسة بيوسف الذي وجه فى الحين عساكره لحصار فاس مرة أخرى ، فدام الحصار مدة قاست فيه فاس الفاقة والمجاعة ، وتجرد معنصر لقتال هذه العساكر ، فسحقوا جيشه وفقد هو فى المعركة التي انهتت سنة 460 ، ومع هذا لم يستسلم أهل فاس للمرابطين ، بل بايعوا ابن معنصر ، وهو تميم ، الذي كانت أيامه كلها محنة وبلاء على فاس .

وما كانت سنة 462 ، حتى كان يوسف قد فرغ من فتح غمارة ، وقصد بنفسه فاسا ، فاقتحمها عنوة بعد الحصار ، وقتل خلقا كان فيهم تميم بن معنصر صاحبها ، فانقرضت دولة مغراوة نهائيا . وقد عمرت نحو سبعين سنة ، عظم شأن فاس خلالها ، الا ما كان اخيرا من جورهم وطغيانهم وتسلط رجالهم . حتى ان أهل فاس اتخذوا المطامير فى بيوتهم للطحن والطبخ ليلا يسمع دوي الرحي فيتسقط عليهم سفهاؤهم وعبيدهم ، وهؤلاء كانوا يغيرون على الدور فينتهكون حرمها وياخذون ما يجدون بها وبذلك اضطر أهل فاس ان يتخذوا غرفا لا مراقي لها ، فيصعد اليها الرجل بأهله وعياله ، فى العشي ، بسلم يرفعه اليه ، حتى لا يفاجأ باقتحام هؤلاء المغيرين من المغراويين وسفهائهم .

ومهما يكن فقد كان حلول المرابطين ، بالرغم من هذه القساوة ، قضاء على هذا الفساد المبير . وما كان دفاع فاس المستميت ، الا من قبل هذا الامير وأبيه الذي كان يتسم بالحزم والرأي والشجاعة والاقدام، مما جعل الناس يتناسون ما أصابهم ، ويستعيدون بعض ما فقدوه . فكانت الومضة الاخيرة التي لفظت بها هذه الدولة أنفاسها الاخيرة .

نعم ، ان تحولا جذريا وقع فى عهد المرابطين ، للعاصمة فاس بصفة خاصة ، فلقد كانت تعتبر عاصمة المغرب ، بالرغم من كل ما أصاب المغرب من فتن وشقاق ومنازعات ، وبذلك ارتبطت أحداثه بفاس أو ارتبطت هي بها ، فكانت مركز الثقل على كل حال .

اما الان ، فالعاصمة انشئت فى الجنوب ، حيث مراكش المرابطية، واعتبرت بذلك فاس احدى مدن المغرب الهامة ، لا أقل ولا أكثر فكان القضاء عليها لا يختلف عن القضاء على طنجة وسبتة . كما ان فاس كانت تنظر الى هؤلاء القادمين فى شيء من التوجس والحذر ، وهم قوم بداة لا عهد لها بمثلهم ولا خبرة لهم بشئونهم ، ولهذا كان اللقاء مريرا ، وكانت المواجهة منكرة وكان الدفاع مستميتا .

وهكذا فقد دخل يوسف فاسا أو دخلته عام 454 ، بعد مقتلة عظيمة، ثم عاد اليها ، لما خرجت عليه ففتحها ثانية عام 462 فكانت مقتلة اعظم وافظع جرت فى الآلاف من الرجال . وقد أمر بهدم الاسوار التي كان المغراويون قد أقاموها عليها ، بين العدوتين وأمر ببناء المساجد فى أزقتها كما أمر ببناء الحمامات والفنادق والارحاء ، واصلح بناء ما وجد منها خربا. وأقام بها سنة ثم غادرها ، ولم يعد اليها الا عام 477 ، حيث كان يستعد للجهاد وقتال أعداء الاسلام بالاندلس . وفى هذه السنة وافاه الخبر بفتح سبتة ، فخف اليها قاصدا الاندلس ، وكان المعتمد قد أتاه . ويقول ابن خلدون انه استقبله هذه المرة بفاس نفسها ، فطمأنه ووعده بقرب المجيء اليه .

وهكذا استنامت فاس الى حكم يوسف ، ولا شك أن رجالها ساهموا بقسط وفير فى موقعة الزلاقة ، وقد كان يوسف عندهم يرتب العدة لها . واستقامت الاحوال لعهده .

ولكن ابنه علي لما خلف أباه ، فبايعه سائر المغرب ، تخلف عن هذه البيعة اهل فاس ، حيث كان بها ابن أخيه يحيى بن ابي بكر الذي انف من مبايعة عمه ، وهو امير فاس . فقصدها علي ، وكاتبه كما كاتب رجالاتها ، فأذعنوا له وبايعوه . فهدات بذلك زوبعة الخلاف واستقرت الامور بنصابها وفي عهد علي بن يوسف صارت فاس تسترجع مكانتها كعاصمة لشمال المغرب ، فكان أبو عبد الله ابن الحاج يتولى هذه العمالة الكبرى . وكان هذا الرجل من رجالات الدولة الافذاذ ، قام على حكم فاس قياما محمودا، ونعمت هي بنعمة الهدوء والهناء الى ان نجمت فتنة ابن تومرت .

الحدث الخامس ، لفاس :

كان هذا الحدث على العهد الموحدي ، فقد كانت فاس مقصدا لهم قبل أن تتاسس دولتهم ، ولجأ اليها من ذي قبل مهديهم محمد بن تومرت، آتيا من تلمسان التي تعرض فيها لتوبيخ قاضيها ابن صاحب الصلاة ، فنزل بمسجد « طريانة » واقام بفاس يدرس العلم وينال بالنقد تصرفات المرابطين، الى أن كانت سنة 514 فغادرها الى مكناسة ، التي تصدى له الفوغاء بها واوجعوه ضربا .

وما تربع عبد المومن على دست الخلافة ، حتى قصد فاسا آتيا اليها من تلمسان ، كذلك . فحاصرها رجاله سبعة أشهر ثم تمكنوا من دخولها عام 541 . وكان آنذاك عبد المومن محاصرا لمكناسة ، فتركها وتوجه الى دخول فاس ، فأمن اهلها ، بعد فزعهم وارهاقهم بالحصار والدمار . وهدم من أسوارها الكثير ، وقال « انما أسوارنا سيوفنا وعدلنا » فظلت دون أسوار الى ايام حفيده يعقوب وابنه الناصر .

وفي هذه السنة ، كان وفد الاندلس ياتي الى عبد المومن ، وعلى راسه أبو بكر بن العربي المعافري ، فأقام بمراكش الى سنة 542 فاستقبله عبد المومن ، ولما حلت سنة 543 استعد الوفد لمغادرة المغرب ، فمر في طريقه على فاس ، حيث توفي بها ذلك الحافظ العلم أبو بكر المعافري ودفن بها خارج باب المحروق ، حيث ضريحه ما زال ماثلا .

ولما كانت فاس دائما طريقا الى الاندلس وافريقية، فقد اتخذها كذلك واقام بها لجمع الحشود ، عبد المومن وابنه يوسف وحفيده المنصور ، وابن هذا محمد الناصر الذي كانت له عناية خاصة بفاس ، وهو الذي بني دار الوضوء والسقاية بازاء جامع الاندلس ، كما بني الباب الكبير الذي بحصن الجامع وبني مصلى القرويين ، وأتم بناء السور الذي شرع فيه أبوه المنصور ، فتم لذلك عام 600 وبنى قصبتها ورتب أمورها . وفي عهد الناصر ، كان محمد بن عبد الله بن العاضد ، آخر خلفاء العبيديين ، قد لجأ الى المغرب ، بعد ما قضى صلاح الدين الايوبي ، على ملك جده المذكور، فصار محمد هذا يدعو الناس اليه ، ثم أعلن الثورة بجبال ورغة من أحواز فاس ، فتقبض عليه وقتل وعلق رأسه بباب الشريعة من أبواب فاس ، وأحرق جسده بهذا الباب ، فسمي الباب باب المحروق . وكان هذا الحدث يوم تم بناء سور المدينة وهو كما تقدم عام 600 ، وقد اشتهرت فاس في القرن السادس بعلمائها الاعلام وأدبائها الذين يكفينا منهم ابن حبوس الشاعر الذي عقمت به أمهات الشعراء عندنا «لولا السلاطة والهذر» كما يقول هو ، فكان هذا القرن العصر الذهبي ، بحق ، لهذه المدينة .

الحدث السادس : ظهور بني مرين بنواحي فاس عام ثلاث عشرة وست مائة ، وقد اتوا اليها من صحراء فيجيج ونواحيها في السنوات الاخيرة من القرن السادس . فلما كانت خلافة المنتصر ابن الناصر اشتد عيثهم ، فكتب الى والي فاس السيد أبي ابراهيم اخي المنصور ، بغزوهم، فتوجه هذا اليهم وقد انتهوا الى بلاد الريف ، فخاضوا معركة ضارية كسروه فيها ، فعاد مهزوما الى فاس ، وأصحابه عراة يخصفون عليهم من ورق نبات « المشعلة » فسميت هذه السنة ، سنة المشعلة . وكان الوالي نفسه قد وقع في أسرهم فمنوا عليه باطلاق سراحه ، وانطلقوا الى تازة . وابتداء من هذا التاريخ ، ستتحول الانظار الى فاس ، فالموحدون يلوذون بها ، والهزائم والخيانات تلاحقهم . فهذا الرشيد بن المامون يقيم بها ، بعد قتاله للخلط عام 633 ، مدة من الزمان . وهذا أخوه السعيد ، تأتيه بيعة بني مرين وهو بظاهر فاس ، عام 645 ، ثم ياتي ابو بكر بن عبد الحق المريني فيستولي على فاس عام 647 . فتصبح فاس ابتداء من هذا التاريخ عاصمة لهذه الدولة الناشئة . ولم تستطع الدولة الموحدية المحتضرة ،

ان تنتزعها منه . وذهبت المؤامرات أدراج الرياح ، فقبض على أصحابها ، وعلى رأسهم قاضي المدينة المغيلي . وعلقت رؤوسهم بباب الشريعة أو باب المحروق . كما لم يستطع المرتضي أن يزحزحه عنها . ولما توفي اتخذها لنفسه ابنه عمر ، مستقلا بالملك ثم مناصفا لعمه ، يعقوب بن عبد الحق ، الى ان خلصت لهذا الاخير ، وقد استبد بالملك وحده . ثم أجهز على البقية الباقية من دولة الموحدين فدحر أبا دبوس الواثق بالله ، ثم اسحاق بن ابي ابراهيم اخا المرتضي ، فجيء براس ابي دبوس الى فاس سنة 668 ثم جيء باسحاق فقتل 674 . واستقر الامر نهائيا لهؤلاء المرينيين ، الذين اختاروا لهم عاصمتهم فاس ، فأصبحوا يدعون بملوك فاس . ولعله منذ الان تصبح كلمة « فاس » فى الخارج تدل على المغرب الاقصى . كما صارت تونس تدل على القطر بأجمعه ، وكذلك الجزائر صارت عاصمتها تدعى بها ، كما يدعى القطر بأجمعه أيضا .

وعلى كل حال فقد أصبحت فاس عاصمة المغرب ، بعد ما كانت مراكش ، أيام المرابطين فالموحدين ، وبقيت كذلك الى نهاية العهد الوطاسي ونالت اهتماما عظيما من يعقوب فبنى بها المارستانات للمرضى والمختلين ورتب لها الاطباء واسس المدارس لطلبة العلم وأجرى المرتبات ومن أهم ما وقع فى عهده بالنسبة الى فاس ، هو بناء المدينة البيضاء المدعوة الان بفاس الجديد . فلقد راى يعقوب العظيم وقد استفحل ملكه وعظم سلطانه ، أن يبني مدينة يسكن بها ومعه حاشيته وأولياؤه وقواد جنده ، الى جوار العاصمة الكبرى . فشرع فى بناء المدينة البيضاء عام أربعة وسبعين وست مائة ، على ضفة الوادي الذي يخترقها من أعلاه ، فنزلها بحاشيته وذويه واختط الناس بها دورهم واجريت فيها المياه الى القصور . كما اختط الملاح الى جوار القصر الملكي ، فسكنه اليهود ونعموا بهذا الجوار ، وصار بعضهم من خلصاء القصر وقهارمته . الى ان كانت أيام يوسف بن يعقوب الذي ادرك من خطر بني وقاصة منهم ما ادرك ، فنكب هذه العائلة التي تعدت ما حد لها ، واستفلت اقبال السلطان يوسف عليها . فاعتقل افرادها سنة احدى وسبع ومائة واعدم خليفتها الكبير وآخرون معه من جلدتهم .

ومن اهم ما حدث كذلك فى هذا العهد بناء المدارس بفاس . تقدم ان يعقوب كان من مبانيه بها بعض المدارس ، التي زودها بكتب أهداها اليه الملك القشتالي سانجه ، ثم تابعه بنوه واحفاده ، فبنى ابو سعيد مدرسة بفاس الجديد ، عام 720 ورتب فيها الطلبة والاساتيذ ، وبعده تتابع بنـــاء المدارس من قبل المرينيين بفاس وغيرها ، فالعهد المريني يصح ان نسميه بعهد انتشار المدارس فى المغرب من الملوك ومن الامراء ، فكان ولي عهد ابى سعيد ابو الحسن علي يبني بغربي جامع الاندلس المدرسة المعروفـة بمدرسة الصهريج ، وبني حولها سقاية ودار للوضوء وفندقا لسكنى الطلبة وجلب الماء اليها من عين خارج باب الجديد ، وشحنها بطلبـــة العلـــم والاساتيذ ، وبعدها بسنة أو سنتين ، أمر ابو سعيد أيضا ببناء مدرســـة العطارين ، وشحنها بالطلبة ورتب فيها المدرسين وأجرى عليهم المرتبات، ثم استمر ابنه وقد تولى الملك فى بناء المدارس ، فبني بجوف القرويين مدرسة الرخام ، المعروفة اليوم بالمصباحية ، نسبة الى ابي الضيـــاء مصباح بن عبد الله الياصلوتي ، أول من تصدى للدرس بها .

وكان أبو الحسن قد اتى ببيلة (خصة) الرخام الابيض المجلوبة من الميرية ، فركبت بمدرسة الصهريج ، التي بينت بغرب جامع الاندلس ، كما تقدم ، ثم نقلت منها الى مدرسة الرخام . اما ابنه أبو عنان فمدرسته بالطالعة شاهدة بعظمته وما بلغت الهندسة أيامه من الرقي والمهارة . وما زالت آثار الصنجات النحاسية التي ركبت قبالة باب المدرسة لتسجـــل الاوقات ، لغزا من هذا الفن العظيم ، وكان جامع القروييـــن فى عهـــد المرينيين يعج بمجالس العلم .

هذه الاحداث التي ما زالت شواهدها قائمة ، أما غيرها ، فمنهـــا وفود رجال اربعة على فاس : ملكان من الاندلس ووزيرهما وعالم من تونس. والملكان ، هما محمد بن اسماعيل ابن الاحمر ، ومحمد بن يوسف الغني بالله . والوزير هو ابن الخطيب ، والعالم هو ابن خلدون ، فقد وفد محمد ابن اسماعيل على ابي الحسن بحاضرة فاس ، لاحكام عقد المودة معـه ، وذلك اثر مبايعة ابي الحسن ، فقدم عليه سنة 732 وهو يعلم ان السلطان الجديد كان يتوق الى الجهاد اقتداء بسنة جده يعقوب ، فانزله ابو الحسن بروض المصارة لصق داره واستبلغ فى اكرامه وامده بالجند وعقد لابنـه

ابى مالك على خمسة آلاف من انجاد بني مرين واوفدهم معه لمنازلة جبل طارق الذي كان الطاغية قد احتله سنة 709 فاسترجعه جند أبي الحسن بعد أن انفق أموالا وسير اساطيل حاصرته بحرا ، فاقتحمه المسلمون عنوة سنة 733 .

وفى سنة 752 ، وفد على فاس ابن الخطيب معزيا لابي عنان فى وفاة والده ، وكان موفدا من قبل يوسف أبي الحجاج بن اسماعيل ، وفى سنة 755 كان عبد الرحمن ابن خلدون ، يفد على فاس ، مدعوا من قبل أبي عنان ، الذي كان قد انحاز اليه وهو مقيم بتلمسان : سنة 753 ، ومعه آنذاك ابن الخطيب . فكانت أول فرصة لاجتماع الرجلين العظيمين . فنظمه ابو عنان فى اهل مجلسه العلمي ، ثم استعمله فى كتابته والتوقيع بين يديه . ومنذ هذا التاريخ ، صار ابن خلدون يتقلد المناصب الهامة فى الدولة ، كما تقلبت به الاحوال الى أن غادر المغرب نهائيا سنة ست وسبعين وسبع مائة ، بعد ما خدم ملوك بني مرين ، أبا عنان والذين تعاقبوا على الملك بعده خلال عشرين سنة .

وفى نفس السنة 755 كان ابن الخطيب يحل بفاس ، لثاني مرة ، موفدا من قبل الغني بالله الى ابي عنان ، مستمدا منه الغوث على عدوه الطاغية .

وفى سنة 761 ، كان الغني بالله ، يقصد فاسا ومعه وزيره ابن الخطيب ، حيث كان أبو سالم بن ابي الحسن يستقبلهما ، ويعد الملك المخلوع بعودته الى ملكه . وقد طاب المقام ، وخصوصا لابن الخطيب ، الذي بقي يتنقل فى المغرب ، بعدما عاد سيده الى الاندلس واسترجع ملكه. ثم اضطر الى اللحاق به ، فاستانف عمله فى وزارته المستبد بها . ولكنه كان يحن دائما الى المغرب ، الذي عاد اليه من الاندلس بعد عودة ابن خلدون منها الى خدمة المرينيين . وقد عاد هذه المرة ـ وهي الرابعة التي يحل فيها بفاس ـ منابذا لسيده لاجئا الى الملك عبد العزيز بن أبي الحسن سنة 773 . فسكن فاسا القديمة ، وتأنق فى البناء ، واقام مطمئنا بداره ، المعروفة بدار ابن السناج ، وهي الان ملجأ لليتيمات يتعلمن الخياطة والتطريز بها .

اجل : لقد نعم ابن الخطيب ردحا من الزمان فى مقامه بفاس ، ولكن مقامه هذا كان محنة وبلاء على المغرب والدولة التي لجأ اليها . فان الغني بالله لما طلب من السلطان المريني اعادة ابن الخطيب فرفض طلبه السلطان باباء ، صار ينتهز الفرصة للايقاع بهذه الدولة التي ابقت عليه وعلى اجداده وآبائه ومكنتهم من ملكهم . فكان جزاؤها تفويض ملكها ، وايقاع الدسائس والفتن بين أمرائها وسلاطينها ، حتى توزعت الدولة بينهم وفقدت حرمتها . وبذلك استطاع محمد الغني ، أن يرسل رجاله الى البلاط المريني بفاس ، مطالبا بابن الخطيب وموجها اليه تهم المروق من الدين فكانت تلك المحاكمة التي زجت به فى السجن . ثم اقتحم عليه الاندلسيون انفسهم والغوغاء معهم سجنه وقتلوه شر قتلة ، واخرجوه فدفنوه فى باب المحروق. بعد ما ارادوا احراق شلوه ، ثم أعادوه الى حفرته ، حيث مرقده الاخير فى الضريح المبني حديثا . وكانت هذه الكارثة سنة 776 وقد حاول صديقه ابن خلدون ان يقيه شر هذه الكارثة ، فتدخل لدى رجال الدولة ، ولكن ذلك لم يجد شيئا ، ازاء اصرار الاندلسيين وحقدهم . ومنذ هذا التاريخ والدولة المرينية تنحدر الى الهاوية ، حتى خلفتها دولة الوطاسيين ، وقد اشرف المغرب والاندلس معا على الانهيار ...

الحدث السابع : نهاية الدولة المرينية بفاس وقيام دولة الوطاسيين وما صاحب ذلك من وقائع :

كان حلول القرن التاسع على المغرب عامة والاندلس حلولا بالشؤم والفتن المبيرة ، فقد صارت الدولة المرينية لعبة اللاعبين وتدخل اليهود فى شؤونها ، الى ان ضاق المسلمون بهذا التدخل . فقام خطيب القرويين أبو فارس عبد العزيز الورياغلي منددا بعبد الحق بن أبي سعيد بن أبي العباس بن ابي سالم المريني ، وداعيا الى بيعة الريف أبي عبد الله محمد ابن علي الحفيد الادريسي الجوطي نقيب الاشراف بها . فأجابه الى هذا اهل فاس ، وتولى كبر ذلك اهل حومة القلقليين منهم ، وكان عبد الحق خارج فاس فعاد اليها ، حيث لقي حتفه فيها . فانقرضت بذلك دولة المرينيين ، ملوك فاس فى فاس نفسها ، وكان أول ملوكها عبد الحق وآخر ملوكها عبد الحق ، وكان هذا الحدث الاليم سنة 869 . ولم تطل مدة

الشريف الادريسي ، قائما على ملكه ، بل خلع بعد ست سنوات من بيعته، على يد أبي الحجاج يوسف بن منصور الوطاسي . وقامت على حكم فاس الجديد اخته زهور ، يساندها القائد السجيري ، فنهض أبو عبد الله محمد الشيخ الوطاسي من أصيلا التي كانت ملكا له ، وجاء الى فاس فاستولى عليها ، بعد مداخلة من أهلها ، سنة 876 . وكانت سواحل المغرب تسقط تباعا بيد البرتغال الذين قسم البابا امتلاك العالم بينهم وبين الاسبان ، الذين كانوا آنذاك تمكنوا من الاجهاز على آخر دولة مسلمة بالاندلس فى هذه السنة نفسها . وقد استولى البرتغال ، على سبتة سنة 818 ثم على القصر الصغير 862 ثم على طنجة 869 ثم أصيلا سنة 876 ، اي سنة سقوط غرناطة واستيلاء الشيخ على فاس . وفيها استولوا على مدينة آنفا (الدار البيضاء) وبعض السواحل السوسية ، ثم استولوا على ازمور والجديدة وغيرها . فطوقوا المغرب بذلك تطويقا تاما ، وكان الاسبان جيرانهم قد توجهوا الى الشرق فاستولوا على مليلية ، واستمروا فى طريقهم حتى طرابلس حسب المخطط الذي وضعه لهم البابا كليمنت السادس Clément VI وكان ذلك منه سنة **1494** .

لقد اهتزت فاس والمغرب عموما لهذا الغزو البرتغالي ، فهرعوا للدفاع عن حوزة الوطن ، وقبضوا سنة احدى واربعين على قائد الغزاة البرتغالي ، وكان يدعى فرنندو ، Fernando وجماعة من أصحابه ، وجاءوا بهم أسرى الى فاس . فصار البرتغال يفاوضون فى اطلاق سراحهم وواتت الفرصة فشرط المغاربة مقابل هذا السراح ، أن يتخلوا عن سبتة . وكاد البرتغال يتعهدون بهذا، لولا أن القائد المذكور مات بالسجن من فاس. فاستمر البرتغال فى اكتساحهم الجارف الذي لم يتطهر منه المغرب نهائيا الا ايام المولى محمد بن عبد الله ، حيث استرجع آخر معقل لهم به « مزكان » وهو الجديدة سماها هو بذلك ، ونعود الى الاندلس ، فنجد ملكها اى ملك غرناطة ، أبا عبد الله ، يلجأ الى فاس ، بعد ما فقد ملكه ، وكان هذا اللجوء سنة 899 وكان مع الملك المخلوع 1130 من صحبه واهله ، فأقام بفاس فى قصوره التي بناها على الانماط الغرناطية ، الى ان توفى بها سنة 940 فدفن بجوار المصلى خارج باب المحروق ، وترك من بعده

ذرية انقرضت ، شأن غالب الجاليات الاندلسية بالمغرب ، وقد نيف على 70 سنة . ويذكر المقري انه ادرك احد احفاده .

ومهما يكن فقد قضى هؤلاء الوطاسيون ايامهم فى جهاد البرتغـــال ، وفى قتال بينهم ، ثم اشتبكوا فى قتال مع السعديين الآتين من جنـــوب المغرب . وكانت فاس وعلماؤها على قدم وساق ، فالخطباء فى القرويين يحضون الناس على الجهاد ، والعلماء والقضاة يشاركون بأنفسهـم فيــه ويرابطون على السواحل والثغور . وقد عمت الفتنة ، حتى ضاع تاريـــخ هذه الفترة او كاد ، ولم يعرف للوطاسيين من آثار قائمة بفاس الا قنطرة الرصيف التي جدد بناءها ابو العباس احمد بن محمد بن الشيخ . ولا غرو ان يكون الادب المغربي قد اضطرب حبله فى هذه الفترة ، وانحبس نفسه، فانطلق فى حشجرة يقول فى هذه المناسبة :

جسر الرصيف أبو العباس جـدده فخر السلاطين من ابناء وطـــاس

فجاء فى غاية الاتقـان مرتفقـــا لمن يمر به من عدوتي فـــاس

وفى هذه الاثناء كان الحسن الوزان يغادر فاسا 922 الى الشـــرق ويقع فى عودته الى المغرب بيد القراصنة النصارى الذين حملوه الى روما وقدموه للبابا ليون العاشر الذي نصره فاصبح اسمه « ليون الافريقي »

واخيرا نجد محمدا الشيخ السعدي يقصد فاسا ، فيستولى عليهـــا بعد حصار وقتال ، أسر فيه أبو العباس المذكور سنة 956 واقام بهـــا الشيخ وفى اقامته هذه ولد له المولى أحمد فى نفس السنة .

وفر أبو حسون بن الشيخ الوطاسي الذي كان ابو العباس قد غلبه ، فالتجأ الى الجزائر حيث الاتراك العثمانين ، الذين انجدوه بجيش عاد به الى فاس بقيادة صالح الرئيس سنة 960 ، فأخرج منها الشيخ السعدي، واقام بها ومعه الاتراك الذين لم يكن لاهل فاس عهد بهـــم من ذي قبـــل فتضايقوا منهم ، وشكوهم الى ابي حسون ، فأعادهم الى مستقرهم مـــن الجزائـــــر .

ولا شك ان الاتراك كانوا يعتبرون هذه فرصة ثمينة لا للغلب على المغرب فحسب ولكن للوقوف في وجه العدو المشترك الاسبان ، الذين ما فتئوا يداهمونهم في السواحل الشرقية والجنوبية لاسبانيا . قال لي مؤرخ انجليزي : « لولا الاسبان لضاعت المسيحية ولولا الاتراك لضاع الاسلام». فكانت تركيا واسبانيا الدولتين الكبيرتين متوازيتي القوى في العالم آنذاك الى ان كانت معركة « ليبانتو » الصليبية Lepanto (Battle of Lepanto) في اليوم السابع من اكتوبر سنة 1571 في المياه الايطالية ، فأصيب الاسطول التركي .

الحدث الثامن : انتقال العاصمة من فاس الى مراكش في عهد السعديين .

لقد عاد محمد الشيخ السعدي الى فاس ، بعد مغادرة الاتراك لها ، فحصل قتال بينه وبين ابي حسون الذي كان الى جانبه رماة فاس وحماتها، ولكن القتال اسفر عن هزيمة ابي حسون واعتصامه دال فاس ، التي اشتد عليها الحصار ، ووقع صاحبها ابو حسون في يد الشيخ فتم له الامر نهائيا سنة 961 . وانقرضت دولة الوطاسيين بقتل ابي حسون ، وهربوا الى مراكش ، وفقدت فاس صولتها . وطمع الاتراك فيها ، فأتاها حسن بن خير الدين بارباروس سنة خمس وستين وتسع مائة ، فتصدى لهم ملكها عبد الله الغالب وهزمهم فلم يتمكنوا من احتلالها ، وانهزموا الى حجر بادس ، الذي يعد اقرب ميناء الى فاس ، وكان قد وقع بيدهم ، حتى انتزعه الاسبان منهم بايعاز من هؤلاء السعديين كما يقال . وذلك ليقفوا في طريق الاتراك فلا يعودوا الى غزو فاس ، التي كان الوباء قد انتشر بها من جراء استمرار القتال فيها . وكان الذي يليها محمد ابن الغالب ، الذي سيصبح ملكا بعد والده ، فيغادر فاسا سنة 981 بعد ما بايعته . ولم يعد اليها الا سنة 983 ، لمدافعة عمه عبد الملك ، الذي اتى بجيش الترك . فانهزم محمد المتوكل ، وعطف على فاس الجديد فأخذ منه بعض الذخيرة ، وخرج مغذا السير نحو مراكش ، فاستولى عبد الملك على فاس التي دخلها من باب الفتوح ، فبايعه أهلها واقام أياما ثم توجه الى مراكش ملاحقا لابن أخيه فيها ، بعد ما اعاد الترك الى بلادهم . واستخلف على فاس ، أخاه

احمد ، الذي سيصبح اعظم ملوك السعديين بعده ، والذي نراه يستدعي من قبل اخيه ، فياتي بجيش فاس . ويفر محمد المتوكل على اتيانه الى السوس تاركا شيعته بمراكش فتبعه احمد واشتبك معه في معارك كان النصر فيها لاحمد ورجاله اهل فاس .

وقد ختم هذا الصراع بوقعة وادي المخازن سنة 986 التي ابلى فيها جيش احمد بلاء حسنا ، والتي انتهت ببيعته ملكا على المغرب ، فكان اعظم ملوكه السعديين ، وكان بعد الملقب المنصور واضيف الذهبي اليه فيما ياتي.

لقد اقام المنصور على ولاية فاس ابنه محمدا المامون ، وفي سنة 987 جعله ولي عهده ، واستقدمه الى مراكش فقدم عليه بجيشه من فاس، في تعبئة حسنة وفي لباس عسكري سر بمرآه المنصور . وكان يوما مشهودا ، قام فيه الشعراء وافصحوا . وبعد اقامة قصيرة اعاده الى فاس

وفي سنة 990 ، كان المنصور بفاس فورد عليه بها وفد من ابي العلاء ملك « برنو » يحمل هدية فاخرة اليه . فوافى المنصور بمعسكره الذي كان براس الماء ، فأدى الرسول سفارته وقدم الهدية في حفل مهيب . وكان من مطالبه عسكر معد بالبنادق والمدافع لمحاربة كفار السودان وكان هذا الملك فيما قبل قد توجه الى الاتراك . فطلب هذا من ملك الترك فلم يجبه . اما المنصور فانه كرم الوفد ووجه معه عارفا يصف البلاد فكان فتح السودان فيما بعد ، ومبايعة ابي العلاء له ودخوله في طاعته .

وفي سنة 992 جدد ولاية العهد لابنه ، واستدعاه من فاس ، فوافاه واخذت العهود والمواثيق وموافقة باقي الاخوة على هذه الولاية .

وفي سنة 996 جاء المنصور الى فاس ، فلما كان في طريقه اليها ، جاءته البشرى بفتك احمد النقسيس مقدم تطوان ، بنصارى سبتة وسبيه منها .

وفي سنة 1005 ، كان الناصر ابن الغالب يثور على الدولة ، فوجه المنصور اليه ، بعد ما اعياه امره ، ولي عهده ، فخرج من فاس بجيش كامل العدة ، فأوقع بالناصر وقبض عليه بعد مطاردته ، وبعث براسه الى

مراكش حيث والده المنصور . وكان الناصر قد سرحه « فليبي » الثاني مناوئا به المنصـــور .

غير أن هذا النصر ويالاسف ، جرأ ولي العهد على الخروج من ربقة الطاعة ، فانتقض على أبيه ، وكان جيشه وهو بفاس يناهز عشرين ألفا فى أحسن عدة وعتاد . فلما علم بذلك المنصور حاول استصلاحه ، فزاد فى ولايته ولاطفه بالكتب اليه وتوجيه الوعظ والارشاد، وكان هذا سنة 1011. فلم يجد ذلك شيئا وأتى المنصور بنفسه فى جيش نزل بـــه فى ساحـــة الدوح . فلم يكن من المامون الا ان فر الى فشتالة ملتجئا الى زاوية هناك، فوجه المنصور فى طلبه القائد جؤذر والقائد النبيلي . وبعد مناوشة تمكنا منه وأتيا به الى المنصور ، الذي وجه به الى سجنه بمكناس ، حيث ظل به ، حتى توفي المنصور فيما بعد ذلك .

بعد هذا الحادث دخل المنصور فاسا الجديد ، شاكرا لله ومتصدقا على الفقراء بأموال عظيمة . ولم تطل اقامة المنصور بمعسكره خارج فاس الجديد بل أصابه الوباء الذي كان يفتك بالمغرب ، فمرض مرضه الذي توفي به فى داره من فاس الجديد سنة 1012 ، ودفن ازاء مقصورة الجامع هنـــــاك .

ومن آثار المنصور بفاس المعقلان المقام أحدهما ببـــاب الجيســـة والاخر بباب الفتوح ، وكان الشروع فى بنائهما سنة 990 والخصة التي تحت مأذنة جامع القرويين مع كرسيها الرخامي مما لا يزال به حتى اليوم.

الحـــدث التاســـع : فاس وتصدع الدولة السعديـــة ، بتعـــدد عواصـــم المغـــرب .

لما توفى المنصور كان المامون فى سجن مكناس ، فبايع أهل فاس ابنه المولى زيدان ، الذي حضر جنازة ابيه ، وكان اخـــوه أبـــو فارس بالعاصمة مراكش ، فأصدر زيدان الامر باخراج المامون والاتيان به . ولكن جؤذر حين اخرجه من السجن لم يأت به الى زيدان بل حمله موثقـــا الى مراكش حيث ابو فارس قد بايعه أهل مراكش . فكانت بذلك بيعتان للملكين، ثم كانت عاصمتان ، مراكش وفاس ، كما سنرى .

واثر ذلك ، خرج زيدان من فاس بجيشه قاصدا اخـــاه بمراكش ، فأطلق هذا أخاه المامون وسرحه عليه في جيش المتفرقة « اللفيف » . وبعد قتال مع زيدان انهزم هذا وعاد الى فاس وتحصن بها . ثم ثار المامون على أبي فارس بذلك الجيش من المتفرقة ، وتوجه في اثر زيدان نحو فاس. وما علم أهلها بقدومه حتى أعلنوا بنصره ، فخرج زيدان من فاس يجر ذيل الخيبة ، متوجها الى تلمسان . ودخل المامون فاسا ، فاستقبل بحفاوة ، ثم امر جيش مراكش بالعودة اليها ، واصبحت فاس آنذاك عاصمته وقاعدة ملكه . وأعد جيشا كثيفا بقيادة ولده عبد الله ووجهه الى حرب اخيه أبي فارس . وبعد قتال تمكن عبد الله من مراكش فدخلها سنة 1015 .

ولم يمض وقت حتى عاد زيدان فاحتل مراكش ، وفر منها عبد الله ناجيا بنفسه الى فاس ، حيث أبوه المامون . وسرعان ما أعد جيشا آخر خرج به من فاس ، متوجها الى زيدان بمراكش سنة 1016 . فتمكن للمرة الثانية منها وخرج زيدان فارا الى المعاقل المنيعة بالجبال وظل فيها وقتا الى ان عاد اليها . وهكذا عاد زيدان الى فاس فاحتل بها وخرج منها المامون فارا منها متوجها الى العرائش ، وقد كسر ابنه بمراكش ، على يد محمد بن عبد المومن ابن الشيخ ، الذي كان قد بويع بها ثم خلع بعـــد انتصاره ، ودعي اليها زيدان ، وكانت هذه الاحداث كلها في نفس السنة .

لقد بقي زيدان بفاس الى سنة 1018 ، حيث غادرها لاخمـاد الثورة التي شبت بنواحي مراكش ، وهنا وجد الفرصة عبد الله ابن المامـــون ، ومعه عمه أبو فارس ، فدخلا فاسا بعد قتال شديد بناحية باب الفتوح .

وعلى دخولهما ، اتفق رأي قواد شراكة ، على بيعة أبي فارس وقتل ابن اخيه عبد الله ، فعلم هذا بالمؤامرة المدبرة عليه فدخل على عمه مـــع حاجبه حمو بن عمر ، وخنقه في داره ليلا . وبقي وحده مستبدا بأمر فاس، الى أن عاد اليها عمه المولى زيدان من مراكش سنة 1019 . فجاء عبد الله واستأنف معه القتال ، فهزمه ، ودخل فاسا ، وفر عنها زيدان ، فكان آخر عهده بها . وظل عبد الله مقيما بفاس والطاعون يفتك بها وبالمغرب عامة . وكان الاسبان قد عادوا بالمامون الذي توجه اليهم مستنجـدا واحتلـــوا العرائش . ومن قبل توجه أعيان فاس الى المامون ، وقد نزل بالريف بعد

عودته من اسبانيا التي استصرخ بملكها « فليبي » الثالث ، فشرط عليه تسليم العرائش لنصرته . وكان في هؤلاء الاعيان علماء وأشراف وغيرهم. فلما وصلوا اليه وهو بحجر بادس فرح بهم ، وأمر قبطان السفينة الاسباني أن يطلق قذائف مدافع السفينة التي أقلته . وقد جاء الاسبان بعشرة آلاف من بقايا « الموريسكو » الذين تخلص منهم فيلبي الثالث فطردهم من الاندلس . فكانوا آخر المطرودين من اسبانيا بتهمة اعتناقهم لدين الاسلام خفية . وكان المقري آنذاك على قيد الحياة يعيش بالمشرق ، فذكر ذلك في كتابه نفح الطيب وكتب عنه كتاب انجليز كثيرون .

ثم عاد وفد فاس الى مدينتهم ، ولما كانوا في الطريق ، تعرض لهم بعض الاعراب فسلبوهم جميعا ، الا القاضي ابن ابي النعيم احتراما له ولمركزه . وكانت هذه محنة قاسى علماء فاس منها الويلات ، الى ان قتل الشيخ المامون سنة 1022 ، وطرح في العراء حتى واراه أهل تطوان خارج مدينتهم التي كان قد استولى عليها . وبعد ذلك نقلت جثته مع أمه الخيزران ، فدفنا بفاس الجديد حيث كان ابنه عبد الله على فشل ريح به. وكانت فاس تغلي تذمرا بهذا السلطان المزيف ، فثار بها سنة 1021 أبو الربيع سليمان بن محمد الشريف الزرهوني . وتبعه أهل فاس بأجمعهم وفيهم بعض العلماء ، وأخرجوا من كان بها من جيش السلطان اللعين . وبقي الناس تسودهم الفوضى ويتحكم فيهم « السياب » وكان غالب هذا الجند من شراقة أعراب بادية تلمسان . وكانوا « ادالة » على أهل فاس منذ سنة 1016 ، نازلين بقصبة الطالعة وبقصبة أخرى وبعض الفنادق قرب باب المسافرين من فاس . وحاول عبد الله ، أن يراود أهل فاس على قبولهم ، فقالوا له « لا لا » فسميت هذه السنة سنة « لا لا » ومع هذا الاباء فان أبا الربيع كان قد وافق عبد الله على الاخذ بالثار من قتلة أبيه . لكن أهل فاس لم يوافقوا على هذا واجتمعوا بالقرويين ناقمين على ما فعله المامون من تسليم العرائش الى النصارى ، وساخطين على اولئك الذين انحازوا الى ابنه الخليع كابيه . وصاروا يرددون قولهم : « لا نقبل سليمان ولا المربوع » وكان هذا المربوع أحد الفقهاء الذين وافقوا على اخذ الثار . وكان من المعارضين الشريف الادريسي مولاي ادريس بن احمد بن احمد الجوطي . فاقتحم عليه ابو الربيع « دار القيطون » وقتله بها مع جماعته .

فالتف على ولده أهل العدوة وتوجه بهم الى دار أبي الربيع فكانت معارك قتل فيها بعضهم ، فعادوا مفلولين . وبقي أبو الربيع يلقي الفزع بين الناس، الى أن قتل سنة 1026 قتله الفقيه المربوع المذكور .

وبعد مقتل أبي الربيع أصبح هذا الفقيه الجريء يتولى أمـــر فاس ، والتف حوله أهلها ، وقاتلوا معه أخا الشريف الزرهوني الذي جاء لياخذ بثاره ، ولما هزموه فر الى روضة سيدي أحمد الشاوي ومعه فلولـــه ، فاقتحم عليهم الفقيه الروضة المذكورة ، ففروا الى بيوت دار الشيـــخ ، وهناك هجم عليهم الفقيه برجاله ، فقتلهم أجمعين .

ولم يرد الفقيه ان يتولى الملك بنفسه ، بل انتظر حتى جيىء اليــه برجل يدعى عبد الرحمن الخنادقي ، كان يتعبد بزرهون فاستقدم سنـــة 1027 ، وأنزل فى روضة الشيخ سيدي علي بن حرزهم . ورام أهل فاس ان يملكوه عليهم ، غير ان وزير عبد الله ابن الشيخ أحمد بن عميرة أتـــى بجماعته وفتك بأصحاب الخنادقي ، ولجأ هو الى الضريح ، فرموه مـــن طاق هناك ، واردوه قتيلا .

فلما أعيى أهل فاس الامر ، ويئسوا من تداركه ، تقدموا الى عبد الله ابن الشيخ ، الذي كان مقيما بفاس الجديد ، فبايعوه مرة أخرى بالملـــك وأظهروا له المحبة والاخلاص ، فصفح عنهم وقربهم اليه . وبعث وزيـــره أحمد بن عميرة المذكور ، الى الفقيه بالامان ، فلم يأمن من هذا الفقيـــه وصمم مع جماعته اللمطيين ، على قتال عبد الله . فأصبحت فاس القديمة فى توجس وحذر بطلت به الصلاة الخمس بالقرويين، خوفا من المداهمة ، واستعمل القائد حمو بن عمرو دهاءه فنادى بأمان اللمطيين ، الذين انكشفوا عن الفقيه وتفرقوا عنه . على حين بعث اليه عبد الله ابن الشيخ بسبحته وخاتمه تأكيدا للامان . فلم يأمن الفقيه أيضا ، وفر ليلا الى بني حسن ، فاخذ هناك وأتى به الى عبد الله ، فعفا عنه ، واستقر لهذا ملكه .

ومع هذا كله فان الفقيه المربوع ، عدا على الوزير وقتله . وكان عبد الله ابن الشيخ قد وجه هذا الوزير مع القائد حمو بن عمرو لموضع من جبال الزبيب . كما كان عبد الله أيضا يبعث الجيوش لحصار تطوان ، انتقامـــا لابيه واستخلاصها من مقدمها النقسيس . فلما سمع بقتل وزيره أسر فى

نفسه الفتك بالفقيه ، فتمكن منه سنة 1028 وقتله ونهب داره ، وعلقه على البرج الجديد خارج باب السبع .

وفى هذه السنة نفسها ، كان أخو عبد الله محمد المعروف بزغودة ، يبايع بضريح الشيخ عبد السلام بن مشيش ، وقام بدعوته الشريف علي بن محمد بن علي الادريسي اليونسي المعروف بابن ريسون ، وريسون هذه ام جده علي نزيل تازروت ، فقصده عبد الله بجيشه ، ولكن الهزيمة وقعت عليه ، وتقدم اخوه محمد هذا الى فاس فدخلها فى هذه السنة أيضا . ولاول مرة نجد البيعة تعقد بهذا الضريح وسيتكرر ذلك فيما ياتي .

وهكذا تمكن زغودة من فاس ، ثم تجدد القتال بينه وبين أخيه بمكناسة. فانهزم محمد ودخل عبد الله فاسا ، واظهر العفو على أهلها ، ولكنهم قتلوا قائده ابن شعيب . وتلا ذلك قتال وقع بين أهل الطالعة وفاس الجديد ، واستمر القتال حتى سنة 1029 ثم هدات العاصفة مؤقتا بين الطائفتين .

واخيرا خرج عبد الله بجيشه لقتال اخيه مرة أخرى ، فوقعت بينهما معركة عظيمة بوادي بهت ، انتصر فيها عبد الله وفر محمد وتشرد الى ان قتل سنة 1037 غدرا ، من قبل ابن عمه أحمد بن زيدان بالقصبة من فاس الجديد كما ياتي بعد .

ومع هذا النصر فان عبد الله لم يزل فى معالجة أهل فاس يميلون اليه تارة وعليه تارة أخرى ، وفى هذه الاثناء قتل اللمطيون القاضي ابن ابي النعيم ، لميله الى عبد الله ، وكان قتله بالزربطانة . فوقع بذلك شر عظيم بين العدوتين سنة 1032 ، ولم يبق بيد عبد الله الا فاس الجديد .

أما فاس القديم فقد اعتورته الاحداث ، فمرة تحت سلطانه ظاهرا ، ومرة أخرى خارج سلطانه ، كما رأينا من أبي الربيع والمربوع وغيرهما . ولما قتلا قام بفاس محمد بن سليمان اللمطي الاقرع ، وعلي بن عبد الرحمن الذي قتل ابن سليمان المذكور ، وقام أحمد ابن الاشهب مع علي بن عبد الرحمن المذكور فوقعت فتن وحروب . وتلاهما الحاج علي سوسان وابن يعلى ويزرور ومسعود وغير هؤلاء من « السياب » والثوار . فكانت فاس مسرحا للفوضى ودامت الاهوال والفتن بين العدوتين عامة ، وانعدم فيهما

الامن والدعة . وكان اللمطيون بالقرويين يواظبون على قراءة الشاذليـــة بزاوية سيدي رضوان الجنوي ، واعتقد الناس أنهم لا يغلبون لذلك فعمل خصومهم من أهل الاندلس على ابطال قراءة الشاذلية ، وبذلك تمكنوا منهم كمـــا قيـــل .

وهكذا استحكمت الاوهام والخرافات في أهل فاس ، وقد اصبحوا سائمة يسومهم المتغلبون سوء العذاب ، الى ان هلك عبد الله سنة 1032، فخلفه اخوه عبد الملك ، مقتصرا على ما كان له الى ان توفي سنة 1036 وظل حكم فاس بيد ابن الاشهب حتى قتل سنة 1046 وهو يصلي بجامع القرويين .

وبالجملة فان فاس لم تمر عليها حقبة من الفوضى بمثل ما كانت عليه تحت حكم هذا الامير المشئوم كأبيه على الدولة عامة وفاس بصفة خاصة. وقد جعلها عاصمة دولتـــه .

ومن آثار عبد الله بفاس القبة الواقعة على خصة المنـــارة بجامـــع القرويـــن .

أما في مراكش فانه في سنة 1073 بويع عبد الملك بن زيدان . فثار اخواه الوليد واحمد ، ولما هزمهما فر احمد وقصد فاسا كما تقدمت الاشارة الى ذلك فدخلها واقام بها ومعه زغودة متسما بسمة السلطان . وقد ضرب السكة باسمه ، ولكنه سرعان ما اخذ وسجن بفاس الجديد على يد القائد عبو وباها ، حيث قضى به سبع سنين . ثم فر منه سنة 1044 فبايعـــه العامة ، ولكن لم يتم له الامر فقتل سنة 1051 رميـــا بالرصاص من بعض العامة بفاس الجديد . .

(يتبـــع)

الربـــاط — محمد ابن تاويت

قصة

زهرة متفتحة

قاسم الزهيري

— على مهلك .. لديك متسع من الوقت قبل ساعة الدخول الى المدرسة . والجو دافىء يدعو لمطارحة الاحاديث العذبة الوديعة .

تابعت سيرها بخطى سريعة ، بعد ما التفتت اليه في كثير من الاستغراب والحيطة . ولم تنبس ببنت شفة .

— ما بالك ساكتة يا زينب ؟ اني أعلم ما انت عليه من خلق قويم . ومن تمام الخلق اجابة الداعي ..

انخلع قلبها لسماع اسمها . وحانت منها التفاتة أشد استغرابا . وتأكدت بأنها لا تعرف مخاطبها . فهمت بمبادرته بكلمة جافية . لكنها فضلت الصمت والاسراع في السير .

— لاول مرة لم تجبني فتاة .. قد يكون لك بعض العذر لانك لا تعرفينني .

ضمت كتبها الى صدرها كانما تجمع أنفاسها ، وغذت في السير . فلاحقها قائلا :

— زمان الامهات ولى ، وحل محله زمان بنات العصر .. جل شابات اليوم عصريات ، لا يعشن فى الماضي والاوهام .. أتبقين وحدك يا زينب تعيشين بأفكار بالية .. وأنت الزهرة المتفتحة ؟

عبثا ظفر منها بجواب . وزادت سرعتها حتى لكأنها تعدو ، وهو يلاحقها .

— تذكري أن الزهرة فى حاجة الى المناخ الملائم والدفء لتنفتح وتينع وتحيى ، والا .. ذبلت قبل الاوان .

قالها بصوت عذب يشوبه النصح والاغواء ..

شارفا المدرسة وقد تحلقت على جنباتها عشرات الفتيات ، جماعات جماعات ، فى انتظار اشارة الدخول . والتفتت زينب تبحث عن جماعتها . فهرولت الى رفيقاتها ، وكأنها تنشد النجاة .. وكانت آخر كلمات انتهت الى سمعها وسط جلبة التلميذات :

— مؤنس .. نعم مؤنس هذا هو اسمي يا زينب . آسف ان كنت ازعجتك . ربما يكون لنا لقاء ..

ولى طريقه ، فيما اختلطت زينب برفيقاتها سلمى واسماء وحرية . وكان ذهنها شاردا وسمعها مليئا بكلمات مؤنس .. تكاد تستظهرها وترن فى أذنها نبرتها الدافئة .. المهدهدة . لاحظت رفيقاتها ذهولها ، فسألنها ما بها . فتملصت بلطف وحولت الحديث الى مشكلة الرياضيات التي كانت مستعصية ، سائلة اياهن هل توفقن الى حلها .

عبثا حاولت تركيز ذهنها في قاعة الدرس .. كان حديث مؤنس يستبد بفكرها . ولاول مرة كانت تشعر بانقباض وديع ناعم في أعماقها . وكلما لمست خديها كانت تلفيهما ملتهبتين على خلاف العادة . كانت تحس بذهول وشيء من الضعف والارتباك كلما انتقلت من فصل الى آخر . فودت لو انتهت ساعات الدرس لتعود الى البيت .. لتتمدد في فراشها ، لتخلو الى نفسها .. الى هواجسها . في كل ثانية كانت تتطلع الى ساعتها في حركة عصبية مستبطئة وقت الخروج .

كانت زينب مشهورة بين رفيقاتها بالجد في التحصيل . لا يلهيها اغراء ، ولا يعشي بصرها بريق مثلما يلهي ويعشي أبصار كثير من المراهقات كانت وسيمة ، ممشوقة القد ، عيناها السودوان تتقدان ذكاء ، وشعرها الفاحم المسدل على كتفيها كبنات جيلها يلمع كلما لاطفته أشعة الشمس . كل لباسها كان يقتصر في الغالب على قميص بني من الحرير الحر يعلوه جيد مستطيل تزينه سلسلة ذهبية رقيقة ، وعلى سروال جميل التقاطيع من الفلانيلة وحذاء عالي الكعب . لم تكن زينب تستعمل المساحيق والاصباغ وأحمر الشفاه ، وانما كانت تكتفي بالكحل قدر ما يتلاءم مع عينيها الواسعتين وعطر ناعم خفيف . ولم تكن من الشابات اللائي يثرن الانتباه ، ولا هي كانت تسعى لاثارة الانتباه . كل ما فيها كان يشعر بالجد، مشيتها ، سلوكها في البيت والمدرسة ، وحتى انتقاءصديقاتهامن القسم الاخير في الطور الثانوي . حيثما كانت تذكر كانت تعطى كمثال .

نشأت زينب في بيت متوسط الحال بين أبوين يحنوان عليها وعلى اختها كنزة وتصغرها بسنتين ونصف واخيها فريد وعمره سبع سنوات . كانت السعادة تخيم على هذه الاسرة الصغيرة ، رغم ما بين الابوين من فوارق في الطباع ورغم دلع فريد الذي فتح عينيه على الحياة بعد خمس عشرة سنة من الزواج والذي كان لا ترد له رغبة . كلا الابوين من أسرة محافظة تعتبر النسب والحسب فوق كل شيء . وهو ما ساعد على انجذاب احدهما للآخر .

كان الاب عبد القادر نجارا تعاطى المهنة من الصغر ، حتى أصبح على رأس معمل يدر عليه ما يكفي حاجة اسرته في غير ما تقتير ولا سعة .

وكان الى مهنته هذه يزاول أعمالا جانبية يجني منها أرباحا اضافية . كان نشيطا موفقا في أغلب الاحيان ، بيد انه كان ضعيف الارادة ازاء الاسـرة ومعارفه . كان يشعر على الدوام بعقدة نقص يحاول التغلب عليها ليرتفـع الى مستوى أقرانه فيحط به تفكيره . وكان كثير الانفعال لشدة احساسه بالنقص . خاصة وأن زوجته صفية كانت تشعره بالضعة وتسفـه آراءه أمام الجميع وحتى أمام أبنائه الذين فقد كل سلطة عليهم . كانت زينـب تلحظ هذا السلوك في أمها فتتأثر وتبذل المزيد من الحنو لابيها كي تخفف ما كان يشعر به من ألم ممض .

أما صفية فكانت معقدة .. تافهة . رغم نشوئها في بيت متواضع ، كانت من النساء اللائي يبهرهن لمعان الحلي والجواهر وحيـاة الترف . تتطلع الى عيش خيفض كله استمتاع . اخذت بحظ بسيط من التعلـم ، فكانت تحسب أن القدر لم ينصفها بزواجها بعبد القادر وهو دونها رأيا ومكانة! فكانت ناقمة على الدوام ، ترى مثلها الاعلى في أزواج قريناتها من كبـار الاثرياء والموظفين . وكانت تغبط صواحبها وتحاول محاكاتهن في المبادل والحلي والفيش . وكانت تستل من زوجها فوق ما يتحمله من المال لانفاقه على زينتها وأثاث بيتها ، حتى تبدو في مستوى الصديقات اللائي اختارتهن من هذا الوسط . كانت توثر اقتناء ملابسها ومجوهراتها من كبريات الدور الاجنبية وأغلاها فتنفق على نفسها وأبنائها بدون حساب . وكانت لا تـرد لهؤلاء طلبا مهما كان ثمنه . خاصة كنزة وفريد . كلما كانت تعطيهم ، كانوا يطلبون المزيد .. في كثير من الدلع .

غالبا ما كان عبد القادر يصل حد الارهاق بحثا عن موارد جديدة ، اذ كانت مداخيله تقصر عن اشباع نهم صفية فيضطر احيانا الى الاستدان . وتوفق في النهاية الى شراء جل أسهم معمل مهم للرخام في نطاق سياسة المغربة ، بعد ما جمع ما يلزم من المال عن طريق تصفية بعض أعماله المبعثرة وعن طريق القروض . فاتسع رزقه ، وخال همومه ولت الى غير رجعة .

صادف تحسن الحالة المادية لعبد القادر تحولا في حياة أسرتـه . رأت صفية في اقبال الدنيا فرصة موابية لاشباع نهمها والظهور بمظهـر البذخ . فأخذت تقتني الرياش والاثاث والحلي وتنفق بغير حساب تداركا

لما فات . أصبح البيت ملتقى معارف جدد من أصحاب الثراء والجـــاه ؛ تقام لهم الولائم والحفلات ، وتبذل صفية قصاراها فى اكرامهم بكل ما لذ وطاب . وحصلت فى البداية مشادات بينها وبين عبد القادر حول مظاهر البذخ التي أخذت تبدو بها الاسرة ، لكن سرعان ما أسلس القياد قبـــولا للامر الواقع على مضض .

— والويسكي .. والنبيذ الابيض والاحمر لما ذا لم تحضره ؟

— كيف ؟ .. ان الخمور لم تدخل بيتنا قط . أنسيت يا صفيــة اننا آلينا على أنفسنا ..

— كان ذلك زمان .. أتظن أن كريم وعلي وفضول من ضيوفنـــا يجتمعون على شرب الحريرة ... وكوكاكولا ؟ قم أحضر ما يلزم .

— نفسي لا تطاوعني .. أنا أقف عند البقال لشراء الخمــور ! .. وأبناؤنا الذين ما شاهدوها فى البيت . لا .. لا أستطيع .

— بارك .. بارك من البهلان . كان الاولى ألا ندعو الضيـــوف . اتريد أن يستثقلونا ويهجرونا مثلما هجروا الذين يجتمعون على الشـــاي وعصير اللوز ؟ . ماذا يهمك ، ما دمت أنت لا تشرب الخمر ؟ .. أحضر ما يلزم .. كل بيوت أصدقائنا فيها نبيذ ومشروبات روحية .. وهم يبتاعونها علانية . لم يبق عيب فى ذلك .

— ابدا .. أنا لا أستطيع . ثم أني لا أعرف حتى انواع النبيذ .

— اذن اتركني لحالي .. فسأزيد ذلك على متاعبي .

وهكذا دخل الخمر الى بيت عبد القادر . وكانت صفية هي التـــي تقتنيه . وأصبحت بالممارسة تعرف الجيد منه ، والرفيـــع من أنـــواع الويسكي وغيره من المشروبات الروحية .

تكاثرت الاجتماعات فى بيت عبد القادر وتزايد عدد المحتسين ، فكان هو يتضايق فى اول الامر من معاقرة الخمر على مراى من ابنائه ، ثم مـــا لبث إن اصبح المشهد مالوفا لديه . كانت القارورات ترفع حالما تنتهـــي المجالس خيفة ان يطرق طارىء من .. المتزمتين ! وشيئا فشيئا غـــدت

القارورات بعض أثاث قاعة الاستقبال . وتحول تبعا لذلك حتـــى نــوع الزائرين ، اذ قلما أصبح يرتاد بيت عبد القادر من لا يعاقر النبيذ .

كانت صفية تحرص على استضافة ذوي الجاه والمال باذلة كل جهد للاحتفاء بهم واظهار آثار النعمة التي أصبحت ترفل فيها . وكانت تلبس في كل مناسبة لبوسا قشيبا وتتحلى بأغلي المجوهرات ، وتقتني أحـدث الاصباغ وأفخر العطور ، وتكاد لا تتخلف يوما واحدا عن أكبر قاعة للحلاقة بالمدينة . وأخذت تبتعد عن معاشرة من عرفوها من قبل حتى قطعت أي ارتباط بجلهم . كانت أوقاتها مليئة بارتياد أكبر مخازن القماش الغاليـــة والرياش وأدوات تزيين البيت والتشاور مع أكبر المزينين في المدينـــة لتنميق بيتها ، والتردد على الخياطات ثم بالجلوس الساعـــات الطويلـــة للانصات لاحدث الاغاني المسجلة تستظهرها وتردد نغماتها مع المغنيـــن والمغنيـــات .

أصبح بيت عبد القادر يلمع من كثرة ما يحتويه من جديـــد الاثـــات والمصابيح والثريات ويرن بأصناف الآلات الالكترونية التي لا تكاد تتوقف حتى ساعة متأخرة من الليل . وغشي البيت جو من المرح لم يعهد من قبل تجلى في حالة صفية التي أعادت شبابها بالتردد على قاعـــات التجميـــل والاسترشاد بآراء أصحابها والمواظبة على الحمية والتدليك ، وكذلك في حالة كنزة وفريد . أما عبد القادر فقد ظل هو هو . وكثيرا ما كان يندهش لهذا التحول الفجائي ، ويبقى غريقا في التفكير في عواقبه .

لم تكن زينب تعير التفاتا لما حولها . كانت تفزع الى حجرتها متضايقة من الصخب الذي يحدثه الضيوف حتى ساعة متأخرة من الليـــل . وفي كثير من الاحيان كانت تبدي الامتعاض من الضجيج ، وتابى الظهور لبعض المعارف الجدد الذين لم تكن تطيق سلوكهم و .. دعاباتهم . وكانت أمها تدفعها لمجالسة الضيوف ، وتود من ابنتها ـ وقد جاوزت الثامنة عشرة ـ أن تتعرف بالاصدقاء الجدد وتوثق صلاتها بهم ، بينما كانت زينب لا تزداد الا انطـــواء .

— ليس لي ، يا أمي ، وقت أضيعه في مثل هذه المجالس .

ـــ هناك وقت لكل شيء .. يكفيك انكبابا على التحصيل .. روحي قليلا على نفسك .. لقد بلغت سن الدخول للمجتمع والتعرف على الناس .

ـــ لا اشعر باي ميل لمعرفة كثير ممن يترددون على بيتنـــا .. تصدر منهم أحيانا كلمات لا تليق و .. نكت يمجها الذوق .. أتذكرين دعابة رؤوف ؟ .. كانت خليعة لحد إشفقت على أبي من سماعها امام انتتــه .. قهقه لها الجميع . لا شك ان معظمهم كانوا ثملين .

ـــ لا تقولي ذلك يا زينب .. رؤوف من أخص أصدقاء العائلـــه ، زيادة عن مكانته فى المجتمع . فهو يمتاز بروح مرحة ، ودعابة بريئة على الدوام . ان مجالسنا تضم الصفوة المختارة من المجتع و ..

ـــ قد يكون .. لكنني افضل حجرتي .

وضعت زينب حدا لهذا الحديث الذي كانت تردده امها مـــرارا على مسمعها . وكانت دائما ترفض المشاركة فى المجالس وتمتنع عن حضور الدعوات التي تتلقاها . وكلما كان الضيوف يسألون عنها ، كانت صفيـــة تعتذر تارة بانهماك ابنتها فى الدرس وطورا بوعكة طارئة على صحتها .

صادف يوم تصدي مؤنس لزينب اقامة وليمة عشاء فى البيت . كانت صفية منهمكة في اعداد أصناف الطعام ونصب الموائد وترتيب الزهريات، فلم تنتبه للاضطراب البادي على وجه زينب . قبلت امها بسرعة وأخبرتها بما تشعر به من اعياء طالبة الا تقدم لها اي طعام ، فهي أحوج ما تكون الى الراحة والنوم . بين أصناف الفراخ واللحوم والاسماك التي كانت صفية تراقب تهييئها فى المطبخ وسط الخادمات ، والبخار الممزوج بالروائـــح الشهية ، اكتفت بهز راسها .

رمت زينب كتبها ، وارتدت منامتها بسرعة ثم ارتمت على الفراش بعد ما القت نظرة خاطفة على وجهها الممتع وقدها المتجرد . كانت فى حالة اضطراب .. حاولت ان تهدىء أعصابها وتستثير النوم . فصورة مؤنس لم تبرح مخيلتها ، وصوته كان ابدا يرن فى سمعها .

ـــ زمان الامهات ولى .. وحل محله زمان بنات العصر .. اتبقين

وحدك تعيشين بأفكار باليه .. وانت الزهرة المتفتحة ! ان الزهـــرة فى حاجة الى المناخ الملائم والدفء لتتفتح وينع وتحيى .. والا ذبلت قبل الاوان .

كلما حاولت ان تطارد صورة مؤنس وتصم أذنيها ، طالعتها صورته وصوته من جديد . أصرت على اقناع نفسها بانه من صنف المراهقين الذين لا هم لهم الا ملاحقة الفتيات . قالت فى نفسها :

— انه منهم لا شك .. ببذلته الانيقه .. بشعره الاجعد .. بوجهه الصبوح .. ببذلته الانيقة .. بنبرات صوته .. يحسب انني ساغتر واقع فى شركه .. لا ، سأكون فعلا أول فتاة لا تجيب نـــداءه . وسيعلـــم ان الفتيات لسن جميعا غريرات .

قضت ليلة مضطربة ، تغفو لحظات ثم تستيقظ مذعورة .. خيـــال مؤنس أمام عينيها وكلماته فى أذنها . ظلت هكذا حتى الهزيع الاخير حين نال الاعياء منها وأسلمها الى اضغاث احلام ! ..

استيقظت زينب متأخرة وهي تشعر ببقية اعياء والتياع . واندفعت الى المدرسة دون فطور او اهتمام بهندامها كالعادة . وما ان وصلـــت الى منعرج الطريق حتى تذكرت مؤنس وحانت منها التفاتة ، فلم تر الا المارة يتسابقون الى أعمالهم وينتظر بعضهم الحافلة . ازداد انقباضها .. وأعادت رجع صوت مؤنس وكلماته . لكنها انتفضت وأجهدت نفسها لنسيان الصورة والكلمات . لم تقو على جمع شتات فكرها مع رفيقاتها وفى قاعة الدروس ، فكانت تطرق وتغرق احيانا فى التفكير . وكلما سألتها رفيقاتها عن موجب اطراقها تملصت برفق . مرت ايام .. وأسابيع على تصدي مؤنس لزينب اول مرة ، فلم يبد له أثر .

— ترى لماذا اختفـــى ؟

هذا السؤال أصبح يستبد بفكر زينب ويقض مضجعها .

— ربمـــا يكـــون لنا لقـــاء ..

كانت هذه آخر كلماته اليها . أيكون قد يئس منها ؟ هل تاثر لعـــدم

ردها على خطابه ؟ هل اعتبر ذا لمكمنها قلة لياقة ؟ قد يكون ! .. ولكن ، ما حيلة فتاة في وضعها ؟ ..

مع مر الايام اخذ فكرها يسبح في أجواء لم تعهدها من قبل .. في حقيقتها ، في وجودها ، في مصيرها . وكلما انتقلـت من جـو الى آخر لاحقتها صورة مؤنس وكلماته . وقامت تساؤلات في ذهنها . هل هي من بنات العصر ؟ ألا يكون فكرها مليئا بالاوهام ؟ أيحق لها أن تبقى منزويـة فتذبل قبل الاوان ؟ أليس مؤنس محقا في قوله لها : « ان الزهرة في حاجة الى المناخ الملائم والدفء لتتفتح وتينع وتحيى » ؟ أليست أمها على صواب حين دعتها للترويح عن النفس وغشيان المجتمع ؟

كلما إمعنت في التفكير ، ساورها الشك في السلوك الذي دابت عليه حتى الآن .. وبدأ تحول في اعماقها ، تجلت آثاره في هندامها وسلوكها . أخذت تعنى بلباسها وتصرف وقتا طويلا امام المرآة في التجمل والتعطـر والاكثار من الاصباغ . وكانت أمها تشجعها على المزيد من التزين . وخفت في مخيلتها حدة الصورة التي ارتسمت لديها لاول وهلة عن مؤنس . كانـت كلما ذكرته التاع قلبها وبدت عصبية لاختفائه . ثم تاقت نفسها للقياه مرة اخرى .. ولو لتمحو من ذهنه صورة الفتاة المتخلفة التي اخذها عنهـا والظهور بمظهر الشابة العصرية المعناة بانوثتها . وطال الغيـاب .. وزاد الحنين .. وكاد الياس ان يحل محل الشوق .

اصبح التحول في حياة زينب باديا للعيـان .. في البيـت ، وفي المدرسة ، وبين آترابها ومن عرفوها من قبل . وهمست الرفيقـات .. وغمزن لهذا التحول دون أن يدري احد بالباعث عليه .. وترددن الشائعات.

— أليست بعد كل شيء في سن التجمل .. مثلها مثل اخدانها من المراهقات ؟ ..

هكذا كان يجيب بعض من طرح عليه السؤال حول تطور زينب . لقد اصبحت تعنى بمجلات الازياء والمراهقين والكتب الخفيفة .. وآنست من نفسها انجذابا للعصريات من رفيقات المدرسة تستفيد من .. تجربتهن وتتبادل الراي واياهن في شؤون المراة والحياة .

— مساء الخيــــر يا زينـــب .

قالها وهو يوقف سيارته الفارغة من نوع « بورش » حتى سمع دوي الحصار . ثم انزل الزجاجة الى النهاية وانحنى مطلا حتى اضحى مواجهـــا لها . كانت الشمس قد أشرفت على الغروب ، والفتاة على عادتهـــا . في طريق العودة من المدرسة بملتقى شارع الزرقطوني لا يفصلها عن البيت الا نحو مائتي متر . وكانت خالية البال بعد مضي سبعة أسابيع على اللقـــاء الذي احدث تحولا في حياتها . لم تتبين وجه المخاطب ، لكنها عرفته من نبرة صوته .. انه مؤنس . تطلعت اليه ودقات قلبها تتزايد .. وقدماها تتعثران .. ووجنتاها الورديتان اشربتا بصفرة خفيفة .. واناملها ترتعش حتى لا تكاد تمسك حزمة الكتب والدفاتر . همت باجابتـــه ، فانحبـــس لسانها .. وواصلت السير ، فلاحقها بسيارته .

— افي مثل سنك ونضجك تتمنعين من مواجهة الفتيان ؟ .. ماذا بك ؟ .. هيا . خذي مكانك بجانبي اوصلك الى البيت .

تطلعت اليه بحذر وتردد .. تفرست فيه لحظات . ثم نظرت حولها ، فالفت الطريق خالية الا من بعض المارة الذين لا تعرفهم ولا يعرفونها . ثم واصلت السير . وآنس منها التردد . فخاطبها .

— كفي تمنعا يا زينب . لسنا باطفال .. ولست بعبعا .

قالها وخرج لتوه من السيارة وفتح الباب اليمنى ورجاها أن تاخـــذ مكانها .. فما شعرت الا وهي بجانبه . تطلع اليها وهو يقود السيارة ببطء. ثم اخذ يطريها على حسن ذوقها في اللباس وعلى اختيار صبغ الجلد والعطر الخفيف الذي يلائم شخصيتها ولمعان شعرها وعنايتها باهداب عينيهـــا واللون الذي اختارته لتزجيج حواجبها ، مما يبرز انوثتها ويزيدها جاذبية.

— انك في الواقع زهرة متفتحة .. وفي عنفوان التفتح .

تعمد ان يعطي نبرة خاصة لهذه الكلمات مظهرا كامل غبطته بصحبة زينب ، بعد ما آنس منها انشراحا لاطرائه وانعطافا نحوه . ثم خلص الى اللقاء الاول وما شعر به ، وكيف قضى كل هذه الاسابيع وهو يحلم بمقابلتها.

لم تبرح ذاكرته لحظة واحدة ولم يسل عنها . واخيرا راى ان يسافر الى سطوكهولم لتخفيف ما كان يحس به من لوعة الجفاء الذي قوبل به . فلم يزد البعد الا الهابا لنار الشوق . وعاد مدفوعا بقوة هائلة .. حتى وجـــد نفسه دون شعور فى طريقها .

اقتربا من البيت ، فبادرها مؤنس :

— قبل ان نفترق عديني بلقاء جديد .. ساكون غـــدا فى نفس الوقت قرب المدرسة .. موافقة ؟

انطبعت على شفتيها ابتسامة الرضا .. ففتح باب السيارة وخرجت مرجفة ملوحة باشارة خفيفة اليه واتجهت الى بيتها ، فيما كان يؤكد عليها بلهجة الواثق من نفسه : الى الغد ..

شتان بين اللقاء الاول واللقاء الثاني . ان زينب تشعر اليوم بغبطـــة واطمئنان وميل الى مؤنس . تفرست فيه وهي بجانبه فالفتـــه وسيما ، رقيق الملامح ، وآنست منه حلو الحديث ، والذوق المهذب . قصـــدت حجرتها ووقفت امام المرآة ، فايقنت انها كما وصفها مؤنس ، وكما لـــم ينبهها احد الى مفاتن انوثتها .. ابتسمت لصورتها واحست بشعور السعادة طوال الليل واليوم الموالي ، لم تن عن التفكير فى مؤنس . واستبطـــات الموعـــــد .

مرت ايام واسابيع .. واصبح مؤنس وزينب يلتقيان فى كل مناسبة. لم يبق بهما حاجة الى كتم مواعدهما . ياخذها من باب المدرسة ، وتصحبه انى شاء .. وفى ايام الاجازة . بل كانت احيانا تتخلف عن المدرسة .. لم تبق بها قابلية لمتابعة التحصيل . وتجلى ذلك فى نتائج امتحانها .

اصبحت موضوع احاديث اترابها فى المدرسة وبعض البيوت مـــن معارف العائلة . واندهش الجميع لسقوط زينب فى شرك مؤنس .. هذا الشاب المدلع ، الابن الوحيد لاحد سراة المدينة . دللته اسرته منـــذ الطفولة ، فنشا فى اليسر والبذخ لا ترد له رغبة ولا تقصر يـــداه عن اي شيء ايا كانت قيمته . ما عرف ابدا سوى الجانب السهل من الحيـــاة ، فان عرضت له صعوبة ذللها ابواه .. حتى حسب الدنيا مفروشة زهورا

وورودا . غادر المدرسة مبكرا ، وانكب على دور اللهو لا يخرج من احداها الا ليدخل أخرى . هوايته ارتياد المقاصف ومشاهدة الافـــلام المثيـــرة والخليعة . أصبح حلس نساء يتزين ويتعطر لاصطيادهن .. يستعين على ذلك بسيارته الفخمة والمال الذي لا يكاد ينضب من يـــده .. وكلمـــات معسولة تغر الفواني الفريرات ، حتى اذا قضى وطره من احداهن انتقل الى أخـــــرى .

هامت به زينب ، فلم تعد تسلو عنه .. وكانت اختها كنزة .. مثل الكثير من صواحبها .. تعلم علاقاتها بمؤنس . لكنها كانت تخفي كل شيء عن أبويها ، وحتى عن أمها التي كانت لاهية عن أبنائها بحياتها الاجتماعيـــة الجديدة . وكان عبد القادر مشغولا على الدوام بادارة أعماله .. منهـــوك القوى بجمع المزيد من المال لسد حاجات العائلة . والآباء آخر من يعلـــم بالتحول الطارىء فى حياة بناتهم ومصيرهن .

الربـــاط قاسم الزهيري

أضحية العيد
في أدب الغرب الإسلامي

محمد المنوني

فـن الفكاهة من الموضوعات التي عرفها الادب العربي فى المشرق والمغرب على السواء ، غير أن الغـرب الاسلامي : الاندلس وشمـال افريقية ، تميز — حسب المعروف لحـد الآن — بلـون من هـذا الادب يتـناول كبش الأضحية : قربـان العيد الكبير .

ومرد هذه الظاهرة — فيما يبدو — الى ما يشير له العبدري (1) ، من تطرف المغاربة فى الاهتبال بنسك الاضحية ، وهو اهتمام سرى الى أدبهم ، فترددت أصداؤه مع كبش العيد : فى شكل مقامـة أو رسالة ، وتارة على ميزان الشعر الفصيح أو القصيدة الزجلية .

وتدور موضوعات هذا اللون الفكاهي على عرض مشاكل النسيكة السنوية ، ليتخلص الكاتب أو الشاعر لاستجداء كبش الاضحية ، وقـد يأتي هذا الاستجداء دون سابق مقدمات ، بينما يبتعد أديب معاصر عن هذا الاتجاه ، ليستبدله ببث مشاعره نحو المناسبة ذاتها .

ومن هنا فان هذا النوع من الادب ، يرسم صورة لمجتمع الغرب الاسلامى ، فى فترة تتجدد كل عام مع اقبال شهر ذى الحجة .

* * *

وحسب نص موضوعي فان هذا الادب عرف من القرن الهجري الخامس ، وبدأ ظهوره بالاندلس مع الادب الشعبي فى زجل يغلب عليه الطابع القصصى ، ليكون نسك العيد بطل الرواية .

وكان سابق الحلبة هو الزجال ابن راشد (2) ، غير ان الذي برز فيه هو امام الزجالين بشبه الجزيرة : ابو بكر بن قزمان : محمد بن عيسى بن عبد الملك القرطبي ، المتوفى عام 554 هـ (3) .

ويأخذ كبش العيد من ديوانه قسطا مهما يصل الى سبعة ازجال (4) ، وباضافة هذا العدد الى زجل ابن راشد فى الهدف ذاته ، يستنتج ان الموضوع صار شائعا بين هذه الطبقة من شعراء الاندلس (5) .

* * *

وفى عصر ابن قزمان بدأ الشعر الفصيح يزاحم الزجل فى اتجاهه ، ويظهر على المسرح الشاعر « الابيض » : ابو بكر محمد بن احمد بن محمد الانصارى الاشبيلى ، المتوفى بعد عام 525 هـ (6) ، وقد نظم قصيدة يستجدي بها كبشا على مغالاته فى بعض ابياتها ، ومنها فى مخاطبة العيد :

. . . وقد اعددته ذبحا كريما
لـيومك والزمان به شحيح

زعيم حظيرة من ءال ضان
له فى قومه نسب صريح

ترى أوداجه تبدي نجيعا
كأن ضحى النهار به جريح . . .

طويل الروق مكحول المنافي
اغر بمثله فدي الذبيح

ولو يفدى به عثمان قوم
لكان لهم به الثمن الربيح (7)

وجاء بعد الشاعر « الابيض » ابو الحسن بن خروف : على بن محمد بن يوسف القيسي القرطبي ، المتوفى ـ بحلب ـ عام 620 هـ (8) ، وهو يستجدى خروفا فى بيتين مهذبين هكذا :

يا من حوى كل مجد
بجوده وبجده

اتاك نجل خروف
فجد عليه بجده (9)

وبعد ابن خروف نشير الى نص منثور جاءت صياغته على أسلوب « مقامة العيد » ، من عمل الاديب الغرناطي : عبد الله بن ابراهيم بن عبد الله الأزدى ، المتوفى عام 750 هـ (10) .

* * *

ومن الاندلس ينتقل هذا اللون الفكاهي الى شمال افريقية ، ليجد مكانه فى أدب المغرب الاقصى وتونس .

وبالنسبة للمغرب ، يبتدىء هذا الاتجاه ـ حسب النصوص المعروفة ـ مع اواخر القرن الهجرى الحادى عشر ، فى قصيدة مصدرة برسالة من انشاء الاديب الفاسى : عبد الله بن عبد السلام بن حمدون جسوس ، المتوفى عام 1136 هـ (11) .

وهو يبعث بها الى عميد الزاوية العياشية أبى محمد حمزة بن أبى سالم العياشى (12) ، ويعرضها فى خيال عابث ، ليخاطب فيه بدويا رشحه أول الامر لحمل مراسلته الى المعنى بها ، ثم بدا له فاستبدل الحامل برسول آخر ، غير انه ترك القصيدة على وضعها الاول ، حيث يتركز جوها الفكاهي على العبث بالرجل البدوى ، وتشخيصه فى ملبسه وخلقته وسلوكه ، ولهذا يأتي افتتاح القصيدة :

يـا لابـس المـقـرهـط والمـلـبـس المـخـطـط
يـا صـاحـب الخنـيـف والـبـرنـس الـكـثـيـف

والقصيدة لا تزال طويلة ، حيث يصل عددها الى 41 بيـتـا . وسيرد نصها مع رسالتها عند الملحق الاول (13) . على أن نعقـب ــ هنـا ــ بالاشارة الى قصيدة عيدية للاديب العربي بن عبد الله بن أبي يحيى المسارى ، المتوفى صدر المائة الهجرية : 13 (14) .

وقد قدمها لامام مدينة وزان ابي الحسن على بن أحمـد الحسنى اليمحلى الوزانى (15) ، وصاغها فى اسلوب مرح يقول فى مطلعه :

مـولاى : هـذا الـعـيـد قـد اراه جـا
والقلـب مـنـه حلـف شجـو وشـجـا

لا درهـم لا نـصـفـه فى الـكـيـس
قـد عـمـنى الفـقـر بـلا تـلـبـيـس

فى عشرة أبيات على هذه الوتيرة ، حيث ستكون موضوع الملحق الثانى (16)

وعلى مستوى الشعر الشعبى ، ينـظم زجـال مغـربى قصـيـدة موضوعية ، وهو يعرض فيها الاتعاب التى قاساها للحصول على كبش الاضحية ، حتى اذا ساقه الى البيت ، أخذت ربـة المثـوى تفحصه ، لتكتشف ــ فى النهاية ــ عيبا يشين النسك الذى تبين أنه صغير الاذنين . وهنا تثور المأساة ، وتلح سيدة الدار على تعويضه ببديل تـام الخلقة . فيصر الزوج على صلاحية الاضحية وتماميتها ، وينشب الجدال ، ويتطور الى خصام صارخ يتدخل فيه الجيران والاقارب لوضع حـد للنـزاع . وأخيرا ينهزم المسكين ، ويستسلم للامر الواقع ، فيعود للسوق . ويبيع مشتراه المعيب ، ليستبدله بكبش سليم يستقبـل فى البيـت بالارتيـاح والـولاول (17) .

* * *

والآن يصل بنا المطاف الى تونس الخضراء . حيث استمـر بـهـا هذا اللون من الادب حيا حتى العصر الحاضر ، وقـد نشر منـه قصيدة

زجلية بعنوان « خروف العيـد » ، من شعـر الزجال التونسى حسين الجزيرى ، ونشر معها شبه مقامة عيدية تحت عنوان « حديث الخروف » . حيث يسجل كاتبه ــ الصادق مازيع ــ احاسيسه نحو هذه المناسبة (18) .

— 1 —

قصيـدة عبد الله جسـوس

تـتـصـدرها رسـالتـهـا

يـا من لـه فى الـفـضـل مـرتـبـة
ومـنـصـب أوجـب تـشـريـفـه

لمـا خـلا الكـيـس وقـيـت الـردى
كتـبـت ارجـو مـنـك تصحيـفـه (19)

سيدى : الذى اشتاقت العين لرسالتـه ، والاذن لسجعـه وقافيتـه ، اشتياق الاولى لطلعته ، والثانية لدعابته ونكاهته .

نظرت فيمن يوصل عنى لمقامكم السامى ، فلم أجد غير ءات يوسى من جنس الحيوان الحساس النامى (20) ، فكتبت معه أخاطب سيادتكم واداعبه ، واحليه بما يناسبه ، واصفه بذلك الملبوس ، الذى هو فيـه مدسوس ، فاعذر الحال ، ولا تستدل بلطافته على صاحب المقال .

ثم يا سيدى : بعد ان جرى القلم بتسويدهـا ، ونقـش وجنـة طرسها (21) ، بنقص (22) مددها ، والقلب ــ اذ ذاك ــ متردد فيها : أن تكون ثانية لصحيفة المتلمس ، فيلقيها والزاد اذا فطن لمـا هو بـه متلبس (23) ، ظهر من يتوجه لجهاتكم السنية ، ويخص برحلته زاويتكم العلية ، فآثرت لها جهة التأمين ، وانما تحسن القوافى بالتمكين ، فنزعتها منه بعد أن باتت عنده ، وقلت اجتجبى منه يا سودة (24) .

فأخبرنى ــ أعزكم الله ــ كيف تلكم السيادة ، التى لم يـزل فيض نيلها ــ والحمد لله ــ فى الزيادة ، وكيف هى مع تقلب الزمان وتلونه ،

وتشكله فى عدد اطواره وتزينه ، وما حالها بعد السيد الوالـــد ، الذى لو جاز الفداء لفدى بالطارف والتالد ، ولو أمكـــنت المدافعة والكفـــاح ، لشرقت دونه بالدم صدور الرماح ، لاكن قضاء الله وما شاء فعل ، وكل شيء عنده الى اجل .

نـــعـــد المـــشرفـــيـــة والـــعـــوالـــى
وتـــقـــتـــلـــنـــا المـــنـــون بـــلا قـــتـــال

والموت أمر حتم جرى به المقدور ، وما الحيـــاة الدنيـــا الا متـــاع الغرور ، ولاكن ــ والحمد لله ــ ما ضاع من خلف مثلـــك ، ولا تغرب من ملك فضلك ، فسقى الله ذلك الضريح ، واسكنه من جنانه الروض الفسيح ، فما هو مصاب عليكم قد هجم ، ولاكنه بنيان قوم تهدم ، وحيا الله هاتيك الشمائل ، التى لم يزل القلب لها ــ أبدا ــ مائل .

ردت عـــوارفـــه علـــيـــه حـــيـــاتـــه
فـــكأنـــه من نـــشرهـــا مـــنـــشـــور

هذا : ولو ارسلت عنان القلم للتابين ، لتلجلج (25) العنان ، وربك اعلم بما فى الجنـــان .

ســـلام وتـــســـلـــيـــم وروح وراحـــة
عليـــه ونضنـــاض من العفـــو ينســـج

فمـــا كـــان الا روض علـــم وحكـــمـــة
لـــذا قبـــره من طيـــبـــه يتـــارج (26)

ثم أنهى لسيادتكم ــ بعد الاتحاف بالسلام ، وتقبيل السلام (27) ، وبعد تسطير ما اقتضاه المقام والحديث شجون ، من أحوال السيد الذى أنشبت به اظفارها المنون ــ هذه المباسطة ، وان لم يكن بيـــنها وبين ما قبلهـــا رابطة ، لتكون مضحكة مفكرة ما جددت من ذكـــر البين ، حتى يكـــون الانسان بين بين ، والله اضحك وابكى ، واليه ــ سبحانه لا لغيره ــ المشتكى ، فأرعني سمعك وانجز المطلوب ، وعجل بالهبـــة عند وصول

المكنوب ، واسمع ما خاطبت به ذلك الرجل الظريف ، ووسمت به نكرته عند التعريف ، وان جهلت عليكم ففضلكم يحملنى ، وبفضل الطرف يجاملنى ويماطلنى ، ونصه :

يا لابس المرهط ... والملبس المخطط

يا صاحب الخنيف (28) ... والبرنس الكثيف

يا قارنا للثور ... مع بنات العير (29)

وسائقا لمثله ... فى عقله وجهله

لو كنت تدرى طرسى ... مزقته بالخمس (30)

يا من غدا اضحوكة ... بهذه الألوكة (31)

ان جئت ارض الزاوية ... ذات المعالى الزاهية

ابلغ عميد الحى ... عنى يا غير شى

رسالة ظريفة ... وتحفة لطيفة

وسر بها يا المعى ... فى ثوبك المرقع

تحكى نظام الاصمعى (32) ... فقف معى معى معى

يا ثانى المقوقس (33) ... يا شيخ كل مفلس

يا مشبها للتيس ... يا لابس التليس

يا واحدا فى جنسه ... يا سائقا بعرسه

يا مغمدا فى الصوف ... كالكبش والخروف

يا عاقدا للتاج (34) ... فى حلة الديباج

ناد به عبدكم ... يطلب صنوى منكم

فارسل له بلا توان ... بحق جدى كروان

كبشا كحيل العين ... املح ذا قرنين

وان يكن ذا أربع — فحبذا من مصنع
يسلم مما قد ذكر — من عيبه فى المختصر (35)
من عرج وهرم — وبتر وبشم
وان يكن مخصيا — مثلى فقل هنيا
اياك تعطى الأعجفا — فتفتدى ممن جفا
حب التناهى غلط — خير الامور الوسط
لو كان فى الكف نشب — البسته تاج الذهب
لا تنسه فى الموسم — فهو اليكم ينتمى
فانني مع عدمى — لو كنت رب غنم
اعطيته ما طلبا — وفوق ما قد رغبا
تبا لدنيا تضبع — كل سر وترفع
كل دنبى اخرق — حتى يرى كالبيدق
لاكنني ذو فاقة — سريعة الافاقة
لا عين لى فى الخمس (36) — سوى التى فى الراس
نابعث اليه يا سعيد — اضحية ليوم عيد

* * *

واكتب لعابد السلام — يا بن الأيمة الكرام
والله يبقى مجدكم — وفضلكم وسعدكم
وقد وصلتم عمرا — وخالدا وبكرا
وحقكم وحقكم — وبقديم حبكم

لهو اشد حاجة ممن قضيتم حاجه
وفضلكم يحملني وبمرادى ينعتني (37)

* * *

تمت اهديكم سلام في طيبه مسك الختام

— 2 —

القصيدة المسارية

مولاى هذا العيد قد اراه جا
والقلب منه خلف شحو وشجا

لا درهم لا نصفه في الكيس
قد عمني الفقر بلا تلبيس

وما به الفؤاد زاد غما
وشمل الحزن به وعما

أن العباد كلهم قد اشتروا
أكباشهم لعيدهم كما اشتهوا

وكل دار كبشها قد بعبعا
وجدرانها بذاك زعزعا

ومنزلى بينهم اخوبكم
بذا عليه عدم المال حكم

فـجـد على مـحـبـك المـسـارى
من ذكـره قـد شـاع فى الاقـطـار

بما بـه ينـتـاش من كبـش سمـين
للحمـه لـون كـلـون الـيـاسـمين

وان تـرد تـزيـل حـزنـى أجمعـه
فـزد لنـا قيـمـة الابـزار مـعـه

والله يبـقـيـك على طـول الـدوام
تعطى لنـا كبشـا سمـيـنا كل عـام

الـربـاط : **محمد المـنـونى**

الـتـعـالـيـق

(1) « المدخل » ، المطبعة المصرية بالازهر ، ، ج 1 ص 284 .

(2) « الزجل فى الاندلس » للاستاذ الدكتور عبد العزيز الاهواني ، مطبعة الرسالة بالقاهرة، ص 56 ـ 57 .

(3) هذا هو تاريخ وفاته الذي اثبته ابن الابار ، حسب « المقتضب من كتاب تحفة القادم »، المطبعة الاميرية بالقاهرة ، ص 42 .

(4) « الزجل فى الاندلس » ، ص 78 .

(5) المصـدر الاخيـر ، ص 81 .

(6) هذا هو تاريخ وفاته الذي يثبته ابن دحية فى « المطرب من اشعار اهـل المغرب » ، المطبعة الاميرية بالقاهرة ، ص 76 ، حيث يسمي الشاعر الابيض بمحمد بن احمد ونفس‌الاسم ورد عند ابن سعيد فى ((المغرب)) ج2 ص127 ، ثم عند مؤلف ((نفح الطيب)) ، المطبعة الازهرية المصرية ، ج 2 ص 286 ، ومن هنا يعلـم غلط صفـوان بن ادريس حيث يسميه باحمد بن محمد فى « زاد المسافر » ص 66 .

(7) القصيدة بتمامها فى زاد المسافر ص 67 ـ 68 ، ويحسن أن يعلق بها على ما ورد فى كتاب « الزجل فى الاندلس » ص 81 ، من استنتاج مؤلفه أن كبش العيد لم يكن لـه محل فى قصائد الشعراء الاندلسيين .

(8) اختلفت مصادر ترجمة ابن خروف فى تاريخ وفاته ، فابن الابار يجعله عام 620 هـ ، حسب « التكملة » رقم 1894 ، وابن سعيد فى « الغصون اليانعة » ص 139 : عـام 604 هـ ، وفى كتابه « المغرب » ج 1 ص 139 : عام 610 هـ ، وعبارة ابن عبد الملك : فى نحو العشرين وستمائة ، « الذيل والتكملة » رقم 673 ، وسناخذ بالتاريـخ الذي اثبتته « التكملة » : 620 ، ونلغي ما عند ابن سعيد لاضطرابـه فى كتابيـه نفسـه ، وايضا فان ابن الزبير يذكر عن ابي الخطاب بن خليل : انه لقي ابن خـروف بسبتـة

بعد عام 610 هـ ، حسب « صلة الصلة » ع 232 ، أما رواية ابن عبد الملك فلا تتسم بالتدقيق الذي عند ابن الأبـــار .
ويجب ان نفرق بين ابن خروف الاديب الذي نعلق على تاريخ وفاته ، وبين ابن خروف النحوي ، وقد تناولته بالترجمة مصادر عديدة من بينها « تكملة » ابن الابار رقم 1884.

(9) « زاد المسافر » ص 20 ، ويذكر ابن القاضي ان المخاطب بهذا الشعر هو القاضـي ابن اصفار ليلة عيد الاضحى ، « جذوة الاقتباس » ، نشر دار المنصور ع 548 .

(10) نشر نصها وقدم لها : الاستاذ الدكتور أحمد مختار العبادي ، في « صحيفة المعهد المصري للدراسات الاسلامية في مدريد » : المجلد الثاني ، العدد 1 ـ 2 ، سنة 1954م، واعاد نشرها في مجلة « دعـوة الحـق » : السنـة السادسة ، العـدد السـادس ، سنـة 1963 م .

(11) ترجمته في « سلوة الانفاس » ج 2 ص 15 .

(12) ترجمته في « الاحياء والانتعاش . في تراجم سادات زاوية آيت عياش » ، لعبد الله ابن عمر بن عبد الكريم العياشي ، مصورة خ. ع ، د 1433 ، والزاويـة العياشيـة صارت تعرف بزاوية سيد حمزة : في اقليم قصر السوق ، على بعد 60 ك. م. جنوب مدينـة مدلـت .

(13) تحتفظ بالقصيدة ورسالتها ، ورقة ضمن « كناشة » بخط حمدون بن محمد الطاهري الجوطي ، مؤلف « تحفة الاخوان ، ببعض مناقب شرفاء وزان » .

(14) ترجمة في « الابتهاج ، بنور السراج » لابي العباس أحمد بن المامـون البلغيثـي ، مطبعة محمد أفندي بمصر ، ج 1 ص 5 ـ 14 .

(15) انظر عن مصادر ترجمته محمد المنوني : «مظاهر يقظة المغرب الحديث» ، ج 1 ص 180، تعليـق رقـم 1 .

(16) القصيدة وارد ضمن « مجموعة اشعار » للمساري ، يحتفظ باصلها استاذ بمدينة وزان

(17) هذه القصيدة الزجلية لم أقف على نصها ، وأفادني بمضمونها ناظر احباس وزان ، الاديب المجامل السيد امحمد الطراري ، أوائل ذي الحجة عام 1393 هـ أواخر دجنبر 1973 م ، ولا أزال في انتظار وعده بتزويدي بنسخة من « الزجلية العيدية » .

(18) نشر مع القصيدة الزجلية ، في مجلة « الثريا » التونسية ، السنة 1 ، العدد 1! ص 19 ـ 23 .

(19) تصحيفـه كبـش .

(20) اشارة الى تعريف المناطقة للحيوان : بانه الجسم النامي الحساس .

(21) الطرس بكسر أوله : الصحيفة عموما ، أو التي محيت ثم كتبت .

(22) هكذا ولعل الاصل بنقيض مدادها .

(23) المتلمس شاعر جاهلي اسمه جرير بن عبد المسيح الضبعي ، وصحيفته رسالـة حملها من عمرو بن هند امير الحيرة ، ثم فتحها فاذا فيها الامر بقتله ، فقذفها في نهر الحيرة وفر الى الشام ، وقال :

القـى الصحيفـة كـي يخفـف رحلـــه والـزاد حتـى نعلـه القاهـــا

انظر «الاغاني» ، مطبعة التقدم بمصر ج 21 ص 125 ـ 127 .

(24) تلميح لحديث : « احتجبي منه يا سودة » ، انظر القصة في « صحيـح البخاري » وشرحه : « فتح الباري » ، الطبعة الاولى بالمطبعة الكبرى الميرية ، ج 4 ص 250 .

(25) محو في الاصل بمقدار ما يوازي فقرة السجعة الاولى .

(26) والد المخاطب المعني بهذا التابين ، هو أبو سالم العياشي ، وكانت وفاته ضحوة

الجمعة 18 قعدة عام 1090 هـ ، حسب ترجمته من فهرس الفهارس ج 2 ص 211–213،
ومن هنا نستنتج – على وجه التقريب – توقيت الرسالة التي نعلق عليها ، رغما عن
خلوها من التاريخ .

(27) فى « لسان العرب » : السلامي – بضم السين – عظام الاصابع فى اليد والقدم .

(28) اخنيف اسم البرنوس من الصوف فى اللهجة الاطلسية ، فذكر البرنس بعده من عطف التفسير ، حتى يتضح مدلول التعبير الامازيغي فى قصيدة عربية .

(29) العير بفتح العين الحمار الاهلي او الوحشي .

(30) الطرس الصحيفة ، والخمس أصابع اليد .

(31) الرسالة .

(32) جاء عند القفطي فى انباه الرواة ، بانباء النحاة ، ج 2 ص 201 : « وقيل لابي نواس: قد اشخص أبو عبيدة والاصمعي الى الرشيد ، قال : أما ابو عبيدة فانهم ان امكنوه من سفره قرأ عليهم أخبار الاولين والاخرين ، وأما الاصمعي فبلبل يطربهم بنغماته » ، ولمدلول هذه الفقرة الاخيرة تلمح القصيدة بنظام الاصمعي الذي لم يعرف له شعر ذاتي قوي .

(33) فى القاموس : المقوقس طائر مطوق طوقا سواده فى بياض كالحمام .

(34) العمامة .

(35) يشير للمختصر الخليلي ، حيث ذكر عيوب الاضحية ضمن الفصل الخاص بها .

(36) لا نقد حاضر فى يدي .

(37) هذه الابيات الستة تنتقل لموضوع اقتراح جديد يهم والد الشاعر : ابا محمد عبد السلام جسوس الامام الشهيد المترجم فى « سلوة الانفاس » ج 2 ص 14 – 15 .

م.م.

الشاعر و مأساة الكلمة

د. صالح الأشتر

من يدرى ما سر الكلمه
وصراع الحرف مع الظلمه
ليصوغ بها الشاعر حلمه ؟

* * *

الكلمة باب مرصود
والحرف اله معبود
والليل ظلام ممدود
والفجر الوحى المنشود
والشاعر فى قلب الظلمه

شحاذ يستجدى الكلمه
ليصوغ الشعر بها حلمه

* * *

شيطان الكلمة يغوينى
بالحرف ، بسر التكوين
وسراب الفكرة يغرينى
بالخلق ، وسهد يضنينى
فعيونى تأكلها الظلمه
ولسانى يبحث عن كلمه
ليصوغ الشعر بها حلمه

* * *

الكلمة جوع للأبد
يستنزف حبات الكبد
وسهاد ممدود الأمد
اذ ليلى موصول بغدى
أيامى تمحوها الظلمه
والعمر تجارب للكلمه
ليصوغ الشعر بها حلمه

الكلمة تنهش أعصابى
فى الليل كصل منساب
وبمخلب حرف أو ناب
تمتد فتوقظ أوصابى
فتسيل جراحى فى الظلمه
ويعب دمى وحش الكلمه
ليصوغ الشعر بها حلمه

* * *

بصراعى للحرف العاتى
ولهاثى خلف الكلمات
لأصب لها عطر دواتى
أدركت حقيقة مأساتى
فعيونى هدى للظلمه
وأنا قربان للكلمه
لكن أدركت بها ذاتى !

فاس

د . صالح الأشتر

الشاعر عاصم بن زيد التميمي
أبو المخشى

د. عبد السلام الهراس

« هذا الجزء الثاني من البحث المنشور فى مجلة « الثقافة المغربية » عدد (9) سنة 1393 هـ / 1973 م التي كانت تصدرها وزارة الثقافة ، وقد انتهينا فى الجزء الاول الى تحقيق نهائي لكنية الشاعر التي هي أبو المخشى وليست آبا المخشي ولا آبا الحسين ، وقد قادنا هذا الى الاطمئنان الى أن شاعرنا هو والد الشاعرة الاندلسية الاولى حسانة بنت عاصم التميمية وبذلك لم تعد حسانة بنت أبي الحسين ، كما ورد محرفا فى نفح الطيب بل ابنة ابي المخشى . وهذه النتيجة أضفت على بحث أستاذي الدكتور الياس تيرس حول علاقة الشاعرة بأبي المخشى ما لا يستحقه من قيمة علمية اذ له الفضل فى اثارة الانتباه الى هذا المشكل بحس علمي مرهف حاد ويقظ كما نوهنا بذلك فى ترجمتنا لبحثه المنشور بـ ((دعوة الحق)) .

كما فصلنا القول بالجزء الاول من حياته محاولين استخراج بعض الخطوط والعناصر المرتبطة بهذا مما تبقى من بقايا النصوص التاريخية والشعرية !

فى هذه التتمة نتناول شاعرية أبي المخشى » .

كان أبو المخشى شاعر بني امية بالاندلس ومدح ثلاثة امراء : عبد الرحمن ، وهشاما ، والحكم ، خلف فيهم قوافي المدح الشاردة ، والى جانب ذلك كان يقرض الشعر فى ميادين أخرى كالهجاء ووصف حياته

الجديد ، وبكاء بصره وأسرته ، ولكن شعره ضاع ولم يبق لنا منه الا النزر اليسير لا يتعدى أشلاء قصيدتين وستة أبيات وقد أوردنا سابقا شعره في مدح سليمان . والبيت الذي هجا فيه أبي هبيرة ، والبيتين اللذين وصف فيهما زوجته الثكلى ، التي اضطرت لاعالته ونضيف الى ذلك قوله : (1)

وهم ضافنـــي في جـوف ليـــل كلا موجيهمـا عنـــدي كبيـــــر
فبتنـــا والقلـــوب معلقـــــات واجنحة الريـــاح بنـا تطيـــــر

وقولـــه : (2)

هما معهد الى العيش حتى كأننـــي خفية زفت بين قادمتـــي كســـر

واطول ما وصلنا في شعره مقدمة ، صنعها في مدح عبد الرحمن ، وكان هذا التمهيد في وصف عماه وهو قوله : (3)

خضعـــت ام بناتـــي للعـــــدا اذ قضى اليه بامـــر فمضـــــى
ورات اعمـــى ضريـــرا انمـــــا مشيه في الارض لمس بالعصـــا
فبكت وجدا وقالـــت قولـــــة وهي حرى بلغت مني المـــــدى
ففؤادي قـــرح مـــن قولهـــــا اذ ما من الأدواء داء كالعمـــى
واذا نـــال العمى ذا بصـــــر كان حيا مثل ميت قـد ثـــوى
وكان الناعـم المســـرور لـــم يك مسرورا اذا لاقى الـــردى
عادني بالغرب وهنـــا طـــرب من حلول بين لـــج فالحمـــى
(. . . . .) كيف يعتاد الصبا من لا يـــرى
ابصرت مستبـــدلا من طرفـــه قائدا يسعى به حيـث سعـــى
بالعصا ان لـــم يقـــده قائـــد وسؤال الناس يمشي ان مشـــى

واذا ركـــب دنـــوا كان لهــــم   هوجلا فى المهمه الخرق الصــوى

لم يزل فى كل مخشى الـــــردى   يصطلي الحرب ويجتاب الدجـــى

امتطيناهـــا سمانـــا بدنـــــا   فتــركناهـــا نضـــاء بالعنــــا

وذريني قـــد تجـــاوزت بهــــا   مهمها قفرا الى أهـــل النــــدى

قاصدا خيـــر منـــاف كلهــــا   ومناف خير من فوق النــــدى

ويقول عنها ابي الخطيب بانها طويلة .

ذلك كلما وصلنا من شعر أبي المخشى أما أكثره فقد ضاع كما ضاع جل التراث الاندلسي . وان هذا الضياع لا يسمح لنا بان نكـــون فكـــرة شاملة ، او نصدر أحكاما دقيقة عن شعره ، وان كان لتلك العينات القليلة التي التقطتها بعض المصادر واحتفظت لنا بها تتيح لنا بان نتعرف بعمـــق التعرف على بعض الملامح الفنية لشعر ابي المخشى :

فاننا امام شاعر مداح ، يسير فى ركب الدولة الحاكمة ، يسجـــل انتصاراتها ويحمل على اعدائها ، وهو داخل هذا النظام يميل بعواطفـــه لجانب دون آخر وان مدحه لا يتعدى تلك المعاني التي كانت متداولة من شعر المدح بالمشرق من اشادة بشجاعة الممدوح ووصفـــه بالسماحـــة والندى ، وقد ركز الشاعر هنا على بعض تلك المحاسن والسجايا بمناسبة المعركة التى انتصر فيها جيش الامير الاقوى الذي كان لسليمان فيهـــا دور البطولة فقد هجم على اعدائه ليثا هصورا ، يعمل فيهم السيف غيـــر متراجع ولا مضطرب ، فى موقف يضطرب فيه الابطال ، وقـــد خلفهـــم سفه طعمة للذئاب تقيم على جثثهم اعراسها ، وفريسة للنسور تنشب فى جثثهم مخالبها . ولا شك انه كان يسير على نهج القدمـــاء فى تركيـــب القصيدة من مقدمة طللية الى ذكر الفيافي والقفار الى التخلص الى المدح، وقد حافظ على هذا الشكل رغم اختلاف الموضوع بالنسبة للقصيدة التى مدح بها عبد الرحمن اذ مهد لها المقدمة مستمدة فى واقعه المرير حيـــث بكى فيها بصره . وصف آلام زوجته واسرته . ثم وصف رحلة الناقة الى

الممدوح حتى اذا استوفى وصف جوانب الرحلة وما لاقاه ، وهو الاعمى فى عناء ، تخلص الى المدح الذي كان الهدف الاسمى والقصد المتوخـــى فى هذه الرحلة الطويلة المضنية :

قاصدا خيـر منــاف كلهــــا ومناف خير من فــوق الثــرى

على الرغم من ان احد بني مناف هو الذي سمل عينيه وقطع لسانه ، ولكنها الرغبة فى العطاء وحب المال الذي أذل رقاب الرجال !

وبما له من مدائح كثيرة وقوافي شاردة فى بني أمية اطلــق عليـــه (مادح بني امية) وهو ايضا هجاء.. وقد كان هجاؤه من النوع البــذىء السافر ولذلك يصفه بعض من ارخ له بانه مقذع الهجاء ، سريع الشنآن ، هتاكا للحرم ، لا يرعوى عن تناول اعراض نساء أعدائه وامهاتهم افاكا كثير الخصوم والاعداء ، ذا سمعة سيئة ، لا يعدم متظلما منه ، وداعيا عليـــه وذاكرا له بالسوء وهو مع ذلك يستهزىء بالجميع غير مبال بذا ولا بذاك ما دام مطمئنا الى حماية امير قوي شجاع .

وان البيت الوحيد الذي تبقى من هجائه الكثير ليدلنـــا على نـــوع هجائه وأسلوبه كما يفسر لنا كثرة الشكوى منه والدعاء عليه والكيد له ، والبيت الذي لدينا من هجائه هو قوله :

سالت وعند امـك من ختانــي بيان كان يغني عن سؤالـــي

ردا على ابن هبيرة الذي عيره باصله النصراني قائلا :

اقلفتك التي قطعـت بشــوش دعتك الى هجائي وانتضائــي

فهذا هجاء من شواظ وحميم وجواب سافل ، ولكنــه مسكــت ومناسب لتساؤل عدوه ابن هبيرة ، ولا يخلو من روح النكتة على فحشها ، ولا شك ان كثيرا من هجائه كان من هذا النوع الذي كان يشفي به غيظــه وانحرافه وحبه للتسلط وفى نفس الوقت يرضي اميره او اسياده المترفين

المستهترين الذين كانوا يسخرونه سلاحا فى وجه اعدائهم وخصومهم ، وفى الوقت نفسه يجدون فى شعره تسلية لهم .

وان صح البيت (5) الذي ينسب الى الشاعر فى شان حول هشام فان ذلك يدل على مدى جرأته واستهتاره وتهوره وغروره . يقول فى البيت الذي يمدح فيه سليمان ويلمز فيه هشاما :

وليس كمثل من أن سيم عرفا   يقلب مقلة فيها اعورار (6)

وهو لقطة هزلية كاريكاتورية بليغة الاستهزاء شديدة السخرية .

وهكذا يمكن ان نستنتج من هذين البيتين - زيادة على اقوال المؤرخين - أن هجاء أبى المخشى كان يعتمد على المخشى اللاذع والتصوير الهزلي الساخر مستغلا أعراض خصومه وعاهاتهم ، ويبدو انه ما كان ليتورع عن تسجيل أبشع ما يملي عليه شيطانه ، ولعله كان فى ذلك متأثرا بمعاصريه من شعراء المشرق ممن يحترفون الهجاء ويخصصون له قصائد ، ويستخدمونه لاغراض سياسية أو شخصية ، وقد تميز أسلوب شعرهم بالفحش والكشف عن العورات وهتك الحرم والسخرية والهزل ، وما كان أبو المخشى الا من غزية ... ولكنه أدرك بعد تدمير سعادته بسمل عينيه أن انسياقه مع هوى الآخرين فى سبيل المال والكسب هو الذي أودى به ... وافقده نور عينيه (7) واجمل نص فني لدينا من انتاج الشاعر هو تلك القطعة الخالدة التي وصف فيها عماه وعرض خلالها لقطات من ماساته وماساة أسرته ، وقد ضاع كثير من اشعاره فى هذا الموضوع . وهذه القطعة هي جزء من قصيدة طويلة موضوعها الرئيسي المدح ، وبذلك تكون القصيدة ذات تركيب ثلاثي : المقدمة - التخلص - الغرض الرئيسي - والجديد فى القطعة ان المقدمة اتخذت موضوعا لم تعهده المقدمات الشعرية العربية من قبل . فلسنا هنا ازاء مقدمة طللية أو غزلية أو فخرية أو طبيعية أو محتوية على شكوى الدهر او فراق الاهل والاحباب وانما كانت المقدمة ذات موضوع جديد يمتاز بالصدق الواقعي لانه نابع عن تجربة قاسية تعرض لها الشاعر وعاناها اشد المعاناة وعاش آلامها وويلاتها

طوال حياته وما انفكت تثقل حياته بظلال قاتمة جعلته يعيش فى ظلام مفزع داخل نفسه وخارجهـــا ...

ويرى إستاذي الدكتور احمد هيكل أن موضوع وصف العمى سمـة تجديدية تميز ملامح الشعر الاندلسي وتجعله ذا شخصية مستقلة بحيث لا نعد الاندلسيين مقلدين للمشارقة تقليدا تخفي وراءه شخصيتهم ، وبعد أن يورد القطعة يقول (8) :

((فهذا الموضوع جديد لم يطرقه شاعر قبل ابي المخشى فيما نعلم)) ولكن يبدو ان أبا المخشى مسبوق فى هذا الموضوع ، فقد بكى صالـــح ابن عبد القدوس المتوفى سنة 167 هـ بصره ووصف ماساة عماه كما ان للشاعر العباسي أبي يعقوب العزيمي مقطوعات جميلة فى وصف مأساة فقد بصره ، ولأبي الشيصي المتوفى سنة 196 هـ مراثي فى عينيه (9) .

فشكل القصيدة شكل تقليدي ، كما ان الموضوع غير جديد ولكـــن الجديد هو اتخاذ موضوع وصف العمى ورحلة العمى تمهيدا للمدح ، وقد اكتسبت هذه المقدمة لقيمتها الفنية صفة الموضوع الرئيسي ، وتداولتها المحافل الادبية فى المغرب والمشرق ، فابن الخطيب اقتصر على نقلها مع بيتين فقط للمدح كما ان عباس بن ناصح انشدهما على مسامـــع ابـــي نواس ببغداد الذي طرب لها ! !

والقطعة غنية بالصور الموحية ، وبالاحساسات العميقـة بالماساة ، وقد تناول الموضوع تناولا فنيا رائعا ، اذ عرضه عرضا يتراءى أنه شريط موضوعي خارجي عن نفس الشاعر ، ولكنه فى الحقيقة مزج بين الذاتيـة والموضوعية مزجا بارعا كان أقوى ايحاء واشد تاثيرا فى النفس ، فنحن لا نرى المشهد الا من خلال رؤية الزوجة المكلومة مما يوحي الينا بمـــدى عمق الاسى فى نفس الشاعر ، ومضاعفة الالم فى اعماقه واحساسه بالماساة المزدوجة ، ماساته هو ، وماساة زوجته التي ثكلت بصر زوجها وفقدت رعايته وحمايته وشخصيته القوية ، واصبحت عرضة للشماتة والاهانـــة والضياع لا سيما وهي مثقلة ببنات لا يقدرن على دفع ظلم أو اخذ ثار ومن

رزق بنات من مجتمع مختل كان أكثر استهدافا للطغيان وأكثر عجزا عن مواجهة الاعتداء ، وليت للمأساة مخرجا أو وراءها أملا ، ولكنه قضاء الله الصارم الذي لا مرد له ، انه قضى بهذه المأساة التي لا نهاية لها . فقد انقض الظلم على عينيه كالنسر الكاسر ليقتلعهما وسرعان ما اختفى وراء الآفاق بعيدا بعيدا مخلفا ظلاما فى المحاجر وحلوكة في الاحياء مما ملأ نفس أم البنات بيأس مقلق ، ومرارة شديدة أمام عجزها عن التخلص من حياة ذليلة مستسلمة ومن التعرض لسخرية أعداء زوجها ، وما أكثرهم ، وهنا يبتدىء عرض الشريط الذي يعكس لقطات منتقاة من حياة الاعمى مع أسرته ، ومع الناس ، ومنفردا ، وعبر رحلة شاقة ... في أسلوب بسيط ولكنه قوي الايحاء جعلنا نشارك بعمق آلام زوجته ، ونشاركها مشاهد من حياة زوجها الجديدة ، حياة مشلولة مضطربة ذليلة ، زوجا اعمى صبورا على مقاساة شدائد الحياة وشرور الناس متعثرا فى مشيه يرتاد بالعصا مواقع لاقدامه التائهة ولكنه لا يطمئن اليها فيتوجس منها خيفة أن تكون خدعته حاسته .

ورأت أعمى ضريرا انما مشيه فى الارض لمس بالعصا (10)

وهذا التعبير يعكس زيادة على المظهر الخارجي للاعمى الحالة النفسية المضطربة التي يعانيها هذا الاعمى الجديد الذي لم يتعود بعد المشي على هدى حاسته الجديدة : العصا .

وصورة أخرى بسيطة ولكنها عميقة الدلالة ... تلك التي تتمثل فى مشهد الزوج الذي يفقد عينيه فيضطر الى الاستعانة ببديل عنهما أو بقائد يقوده ويسعى به في الطريق كيفما شاء ، وعلى النحو الذي يريد ، دون أن يكون له – أي الاعمى – قدرة على التحكم في خطواته واتجاهاته ، وانما يستسلم له استسلاما لا يخلو من توتر داخلي ، وقد يفقد القائد ، لسبب أو لآخر ، فيعتمد فى مشيته على العصا فلا تغنيه عن سؤال الناس خشية التيه والضلال . ومشهد آخر للاعمى وهو يتعثر فى مشيه عبر رحلة طويلة وشاقة محفوفة بالمخاطر ، وقد يدنو منه ركب فيحاول مرافقتهم

ويجهد نفسه لمسايرتهم ولكن تعثره يزداد فيثبط القوم ويعوقهم عن السير الحثيث ، وفي ذلك حرج له ، اذ لا يقدر على معارفة الجماعة سيما والطريق وعر المسالك مخوف الشعاب ، وفي ذلك ايضا احراج لرفاق الطريق الذين يجتازون قفارا شاسعة وفجاجا قاسية تبعث على السير السريع لقطع المرحلة الصعبة ولكنهم لا يستطيعون الاسراع ، لان الرفيق الاعمى عائق دون الوصول الى غايتهم مع قدرتهم على الدنو منها ... ولهذا كانت رحلة الاعمى سلسلة من المخاطر والاهوال تتهاداه أمواج الظلام ، وتتربص به الاخطار خلال الطريق الطويل الشاق ، فهو اذن يغامر بنفسه وحياته بعد أن غامر بنور عينيه اذ يخشى التهلكة ويقطع القفار وكأنه في حرب ضروس يصطلي بنار جحيمها . ولكننا نفاجأ بما يصدم احساسنا القوي اذ يقع من سماء الفن الرفيع الى حضيض المدح كاي مكتسب يبرع فى الاثارة ليفتضح أمره بعد قليل عندما يفعل مثل فعل هذا قائلا :

قاصدا خير مناف كلها ومناف خير من فوق الثرى

وهذا النوع من التخلص قد استعمله شعراء من قبله واعتبره النقاد من أجزاء تركيب القصيدة العمودية ولكن شاعرنا لم يوفق فى أسلوب التخلص ، انه هنا مقلد غير مبدع ، وفشله ناشىء من أمرين ، من ربط ماساته بالتكسب والمدح ومن تقليده لهذه الوسيلة دون أن يمنح من شاعريته الاصيلة للابداع فى هذه المرحلة من مراحل تركيب القصيدة ، لينسق بين أجزائها تنسيقا فنيا لا يحدث اضطرابا وتخلخلا ، وقد شوشت على احساسنا الفني كبوته واضطرابه وفتات من مشاركتنا اياه احزانه ومشاعره المكلومة ...

ورغم هذا فان مقطوعة أبي المخشى تمتاز عن المقطوعات التي أشرنا الى أصحابها سابقا بالتصوير الايحائي وبالتعبيرات الجميلة التي تتدفق بالاحساس العميق وبالعواطف السابقة الملتهبة ، وبالحزن اليائس ولعلها لذلك اعجب بها أبو نواس وعلق عليها بقوله : هذا الذي طلبته الشعراء فاضلته (11) .

ويهمنا أخيرا ان نشير الى بعض آراء القدماء من شعر عاصم بن زيد فابن شهيد يرى أن الشعر ابتدأ بأبي المخشى ، وختــم بابن دراج (12) ويقول عنه في مكان آخر :

« انه قديم الحوك والصنعة عربي الدار والنشأة وهو مــن فحــول الشعراء المتقدمين » (13) ويقول ابن عبد الملك المراكشي (14)

« كان شاعرا مطبوعا ، حلو الالفاظ ، بارع المعاني » ويقــول ابن الخطيــب (15) :

« كان شاعرا مجيدا شهير المكان ، بعيد الصيت على عهــده ، وكان غزير القول ، حسن المعاني ، كثير النادر ، سبط اللفظ ، فاغتدى شاعر الاندلس ومادح بني أمية المخلف فيهم قوافي شعر المديح الشاردة »

فــــاس — د . عبد السلام الهراس

هــوامـــــش

(1) جــــذوة الاقتبـــاس
(2) المقتبـــــس 377
(3) الاحاطة 352 وردت الستة الابيات الاولى في الذيل و / ت 184 واربعة ابيات في أبـي القوطيـــة
(4) المغـــرب 2 / 123
(5) الاحاطـــة والمغـــرب
(6) طبقـــات النحـــاة 285
(7) أحمد هيكل : الادب الاندلسي ص 83 – 84
(8) اتجاهات الشعر العربي في القرن الثاني ص 175 – 177 انظر بروكلمان تاريخ الادب العربي ج 2 ص 17 – 19 – 69
(9) الضرير : الصبور على مقاساة الشد والشــدة
(10) الزبيدي : طبقات النحاة ص 285 أبو القوطية ص 59
(11) جــذوة المقتبس 258 ونعني الملتمس 356
(12) جــذوة المقتبس 377 بغية الملتمس 356
(13) التنزيــل والتكملـــة 5 / 102
(14) احاطـــة ص 351

هذا وقد اهتم به من المعاصرين أساذي الدكتور أحمد هيكل وأستاذي الدكتور الياس نيرس . وهذا البحث البسيط هو تحية احترام واعتراف لهما .

قصة

حكاية العائد من التيه

أحمد عبد السلام البقالي

حسـبـنـاه سرابـا ..

لاح لنـا فى البداية نقطة باهتـة فى أفـق الصحراء المائـج بقيـظ الظهيرة .. ولم نرد التوقف والاستراحة رغم لفح الهجير اللاهب المهـدد بالفناء ، حتى نستطلع حقيقة أمره .. فحثثنا جمالنا على الركض نحوه ، وخضنا اليه عبابا من السراب تتلاطم امواجه حتى نظن أننا أشرفنا على شاطىء المحيط ، ويهدأ ماؤه وينحسر فيتحول الى بحيرات زيتية راكدة ، ثم الى مروج متناثرة آسنة ، فمرايا مكسرة ما تلبث أن تتراقص لتختفى تحت وهج الشمس .. وتعود احقاف الرمال السرمدية الى الظهور ..

واقتربنا من هدفنا بعد جهد مضنى فاذا النقطة الباهتـة فى الافـق تتحول الى رجل لفظته أمواج الصحراء على شاطىء تلك الواحة نصف ميت ، كادت تغيبه الرمال ، وقد تشققت شفتاه ، واحترق جلده واسود ، وتجعد وجهه ، وخبا بريق عينيه وكأنه قادم من عالم آخر ..

وتذكرت ، وأنا اقطر الماء فى حلقـه الجاف ، ما قالـه الاولون عن الصحراء من أن داخلها مفقود ، والخارج منها كأنه مولود .

ولم يدر بخلدى ما كان يحمله ذلك الجسد الفانى من اسرار محيرة حتى عادت اليه الحياة .

وعدنا به الى الواحة حيث كان مخيم بعثتنا فقدمنا له بعض الاسعافات الاولية وتركناه يستريح فى ظل نخلة . .

كان قد سقط عدد استثنائى من القتلى والجرحى ذلك اليوم من جراء كمين نصبه اليمنيون لدورية مصرية فى احدى الممرات الجبلية .

وكنت انا ضمن البعثة الانثروبولوجية العربية التى وقعت بين نارى الجيشين المتقاتلين ، فكنا كثيرا ما ننسى عملنا فى البحث العلمى لنصبح بعثة طبية لاسعاف الجرحى من الطرفين بصفة استعجالية ريثما يصل هيليكوبتر المستشفى العسكرى الذى كان كثيرا ما يتعرض للقصف من الارض فيتأخر او يتخلف . .

ولحسن الحظ كان من بين اعضاء البعثة طبيب لم نكن نعتقد أن الحاجة ستدعو الى خدماته الطبية بدل خبرته الانثروبولوجية .

ومع هبوط الليل ، سكتت المدافع النائية عن القصف ، واستراحت الرشاشات والبنادق فى شعاب الجبال ، وعادت الطبيعة الهائلة الى هيمنتها الازلية على المنطقة برداء من الظلام الصامت البارد . .

وتذكرت الرجل الذى عثرنا عليه فى جولتنا الصباحية ، فذهبت لتفقد احواله صحبة الطبيب فوجدناه ما يزال فاقد الوعى . .
وبعد فحص دقيق أعاد الطبيب السماعة الى عنقه ، ومط شفته السفلى وحرك راسه فى استغراب . ونظرت فى عينيه متسائلا فقال : « هذا الرجل لا يمكن ان يكون حيا . . ومع ذلك فقلبه مايزال يدق . . بضعف شديد ، ولكنه ينبض . . »

لم يكن جنديا . كان يبدو من قميصه وجبته المهلهلتين ، ولحيته الكثيفة الشعثاء ، وشعر راسه المتهدل الأشيب ، انه جاء من بعيد — ظل هائما على وجهه فى صحراء الربع الخالى دون زاد ولا ماء مدة

طويلة . . وما كان ليبقى حيا تحت تلك الظروف الا بمعجزة ،٠أو برغبة عارمة فى الحياة ، أو ارادة فولاذية ، أقوى كثيرا من المـوت ، تسعى الى تبليغ رسالة فوق كل اعتبار شخصى . .

فمــن أيــن جــاء ؟

وجاءنى صوت الطبيب ليوقظنى من تأملى :

« هل يمكن أن يكون جاسوسا من رجال المظلات ضل سبــيله ، وهــام على وجهــه ؟ »

فقلت : « ربمــا . . » دون اقتــنــاع .

ونقلناه الى خيمة ، وحقنه الطبيب بمصل مقوى دون أن تبدو منه حركة استجابة لوخز الابرة ، وخرج متأكــدا أن الرجل لن يصبــح على قــيــد الحيــاة . .

واحكمت غطاءه ، وأوصيت الحارس أن يخبرنى اذا بدت منه أيــة حــــركـــــة .

ولتعبى تلك الليلة لم استطع النوم . . فخرجت اتمشى بين الخيام اجاذب الحرس اطراف الحديث واصطلى بنارهم من حر الصحراء .

وتغير الحرس فى الهزيع الثانى من الليل وأخذتنى سنة من الكرى فأغفيت . . ولم اشعر كم طالت اغفــاءتى حين احسست بيــد تحركنى لتوقظنى ، وصوت هامس يقول :

ــ استــاذ . . استــاذ . .

فانتفضت داخل عبــاءتى :

ــ مــــــاذا ؟

ــ الرجــل تحــرك . . بــــدا يفيــق . .

فنهضت على عجل وتوجهت نحو خيمته ، فوجدته يتقلب فى فراشه ويهذى طالبا النجدة بوجه جاف جامد ، وعينين غائرتين فارقتهما الحياة . .

واستطعت ان اقطر فى حلقه بعض الحساء الدافىء فبـدا يهـدا . .
وسرى الدفء فى احشائه فأخذ ينـتعش . . ورايت على ضوء المصباح المعلق بعمود الخيمة بريقا ينبعث من عينيه فاستبشرت خيرا . .

ونظر الى وجهى مدة وكأنه لا يبصر . . ثم ما لبث أن تركزت بؤرته على ، فمد نحوى يدين مرتعشتين اخذ يتحسس بهمـا تقاسيم وجهـى ليتأكد من انه ليس حلما او سرابا . .

وفتح فمه ليتكلم فلم يخرج من حلقه الا فحيح مبحوح . . كان يحاول ان يقول لى شيئا يبدو من الرعب الذى يسيطر عليه انه اهم كثيرا من حيـاتـه هـو . .

لم يكن يريد ان يعرف اين هو ؛ ولا من نحن . . وكأنه كان يريـد ترك وصية ثمينة او تبليغ رسالة من السماء لاهل الارض ؛ ولأى كان . .

وظننت انه فقط يهذى بحمى الصحراء . . وان وعيه الحقيقى لم يعد اليه بعد . . فقد سبق ان رايت كثيرا من هذه الحالات بين الجنود الهائمين حين تعثر عليهم الدوريات وتعود بهم الينا . .

وتكلمت لأطمئنـه :

لا بأس . . لا بأس عليك . . انت الآن خارج منطقة الخطر . .

وتنهد تنهدا عميقا وهو يجول داخل الخيمة بعينيه ؛ وكأنه يمتـص الأنس البشرى الذى افتقده طويلا . . فقلت :

— من اين اتيـت ؟ وماذا اصابـك ؟

فوضع يدا مجعدة هزيلة على يدى وقـال :

— اسمع يا ولدى . . اريد ان اقول لك كل شىء قبل ان اذهب . .

فتساءلت مستغربـا :

— الى ايـن ؟

— الى قبرى . . موتى لم يعد يحتمل التأجيـل . .

فضغطت يده بين يدى مطمئنـــا :

ــ لا تخف الآن . . لقد وصلت شاطىء النجاة ، وكتبت لك السلامة .. غدا يأتى الهيليكوبتر ويأخــذك الى المستشفى . . ســترى . . فحــاول الا ترهق نفســك الآن . .

فاغمض عينــيه وحرك راســه :

ــ ارجوك ، لا تقاطعنى . . لن ارتاح حتى اخبرك بما عندى . . فقد ضاعت كل أوراقى وسجلاتى النفيسة . . اخذها الاعصار . . الاعصــار المدمر العاتى الذى اتى على كل شىء . . سبــع سنــوات من العــرق والاجهاد والاحلام . . ذهبت ادراج الرياح . . انشقت الارض دون انذار وابتلعتها . . حتى رجالى . . رايتهم بعينى هــاتين يحاولون النجــاة . . يقاتلون للهروب من الغرق فى دوامات الرمال ويصرخون ملء حناجرهم ، وهم يختفون . . يا الهى ما اشد الرعب الذى كان فى عيونهم وهم يختفون فى بلاعات الرمل . . وليس هناك امر من الشعور بالعجز عن انقاذ صديق او مخلوق بشرى يستغيث وهو بين فكى وحش الموت . .

وبكى بحرارة وحرقــة . .

واحترمت حزنه المبرح . . فقد كانت علامة تحسن فى حالته النفسية .. وفجأة توقف عن النحيب ، واخــذ يكفكف دموعه بكفيــه ، فناولته منديلا مسح به وجهه ، وعاد الى كأنما تذكر شيــئا مهما للغاية انســاه ايــاه حدث عــارض . .

ووضعت وراءه سرجا ووسادة فتماثل للقعود رغم وهنه . . واخرج لسانه فبل شفتيه المشققتين وهو يستجمع قواه الذهنية ويبــذل مجهودا كبيرا لتركيز افكاره ؛ وبــدا :

ــ المهم . . اريدك ان تسجل كل ما سأقول . . هل معك ورق وقلم ؟ فتناولت دفترا وقلما ، وتصنعت الاهتمام فقال :

« لا ادرى من اين ابدا . . »

فقلت : « احسن مكان هو البداية . . »

فقال : « صدقت . . صدقت . . »

قلت : من انت أولا ؟ وما اسمك ؟

قال : اسمى منذر آل نبهان . . الدكتور آل نبهان . .

فقلت : انت اذن من اهل هذه المنطقة . . ومن عائلة كبيرة . .

فرد : نعم . . ولكن هذا لا يهم الآن

فسألت : قلت انك دكتور — دكتور فى ماذا ؟

فأجاب : فى الانثروبولوجية والآثار . . انا عضو فى الجمعية الملكية الانثروبولوجية بلندن . . منذ صباى وانا عميق الاحساس بأن شيئا عظيما يكمن تحت رمال صحراء الاحقاف . . شىء أثمن من البترول والكنوز . . انت تعرف ان هذه المنطقة غنية بالاسرار . . والطبيعة هنا ضنينة بأسرارها لا تكشف منها الا النزر اليسير كل قرن من الزمن . . هذه المنطقة هى مهد الحضارات الانسانية الاولى كما لا يخفى عليك ؛ عاد ، وثمود ، وءارم ذات العماد ، وسد مأرب ، والسيل العرم ، وسيف ابن ذى يزن . . لا بد ان يكون تحت الرمال عالم مدفون صامت يجب كشفه لينطق بتاريخ هؤلاء . . واستولت على رغبة جامحة فى اكتشاف ذلك السر حتى كادت تصبح امتلاكا أو استحواذا سحريا . . ولم أجد فى جميع ما قرأت عن المنطقة اثناء دراستى الجامعية ما يشير الى ما كنت أحسه . . رغم انه كان دافعى الوحيد الى دراسة الانثروبولوجية . . كان شعورى أقرب ما يكون الى وحى ، هاتف أو رؤيا من التقاط الحاسة السادسة . .

وقاطعته بفنجان قهوة فتناوله وارتشف منه بيدين مرتعشتين ، ونظر الى وانا أضع قلمى على الدفتر دون أن أكتب شيئا ؛ فقال :

— عفوا ، اذا كنت استطردت وابتعدت عن صلب الموضوع . .

فقلت : ما قلته مهم بالنسبة لى . . انا الآخر طالب علم اجتماع بجامعة كولومبيا ؛ والانثروبولوجيا جزء هام من اهتمامى . . وبالمناسبة ، انا هنا لكتابة أطروحتى . . وهذا مخيم البعثة العربية الانثروبولوجية . .

وتهلل وجه الرجل وهو يقول :

ـ اذن لا حاجة بى الى مقدمات . . فنحن نتكلم لغة واحدة . .

وارتشف من القهوة مرة اخرى وزاد :

ـ رغم حصولى على درجة الدكتوراه بتفوق من جامعة اكسفورد ، عدت الى الشرق الاوسط احمل شعورا كبيرا بالخيبة والفراغ . . كأننى طبيب كرس حياته كلها للدراسة دون ان يعالج مريضا واحدا . .

وهمت على وجهى أمسح القرى والواحات والاسواق المحاذية للصحراء ، انصت الى رواة الاخبار ، واختلط بقوافل الرحل العائدين من الشمال ، وكأننى مريض يئس من الطب فولى وجهه نحو السحر والشعوذة لعله يجد ما يشفى شعوره بالضياع . . .

واكتشفت ان هناك حاجبا ثقافيا بيننا وبين الغرب حتى فى هذا الميدان العلمى البحث . . يا ولدى . . انهم لا يعرفون عنا ولا عن تراثنا العريق السحيق شيئا . . حضارتنا الغابرة ماتزال بكرا لم يخدشوا حتى قشرها السطحى .

وتعرفت على امراء وحكام المنطقة فكانوا كلهم يتطوعون ، حالما يعرفون هويتى ، بسرد كل ما سمعوه عن اسرار الصحراء وكنوزها الدفينة فى الرمال . . وكل ذلك كان كالحديث عن المردة والاشباح والعفاريت . . كل الناس يتحدثون عنها ، ولكن احدا من الحاضرين لم يرها بعينه . .

وكدت ايأس . .

« ولكن بارقة الامل عادت تداعبنى فيما ترامى الى من اخبار احدى القوافل العائدة من الاحقاف . . قيل لى ان بعض افرادها راوا مدينة قديمة بصقتها الصحراء . . وعادوا منها ببعض النفائس . .

« وايد هذه الاخبار صديق لى فى مصلحة المسح الزيولوجى نادانى بالتلفون من « الظهران » ليخبرنى بانه راى من طائرته شيئا انحسرت عنه الرمال قد يكون ذا اهمية بالنسبة لى . . وزودنى بموقعه بالضبط .

« ولم أرد أن اترك شيئا للصدفة ، فذهبت فى الحال لزيارة شيخ القافلة لأستفسره عن صحة الاشاعة ، ولكنه اطبق كالمحارة . . فتركته واتصلت بأحد رواد قافلته الشباب لاحت لى عليه مخايل الطموح ، واغريته بمبلغ مهم فاعترف لى بأن ما قلته صحيح ، وبأن قافلتهم فعلا مرت خلال بعض الاطلال والخرائب لم تكن هناك من قبل . . ووافق على أن يعود بى من نفس الطريق الذى سلكوه . .

« وفى الحال جمعت بعض الرجال ، وكونت بعثة مصغرة على عجل ، وبدأنا المسير نحو مجاهل الشمال . .

« ومضت أيام من الضرب فى الفلوات والوعور . . وكل يوم اسأل رائدنا الشاب لأتأكد من اننا لم نضل الطريق . .

« وفى اصيل اليوم العاشر وقفنا على مشارف تلك المدينة العائدة من الماضى ، ولن تستطيع تصور عمق تأثرى وانا انظر مسحورا الى شعابها ودروبها واسوارها وسواريها . . فقد كنت احجب وجهى عن الرجال حتى لا يكتشفوا دموعى . .

« وفى فجر اليوم التالى بدأنا العمل الأولى بتصوير المدينة من جميع الجهات بتفصيل دقيق

ثم بدأنا الحفر . .

« وللوهلة الاولى تبين لى اننى امام كشف جديد لم يعثر عليه احد قبلى منذ البعثة الرومانية التى قادها « ايليوس غالوس » سنة 24/25 قبل الميلاد ، وبادت عن آخرها على شواطىء حضارة جنوب الجزيرة . .

« ولم اجد فى كتب وقواميس المواقع الاثرية ما يشير الى موقعها من قريب أو بعيد . .

« والتهب حماسى . . وقررت ان انطلق من نقطـــة الصفـــر حتى لا اتيه فى التخمينات والافتراضات واعلنت لرجالى اهمية اكتشافنا وتفرده فتضاعفت مجهوداتهم وزاد حذرهم على كل ما يعثرون عليه من قطع . .

« ورويدا رويدا بدات أدرك حقيقة رائعـــة هى اننى عثـــرت على بقايا حضارة انقرضت قبل التاريخ . .

« وتعددت علامات الاستفهام فى مخيلتى : هل تكون هذه آثـــــار حضارة العرب البائدة ؟

واذا كانت فهل ستجيب عن الاسئلة المحيرة حول اسباب انقراضهم ؟ هل ستبوح باسرار لم تحفظها حتى الاساطير ؟

وطفقت اضع الفروض والنظريات واسعى بكل ما اتقنته من وسائل علمية وتقنية عصرية لاختبارها وبدات الحقيقة الرائعة تنـــكشف امامى يوما بعد يـــوم . .

« وجاء الكشف الكبير يوم عثرنا على مقبرة كاملة من الهياكل الادمية المتحجرة . فمعنى ذلك اننا سنستطيع بالضبط تحديـــد عمـــر العظـــام بالطريقة الاشعاعية الجديدة ، ومع معرفة اعمارها سنلقى ضوءا ولـــو خافتا على بقعة مظلمة من بقاع تاريخ الانسانية المجهول .

« ولم يشغل ذلك بالى مدة طويلة . . فقد استحوذت على فكـــرة اخرى . بل رغبة جامحة فى الكشف عن سبب انقراض هذه الحضارة . .

« وجاء الكشف النهائى يوم عثرنـــا فى دهاليـــز تحت الارض على الواح من البرونز منقوش عليها بخط عربى قديم سجل كامـــل للاحداث الهائلة التى كانت السبب المباشر فى انقراض العرب البائدة . . »

* * *

وتململت فى مكانى لروعة ما كان يقصه على الرجل فى حلكة الليل تحت ضوء خيمتنا الواهن ، وكأننى فى حلم أو تحت مفعول مخدر قوى ، فقفز الرجل ، وكأنه يرانى امامه فجأة أو أنه ضبطنى أنصت الى حديث بينه وبين نفسه . .

وحتى ابرر مقاطعتى غير المقصودة له ، رفعت الابريق عن الموقد ، وصببت له بعض القهوة الخاثرة ، وركزت عينى عليه مستزيدا ، وقلت :

« ماذا كان السبب اذن ؟ »

فأجاب : « فى كلمة واحدة : الرمال . »

« الرمال ؟ ! »

« نعم . . طوفان هائل من الرمال حملتها العواصف والاعاصير ليل نهار مدة طويلة من الزمن . . حتى غطت مدنهم وقراهم واصبحوا بددا هائمين فى الصحراء على وجوههم كقطعان السائمة . . »

فتساءلت مستغربا :

« ولكن لماذا لم يقاوموها ؟ لماذا لم يجرفوها ؟ الم تكن عندهم مجارف ؟ »

« بلى . . كانت عندهم مجارف من البرونز الجيد . . البرونز كان احد اختصاصاتهم الكبرى »

وسكت قليلا ليجمع افكاره ثم استأنف :

« فى الواقع ، لم تكن الرمال هى السبب الحقيقى فى انقراض حضارتهم ، فقد كان فى امكانهم جرفها ، كما اقترحت . . السبب الحقيقى هو . . هو . . كيف يمكن أن اعبر عنه ؟ يمكن أن نصفه بفشل الارادة بالتخبط . . أو البلادة »

ورفع راسه ليؤكد لى ما قال ، وكأنه الآن فقط عثــر على السبب الحقــيــقى :

« فشل الارادة . . واحباط العزيمة . . العرب البائدة لم يكن ينقصهم شيء من القوة أو الذكاء أو الحماس . . ولكن ، كما استنتجت من الالواح ، كانت تنقصهم القيادة . . ففى البداية تقاعس رؤساء عشائرهم عن العمل واكتفوا بالاختباء فى انتظار ركــود الاعاصير . . وحين لم تفلــح سياسة الانتظار ، ولم تهدأ العواصف ، ولم تتوقف الرمال ، بــل تقدمت داخل الشوارع واقنية المنازل ، واثقلت السطوح بأكوامها ، وغمرت الضواحى فلاذ سكانها بالفرار واللجوء الى دروب المدينة . .

« ولما لم يستطع رؤساء العشائر تجاهــل اصوات الاحتجاج على تقاعسهم عن تحصين المدينة من الطوفان ، انضموا اليهم وقــادهم نحو المعابد حيث قدموا صلواتهم ودعواتهم للآلهــة ، واوقدوا لها الشموع ، وقدموا القرابين لتدفع عنهم زحف الرمال ، وتسكت ولولة الاعاصير . . »

ولم اتمالك من مقاطعته بالسؤال :

— ولكن لماذا لم يستعملوا المجارف ؟

فحرك رأسه أسفا :

« لم تعط لهم المجارف . . »

— ولكــن لمــــاذا ؟

« يظهر أن المجارف كانت تستعمل فى ذلك الوقت كنوع من السلاح فى الحروب . . وكان رؤساء العشائر يخشون أن تستعمــل ضدهم . . فبرعوا فى اختراع الحلول الا الحل المباشر والطبيعى والوحيد . . فقد كانوا يتجنبونه بمهارة عجيبة كان السكان يضحكون لها ويصفقون فى سخريــة مــــــرة . »

قلت : ولكن ، الم يدركوا خطر الرمـــال ؟

فرفع راسه ومط شفتيه :

« لا ادرى . . المهم ، هو انه فى ذلك الجو المشحون بالخوف والقلق والضياع تكاثر عدد المشعوذين والمتنبئين والعرافين يبيعون الطمأنينة والاحلام ، ويتاجرون فى الامانى والآمال مقابل النزر اليسير الذى تبقى لسكان المدينة . .

« واستمر عصف الرمال وطغيانها على اسوار المدينة . . وتحرك الناس غارقين فيها الى ركبهم ثم الى خصورهم . . ولم يعودوا يحضرون الصلوات . فقدوا الثقة بجدوى الآلهة والمشعوذين . .

« وفجأة ترددت اشاعة قوية وسط المدينة عن زعيم شاب جاء بفكرة عظيمة لمكافحة الطوفان الرملى عن طريق بناء مجرفة هائلة تكتسح الرمال عن المدينة كلها فى رمشة عين ؛ وصفق الناس للخبر وتناقلوا رسوم الآلة التى كانوا يطلقون عليها اسم المجرفة أو الكاسحة العظمى على الواحهم وراوا تصميمها على الجدران والابواب فعمت الافراح فى المدينة . . وغطت هتافات السكان زئير العواصف ، لاول مرة ، بحياة المنقذ الاعظم الذى تحدى الشعوذة بسلاح العلم . .

وخطب القائد الشاب فى جماهير المدينة المتجمعة تحت شرفة دار الرئاسة بصوت مجلجل مؤكدا :

« ان المجرفة آتية لا ريب فيها . . وسوف ترونها تمتص بأفواه عظيمة تلال الرمل وتقذف بها بخراطيمها الهائلة خلف الاسوار . . ستجوب الشوارع والدروب ليل نهار لتنظف الزوايا والاركان من آخر ذرة من الرمل . . وفى النهاية ستتوجه بمراوحها العملاقة لترد العواصف المسعورة على اعقابها . . وتعود الخضرة والنبات ، وتبتسم لمدينتنا الحياة . »

« وحين هدأت الهتافات والتصفيقات رفع احد الصغار صوته سائلا :

« يا حضرة القائد الهمام ، ولكن مـــاذا سنفعل حتى يتـم بنـــاء المجرفـــة العظمى ؟ » .

« ووقعت على راسه وقفاه ايدى خشنة كثيرة ، وانفتحت فى وجهه افواه بلا اسنان نابحة شائمة وامسك احدهم بأذنه فرفعـــه عن الارض واخرجه من بين الجماهير كفأر ميت .

« وعاش الناس على أمل « المجرفة العظمى » ليـــالى واياما من الامانى اللذيذة ، واحلام اليقظة المعسولة بمستقبل تنحسر فيه الرمال ، وتهدأ العواصف ، وتعود الارض الى اخضرارها ، والمياه الى جريانها . .

« ولم تأت المجرفة . . ولم تهـــدأ العواصف . .

« وغطت الرمال الشوارع وابواب البيوت . . وبـــدأ الناس ينزلون الى بيوتهم من سطوحها فيخرجون حاملين معهم ما قـــل ودل ويهيمـــون على وجوههم فى القفار .

« وذات صباح اكتشف الناس ان المهندسين قد هربـــوا وتبعـــهم رؤساء العشائر . .

« واستطاعت تلة من الغوغاء أن تلحـــق بالزعيـــم الشاب فمزقوه اربا ، وهو يحاول أن يخطب فيهم ، والرمال تملأ جوفه . .

« واكتشف بقية السكان ما حل بهم ، فارتفعت بـيـــنهم اصوات تحاول اختراق الزوابع والعجاج :
« المجـــارف ! المجـــارف »

« وهبت الجماهير نحو خزائـــن المجارف فعثـــروا عليهـــا محطمة مكسرة ، وبعضها صدىء هش المقابض غير صالح للاستعمال . .

« وفى يأس تحركت غرائز حب البقاء بكل مـــازودتها الطبيعة من شراسة وعنف . . وصرخ احد الشباب :

« الواحة ، الواحة ايها الرجال »

« كانت الواحة على مقربة من المدينة ، ولكنها لم تكن خالية من السكان . . كان يعمرها قوم من الافاقين الرحل لم يسمح لهم بدخول المدينة فاقاموا بها . . ورغم تعرضها لنفس الزوابع والاعاصير فقد استطاع سكانها ، رغم قلتهم ، بتماسكهم ووحدتهم ، ان يجنبوها المصير المريع الذى آلت اليه المدينة . فصنعوا المجارف وتناوبوا على جرف الرمال ليل نهار . . ووضعوا فى وجهها السدود والاسوار ، وسنوا القوانين الصارمة ضد المتقاعسين عن الجرف أو المرددين للاشاعات والاراجيف التى من شأنها تثبيط العزائم أو اضعاف المعنويات . . فاحتفظوا بواحتهم يانعة خضراء . .

« وحين اقبل عليهم سكان المدينة فى اسمالهم زائغى الابصار حفاة جائعين قابلوهم بالمجارف واغلقوا فى وجوههم طرق الواحة ، وطاردوهم عن اسوارها ، ونزلوا فيهم ضربا وتقتيلا حتى افنوهم عن آخرهم .

« وغطت العواصف ما تبقى من معالم المدينة . . وانطوت صفحة مزعجة كئيبة من صفحات التاريخ الغابر . . »

* * *

وتنهدت أنا بعمق محاولا ارخاء أعصابى المتوترة لعمق تركيزى على قصة الرجل . . وسألت :

« ولكن لماذا لم تخبر العالم باكتشافك حتى الآن ؟ »

فتنهد هو الآخر قائلا :

« كانت غيرتى وحرصى على كنزى الهائل من القوة والشراسة بحيث كنت اريد التهام كل شىء وحدى . . وحين أتم تصنيف وترتيب كل شىء ، انفجر على العالم دفعة واحدة بكتاب مجيد يهز الدنيا بأسرها وتتردد

اصداؤها قرونا بعد ذهابى . . تماما كما فعل « داروين » بكتابه « اصل الانواع » بعد عشرين سنة من الكد الصامت . كذلك كنت اريـد تقديـم هديتى الرائعة للانسانية . . ولكن نفس العواصف والاعاصير التى كشفت ذلك الكنز عادت بنفس السرعة لتغطيـه . . وغطت معـه كل اوراقى ونتائج بحوثى المضنية » .

ووضع وجهه بين كفيه ، وقد خبا البريق فى عينـيه ، وزاد جلـده انكماشا ، فبـدا لى ككتلة جلد وعظـام . .

وساعدته على التمـدد فى فراشه وغطيتـه جيـدا ، وخرجت من الخيمة استقبل بوادر فجر جديد بدأت حمرته القانية تشق قتـام الافق الـشرقـي . .

واحسست بخدر نـاعم وارتخاء شامل فى بدنى فعدت الى خيمتى واويت الى فراشى ، وفى الحال غرقت فى سبات عميق . .

ولم استيقظ الا على قرع أوانى الافطار ، واصوات نشاط وحركة الصباح ونسماته المنعشة . .

وحول مائدة الفطور جلست احكى بحماس كبـير لجميـع اعضاء البعثة قصة الدكتور منذر آل نبهان ، وهم ينصتـون بانـتـباه وتركيز واندهـاش . .

وفى النهاية نطق الطبيب الذى كان هو الآخر ينصت وعلى وجهـه علامة استفهام لم افهم مغزاها ، فقـال :

ــ هذا غريب

فنظرت اليه متسائلا ، فاضاف :

ــ هذا الصباح ذهبت لفحص الرجل ، فوجدته ميـتا . .

واردت أن اقول شيئا فقاطعنى :

ـ اهم من ذلك انه قضى ميتا ما يزيد عن اثنى عشرة ساعة . .

وشعرت بوجهى يحتقن ، وبالاعين تنتظر شرح موقفى . . اذا كان الرجل ميتا منذ اثنتى عشرة ساعة فمن اين جئت بالقصة الغريبة ؟

وقهقه احد الحاضرين قـائـلا :

ـ قصة مسلية على كل حال ، وشكرا لك عليها

وضحك البقية من مخيلتى النشيطة ، فوقفت احـاول الاحتجاج ، واشكك فى نتيجة فعالية الفحص الذى اجـراه الطبيـب دون جدوى . . كان الجميع قد تركوا المائدة الى أعمالهم ، وبقيت وحدى . .

الربـــاط **احمد عبد السلام البقالى**

الليلة والبعد الواحد

حسن الطريق

يقوم ، هنـــاك ، بأحناء ليلتـــه البارده
وينسج من كل بارقة ، حين تلمع عبر مـــداه ، زداءا
وينسرب الشـــك فى كل خاطرة شارده
ليقتتـــل كل اليقين ويــنـــثره فى العيــون هبــاءا
فيفعـــل ما شاء من دونما أن يشـــاءا
ويصبح فى عثـــير الرمل رملا وفى المحل محلا وفى المـــاء مـــاءا
يبـــيح لنفســـه مـــا لا يـــبـــاح
ويسكب من رهو ليلته ما يظنـــه يـــزرع فى مقلتيـــه الصبـــاح
ويرفض من بعد ذاك الظنون وما يعكس الظل والجرح والحب

ويصبح بعضا من الوهم يقبــع فى الدرب
يعود الى كل ما يتمنى ، الى غير ما يتمنى
ويعشق ليلتـــه ، ثم يعشق ما بعدها ، ثم لا ينـــتهى
أو يـــعـــى أيـــن صـــار وأنـــى
يريـــح ، وليـــس يـــريـــح
ويعبـــث فى دربـــه حيـــنما يمتطـــى أى ريـــح
يســـير الى كل مـــا يجهلـــه
ليشرحه ، ليقيـــم على قبره شاهـــدا
ليصنع من قصة البعض ، كلا ، ليصبح فى بعـــده واحدا !

العرائـــش **حسن الطريبق**

الشاعر الأندلسي

أبو عمر احمد بن محمد بن عبد ربّه القرطبي

(246 هـ - 328 هـ) - (860 م - 940 م)

عبد القادر زمامة

اذا كان يحيى بن حكم الغزال شاعرا اشتهر فى عهد الامارة الاموية بقرطبة فان احمد بن محمد بن عبد ربه شاعر عاش فى عهد الامارة واشتهر فى عهد الخلافة . واذا كان الغزال قد مضى لسبيله . ولم يبق للادب ولا للثقافة العامة الا تلك الاخبار والاشعار المبعثرة فى المصادر التاريخية والادبية فان احمد ابن عبد ربه ترك الى جانب اخباره واشعاره كتابا فى الادب والثقافة العامة دالا على معرفته الواسعة وثقافته العميقة ومشاركته الفعالة فى تحريك دولاب الحياة الادبية والثقافية فى الاندلس فى بداية القرن الرابع الهجري .

ولد ابو عمر احمد بن محمد بن عبد ربه فى عاصمة قرطبة سنة 246 هـ = 860 م والى هذه العاصمة ينتسب فيقال فيه ابن عبد ربه القرطبي . وهناك فى تاريخ الادب الاندلسي ابن عبد ربه آخر وهو من سلالة ابي عمر هذا عرف عند المؤرخين الاندلسيين والمغاربة بنسبته الى مالقة . فيقال فيه ابن عبد ربه المالقي وقد اشتهر فى الاندلس بصلته بالامراء الموحدين الحاكمين بها وله رحلة الى المشرق . وكان من اصدقاء المؤرخ المغربي محمد بن عبد الواحد المراكشي مؤلف كتاب « المعجب » وله ذكر فى الكتاب (1)

واسرة ابن عبد ربه تنتمي للامويين انتماء ولاء . شانها شان الاسر التي كانت معروفة فى الاندلس بهذا الولاء ، تحافظ عليه فى صلاتها واتجاهاتها ومناصبها التي تنولاها فى ظلال حكام قرطبة . ويحافظ المؤرخون عليه فى نسبتها اليه .

ولا نستطيع ـ بناء على ما نملكه من عناصر ترجمة ابن عبد ربه ـ ان نعرف المعلومات الكثيرة المدققة عن نشاته الاولى ومحيطه الذي درج فيه. وكل ما نعلم انه فتح عينيه فى قرطبة وهي اذ ذاك تخطو خطواتها نحو الاسقرار السياسي والازدهار العلمي وتستقبل العدد الكثير من ابنائها الذين رجعوا من اقطار المشرق وقد نهلوا من ينابيع المعرفة واخذوا حظوظهم من العلوم الدينية والادبية وعرجوا على القيروان لربط اسانيدهم بالشخصيات الافريقية كما تستقبل اولئك الوافدين على الاندلس من أهل المشرق طلبا للحظوة والجاه والعيش السعيد ...

ومن خلال فصول كتاب العقد نجد ابن عبد ربه يروي عن ثلاثة من اعلام عصره فى قرطبة وهم : بقي بن مخلد . ومحمد بن عبد السلام الخشني ومحمد ابن وضاح . وجميعهم من رجال المعرفة العميقة والرحلة الواسعة فى اقطار المشرق والشهرة الذائعة فى الاندلس واقطار المغرب. ولهم تراجم معروفة فى كتب الطبقات التي اهتمت بفقهاء الاندلس ومحدثيها ورواة العلم بها . ومن تلك التراجم نعلم ما قالوا به من مساع لتدريس علوم الحديث والتفسير والفقه واللغة والادب وما حملوه الى الاندلس من كتب كان لها اثر فعال في ازدهار المعارف الدينية والادبية .

ويظهر ان سني دراسة ابن عبد ربه طالت وانه كان نهما فى طلب المعرفة حريصا على جمع الوان من الثقافة ولم يشا ان يكون فقيها فى الفقهاء . او محدثا فى المحدثين ، او اديبا لغويا فى الادباء اللغويين ولكنه اراد ان يكون له حظ من هذا وذاك ، وبذلك اكتسب صفة العالم الموسوعي

والاديب المثقف والشاعر الاصيل والمحاضر المتفنن والمؤلف القدير الواسع الآفاق ، وجعله السيوطي في النحاة في (البغية) اما عن صفاته الخلقية والخلقية فيظهر مما كتبه المؤرخ ابن حيان في المقتبس انه لم يكن بهي الطلعة ولا جميل الهيئة وان عدوه الشاعر محمد بن يحيى القلفاط كان يرميه بالادرة لانه كان يمشي فاتحا ما بين ساقيه ... (2) كما يظهر انه كان منذ شبابه في حصانة خلقية وعفة نفسية جعلته في صف المحافظين على سمعتهم ومروءتهم مع حدة في الطبع واللسان تظهر في اشعار الهجو التي نظمها ولا سيما في خصمه القلفاط . . .

وهناك سؤال يطرح نفسه هنا . وهو ، اذا كان ابن عبد ربه قد عاش في عصر كثرت فيه رحلة الاندلسيين الى المشرق لطلب العلم وتوسيع دائرة الثقافة والرواية فهل اقتدى باهل عصره ومصره ولا سيما اساتذته وسافر مثلهم الى المشرق ... ؟

ويلاحظ في الاجابة عن هذا السؤال ان المصادر القديمة التي تحدثت عن ابن عبد ربه مشرقية واندلسية بالتتبع والاستقراء لم تعرج – فيما نعلم – على شيء من ذلك لا اثباتا ولا نفيا ...

وانما يلفت نظرنا عند قراءة كتاب العقد ان ابن عبد ربه استعمل اثناء وصفه للبيت الحرام . ومعالم مكة والمدينة عبارات دقيقة تدل بحسب الظاهر على انه وصفها لا عن مصدر مسموع او مقروء ، بل انه جاء في وصفه لحمام البيت الحرام هذه الجملة الصريحة في المراد ...

وحمام للمسجد كثير انيس يكاد الانسان ان يطاه بقدمه لانسه بالناس وهو في لون حمام الابرجة عندنا الا انه اقدر منه ، وليس منها حمامة تجلس على البيت او تطير عليه . ولقد همني ذلك فرايتها . حين تكاد ان تحاذي البيت وهي مستعلية في طيرانها ذلك عكست حتى تصير دونه واخذت عن يمينه او يساره ... (3)

فاذا كان ابن عبد ربه قد رحل الى المشرق حقيقة فان ذلك يكون قد افاده فائدة جليلة وهيأ له فرصة ثمينة للاطلاع على ما هنالك من كتب ودواوين واساتذة ...

وينص الحافظ الحميدي في جذوة المقتبس فى ترجمة ابن عبد ربه على انه مدح الامير محمد بن عبد الرحمن خامس الامراء الامويين بقرطبة (238 هـ ـ 273 هـ) وقد توفى هذا الامير وعمر ابن عبد ربه سبع وعشرون سنة كما نص على مدحه لهذا الامير المؤرخ ابن حيان فى المقتبس (4)

اما مدحه للامير المنذر ثم عبد الله . ثم عبد الرحمن الناصر فهو شيء معروف فى المصادر الادبية والتاريخية وله دلالات واضحة فى كتاب العقد وبذلك يمكننا ان نعد ابن عبد ربه شاعر عهدي الامارة والخلافة ، الا ان شهرته الواسعة انما تحققت على عهد الخلافة وفى ظلال عبد الرحمن الناصر بالخصوص .

وقد روى لنا ابن خلكان ان بيتي ابن عبد ربه فى الامير المنذر بن محمد بن عبد الرحمن :

بالمنذر ابن محمد * شرفت بلاد الاندلس

فالطير فيها ساكن * والوحش فيها قد انس

قد اشتهر امرهما عند العبيديين اعداء الامويين ومنافسيهم فامر المعز لدين الله شاعره الايادي التونسي ان يعارض من اجل ذلك قصيدة ابن عبد ربه فى المنذر فعارضها (5)

وعندما تكلم مؤرخ الاندلس ابن حيان على شعراء الامير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن ذكر فى مقدمتهم ابن عبد ربه قائلا :

« زعيمهم وسابق حلبتهم الفحل الخنديذ والصانع المجيد ... (6) »

وسطر بعد ذلك بعض صفاته واخباره في هالة من الاكبار والتقدير وناهيك بذلك منه وهو الاديب الضليع والنقادة الخبير ،، ثم اتى بعد ذلك بقصيدته التي هناه بها لاول ولايته :

ارقت وقلبي ليس يفيق — واسعدت اعدائي وانت صديق

وصد الخيال الواطي منك في الكرى — بصدك عني فالفؤاد مشوق

تعلم منك الهجر لما هجرته — فليس له في مقلتي طريق

وتابى علي الصبر نفس كئيبة — وقلب بأطياف الهموم رفيق

سهد ودمع بالهموم توكلا — فذا موثق فيها وذاك طليق

واطال ابن عبد ربه في هذه القصيدة نفسه في النسيب والمديح مما يدل على انه تخطى في تجربته الشعرية مراحله الاولى رغم ما نصادف في قصيده من مبالغات وعبارات طنانة جوفاء ... مثل قوله :

يدير ملك المغربين وانه — بتدبير ملك المشرقين خليق

وشاهدت الاندلس منذ عهد محمد بن عبد الرحمن الى عهد عبد الرحمن الناصر سلسلة من الفتن واسواقا قائمة للثورات والنعرات والتمردات كادت تودي بالنظام المركزي في قرطبة ، واهم هذه الثورات ولاشد لك هي ثورة عمر بن حفصون الثائر المتلون الذي مد يده الى كل من هب ودب من اعداء الامويين سواء كانوا من المسيحيين داخل شبه الجزيرة الاندلسية او من العباسيين والفاطميين والادارسة خارجها محاولا بذلك تدمير النظام المركزي في قرطبة باي ثمن كان وباي وسيلة تحقق ..

وقد اورد ابن حيان قصيدة لابن عبد ربه يهنىء فيها الامير عبد الله بفتح مدينة استجة وخروجها من قبضة الثائر المتمرد ابن حفصون : (7)

هو الفتح منظوما على اثره الفتـــح   وما فيهما عهد ولا فيهمـا صلـــح

سوى ان صفحا كان من بعد قدرة   واحسن مقرون الى قدرة صفـــح

سل السيف والرمح الرديني عنهما   فتسمع ما ينبي به السيف والرمح

ولابن عبد ربه قصائد ومقطعات متفرقة في اجزاء العقد وغيـــره من المصادر تندد بالثائرين والمتمردين الذين تكاثر عددهم في هذه الحقبـــة وعظم خطرهم على وحدة البلاد على اننا نجده يمدح ابن حجاج المتغلب على مدينة اشبيلية ويشد الراحلة اليه وقد كان هذا المتغلب متقلبا في سلوكه وسياسته بين مشايعة التمرد . ومتابعة الحكم المركزي في قرطبة ...(8)

والى جانب ذلك نجد ابن عبد ربه يتصل بعدد من رجـــال الدولـــة الاموية وفيهم الكتاب والوزراء والقواد ويمدحهم وقد اشار الى ذلـــك في كتاب العقد عدة مرات ... واشتهرت امداحه في عبد الرحمن الناصـــر الذي قضى على التمرد والمتمردين واعاد للبلاد وحدتها ومهـــد للحضارة طريقها وللعلوم سبيلها واعلن الخلافة بينما كان سلفه مكتفيـــن بلقـــب الامــــارة ...

ومدائح ابن عبد ربه في الناصر كثيرة ومتنوعة توجهـــا بارجـــوزة سيرته واخبار انتصاراته وفتوحاته ، وهي ارجوزة طويلة النفس تبلـــغ 448 من الابيات ذكرها بتمامها في كتاب العقد (9)

ولا نعرف ان ابن عبد ربه توظف وظيفا او تولى منصبا من المناصب في قرطبة او في غيرها ، لا في عهد الامارة ولا في عهد الخلافة . الا اننا نعلم انه كان ذا حظوة وجاه وتقدير لعلمه وادبه وسلوكه وشاعريته وتاليفه وقد جاوز ذلك نطاق الاندلس الى اقطار المشرق في عصره وبعد عصره..

فالفتح ابن خاقان ، يروي لنا فى (المطمح) ان ابا الوليد بن عيال حج البيت الحرام وعرج على الفسطاط واتصل بابي الطيب المتنبي فقال له : انشدني لمليح الاندلس يعني ابن عبد ربه فانشده :

يا لؤلؤا يسبي العقول انيقــــا ورشا بتقطيع القلوب رفيقــــا
ما ان رأيت ولا سمعت بمثلـــه درا يعود من الحيـــاء عقيقــــا
واذا نظرت الى محاسن وجهــــه ابصرت وجهك فى سناه غريقــا
يا من تقطع خصــــره من رقـــة ما بال قلبك لا يكـون رقيقــــا

فلما أكمل انشاده استعادها منه وقال : يابن عبد ربه لقد تأتيــك العراق حبوا : (10)

وابن بسام ينقل لنا رأي ابن رشيق مؤلف العمدة في ابن عبد ربـــه وقد كانا بن رشيق خبيرا بالشعر نقادة للشعراء (11)

اما الشقندي مؤلف رسالة المفاخرة الشهيرة فقد جعل ابن عبد ربه من اعلام الا ندلس الذين فاخر بهم (12)

ولا نودع ترجمة ابن عبد ربه دون ان نشير الى ان هذا الشاعر كان من الشعراء المصابين فى فلذات اكبادهم واخوانهم حيث ثكل ابنين احدهما مات طفلا ... والثاني مات كبيرا ويسمى يحيى ، كما اصيب فى اخيـــه يحيى .. وقد رثاهم الشاعر بقصائد حارة الانفاس وترك فقدهم فى نفسه جرحا لا يندمل ... (13)

وودع ابن عبد ربه هذه الحياة بعدما عاش اكثر من ثمانين سنة ... شاهد فيها عدة احداث وشخصيات ... وقد اصيب فى آخــر عمــره بالفالج ... وكانت جنازته حافلة في قرطبة لفتت انظار الشاعر يحيى بن هذيل وهو اذ ذاك صغير السن فسال الناس لمن هذه الجنازة ؟ فقيل له لشاعر البلد ، فوقع فى نفسه الرغبة فى نظم الشعر وانشغــل فكـــره

بذلك (14) وذكر الحافظ الحميدي في ترجمة ابن عبد ربه من كتاب جذوة المقتبس قطعة شعرية له انشدها قبل موته باحدعشر يوما . . .

اما عن شعر ابن عبد ربه فان الحميدي المتوفى سنة 488 يقول انه شعر كثير في مجموع رأي منه في الاندلس نيفا وعشرين جزءا من جملة ما جمع للخليفة الحكم المستنصر (15) واذا كنا لا نعرف ما يقصد الحميدي بالجزء فان شعر ابن عبد ربه كان كثيرا غزيرا ولم يبق منه في العقد وغيره من المصادر الادبية والتاريخية الا شيء قليل بالنسبة لما اخبر به الحميدي . . . وقد سوغ ابن عبد ربه ذكره لشعره في ابواب العقد فقال في المقدمة : « وقرنت به غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا ان لمغربنا على قاصيته وبلدنا على انقطاعه حظا من المنظوم والمنثور . . »

ورغم ان ما بقي من شعر ابن عبد ربه شيء قليل فاننا نلاحظ انه طرق موضوعات شتى سايرت مراحل حياته في شبابه وكهولته وشيخوخته. فهناك الوصف، والنسيب ، والمدح والهجو ، والرثاء ، والاخوانيات ، والزهديات . وهناك الموشحات التي اشارت المصادر اليها . . وقد كان في شبابه مستجيبا لمشاعره المشبوبة الا ان هذه الاستجابة لم تكن تخرج به الى النزوات والمغامرات والخلاعة والمجون . وانما كان يرضي ذوقه وفنه وشبابه فيما ينظم من قصائد ومقطعات توحي بها شاعريته المتفتحة وعاطفته المشبوبة وشخصيته القوية .

ويتجلى في ابواب العقد دفاع ابن عبد ربه عن فن الغناء والسماع ومعارضة من يحاول منعهما من الناحية الدينية كما يتجلى دفاعه عن شرب النبيذ . . . والنبيذ غير الخمر كما هو معلوم . . .

دينا في السماع دين مديني   وفي شربنا الشراب عراقي

وعواطف الشاعر الحقيقية تتجلى في شعر الرثاء الذي نظمه في نجليه اللذين ذاق مرارة ثكلهما كما تتجلى في بعض شعر النسيب وشعر التوبة والزهد ولا سيما في تلك القصائد التي نظمها في آخر حياته وسماها

« الممحصات » والتي حاول بها التوبة مما نظمه فى شبابه ومن شعـــره العاطفي السائـــر :

الجسم فى بلد والروح فى بلـــد	يا وحشة الروح بل يا غربة الجسد
ان تبك عينك يامن كلفت بـــــه	من رحمة فهما سهماك فى كبدي

ومن شعره الزهدي السائر :

الا انما الدنيا غضـــارة ايكــــة	اذا اخضر منها جانب جف جانب
هي الدار ما لا مال الا فجائـــــع	عليها ولا اللـــذات مصائــــب
وكم سخنت بالامس عين قريـــرة	وقرت عيون دمعها اليوم ساكـــب
فلا تكتحل عيناك فيها بعبـــــرة	على ذاهب منها فانك ذاهـــــب

وقد ذكر ابن بسام فى الذخيرة ان ابن عبد ربه من الشعراء السابقين الى فن التوشيح لكنه لم يفدنا هو ولا غيره ـ فيما نعلـــم ـبشـــيء مـــن موشحاته .. فلعل موشحاته ضاعت شانها شأن موشحات السابقين الاولين الى هذا الفن الاندلسي (16)

وشاعرية ابن عبد ربه الخصبة تجاذبها عوامل ثقافتـــه المحافظـــة وشخصيته المرحة المتفتحة المتفننة ، فمن اجل اطلاعه علق شعر فحول المشرقين نراه يمعن فى معارضتهم كما فعل مع ابي تمام ومسلم بن الوليد فى القطع والقصائد التي عارض بها بعض مقطعاتهما وقصائدهما وقد ذكر ذلك فى كتابه العقد وعلق عليه بما يدل على اعجابه بشعره ... بل انـــه عارض فى شيخوخته شعره فى شبابه وسمى تلك المعارضة : الممحصات: وقد تآل موضوعها من الغزل والوصف والمديح الى موضوع التوبة والندامة والزهـــد .

ويظهر لنه في موضوع الهجو الذي اضطر اليه احيانا كان حاضر البديهة صائب السهم حاد اللسان كما فعل مع محمد بن يحيى القلفاط المتقدم الذكر ومع من يكنيه بابي صالح ... (17)

ونجد شاعرنا يذكر في كتاب العقد بعض المقطعات التي كان ينظمها عند تقديم الهدايا الى اخوانه او عند استقبالها كما جرت عادة اهل تلك العصور تظرفا وتوددا (18)

كما تجده يتبع ارجوزته العروضية في العقد بقطع من شعره رقيقة المعنى تعليمية المبنى ليمثل بها لبحور الشعر وما يلحقها من علل وزحاف.

واسلوبه الشعري بصفة عامة اصيل سهل التناول الا انه غير عميق الفكرة ولا دقيق الصورة ولا خصب المعاني مع نفمة موسيقية وحاسة فنية تعطي الدارس دليلا على وفرة التجربة واصالة الشاعرية وطول النفس الشعري وتنوع اتجاهاته نظرا لملابسته ودراسته للشعر والشعراء في عصر الجاهلية والاسلام ، فهذه قطعة من العقد جاء فيها :

يا مجلسا اينعت منه ازاهره	ينسيك اوله في الحسن آخره
لم يدر هل بات فيه ناعما جذلا	او بات في جنة الفردوس سامره
فالعود يخفق مثناه ومثلثه	والصبح قد غردت فيه عصافره
وللحجارة اهزاج اذا نطقت	احيى بها الكبرة المحني ناقره
وحن بينهما الكثبان عن نغم	تبدي عن الصب ما يخفي ضمائره
كانما العود فيما بيننا ملك	يمشي الهوينا وتتلوه عساكره
كانه اذا تمطى وهي تتبعه	كسرى بن هرمز تقفوه اساوره
ذاك المصون الذي لو كان مبتذلا	ما كان يكسر بيت الشعر كاسره
صوت رشيق وضرب لو يراجعه	سجع القريض اذا ضلت اساطره
لو كان زرياب حيا ثم اسمعه	لمات من حسد اذ لا يناظره (19)

ويحدثنا القاضي ابو القاسم صاعد بن احمد الاندلسي المتوفى سنة 463هـ ـ فى كتابه طبقات الامم ان ابن عبد ربه خاطب احد معاصريه ممن كان يهتم بدراسة حركات الكواكب واحكامها بقصيدة يفنـــد فيهـــا أراءه ويتهكم بمعلوماته ومعلومات الجماعة التي تنهج نهجه فى دراسة هذه العلوم والاهتمام بها مما يدل على انه كان ضدا على دراسة هذه العلوم واصحابها :

وقلت ان جميع الخلق فى فلـــك بهم يحيط وفيهم يقسـم الاجـــلا

والارض كورية حف السماء بهـــا فوقا وتحتا وصارت نقطـة مثـــلا

صيف الجنوب شتاء للشمال بهـــا قد صار بينهما هذا وذا دولا (20)

كما يحدثنا صاعد نفسه فى كتابه المذكور ان ابن عبد ربه خاطب ابن اخيه سعيد ابن عبد ربه الطبيب الشاعر المتفلسف بابيـــات تـــدل على استنكاره لمذهبه وتنديده بمعارفه :

الفيت بقراطـــا وجالينوســـــا لا ياكـلان ويرزئـــان جليســـــا

فجعلتهـم دون الاقارب جنـــــة ورضيت منهما صاحبـا وانيســـا

واظن بخلك لا يرى لك تاركـــا حتى تنادم بعدهم ابليســـا (21)

كتـــــاب العقـــــــد :

سمى ابن عبد ربه كتابه باسم العقد ، لانه تصوره عقـدا فى جيـــد حسناء مشتملا على خمس وعشرين وحدة من الجواهر جعل واسطتهـــا انفسها وأثمنها فى نظره وجعل عن يمينها اثنتا عشرة جوهرة وعن يسارها مثل ذلك ، فكل جوهرة فى جهة تقابل مثيلتها فى الجهة الاخرى وللتفرقة بينهما زاد صفة ـ الثانية ـ ولا شك ان هذا التصور داخل فى نطاق حـــب الاندلسيين للتنميق والتزين ،

فالواسطة للخطابة والجواهر الاخرى للموضوعات الاخرى ، ادبيـــة وتاريخية واجتماعية وتعليمية ومن اجل ذلك كان العقد موسوعة للثقافـــة العامة كما كان مصدرا من مصادر الادب العربي وقد جمع فيه ابن عبد ربه معارف عصره التي رواها عن شيوخه او قرأها فى كتب المؤلفين الذيــن سبقوه كالجاحظ والمبرد وابن قتيبة وابن سلام وبذل ذوقـــه وفكره فى تنسيقها وتبويبها وترتيبها وقد ذكر منهاجه فى مقدمة كتابه وصرح بترك الاسانيد لانه يعرض نظائر الكلام واشكال المعاني وجواهر الحكـــم ونوادر الامثال وهذه اشياء فى نظره لا يفيدها اتصال السند كما لا يضرها انقطاعه او حذفه لان هدفها تعليمي تثقيفي وهذا الهدف يتحقق مع حذف الاسناد للتخفيف والايجاز وقد ذكر ان راويا من رواة الادب سئل عن مروياته فقال: هي من المرسلات عرفا .. وقد برر بذلك ابن عبد ربه موقفه فى كتابه هذا من اهماله لذكر مصادره فى كثير من الابواب .

ومن الجدير بالذكر ان كتاب العقد اكتسب عند المؤلفين المتأخرين صفة (الفريد) فصار لا يعرف الان الا بهذه الصفة وقد راعى الطابعـــون ذلك فسموه (العقد الفريد) اما الشاعر القلفاط معاصر ابن عبد ربه فكان يسميه باسم (حبل الثوم) تشويها وتحقيرا (22)

وقد عيب على ابن عبد ربه انه لم يذكر في كتابه ادب اهل الاندلس . ورويت للصاحب ابن عباد كلمة شهيرة فى الموضوع وهي قوله : (بضاعتنا ردت الينـــا)

كما ذكر المقري فى نفح الطيب قولة ابن الربيب التميمي فى رسالته التي رد عليها الامام ابن حزم برسالته الشهيرة فى فضائـــل الاندلـــس . وقولة ابن الربيب هي :

(كما تلقوا ديوان احمد ابن عبد ربه الذي سماه بالعقد على انه يلحقه فيه بعض اللوم لا سيما اذ لم يجعل فضائل بلده واسطة عقده ومناقـــب ملوكه يتيمة سلكه . اكثر الحز واخطأ المفصل واطال الهز لسيف غير مقصل وقعد به ما قعد باصحابه من ترك ما يعنيهم واغفال ما يهمهم (23)) .

وابن عبد ربه كان اعرف من الصاحب ومن ابن الربيب بما يروج فى بلاده ويقبل عليه طلاب الادب ورواد الثقافة والاتجاه العام كان الى المشرق وما ياتي منه من كتب ومعلومات . والاندلسيون كانوا فى عهد ابن عبد ربه يقدرون استاذية المشرقيين ويرحلون فى طلب العلم والادب الى ديارهم ويستفيدون من خطواتهم فى الشعر والنثر والتاليف والترجمة .

وكتاب العقد بعد هذا وذاك من امهات المصادر الادبية والثقافية العامة التي كانت وما تزال عمدة للدارسين فى المشرق والمغرب ولم يكن ابن عبد ربه حين الفه يقصد تاليف كتاب فى الادب الاندلسي وانما كان يقصد تاليف كتاب فى الادب العربي والثقافة العامة ...

على ان العقد لم يخل من اشعار المؤلف واشعار الغزال وعباس بن فرناس ومومن بن سعيد وغيرهم زيادة على اخبار الدولة الاموية بالاندلس ... وتدور ابواب الكتاب على الشعر وموضوعاته واساليبه ومعانيه وفضائله ومقاطعه ومخارجه واعاريضه وقوافيه وابن عبد ربه يملك فى الاستشهاد والتمثيل ذوقا فنيا ساميا حيث انه ينتقي طرائف الشعر وبدائع المعاني يحلي بها كل موضوع تناوله من موضوعات الشعر واساليبه ومعانيه .

كما يتناول الخطابة والخطباء ويقدم كمية وافرة من خطب العرب فى الجاهلية والاسلام ولا سيما خطب الامام علي ، وابن عبد ربه مع المؤلفين السابقين كالمبرد والجاحظ وابن قتيبة كانوا يقدرون الخطابة والخطيب لان ذلك فن من القول كان اداة فعالة فى الاقناع والتاثير والتبشير والانذار لأمية المجتمع وقلة وسائل الكتابة ونشر الافكار والاخبار .

واهتم ابن عبد ربه بالعرب وانسابهم وقبائلهم واخلاقهم وعاداتهم وكلامهم وامثالهم وما كانوا يتناولونه فى احاديثهم وقصصهم من اخبار ايامهم وحروبهم مع الاستشهاد على ذلك بطرائف الابيات والامثال .
ويعرف عن احد اشياخه وهو الخشني انه يتعصب للعرب (24)

ولم يهمل ابن عبد ربه امثلة الاخلاق الكريمة ومعاني الزهد والتدين والحياة الصالحة والمعايير الحقيقية لسعادة الانسان فى الدنيا والاخره.

كما لم يهمل الترفيه والتسلية والفكاهة والنوادر مما يعد من مكملات الثقافة العامة للاديب وبذلك كان ابن عبد ربه من اعلام الادب والثقافة كما كان كتابه فى هذا الباب مصدرا من المصادر الاساسية التي لا غنى عنهـــا لدراسة الادب العربي فى عصوره الاولى . ولا شك ان تأليف العقد اخـذ من حياة ابن عبد ربه سنوات عديدة فى جمع المصادر واختيار المـــواد وترتيبها وتبويبها على النسق الفني الذي اراده المؤلف لكتابه هذا ... ويظهر انه ظل مشتغلا به الى سنواته الاخيرة .

وعند دراسة العقد للبحث عن سنة التأليف نلاحظ شيئين :

الاول : ان الارجوزة التي ارخ فيها لعبد الرحمن الناصر ينتهـــي الكلام فيها على اخبار سنة 322 هـ اى قبل وفاته بست سنوات .

الثاني : ان حديثه عن خلفاء بني العباس يستمر الى خلافة المطيع الذي تولى سنة 334 هـ وخلع نفسه سنة 363 هـ .

وقد علمنا ان المؤلف توفي سنة 328 فكيف يؤرخ لمن تولـــى بعـــده بسنوات ؟ وهذا يدلنا على ان كتاب العقد تعرض لتغييرات بعد وفاة مؤلفه ومن جملتها هذا الذي لاحظناه فى تكميل اخبار بني العباس .

فـــاس عبد القادر زمامة

التعليقـــــــات

(1) انظر المعجب ص 297 وتحفة القادم ص 94 والمغرب ص 227 ج 1 ونفح الطيب ص 97 و 118 و 119 ج 2 بيروت 1968 م
(2) المقتبس ص 42 القسم المنشور بباريس 1937 م وانظر الوافي بالوفيات ج 8 ص 10
(3) العقد ص 250 ج 7 تحقيق محمد سعيد العريان
(4) المقتبس ص 41 القسم المنشور بباريس 1937 م
(5) وفيات الاعيان ص 93 ج أ تحقيق محيي الدين عبد الحميد
(6) المقتبـــــس ص 41

(7) المصـــدر السابـــق ص 97 ـ 98
(8) المصـــدر السابـــق ص 12
(9) انظر ص 225 ج 5 تحقيق محمد سعيد العريان
(10) مطمـــح الانفـــس ص 59 ـ 60
(11) الذخيرة القسم الرابع ص 164
(12) نفـــح الطيـــب ج 3 ص 193
(13) انظر العقد ص 25 و ص 258 ج 3 من طبعة لجنـة التاليف وتاريـخ ابن الفرضـي ج 2 ص 185
(14) الجـــذوة ص 358
(15) نفـــس المصـــدر ص 94
(16) انظر القسم الثاني من الجزء الاول ص 1
(17) انظر العقد ص 349 ـ 350 ج 2 من طبعة لجنة التاليف
(18) انظـــر المصدر السابـــق ص 285 ج 6
(19) العقد ص 68 ج 7 تحقيق محمد سعيد العريان
(20) انظر ص 86 ـ 87 من طبعة القاهرة مطبعة التقـــدم
(21) نفـــس المصـــدر ص 105
(22) انظر المقتبس لابن حيان ص 42 من طبعة باريس 1937 م
(23) انظر النفح ص 158 ج 3 تحقيق احسان عباس
(24) طبقـــات النحويين للزبيدي ص 290

ع . ز .

اسبانيا الإسلامية
الى ولاية عبد الرحمن الأوسط
(92-206 هـ / 711 - 821 م)
(1)

ابتسام مرعي خلف الله

أولا : اسبانيا الى قيام امارة قرطبة :

ــ المجتمع القوطي قبيل الفتح الاسلامي ــ مجتمع اسبانيا الاسلامية في مرحلة الفتح . ــ الأندلس الى عهد الولاة المحليين .

المجتمع القوطي قبيل الفتح الاسلامي :

كانت دولة القوط الغربيين قبل الفتح الاسلامي قد عمرت في تاريخ اسبانيا قرابة قرنين من الزمان ، ظهرت خلالهما اسبانيا لأول مرة ــ في تاريخ شبه جزيرة ايبريا ــ كدولة لها وحدتها السياسية المستقلة وجنسيتها الواحدة المتميزة .

ومع ذلك يرى دوزي Dozy : « ان اسبانيا على عهد القوط كانت على أسوأ حال مما كانت عليه أيام الرومان ، وان أوضاعها الداخلية كانت من الضعف التي يرثى لها حتى أن جيشا مكونا من 12 الف رجل استطاع أن

يفتحها بسهولة » . (1) وهذا يعني أن الوحدة السياسية في اسبانيا القوطية سرعان ما تعرضت للتمزق أمام الأخطار التى احاطت بموقعها الجغرافي .

وقد دخل القوط اسبانيا كغيرهم من الشعوب التي انجذبت اليها موقعها الممتاز وخصب أراضيها . وجاء القوط ضمن موجات القبائل الجرمانية التي اجتاحت بقاع اسبانيا فى العصور الوسطى . وكانت موجتهم تالية لموجة الوندال الذين اسسوا بها دولة عرفت باسم دولة الفندال ، ومن هذا الاسم اشتقت كلمة الفندالس ، التي حورها العرب الى اندلس . (2)

وبانتهاء الدولة الرومانية فى الغرب على يد ادواكر Odcacr (476م) استقل القوط الغربيون باسبانيا . واتخذ زعيمهم يورك Euric لقب (ملك) قبل ذلك بتسع سنوات أى عام 467 م ، ولذلك يعتبر المؤسس الحقيقى لدولة القوط باسبانيا (3) . وقد حكم القوط اسبانيا من القرن الخامس الميلادى الى ان فتحها العرب على يد موسى بن نصير فى أواخر القرن السابع الميلادي « 92 هـ / 711 م » واقاموا فيها دولة قوية قاعدتها طليطلة Toledo ، وضعوا لها نظما وقوانين جديدة ونشروا

---

(1) Dozy, Spanish Islam, P. 230 . ارسلان، غزوات العرب، حاشية رقم (1) ، ص 29

(2) حول اسم الاندلس والآراء الاخرى التي جاءت فيه ، انظر : محمد دياب ، العرب فى اسبانيا ، ص 5 – 8 . وكان اسم اسبانيا فى عهد اليونان هسبريا Hesperia أى بلاد المغرب بالنسبة لموقع بلادهم .

(3) د. مؤنس، فجر الاندلس ، ص 4 . بشأن زوال السيادة البيزنطية نهائيا من اسبانيا ، انظر د. طرخان ، دراسات فى تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (دولة القوط الغربيين) ص 107 وما بعدها .

الدعوة الى النصرانية الكاثوليكية منذ عام 586 م على عهد ملكهم ركارد (586 – 601 م) . (1)

ومع ذلك ، والى قيام الفتح الاسلامي . لم تكن اسبانيا قد شهدت بعد مرحلة الانصهار القومي فى مجتمعها ؛ وعاش فيها القوط تتجاذب حكمهم عوامل الانقسام الطبقى والمذهبى قبل تحولهم من الاريوسيه الى الكاثوليكية فى عام 587 م . (2) والى هذا التاريخ عاش الرعايا الاسبان منعزلين عن حكامهم القوط اجتماعيا ودينيا ؛ كما عاش اليهود حياة الاضطهاد التي دفعتهم الى تدبير المؤامرات للخلاص ايضا من الحكم القوطي (3) . ثم جاءت بعد حعبه الخلاف المذهبي مرحلة فقدان سلسلة الملوك القوط من أسرة الشجعان بموت الريك الثانى 507 م وابنه امالرك Amalaric عام 531 م ليصبح العرش القوطى محل تنافس ونزاع الاسر الارستقراطية . وامتد النزاع الى صفوف الجيش وكادت ان تتمزق تماما وحدة المجتمع القوطى .

وان فترة اضطراب وانهيار نظم الدولة القوطية ليست بالبعيدة عن عهد ملوك القوط العظام فى اسبانيا ؛ وكان آخرهم وامبا Wamba (672 – 680 م) الذى استطاع تقرير سلطانه حتى شمال البرت . ففى عام 700 م أى بعد أقل من عقدين من حكم وامبا ، اعتلى غيطشة Witiza العرش فى فترة تموج بالفوضى والاضطراب لم تسلم منها البلاد الى وفاته الغامضة فى عام 708 – 709 م . واستمرت الفتن والقلاقل من

---

(1) اورد الدكتور مؤنس (فجر ، ص 9) أن ريكارد هو محول القوط من الأريوسية الى الكاثوليكية ، ويقول القلقشندي : «القوط خرجوا على الشبونفات فغلبوا على الاندلس واقتطعوها من صاحب رومة وانفردوا بسلطانهم واتخذوا مدينة طليطلة دار ملكهم ؛ دخشونش ملك القوط وهو أول من تنصر من هؤلاء بدعاء الحواريين ؛ ودعا قومه الى النصرانية ؛ وكان اعدل ملكهم وأحسنهم سيرة » . وقال برواية صاحب الروض المعطار : « عدد من ملك منهم الى آخرهم لذريق ستة وثلاثون ملكا » صبح الأعشي ، ج 5 ، ص 238 – 241 . المقري نفح الطيب ، ج 1 ص 130 – 136 . وانظر عن انتشار الكاثوليكية فى اسبانيا : د. طرخان ، المصدر السابق ؛ ص 107 وما بعدها .

(2) يذكر د. طرخان ؛ انه ابتداء من عهد ريكارد (586 – 601 م) ، تم وضع حد للتوتر القائم بين القوط الاريوسيين والرعايا الكاثوليك . نفس المصدر ، ص 106 – 162 .

(3) د. طرخان ، نفس المصدر ؛ ص 123 – 128 . د. سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم فى الاندلس ؛ ص 51 – 65 .

جانب رجال الدين والنبلاء الطامعين ؛ فضلا عن افراد البيت المالك الذى لم يسلم من الانقسامات . وبعد فوضى دامت سنة ونصف من وفاة غيطشة ، أتفق على اختيار لذريق ملكا عليهم ، الذى فى عهده قام الفتح العربى وساهم فيه احد امراء اسبانيا ـ الامير يوليان ـ (1) حاكم سبتة الذى دل العرب على عورات اسبانيا (2) .

ولكن ماذا عن وحدة المجتمع الاسلامى الجديد فى اسبانيا ؟

مجتمع اسبانيا الاسلامية في مرحلة الفتح :

جاء المسلمون الى اسبانيا مع حملة طارق بن زياد وقد غلب على رجالها بربر شمال افريقيا ونفر من السودان . ولحق بطارق موسى بن نصير بثمانية عشر الفا من خيرة جنده جلهم من العرب ، بينهم عدد عظيم من القيسية واليمنية ، ضمت عددا من التابعين وكبار العرب ـ وهم فى جملتهم من جند افريقية وجند مصر . فلم تذكر المراجع ان الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك (86 ـ 96 هـ / 705 ـ 715 م) قد بعث الى موسى بن نصير (93 ـ 94 هـ / 712 ـ 713 م) بجيش او بمدد (3) .

وقد واجه البربر صدمة الفتح الأولى ؛ وهلك منهم فى واقعة وادى البرباط وحدها ثلاثة آلاف ، ومهدوا بصمودهم الطريق أمام قدوم العرب بعد ذلك مع موسى بن نصير وبعده ، ووجدوا سبيل الاستقرار حتى الشمال على مقربة من خليج بسكاية ؛ وذهبت جماعات منهم فى استقرارها الى أقصى الشمال شرقا وغربا حيث طمحت بهم الآمال الى ما وراء اسبانيا أيضا .

وضم طارق الى جيشه الفاتح هذا النفر من السودان ، ليتلقوا بما عرف عنهم من الصبر والثبات دفعة الجيش القوطى الاول الذى ضم بدوره بين صفوفه عناصر من البربر المنتقين من خيار غمارة والذين

---

(1) بشأن أصل يوليان والخلاف فيه ، هل هو قوطي او بيزنطي مسيحي أو عربي من شمال افريقيا ، راجع Camb. Med. Hist. Vol. II, PP. 183-4.

(2) راجع قصته المشهورة في : ابن خلدون ، العبر ، ج 4 ص 253 . ابن عذارى البيان ، ج 2 ص 7 . المقري ، النفح ، ج 1 برواية ابن خلدون ص 217 .

(3) ابن القوطية ، فتح الاندلس ، ص 10 . مؤنس ، فجر الاندلس ، ص 123 .

احسن تدريبهم على الاسلوب البيزنطي (1) . كذلك ضم جيش طارق بضعة آلاف من النصارى من القوط وأهل البلاد بلغ بهم سافدرا اعتمادا على المراجع النصرانية نحو ثلاثة عشر الفا ، وهو امر مبالغ فيه بالمقارنة بعدة المسلمين فى هذا الجيش البالغة اثنى عشر الفا (2) . وانتصر طارق بعدته هذه على لذريق فى معركة وادي البرباط فى 28 رمضان 92 هـ / 19 يوليو 711 م ، أبلى فيها السود بلاءا طيبا ليتقدموا ما بقي من جيش طارق من المسلمين ـ بعد مقتل ثلاثة الاف منهم ـ نحو قرطبة . وفى قرطبة التي تم فتحها على يد مغيث الرومى بقوة من نحو سبعمائة فارس ، بعد حصار استمر قرابة ثلاثة أشهر ، عمد المغيث بعد فتحها الى اليهود فجعلهم بعض حرس المدينة « استنامة اليهم دون النصارى للعداوة بينهم » كما يقول الرازى . وفى هذا الصدد يذكر الرازى ايضا : « وصار ذلك لهم سنة متبعة فى كل بلد يفتحونه : أن يضموا يهوده الى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ويمضي معظم الناس لغيرها ، واذا لم يجدوا يهودا وفروا عدد المسلمين المخافين لحفظ ما فتح » (3) .

وعاد ايضا على آل غيطشة Witiza من القوط ما أبلوه من عون للمسلمين عندما اقر الخليفة عهد موسى وطارق لهم فى جانب من ضياع أبيهم بلغت ثلاثة آلاف ضيعة ، فأصاب كل منهم الفا ، حاز الموند Almonde الف ضيعة ، فى الغرب واستقر فى اشبيلية ، واخذ ارطباس Ardebas وسط الاندلس واستقر فى قرطبة ، واصاب اخيلا « واقلة » Afila الفا فى شرق الاندلس وفضل الاقامة فى طليطلة فى ظلال المسلمين (4) . واستكان هذا الجناح القوطى المهادن (حزب غيطشة) خاصة بعد فتح موسى لطليطلة من جديد عند خروجها عن طاعة المسلمين . ويذهب

(1) د. سالم ، المصدر السابق ، حاشية رقم 5 ، ص 70 .

(2) Saavedra, Eduarde, Estudio Sobre, la invasion de les Arabes.
د. مؤنس ، فجر الاندلس ، ص 73 . د. سالم ، المصدر السابق .

(3) المقري ، النفح ، ج 1 برواية الرازي ص 165 ـ 166 . يذكر د. سالم ، ان غرناطة قد زخرت بأكبر جالية يهودية فسميت لذلك بغرناطة اليهود . (نفس المصدر ص 133) .

(4) المقري ، نفس المصدر برواية الرازي ، ص 167 ـ 168 .

المؤرخ الاسباني مودستو لافونتي الى ان افراد حزب غيطشة كانوا يؤملون – بعد مقتل لذريق – ان يقيمهم المسلمون ملوكا على البلاد . ولكن موسى خيب ظنونهم حينما أعلن بعد دخوله مباشرة ان البلاد كلها لخليفة المسلمين فى دمشق ، ولم يجد أبناء غيطشة بدا من الرضوخ للامر الواقع ، فسكنوا قانعين بما منحهم موسى من املاك ابيهم وما شرفهم به من عظيم المكانة . فاستقر أخيلا فى طليطلة ، وخلفه ابنه الفارو (البرو) ثم حفيده حفص الذى اصبح فيما بعد قاضيا للنصارى . اما أرطباس فقد استقر فى قرطبة واحتفظ بلقب (قومس) وورثه عنه ابنه أبو سعيد ، واما الموند فقد اختار المقام فى اشبيلية وانجب ابنة – هي سارة ، عاشت كريمة حتى أيام عبد الرحمن الداخل وابنه هشام ، كما انجب ابنين هاجر احدهما الى الشمال وبقي الآخر فى بلاد المسلمين ليحظى بمكان رفيع وليصبح أسقف المستعمرين جميعا فيما بعد . وكافأ موسى ابه Oppas أخ غيطشة ، الذي طالما ساعد المسلمين وأعانهم ، بتعيينه أسقفا لطليطلة (1) .

وشارك فى هذا المصير تدمير Teodomiro ، القائد القوطى فى مرسيه والذى كان من انصار غيطشة ، وأمكن له الاتفاق مع المسلمين باقرار تدمير على ملكية حصونه فى الاقليم فى حياته على ان يؤدى عن أهلها الجزية (2) .

واذا كان جناح القوط المهادن (حزب غيطشة) قد ارتضى بالعيش فى سلام بين المسلمين ، فان جناحا من القوط سيقوم بدور مناهضة المسلمين فى مستقبل تاريخهم بالاندلس . وقد تألف هذا الجناح أصلا من فلول القوط المطاردة من موسى بن نصير الى الشمال والتي اجتمعت فى نواحي اشتوريس Asturia وجليقة Galicia (3) ولم تتعد فى عددها ثلاثين رجلا – حسب رواية المقرى نقلا عن الرازى ، (4) وهي

---

(1) ابن القوطية ، افتتاح ، ص 4 – 5 . مؤنس ، فجر الاندلس ، ص 100
Dozy, Recherche sur l'histoire, I, P. 79.

(2) الضبى ، بغية الملتمس ، ص 259 . شكيب ارسلان ، غزوات ، ص 147 .

(3) انظر البحث ، الفصل الخامس .

(4) المقري ، نفح ، ج 2 ، برواية الرازي ، ص 671 – 672 .

القلة التي تكاثرت واستغلت انشغال العرب بعد ذلك بحروب ومنازعات قبلية لتطمئن على مجتمعها النائي وتنتهز كل فرصة سانحة ضد المسلمين .

هذا وقد استغرق فتح اسبانيا نحو اربع سنوات . ومن عهد ولاية عبد العزيز بن موسى – أول ولاة الاندلس – (95 – 97 هـ / 713 – 716 م) نشطت المقاومة القوطية المعروفة بأحداث تدمير Tudmir التى استطاع القضاء عليها فى مرسيه ، وتبعها بعد ذلك باخضاع كبريات مدن الغرب وتتبع فلول المقاومة فى معاقلها فى الشمال والشمال الغربى . والى فتح مدينة ماردة Merida فى عام 94 هـ / 713 م كان اليهود مع البربر يؤلفون الحامية العسكرية الاولى التي قامت على المدن المفتوحة (1) . ويذهب سافدرا الى « أن حراسة الحصون منذ فتح ماردة لم يعد فيها الى اليهود » وذلك بعد الثورة التي قامت فى ماردة وقتل فيها ثمانون رجلا من المسلمين . ويرى سافدرا أن ثورة ماردة قد بدأت دورا جديدا فى فتح المسلمين لاسبانيا واجه خلاله المسلمون لونا من القطيعة بين الاهالى (اليهود والاسبان الوطنيين) والمشارقة ، ويرى أن القائمين بهذه الثورة كانوا نفرا من القوط عادوا الى البلاد بعد ذهاب الجيش الاسلامى عنها وحاولوا استعادتها أو الانتقام من المسلمين ، ولم يكن للاهالي وبينهم اليهود دور فى هذا الحادث (2) .

أما البربر المسلمون ، فمنذ تنظيم ولاية افريقيا وتقسيمها خططا فى مدة ولاية حسان بن النعمان (81 – 86 هـ / 700 – 706 م) ، كانوا قد انتظموا فى خدمة الجيش الاسلامي على أساس أن لكل قبيلة خطة ومن بين فروضها تقديم عدد من الجنود يحاربون مع المسلمين . وعمرت جيوش المسلمين فى المغرب بالبربر خاصة بعد حماسهم فىدخول الاسلام . ولكن نعرف من عهد موسى بن نصير الذى خلف حسان فى ولاية افريقية ، أن حماس البربر للاسلام سرعان ما يشوبه سوء الظن بالعرب (3) . ومع

(1) د. سالم ، المصدر السابق ، ص 133 .
(2) د. مؤنس ، المصدر السابق ، ص 93 – 94 .
(3) نفس المصدر ، ص 35 – 46 .

ذلك فاض سيل هؤلاء على الاندلس بعد وصول خبر انتصار قائدهم طارق الذى تعد قيادته لحملة الفتح ظاهرة جديدة فى قيادة الجيوش الاسلامية لم نسمع عنها من قبل فى تاريخ الفتوح . ثم جاء موسى بن نصير الى الاندلس فى 93 هـ / يونيه 712 م بثمانية عشر الفا من خيرة جنده كما سبق الذكر . وعلى يد هؤلاء العرب أمكن لموسى فتح اشبيلية وماردة وغيرها من أملاك القوط . وكان هؤلاء هم الجماعة الكبيرة الأولى من مهاجرى العرب الى الاندلس ويعرفون عند المؤرخين بطالعة موسى (1) ، وستكون لهم الصدارة بين مسلمي الاندلس زمنا طويلا وسيكون لهم أثر عظيم فى سير الامور . وبعد استدعاء موسى الى دمشق فى أواخر عام 95 هـ / منتصف 714 م مصطحبا معه طارقا ومغيثا وكبار الجند ويوليان وعددا قليلا من اسرى القوط (2) ، وقع على رايات موسى العربية عبء استكمال الفتح تحت قيادة التابعين على بن رباح وحنش الصنعانى الى ان تمكن عبد العزيز بن موسى من اتمام بقية الفتوح باخضاع جنوب شرقى شبه الجزيرة والانتقال بالعاصمة من طليطلة الى اشبيلية (3) .

---

(1) يقصد بالطالعة « الموجة » ، ويذكر صاحب الاندلس ، لمؤلف مجهول نشره الفونتي القنطرة ـ ص 23 ، كما يذكر د. مؤنس فى فجر الاندلس ، ص 356 : ان « اول طوالع الاندلس المعدودين » كان معظمهم من اليمنيين وقدم بهم الحر بن يوسف الثقفي سنة 97 هـ / 716 م واقاموا فى قرطبة وحواليها . ويذكر د. سالم (تاريخ المسلمين ، ص 120) ، اربعة طوالع فى تاريخ الاندلس ، وان الطالعتين الاوليين كانت غالبية العرب بهما من اليمنيين الذين سموا بالبلديين او أهل البلد لانهم استقروا فى الاندلس واعتبروا انفسهم من أهلها . وكانت الطالعتان الثالثة والرابعة فى غالبهما من العرب القيسيين الذين سموا بالشاميين تمييزا لهم عن البلديين .

(2) ابن قتيبة ، الامامة والسياسة ، ج 2 ، ص 158 .

(3) كان القوط قد اتخذوا طليطلة عاصمة للاندلس كبلد يتوسط شبه الجزيرة (د. مؤ فجر الاندلس ، ص 7) ، وقد سقطت فى ايدي المسلمين بقيادة طارق فى 92 هـ / 711 م . ولم يكد موسى يستقر فى طليطلة حتى ضرب عملة ذهبية وصلتنا نماذج منها . (انظر : عبد الرحمن فهمي ، موسوعة النقود العربية ، ص 79 ، 82 ، 85) ، وبينما كانت طليطلة عاصمة اسبانيا القوطية كانت قرطبة اقليم بيطى (بيتس) (د. مؤنس ، فجر الاندلس ، ص 71) . ويورد صاحب اخبار مجموعة سبب اختيار موسى لاشبيلية عاصمة لاسبانيا الاسلامية لموقعها على نهر الوادي الكبير واتصاله بالبحر فتكون على حد قول ابن القوطية « باب الاندلس » . د. سالم ، تاريخ المسلمين ، حاشية رقم (1) ، ص 106 . وقد نقلت العاصمة الاسلامية من اشبيلية الى قرطبة بعد مقتل عبد العزيز بن موسى .

وكانت نسبة العرب الى البربر بين جماعات المسلمين التى عرفتها اسبانيا في مرحلة الفتح . فمعظم الحاميات التى خلفها المسلمون الفاتحون وراءهم كانت من البربر ، واشتهرت جيحون كمركز لاكبر حامية بربرية دانت بالولاء لزعيمها مونوسة الذى سيكون له شأن كبير فى تاريخ الثورات البربرية (1) . وبعد مرحلة الفتح ، تزايدت اعداد المهاجرين البربر وفاقت اعداد العرب وبلغت أضعافها . وكانت غالبية الافواج الاولى من المهاجرين من بربر زناتة التي ينتمي اليها طارق بن زياد . الا أن جماعات العرب من المهاجرين سرعان ما انضافت فى عددها الى جماعات العرب الفاتحة لتفوق العدد المرتبط بالاحداث الرئيسية والذى لا يتعدى خمسة وعشرين الفا ، واستقرت جماعات عربية ضخمة فى نواحي قرطبة Cordoba واشبيلية Sevilla والجزيرة الخضراء Algeciras وتدمير Tudmir وسرقسطة Saragosa غير جاليات أخرى صغيرة فى جميع النواحى ، اخذت تعمل على عمارة الارض واحيائها مستعينة بالزراع من الاهلين . وكانت الاحوال السياسية فى المشرق سببا من اسباب هجرة العرب الى الاندلس حيث هاجر الكثيرون من أهل الحجاز من بلادهم الى العراق وخراسان والشمال الافريقى والاندلس عقب هزيمة عبد الله بن الزبير ، وهاجر كثير من المكيين بعد انتصار مروان بن الحكم واعتلائه عرش الخلافة ، وهاجر عدد عظيم من مصر الى الاندلس بسبب ما تلا ذلك من احداث .

وأحدثت مراكز تجمعات الهجرات العربية (2) آثارها منذ بداية التاريخ الاندلسى ، وخاصة بعد مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بتدبير من كبار الجند العرب فى الأندلس على راسهم أيوب ابن حبيب اللخمى (ابن أخته) الذى خلفه فى ولاية الاندلس لمدة ستة اشهر . ففي اشبيلية قامت عاصمة الاندلس الاسلامي واستمرت اربع سنوات الا قليلا قبل انتقال

---

(1) د. سالم ، المصدر السابق ، ص 103 . انظر البحث ، الفصل الثالث ، ص 85-89

(2) أورد د. عبد العزيز سالم ، المصدر السابق ، ص 121 ، المنازل التي نزلها العرب فى انحاء الاندلس ، استنادا على ابن حزم « جمهرة اساليب العرب » فى طليطلة واشبيلية واوريولة وبلنسية ووادي آش وغرناطة وقرطبة واونيه وسرقسطة وشقورة ... الى آخره .

العاصمة الى قرطبة . غير ان الجماعات العربية الكبيرة التي سبق ان استقرت فى اقليمها وتكونت منها مع الزمن جالية عربية قوية اختلطت بالأهالي ، والفت عصبية خطيرة مع الزمن ، كان لها فيما بعد مع أمراء قرطبة المروانيين تاريخ طويل حافل بالحروب والمنازعات .

وقد انتقلت العاصمة الى قرطبة (1) فى عام 95 هـ / 183 م فى عهد ولاية ايوب بن حبيب اللخمى بعد مقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير (95 هـ / نوفمبر 713 م – 97 هـ / 716 م) لحسن موقعها وقربها الى منازل جماعات العرب فى الشرق والجنوب . ولما كان هؤلاء العرب من قبائل شتى لا يكاد السلام يستقر فيما بينها ، كان انتقال العاصمة بالقرب منها من العوامل التى أدت الى زيادة أعباء الوالي فيما عساه ان يشجر بين هذه القبائل من خلافات .

الاندلس الى عهد الولاة المحليين :

واجمالا لما سبق ان ذكرناه عن العناصر التي ألفت المجتمع الاسلامى فى اسبانيا فى مرحلة الفتح ، يمكن القول ان الأندلس فى هذه الفترة ضمت : العرب الفاتحين (البلديون) ، والعرب الوافدين (الداخلون) ، والبربر الفاتحين والوافدين ، وطائفة اليهود ، ثم جماعة الاسبان المهادنين الذين دخل الكثيرون منهم فى الاسلام فى مراحل ما بعد الفتح وعرفوا بالمسالمة ، وعرف ما بقي منهم على دينه بالعجم الذميين أو المستعربين هذا فضلا عن طائفة المولدين التي أنجبتها الاسبانيات من زوجات وجوارى المسلمين .

وستلعب جميع هذه الجماعات والطوائف دورا خطيرا فى أحداث تاريخ اسبانيا الاسلامية ، تحرك كل منها مواقف عصبيتها الموروثة وأبرزها العصبية القبلية بين العرب والبربر الفاتحين والوافدين .

---

(1) يرى الدكتور مؤنس أن قرطبة كانت أوفق من اشبيلية ولو أنهم انتقلوا الى طليطلة لكان احسن لتوسطها . مؤنس ، فجر الاندلس ، ص 133 .

وكان طبيعيا ان تتصل الخلافات القبلية والعنصرية بين قبائل العرب والبربر بالاندلس بتلك المنازعات العصبية العنيفة التي عرفتها ولاية افريقية والخلافة الاموية فى الفترة ما بين 102 – 112 هـ / 721 – 730 م بعد أن انقضت فترة مؤقتة من التنظيم والادارة والاستقرار عاشتها الإندلس في عهد ولاية السمح بن مالك الخولاني (100–102 هـ/719–721م) فى عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز (ت 101 هـ / 719 م) وهى ولاية لم تعمر اكثر من عامين (1) ، استشهد بعدها السمح فى وقعة طولوشة (طولوز) فى ربيع 102 هـ / 712 م حين كان يفتح فى جنوبي فرنسا .

وقدر ليد العصبية القبلية أن تخف عن أحداث الاندلس فى عام 112 هـ – 730 م عندما اقام عبيدة بن عبد الرحمن والي افريقية فى صفر من هذا العام عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى اميرا على الاندلس . وقد قضى عبد الرحمن معظم أيامه فى الأندلس فى الجهاد فيما يلي البرانس ، فابتعدت شخصيته عن ملامح العصبية القبلية التى كان يحملها الولاة القادمون من الشرق فكان لولايته طابع خاص لا نلمحه عند أحد ممن سبقوه . وكان الرجل من غافق احدى بطون كهلان اليمنى ، أما والي افريقية الذى اختاره لهذا المنصب فكان مع ذلك قيسيا متشددا . ويبدو أن عبد الرحمن قد تمتع بمركز عظيم بين عرب الأندلس لأن ولايته لقيت الرضى من طوائفهم كلها يمنية وقيسية وانتهت ولايته باستشهاده فى معركة بلاط الشهداء فى رمضان 114 هـ / 732 م . وفى نفس العام اقام الخليفة هشام على ولاية افريقية والاندلس عبيد الله ابن الحبحاب القيسى خلفا لعبيدة بن عبد الرحمن المسرف فى عصبيته ضد اليمنية ، والذى سأل هشام أن يعفيه من الامارة لغير سبب ظاهر (2) . وقد بعث الحبحاب على الاندلس مولاه عقبة بن الحاج السلولي وكان رجلا قيسيا صالحا محبا للجهاد ، فوصلها وبدأ ولايته عليها فى شوال 116 هـ / 734 م . واستطاع عقبة ان يقوم بأمر البلاد « بأحسن سيرة وأجملها واعظم طريقة

(1) يوجد اختلاف على مدة ولاية السمح ، فيقول بن شكوال أنها سنتان وتسعة اشهر . انظر : Lévi Provençal, Hist. de L'Emp. I, PP. 39 - 40.

(2) د.مؤنس ، فجر الاندلس ، ص 161 .

وأعدلها » (1) واستطاع أن ينصرف الى الفتوح فى صقلية وفيما وراء جبال البرت بقية أيام حكمه الذى طال سبع سنين . غير أن استبداد القيسية بالامر فى افريقية والاندلس كان حريا ان ينفر اليمنية والبربر على السواء ، وفى هذا الوقت انفجر الموقف بين البربر وينشغل عمال افريقية بأحداث ثورة البربر . وكانت سياسة عمال افريقية بلا استثناء سبب هذا الانفجار ، فيقال عن عبيدة بن عبد الرحمن عندما بارح افريقية عام 114 هـ / 732 م « كان فيما خرج به من العبيد والاماء ومن الجواري المتخيرة سبعمائة جارية ، وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية» (2) . وعرف عنه اسرافه فى مغازاة من بعد من قبائل البربر وسبى نسائهم ، هذا فضلا عن شدة وطأته على كل من انتمى الى آل نصير من العرب اليمنية والبربر الزناتية .

وشارك عبيد الله بن الحبحاب عمال افريقية فى عصبيته العربية والعسف بالبربر ، وفات عليه أن يستشعر اضطراب النفوس فى المغرب التي أحس بها عاملها السابق وفضل اعفائه من عمالتها قبل انفجارها . وبلغ من استخفاف ابن الحبحاب بالبربر أن اراد اعتبارهم فيئا للمسلمين ، من أسلم منهم ومن لم يسلم . وكان الولاة قبله يقصرون هذا اللون من المعاملة على من لم يسلم من البربر . وكتب ابن الحبحاب الى رجاله ، بحصر خمس البربر واعتبارهم رقيقا . (3) وانحرف ابن الحبحاب بدوره أيضا وراء عصبيته القيسية ضد اليمنيين . وتمهدت بذلك تربة ثورة الخوارج بزعامة ميسرة المطغرى (4) فى اقليم طنجة ، التى شارك فيها جند العرب فى افريقية والاندلس ومن انضم اليهم من بربر زناتة ، وضمت فيما بينها بيوتا شهيرة مثل بيت بنى عقبة بن نافع وبيت بني نصير . وتعددت مواقع الثورة بين طنجة والقيروان وتتابع زعماؤها فى كل موقع ، ولم تخمد الا بعد تدخل جيش الخلافة بقيادة والي مصر

(1) اخبار مجموعة ، ص 28 . د. مؤنس ، المصدر السابق ، ص 194 .
(2) ابن الآبار ، الحلة السيراء ، ص 48 ـ 49 . د. مؤنس ، فجر الاندلس ، برواية ابن عبد الحكم ، ص 161 .
(3) النويري ، نهاية الأرب ، ج 1 ، ص 34 .
(4) د. مؤنس ، المصدر السابق ، ص 162 ـ 164 .

حنظلة بن صفوان وانزال الهزيمة بالبربر فى موقع الأصنام وذلك فى عام 125 هـ / 743 م . وكانت الثورة مقدمة لثورات بربرية اخرى ، كانت ابرز احداثها ما يتعلق بمذابح القيروان الانتقامية بين عرب قريش وبربر زناتة ــ وهي المذابح التي من حطامها قامت الدولة الرستمية البربرية الخارجية بالمغرب الاوسط ، ودولة بني مدرار البربرية فى سجلماسة ، ودولة الأغالبة التي على يدها خرج المغرب عن طاعة الخلافة العباسية جملة .

وفى الاندلس كانت فترة الوفاق القبلي العصبي الذى عرفته ولاية عبد الرحمن الغافقى من القصر لتنبت ثمارها بعد انتهاء الولاية وترديها فى الازمة الكبرى التي نجمت عن مقتل عبد الرحمن ومعه خيرة رجاله فى واقعة بلاط الشهداء . وتتلخص هذه الازمة فى النزعة الجديدة الى حكم الاندلس التى بداها اليمنيون واخلافهم من المدنيين بالنزوع الى اختيار الوالي محليا من بين زعمائهم وقت انشغال عامل افريقية عن الاهتمام ببلادهم . ولم تعرف ولاية الاندلس فى هذه الفترة، الى نحو ربع قرن 114 ــ 138هـ/ 732 ــ 756 م الى ولاية عبد الرحمن بن معاوية ، من الولاة المكلفين بالولاية من قبل عامل افريقية وبالتالى من قبل الخلافة (1) غير الواليين : عقبة بن الحجاج السلولي القيسي (116 ــ 123 هـ / 734 ــ 741 م) والخطار الحسام بن ضرار الكلبى (125 ــ 127 هـ / 743 ــ 745 م) الذى كلفه بالولاية حنظلة بن صفوان . ويحكم المؤرخون على عقبة بن الحجاج السلولي بما سبق الاشارة اليه فى الثناء على سيرته فى الحكم ، وهو فى ذلك قد خلف الولاة المحليين الذين لم تحكمهم فى سياستهم غير عصبيتهم القبلية وهو ما يفسر طغيان الانقسام القبلي والعصبي فى عهد هؤلاء الولاة . هذا بينما يذكر عن ولاية الخطار ان سياسته العادلة لو قدر الاستمرار فيها لصلحت الاحوال وانتهت هذه العصبية البغيضة التي مزقت عرب

---

(1) راجع تاريخ ولاية كل من عبد العزيز بن موسى ، والسمح بن مالك الخولاني ، وعنبسة بن سحيم الكلبي ، وعبد الرحمن الغافقي ، وما بذلوه من جهود ضخمة فى المدانين الاداري والحربي فى سبيل دعم امارة الاندلس التي قام فتحها دون اعداد سابق او وفقا لخطة مرسومة على حد قول د. سالم ، (تاريخ المسلمين ، ص 168) ولم تامر الخلافة بتخميسها الا فى عهد ولاية السمح فى خلافة عمر بن عبد العزيز .

الاندلس شر ممزق ، لولا انقلابه على سياسته تلك بسبب مقتل صديقه سعد بن جواس (1) واتهام الشامية القيسية بقتله فيظهر على مسرح الاحداث الصميل بن حاتم ، فتتعدد أحداث المعارك الدموية بين الكتل العصبية المختلفة : بربر وعرب ، قيسية ويمنية ، بلديين وشاميين .

وفى الحكم على الولاة المحليين ، يكفى القول انه فى غياب تلك السياسة المستمدة من حكم الخلافة وتوجيهاتها والتي يلتزم بها الوالي فى حكمه ، استجاب بربر الأندلس لصدى ثورة اخوانهم فى شمال افريقية . وتحت تهديد ثورتهم بقيادة « زقطرتق » او ابن هدين (2) والذي عرفه دوزى بالامام ، استعان الكلبيون فى الأندلس بالشامية القيسية المحصورين فى سبتة منذ عام، فجد على النزاع اليمني القيسي وجه جديد عرفت معاركه بالنزاع بين البلديين والشاميين . فكان من سوء حظ الأندلس ان الشاميين كانوا من خيرة العرب شجاعة وبلاء ، فطال البلاء بهم واستمرت الحرب بينهم وبين البلديين (وهم الغالبية) سجالا ، تساقط فى مجازرها الآلاف ابتداء من موقعة أقوة برطورة (3) الى ظهور الصميل بن حاتم على مسرح الأحداث يسيطر عليها ويسيرها بمنطق العصبية القبلية العمياء ، فكان نموذجا غريبا لهذا الطراز من العرب الذين دخلوا الاسلام بخيرهم وشرهم وظلوا فيه على حالهم لم يكد الايمان يمس قلوبهم أو يغير منها شيئا . ولا نزاع فى أن الكثيرين جدا ممن شاركوا فى فتح الأندلس وساهموا فى هذه الحروب القبلية بضلع عظيم كانوا من هذا الطراز (4) ، وهو جانب آخر مثله لاشك الولاة المحليون مما يفسر ظاهرة الاسراف فى حروبهم العصبية . وزاد من عناء البلاد قبيل مجيء عبد الرحمن الداخل حدوث مجاعة اجتاحت الاندلس لخمس سنوات متتالية من سنة 131 —

(1) د. سالم ، نفس المصدر ، ص 162 .

Levi. Provençal, Op. Cit. PP. 48-9.

(2) ابن القوطية ، افتتاح ، ص 31 . مؤنس ، المصدر السابق ، ص 99 . سالم ، المصدر السابق ، ص 158 .

(3) مؤنس ، نفس المصدر ، ص 217 — 218 .

(4) اخبار مجموعة ، ص 61 . د. سالم ، المصدر السابق ، ص 163 — 164 .

136 هـ / 749 – 755 م (1) ، لتتزايد هجرة الاندلسيين الى افريقية ويتقلص مسلمو الاندلس عددا وعدة وتنظيما .

ولا يسعنا فى التعليق على نتائج تلك المنازعات العصبية والقبلية غير ترديد القول القائل بأن بلدا من بلاد المسلمين لم يشق بتلك المنازعات العصبية بين القيسية والكلبية كما شقيت بها المغرب والاندلس لما كانت تحتاج اليه هذه الاطراف من البقاع الاسلامية من تأليف ووحدة بين المسلمين فيها ، لتحفظ قوتهم ضد الأخطار الخارجية ، فاذا بالعرب ينشغلون بتصفية ثاراتهم العصبية القبلية عن بقايا القوط فى الأندلس وعن اتمام اخضاع البربر فى افريقية (2) .

ويكفى بصدد الاشارة من جديد الى الخلافات العصبية العربية والبربرية وعلاقاتها باشتداد المقاومة القوطية أن نتذكر معركة وادى سليط وما شابهها فى اواخر عهد الولاة . وقد ذكر صاحب أخبار مجموعة عن معركة سليط بانه « لم ينج منهم الا الشديد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش فى الأندلس فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم » (3) . اى حسبما يفسر د . مؤنس أن العرب بعد الانتصار الحاسم فى هذه المعركة قد تعقبوا البربر فى نواحي الجزيرة واشتدوا فى ذلك شدة بالغة حتى ساء حالهم كثيرا (4) ، الى حد هجر أراضيهم الزراعية لتعم المجاعة بلادهم فيقبلون على ترك الاندلس والهجرة من جديد الى افريقية ، ليخلو أو يكاد شمال الاندلس وغربه من المسلمين وهو ما يفسر اتساع دولة النصارى الاسبان فى جليقية واشتوريس اتساعا مفاجئا فى هذه المرحلة (5) .

وواجهت الامارة الأموية منذ نشأتها مشكلات المنازعات العصبية الى جانب مشكلة المد المسيحى من الشمال ، وانضاف الى هذه المشكلات

---

(1) د. سالم ، نفس المصدر .
(2) د. مؤنس ، المصدر السابق ، ص 142 – 146 .
(3) اخبار مجموعة ، ص 40 .
(4) د. مؤنس ، المصدر السابق ، ص 203 – 204 .
(5) نفس المصدر ، ص 206 .

Lévi, Op. Cit. P. 52.

العداء العباسي للبيت الاموي وما أثاره من فتن لا سيما فى ثغور الامارة . وفى هذه الثغور على الاخص تبرز ظاهرة الخليط السكانى التى بدأ بهـا مجتمع اسبانيا الاسلامية حيث تشكل المجتمع من العـرب والبربـر والسودان ، والقوط المهادنين والاسبان الوطنيين واليهود الموالين . وفى اطار العلاقات الطائفية داخل مجتمعات الثغور نهضت حكوماتهـا بـدور فى الحكم تعدت به مهام الدفاع عن الحدود الاسلامية الى واجبات الحكم والادارة المحلية الداخلية ، مما أثر على علاقاتها بالحكومة المركزيـة فى قرطبة . فكان للامارة الاموية الناشئة أن تعاني أيضا فى علاقاتها بجيرانها المسيحيين مشكلات الحكم فى ثغورها .

ثانيا : قيام الدولة الاموية وشكلاتها الى عهد عبد الرحمن الاوسط :

امارة قرطبة والعصبية القبلية ـ مشكلة ولاية العهـد ـ ثـورة المولدين فى طليطلة ـ ثورة الفقاء (وقعة الربض) .

امارة قرطبـة والعصبية القبليـة :

يؤرخ لقيام الدولة الاموية بالاندلس من يوم موقعة المصارة (الجمعة 10 ذي الحجة 138 هـ / 14 مايو 756 م) . وبعد انتصار عبد الرحمـن الداخل فى المصارة دخل قرطبة وصلى بالناس فى مسجدها ودعا لهم بالخير والعـدل (1) .

وكانت الهجرات الاندلسية الى شمال افريقيا تحت ضغط المجازر العصبية (قبلية وعنصرية) فى عهد الولاة المحليين ، من عوامل اضعاف جانب المجموعات العصبية الباقية فى الاندلس . وقاست العصبية اليمنية بشدة من ضربات الفهريين وكادت قوتهم تلحق بما لحق بقوة القيسيين من قبل . وواجهت العصبية القبلية والعنصرية الباقية فى الاندلس موقفا جديدا فى حكم عبد الرحمن الداخل ، يستمد مقوماته مـن اركان النظام

---

(1) اخبار مجموعة ، ص 89 ـ 90 . ابن عذارى ، البيان ، ج 2 ، ص 48 ـ 49 .

واقرار العدالة والخير ليختلف وجه الصدام بين القبائل الاندلسية وسلطة الولاية الاموية ، وتعود سياسة الحكم فى الاندلس الى الالتزام بأسس الحكم الاسلامى المجرد من النعرة العصبية والعنصرية ــ وهــى أسس تلاشت مبادؤها فى عهد الولاة المحليين وضعفت تحت وطأة العصبيــة القبلية والعنصرية فى عهد بعض الولاة الامويين والعباسيين . فالعصبية اليمنية عند قيام الدولة الاموية قــد وجدت فرصتهــا فحسب للنهــوض من كبوتها فى تأييد عبد الرحمن الداخل والاسهام فى تأسيس امارة قرطبة القوية . وعادت العصبية البربرية المقهورة الى الاندلس ممثلة فى موالي الأمويين وولائهم للبيت الأموى رفضا لولاة البيت العباسى وخلافتــه . ووضحت للعصبية الفهرية معالم الحكم الجديد واتجاهه الى ارساء دعائم النظام والاستقرار . حقا ان العصبية اليمنية والفهرية لعبت دورا هاما فى الثورات التى قامت فى وجه عبد الرحمن الداخل ، الا ان هذه العصبية لم تواجه عصبية مضادة لها ولم تحكم العصبية موقف عبد الرحمن الداخل فى مواجهة هذه الثورات . ووقف الداخل ضد اتجاه العصبية اليمنية الــى الانتقام من الفهريين بعد دخول قرطبة (1) ، وواجه من جراء هذا الموقف عــداء اليمنيين فى الوقت الذى لم يسلم من الفهريين بزعامــة يوســف والصميل واتجهت سياسته ازاء العداء اليمني والفهرى نحو التخلص أساسا من الزعامات المعادية (2) . فاستطاع أن يأمن جانب الفهريين فى ماردة وطليطلة. وفى ثورة طليطلة الثانية 144 ــ 147 هـ / 761 ــ 764 م تحركت العصبية اليمنية من جديد وواجه عبد الرحمــن الثورة بتأمين الأهالى والاكتفاء بالامساك بالزعماء (3) وانزال حكم الاعدام صلبا بهم (4) .

وكان اتصال العلاء بن مغيث رسول الخليفة العباســي المنصــور باليمنيين سببا فى تحرك العداء اليمني وانفجاره فى اخطر الثورات اليمانية ضد عبد الرحمن الداخــل فــى عــام 146 هـ / 763 م ، واثبت عبــد

---

(1) اخبــار مجموعــة ، ص 90 .
(2) دوزي ، تاريخ مسلمي اسبانيا ، ترجمة الدكتور حسن حبشي ، ج 1 ص 217-223.
(3) كان زعماء الثورة : هشام بن عذرة وحيوة بن الوليد اليحصبي والعمري .
(4) Lévi, Op. Cit. P. 109.

الرحمن فى معارك هذه الثورات للخلافة العباسية ما يدفعها الى عـــدم التفكير فى منافسته على الاندلس . ولم تعمر ثورة سعيد اليحصبي اليمني (148 هـ / 765 م) طويلا ومال فيها عبد الرحمن الى ارضاء عشيره سعيد بعد مقتله (1) . وضعفت شوكة العصبية اليمنية الى حد كبير بعد مقتل زعيمهم ابي الصباح الاشبيلي ، زعيم المؤامرة اليمنية فى بداية عهد امارة قرطبة ، وذلك فى عام 149 هـ / 766 م (2) .

وكان الحدث الأكبر للثورات القبلية المعادية للبيت الأموى هو تحرك البربر بزعامة من يدعى شقيا (3) . وكان البيت الأموى فى تأسيس دولتـه بالأندلس قد استند على الولاء الخاص من جانب الموالى الامويين . ولـــم يكن للموالى ذكر فى الاندلس كقوة موحدة لها كيانها وقوتها الا بعد دخول بلج ابن بشر مصحوبا بألف من الموالي وثمانية آلاف عربي (4) بالاضافـــة الى ما كان بالاندلس من موالي لبني اميـــة ، فضلا على من دخلها بعدهم من الاعداد التى دخلت فى ولاء البيت الاموى من اهل البلاد .

والمقصود اصلا بموالى بني امية هم موالى المشرق من اهل العراق وفارس والشام الذين تواجدوا مع العمال الامويين فى المغرب عبر مراحل

---

(1) انظـر : اخبـار مجموعـة ، ص 105 . ابن عـذارى ، البيـان ، ج 2 ، ص 52 . ابن الاثير ، الكامل ، ج 5 ، ص 449 – 450 .

(2) ابو الصباح بن يحيى اليحصبي ، كان عبد الرحمن الداخل قد ولاه على امارة اشبيلية ثم عزله عنها بعد ثورة سعيد بن اليحصبي لشكه فى أمره ، فنقم عليه ابو الصبـاح لذلـك والـب عليـه الاجنـاد فـى غـرب الاندلـس ، فتحايـل الامير على استقدامه الى قرطبة بالامان ، فقدم فى اربعمائة رجل من اتباعه . وعندما عاتبه الامير ، اغلظ له ابو الصباح القول ، فامر به عبد الرحمن فقتل . انظر اخبار مجموعة ، ص 105 وما يليها . د. سالم ، المصدر السابق ، ص 200 .

(3) دوزي ، تاريخ مسلمي اسبانيا ، (الترجمة) المصدر السابق ، ص 226 .

(4) يعد وصول بلج بن بشر بن عياض القشيري وجماعته الى الاندلس طالعـة ثالثـة بين الطوالع الاربعة فى تاريخ الاندلس السابق ذكرها . وقد أتى بشر بطالعته فى سنـة 124 هـ / 741 م الى سبتـة وتحصن فيها بما معه من عـرب قيسيـة وموالـي بعـد هزيمة البربر لهم فى واقعة الاشراف فيها ، واضطر والي الاندلس عبد الملك بن قطن الفهري الى الاستعانة بهم على اخماد ثورة البربر فى الاندلس ، وبدا النزاع ينشب بين عرب هذه الطالعة (الشاميين) والعرب البلديين منذ أن أتم الشاميون مهمتهم فى الاندلس وارادوا الاستقرار فيها – وهو النزاع الذي تحول الى صراع بين العصبية اليمنية والقيسية على نحو ما رأينا . انظر د. سالم ، المصدر السابـق ، ص 120

حروبه الطويلة ، وكانوا بين من شاركوا فى فتح الاندلس واستقروا فيها . وتكونت منهم ومن انضم اليهم من اهل البلاد تلك العصبية القوية التي كان لها أثرها فى احداث مجيء عبد الرحمن الداخل واقامته بالأندلس . وكانت اكثرية موالي الداخل من اهل المغرب الذين دخلوا فى ولاء بنى امية وعمالهم بالمغرب ، ووجد بين هؤلاء الموالى قبيلتان بربريتان كاملتان هما : بنو الخليع وبنو وانسوس . (1)

وفى الوقت الذى ارتبط جانب من ثورة اليمنيين ضد عبد الرحمن الداخل بالمواجهة بين البيت العباسي والبيت الاموى والموقف من الولاء الروحى للبيتين العربيين تحرك البربر بزعامة شقيا باسم بيت عربى آخر له قدسيته هو البيت الفاطمي . وفى تحرك البربر نحو ثورتهم هذه ، ادعى شقيا (عبد الله بن محمد) النبوة وانه من نسل علي وفاطمة بنت الرسول . والتف حول شقيا العديد من قبائل البربر حتى انه ضم البربر التابعين للمولى الأموى عبيد الله بن عثمان . واستمرت ثورة البربر وتمكنت من هزيمة طلائع جند عبد الرحمن الداخل ، ولم يتمكن عبد الرحمن من كسر حدة هذه الثورة الا بعد استمالة (الميدونى) احد زعماء البربر فى شرق الاندلس فانشقت صفوف الثورة واضطر شقيا الى الهرب شمالا ، واستمرت الثورة مشتعلة بين بربر الوسط مدة عشر سنوات قبل اخمادها عقب مقتل شقيا .

وفى تحرك البربر ضد البيت الأموى ، واجه الداخل ثورات اليمنيين والفهريين من جديد ، ففي غرب الاندلس ثار أقارب الصباح . وفى هذه الثورة ، انضم بربر الغرب الى الجيش الأموى ، فدارت الدائرة على اليمنيين حتى تلاشت جثث ثلاثين الف قتيل قبرت فى خندق ظل باقيا حتى القرن العاشر (2) . وفى برشلونة واجه عبد الرحمن الداخل أيضا تحالفا يمنيا فهريا بزعامة سليمان بن يقظان الكلبي وعبد الرحمن بن حبيب الفهري

---

(1) د. مؤنس ، فجر الاندلس ، ص 395 ـ 397 .
انظر : ابن القوطية ، افتتاح ، ص 247 ـ 272 . ابن عذارى ، البيان ، ج 2 ، ص 52 ـ 53 .

(الصقلى) وابو الاسود بن يوسف الفهرى والحسين بن يحيى الانصارى . وسعى زعماء التحالف فى عدائهم لعبد الرحمن الى الاستعانة بشارلمان فى عام 160 هـ / 777 م . وانتهت مكيدتهم بأيديهم وبما اضمرته عوامل الحقد والخيانة من جانب كل منهم ضد الآخر ـ وان كانت برشلونة بسبب هذه المؤامرة قد فقدتها اسبانيا الاسلامية لتتحول فى عام 801 م الى دوقيـة برشلونة كما سيرد ذكرها فى موضع آخر . (1)

وهكذا واجهت الثورات العصبية (عربية وبربرية) فى عهد امارة عبد الرحمن الداخل ضربات من نوع جديد لم تستمد قوتها من عصبية أخرى معادية ، بل نبعت اساسا من دفة الادارة والنظام التي امسك بها عبد الرحمن وأدارها بحكمة وبراعة . وبنجاح عبد الرحمن فى اخماد هذه الثورات (2) ، يصدق قول الخليفة العباس أبو جعفر المنصور فى وصفه بـ « صقر قريش » الذى عبر البحر ، وقطع الفقر ، ودخل بلدا اعجميا ، منفردا بنفسه ، فمصر الامصار ، وجند الاجناد ، ودون الدواوين ، واقام ملكا عظيما بعد انقطاعه بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته . . . (3) .

غير ان دفة الادارة والنظام التي استبدل بها عبد الرحمن الداخل الدفة العصبية فى تسيير احداث العلاقات القبلية (عربية وبربرية) فى اسبانيا الاسلامية ، كانت فى أمس الحاجة الى من يدعمها من خلفائه للحيلولة دون انتعاش الروح العصبية قوية من جديد . فماذا عن مشكلات الدولة الأموية فى عهدى هشام والحكم ؟

مشكلة ولاية العهد :

وان مشكلة ولاية العهد قد عرفتها امارة قرطبة فى نهاية ولاية عبد الرحمن الداخل ، واستمرت المشكلة كجزء من تاريخ الامارة وولايتها .

---

(1) انظر البحث ، الفصل السابع .

(2) كانت آخر الثورات التي واجهها عبد الرحمن الداخل ثورة هزيل بن الصميل بالاشتراك مع المغيرة بن الوليد ابن اخي عبد الرحمن عقب فشل المؤامرة الاموية ضد عبد الرحمن طمعا فى الادارة والحكم . انظر : د. سالم ، المصدر السابق ، ص 205 .

(3) المقري ، نفح ، ج 1 ، ص 308 ـ 310 . ابن عذارى ، البيان ، ج 2 ص 59 .

واتصل تاريخ امارة قرطبة الى عهد عبد الرحمن الاوسط بموقف عبد الله (البلنسى) بن عبد الرحمن الداخل وتمرده على الولاة من خلفاء أبيه والى موته في عام 203 هـ / 823 ـ 824 م في عهد ولاية عبد الرحمن الاوسط .
وكان عبد الرحمن الداخل قد عهد بالامارة الى ابنه المقرب هشام (1) من دون ابنيه سليمان وعبد الله . وكان هشام فى حياة أبيه يتولى امارة ماردة ، بينما تولى سليمان امارة طليطلة ، وتولى عبد الله امارة قرطبة . ولما كان سليمان أكبر أبناء عبد الرحمن وصاحب الحق الأول فى ولاية العهد ، فقد عقد عبد الرحمن العهد لابنيه هشام وسليمان (2) وأوصى ابنه عبد الله بتسليم خاتم الامارة لمن يسبق من ولديه هشام وسليمان فى الوصول الى قرطبة . فلما علم هشام بوفاة أبيه وصلها بعد ستة أيام قبل وصول سليمان ، فتمت له البيعة بالولاية . وأشعل فوز هشام بالولاية الأحقاد الدفينة لدى الاخوين ازاء أخيهما المفضل لدى أبيهم . وانتقل عبد الله من قرطبة الى ماردة ولحق بأخيه سليمان فى طليطلة وذلك عام 173 هـ / 790 م . فأرسل هشام جمعا فى أثر عبد الله للحاق به وارجاعه ولكنهم لم يدركوه ، فعلم هشام وسار الى طليطلة لحصار أخويه الثائرين بها ، ولكن سليمان خرج من طليطلة وترك بها أخاه عبد الله للدفاع عنها ، واتجه الى قرطبة للاستيلاء عليها ، وسار برجاله حتى وصل شقندة Secunda فدخلها ، ولكن قرطبة امتنعت عليه ، فقد استبسل اهلها فى الدفاع عنها .
واضطر سليمان الى الهرب الىماردة Mérida حيث تعقبه هشام ، فأقام بتدمير . ولم يجد بدا من طلب الامان من أخيه هشام الذى أجابه الى

(1) وفيما يقول ابن الاثير : « كان عبد الرحمن قد عهد الى ابنه هشام ، ولم يكن أكبر ولده ، فان سليمان أكبر منه ، وكان يتوسم فيه الشهامة والاضطلاع بهذا الامر » . الكامل ، ج 6 ، ص 112 .

(2) كان عبد الرحمن يرى أن كليهما جدير بالامارة ، فهشام له « فضل دينه وعفافه واجتماع الكلمة عليه » وسليمان لان له « فضل سنه ونجدته وحب الشاميين له » . انظر ابن عذارى ، ج 2 ، ص 92 .
وكان عبد الرحمن يفضل هشام لكونه رجلا كريما فاضلا عاقلا حسن التدبير ، بينما كان سليمان أهوجا سيء التصرف ، وقد أورد صاحب اخبار مجموعة امثلة لجوده وانصافه منها انه دخل عليه احد صنائعه من جيان وهو كناني ، وساله عن سر قدومه فاخبره انه قدم متظلما من ابي ايوب سليمان بن عبد الرحمن الداخل وكان واليا على جيان ، فذهب هشام الى ابيه وطلب منه أن ينصف الكناني ، فانصفه وكتب الى ابنه سليمان بذلك . (انظر أخبار مجموعة ، ص 122 . المقري . نفح ، ج 1 ص 315) .

طلبه وصالحه على ميراث ابيه عبد الرحمن الداخل . يقول النويرى : « ... وسار سليمان فوصل شقنده فدخلها وخرج اليه اهل قرطبة مقاتلين له مدافعين عن المدينة ، وبعث هشام فى اثر سليمان ، عبد الملك فى قطعة من الجيش فلما حاربه هرب سليمان فقصد مدينة ماردة فحاربه واليها فانهزم سليمان وبقي هشام علي طليطلة شهرين وأياما بها محاصرا ثم عاد عنها ، وقد قطع أشجارها وسار الى قرطبة ، وأتاه أخوه عبد الله بغير أمان ، فأكرمه وأحسن اليه . ثم سير هشام ابنه معاوية فى جيش كثيف فى سنة 174 هـ الى تدمير وبها سليمان فحاربه وخرب أعمال تدمير فهرب سليمان منها ، فلجأ الى البربر بناحية بلنسية فاعتصم بتلك الناحية الوعرة المسلك وعاد معاوية الى قرطبة ، ثم استقرت الحال بين هشام وسليمان ، ان يأخذ سليمان اهله وأولاده وامواله ويفارق الاندلس ، واعطاه هشام ستين ألف دينار مصالحة من ميراث أبيه عبد الرحمن وسار الى بلد البربر فأقام به » (1) . فتم نفي كل من سليمان وعبد الله الى شمال افريقية ، واقام سليمان بطنجة بينما كان عبد الله يمضى وقته متجولا فى بلاد المغرب ، فزار ابراهيم بن الأغلب بالقيروان ، كما زار الامام عبد الوهاب بن رستم الأباضى فى تاهرت (2) .

وبعد وفاة هشام آلت الولاية الى ابنه الحكم . وكان الحكم صارما حازما ، يباشر الامور بنفسه ، وسارع الى ملاقاة عميه سليمان وعبد الله . وكان عمان فى بر العدوة الغربية « افريقية » ، ثم عبر عبد الله منها الى الاندلس وتملك بلنسية التي استمد منها شهرته بالبلنسي (3) ، وتبعهأخوه سليمان عام 182 هـ / 798 م . وفى بلنسية اقبلا على اثارة الناس واشاعة الفتنة بينهم طلبا للامارة ، والتف حولهما من يريد الفتنة ، وتقابلا

---

(1) النويري ، نهاية ، مخطوط ، ورقة 95 ـ 96 . انظر كذلك ابن خلدون ، العبر ج 6 ، ص 270 . ابن الاثير ، الكامل ، ج 6 ، 116 . ابن الابار ، الحلة ، جـ 2 ، ص 363 .Haroon Khan, Incursions of the Muslims, II. P. 612. ويقول ابن عذارى : انه سير القائدين ابن شهيد بن يحيى وتمام بن علقمة ، انظر البيان ، جـ 2 ، ص 94 .

(2) د. سالم ، تاريخ المسلمين ، ص 220 .

(3) النويري ، المصدر السابق ، ورقة 97 . انظر أيضا ، ابن الاثير ، المصدر السابق.
Imamuddin, Political History of Muslim Spain, P. 53.

مع جيوش الحكم فى عام 182 هـ حيث دارت الدائرة على سليمان فى استجه Esija ، وفر سليمان الى الجبال يعتصم بها . وفى عام 183 هـ / 799 م تجددت الحرب مرة اخرى بعد ان جمع سليمان أعدادا من البربر وسار بهم لمقاتلة الحكم ، ولم يجد بدا من الفرار الى فريش ، وتتبعه الحكم ، ودارت الدائرة من جديد على سليمان ، ولما فر فى سنة 184 ـ 185 هـ (1) الى ماردة Mérida لحقت به عساكر الحكم وتمكنت من قتله ، وبعث الحكم برأسه الى قرطبة ، وأرسل الحكم الى أولاد سليمان وكانوا يقيمون بسرقسطة Saragosa كتاب الأمان ، وطلب اليهم الحضور الى قرطبة واغدق عليهم .

وما أن بلغت عبد الله البلنسى انباء ذلك المصير الذى لقيه أخوه سليمان ، حتى دبت الخشية فى نفسه وهدأت ثورته ولم يبرح بلنسية (2)، بل ارسل الى الحكم يطلب السماح والصفح والمسالمة والدخول فى طاعته . واستحسن الأمير الحكم موقف عمه واذعانه وأرسل اليه الامان سنة 186 هـ / 802 م وبذل له ولاولاده الأرزاق الواسعة . وكللت مهمة رسول السلام يحيى الليثي (الفقيه) ـ صاحب مذهب مالك (3) ـ بالنجاح الكبير الى حد العمل على زواج أولاد عبد الله من أخوات الحكم . وانعقد اتفاق الصلح فى عام 187 هـ / 803 م على أن يسكن عبد الله البلنسى

---

(1) يوجد اختلاف حول سنة وفاة سليمان ، انظر : النويري بنفس المصدر ، ابن الاثير، نفس المصدر ، ج 6 ، ص 149 ، 166 ـ 169 . ابن الابار ، الحلة ، ج 2 ، ص 363 .

(2) كانت بلنسية قاعدة شرق الاندلس ومن اعظم مدنه ، وهي تقع على مصب وادي الابيض فى بحر الشام (المتوسط) . ودخلت فى أملاك المسلمين بعد فتح طارق لتدمير ، واستقل عبد الله بن الداخل بها فى ثوراته ، فعرف بالبلنسي ، واقام فيها ربض الرصافة المشهور الذي ما زال يطلق على احدى ضواحي بلنسية ، وقد مات بها عبد الله عام 208 هـ / 823 ـ 824 م . انظر : د. سالم ، دائرة معارف الشعب رقم 61 ، ص 58 .

(3) دخل المذهب المالكي الاندلس فى عهد هشام ، وكان هذا اهم حدث فى المجال الداخلي فى عهد هذا الامير . وكان اهل الاندلس من قبل يتبعون مذهب الامام الاوزاعي الشامي المتوفى سنة 157 هـ / 774 م . د. سالم ، تاريخ المسلمين . . ، ص 218 .

ببلنسية . وبزواج عبيد الله البنسي من أخت الحكم صار من أهم قواده (1). وكما كان هذا الصلح بردا وسلاما على اقليم مرسية Murcia حيث توجد مدينة بلنسية ، فقد انهى لفترة انشغال البيت الأموى بأحداث تلك الفتنة التى كانت سببا فى اقتطاع جزء من أهم أجزاء الدولة الاسلامية على يد الفرنج ، حين اقتطعوا دوقية برشلونة وصارت ماركا اسبانيا منذ عام 185 هـ / 801 م .

ثورة المولدين في طليطلة :

وفضلا عن مشكلة ولاية العهد كعامل من عوامل الهدم للبيت الأموى الحاكم فى قرطبة وامارته الناشئة ، لم تقدم فترة امارة هشام بن عبد الرحمن والحكم بن هشام الدعم المطلوب للادارة ونظام الحكم ، فانصرف الاول الى نزعاته الدينية ومسالمته الشديدة ، وانغمس الاخير فى شهواته وملذاته الى حد أن شهد عهده الكثير من الثورات (2) ، أشهرها ثورة المولدين فى طليطلة وثورة الفقهاء (الربض) فى قرطبة .

اندلعت ثورة المولدين فى مدينة طليطلة ، وكانت المدينة مركزا من اهم مراكز العصبية المولدة ودعوى المولدين ، وضمت أكبر طائفة منهم – الأمر الذى انعكس على العلاقات بين طليطلة وامارة قرطبة وتجلى فى حركات المولدين الثورية المتعددة وميولهم الانفصالية عن قرطبة .

وكان المولدون فى تاريخ اسبانيا الاسلامية يمثلون احدى القطاعات الكبرى بين مسلمي البلاد ، الى جانب العرب والبرر والموالى والمسالمة . فالفاتحون العرب والبربر عند فتح اسبانيا كانوا قد تركوا نساءهم فى بلادهم ، فأقبلوا على مصاهرة الاسبان – وهو احد عوامل انتشار الاسلام بسرعة فى الاندلس وامتزجت دماء الفاتحين من العرب والبربر بدماء اهل البلاد . ونشأ من ذلك جيل جديد من أبناء المسلمين عرفوا بالمولدين ،

(1) النويري ، نهاية الارب ، ورقة رقم 97 . ابن عذارى ، البيان ج 2 ، ص 70 . ابن خلدون ، العبر ، ج 2 ، ص 273 .

(2) شهدت الاندلس فى عهد الحكم ثورات فى : طليطلة ، قرطبة ، ماردة ، الثغر الاعلى (سرقسطة) .

وكان عبد العزيز بن موسى اول من تزوج باسبانية ، تزوج مـــن ايخيلونا Egilona ارملة لذريق ، فحذا حذوه كثير من رجال العرب ، وان كان كثير من المولدين قد احتفظوا بأسمائهم الاسبانية القديمة . (1)

وفي بداية ولاية الحكم ، استخف مولدو طليطلة بوالي قرطبة الجديد ومالوا الى الانفصال عنه في ثورتهم التي قاموا بها في عام 181 هـ / 797 م . ولكن عرف الحكم كيف يوقع بالثائرين عندما ولى عليهم عمروس ، مـــن خداع زعماء المولدين في طليطلة ، وأنزل بهم مذبحة « الحفـــرة » بعـــد حضورهم الحفل الذى دعاهم اليه ـ وهي المذبحة التى راح ضحيتها خمسة آلاف وثلاثمائة قتيل . فلانت شوكة اهل طليطلة الى خروجهم في عــــام 199 هـ / 805 م على حد قول ابن عذارى . (2)

ويدلل دوزى Dozy على مدى قوة ثورة المولدين تلك من عـــدم استطاعة الحكم اخمادها طيلة حياة شاعر طليطلة المشهور ، ذا الشعبيـــة المطلقة (غربيب Gharbib) ، وهو من افراد الأسر المولدة ، الـــذى حافظ على أن تظل النار المقدسة مشتعلة ، وعمل على اذكاء ذلك والوقوف في وجه السلطة في كل قصائده واشعاره ، ولهذا الشاعر أكبر الاثر على حياة طليطلة ، لأن الحكم لم يجرؤ على اتخاذ اى اجراء ضدها طيلة حيـــاة شاعرها ، وقام بمذبحته بعد وفاة غربيب (3) .

وفي عام 202 هـ / 817 م لجأ الى طليطلة بعض الفقهاء من مدبرى ثورة الربض أمثال يحيى بن يحيى ، وطالوت بن عبد الجبــــار . وكـــان للمولدين في طليطلة وفقهائها أن يميلوا الى تأييد ثورة الفقهاء في قرطبة ، ومع نجاح الحكم في انزال وقعته الشهيرة بهم تأجلت ثورتهم الى ولاية عبد الرحمن بن الحكم امارة قرطبة .

---

(1) د. سالم ، المصدر السابق ، ص 128 ـ 130 .
(2) ابن عذارى ، المصدر السابق ، ج 2 ، ص 111 . انظر ايضـا ، د. سالـــم ، المصـــدر السابـــق ، ص 222 .
(3) Dozy, Op. Cit. PP. 246-7.

ثورة الفقهــاء ـ وقعة الربــض :

تقع الربض التي شهدت مذبحة الفقهاء على الضفة الجنوبية لنهــر الوادى الكبير فى مقابلة قرطبة حيث يصلهما جسر قرطبة الشهير . وكان حي الربض يزدحم فى سكناه بأخلاط من الناس من الطبقة الكادحة ، مــن اهل الحرف المختلفة ، ومن طلاب العلم ـ وهي طبقة يسهل التأثير عليها من جانب رجال الدين . وقد استطاع هؤلاء ان يوجدوا جوا من السخط على الأمير الحكم الذى لم يستسلم مثل أبيه لهم ، وفقدوا فى عهده نفوذهم السابق . وقد تسبب جو السخط فى تحويل حادث بسيط تمثل فــى خلاف جندى مع (قيــن) من اهالي الحي انتهى بمقتل القين وقيام الأهالي بقتل الجندى واستمرار هيجانهم الذى سرعان ما حوله الفقهاء الى ثورة احاطت بقصر الأمير وتطالب بالقضاء عليه . ولجأ الحكم الى حيلة حـــرق حي الربض لفك حصار الثوار عن قصره حيث اسرع الثوار لانقاذ أولادهم ونسائهم ، فأوقعت بهم القوات مقتلة عظيمة فى عــام 202 هـ / 867 م . وأعلن الحكم أهل الربض بالرحيل عن الأندلس وأمر بهدم الحي وأوصى بعدم سكناه بعد مماته . (1)

ثالثا : امارة قرطبة وحدود دولتها :

شغلت هذه الفتن والثورات امارة قرطبة عن أمور المملكة الخارجية ، مما جعل الممالك المسيحية الشمالية فى مدة ولاية الحكم تتقدم نحــو الجنوب وتهدد الثغور الاسلامية . وكانت مواقف حكومات الثغور الاسلامية فى اسبانيا من امارة قرطبة الناشئة تمثل خطرا مزدوجا يجمع بين ملامح التمرد والثورة فى الداخل والتهديد المسيحي ـ العباسى من الخارج .

وان حركة المارقين سليمان بن العربى والحسين بن يحيى الانصارى لشاهد على التعاون والتقارب والعون الفرنجــي ـ القوطى ـ العباســي

---

(1) راجع اثر هذه الثورة وعلاقة المهاجرين من أهل الربض بمراكــز العمــران المختلفــة التي نزلوا فيها مثل الاسكندرية وكريت وفاس : د. سالم ، تاريخ المسلمين ، ص 224 د. العبادي ، المجمل فى تاريخ الاندلس ، ص 81 ـ 82 .

منذ عهد عبد الرحمن الداخل . واتصلت احداث الفتن التي حركها هـذا التحالف العدائى فى عهود خلفاء عبد الرحمن وامتدت الى داخل البلاد وشملت ايضا العلاقات مع دول شمال افريقيا الاسلاميـة . وكـان رد الامارة الاموية على هذا التحالف المسيحي ـ الاسلامى ، باقامة علاقات ود وتعاون مع الدولة البيزنطية . ومع ذلك ، امكن للوجود القوطي فى شمال اسبانيا فى ظروف هذه العلاقات ان يتسع فى نفوذه فى معاقله الرئيسـية الثلاث : جليقية ، واشتوريس ، ونافار ، مما دفع الامير هشام بن عبـد الرحمن الى تجريد حملاته الشهيرة التي بلغت خمس حملات وصل فيهـا الى العاصمة المسيحية اوفيدو Ovido واستولى عليها مرتين . واستأنف خلفه الأمير الحكم الحملات بهدف وقف الزحف المسيحي الذى بلغ حـد محاولة الاستيلاء على مدن تطيلة Tudela وطرطوشة Tortosa وبرشلونة Barcelona من جانب الفرنجة فى محاولتهم التي بذلوها اكثر من مـرة من اجل اقامة قاعدة لهم فى شمال اسبانيا ، ونجحوا فى ذلـك بالفعـل بالاستيلاء على برشلونة عام 185 هـ / 801 م وهي القاعدة التي لعبت دورا رئيسيا فى دعم الممالك المسيحية وتوسعها . (1)

وتأخر الحكم الى عام 192 هـ / 808 م للرد على عبـث الممالـك المسيحية فى ثغور المسلمين بعد استيلاء الفرنجة على برشلونة فى عام 185 هـ / 801 م وفشلت حملة المسلمين بقيادة معاوية بن هشام للرد على التهديدات المسيحية بغزو البـه . وفى عام 192 هـ كانت حملة الحكم بقيادة ابنه هشام . ثم مضت ثمان سنوات قبل أن يوجه الحكم وزيره عبد الكريم لغزو اشتوريس التي انضم سكانها الى الملك الفونسو الثاني (2) . وتعد هذه الحملة اهم حملات الحكم ، وفيها توغل عبد الكريم بن مغيـث بالمسلمين فى اراضي جليقية ، واثخنوا فيهم ونهبوا بلادهم وهدموا عدة من حصونهم ، فلما راوا ما فعله المسلمون ببلادهم ، كاتبوا جميع النصارى فى النواحي واستنفروهم واقبلت عليهم اعداد ضخمة وتقابل الفريقان على نهر مينو Mino فصار النهر حاجزا بينهم وبين المسلمين ، الا ان القتال

(1) انظر البحث ، الفصل السابع
(2) انظر البحث ، الفصل الخامس

صار على كل جزء من النهر ، وقاتل المسلمون قتال الصابرين وحملوا على العدو حملة صادقة . وفى ذلك يقول ابن عذارى : « .. ثم حمل عليهم المسلمون حملة صادقة فاضعفوهم فى المضايق وأدخلوهم على غير طريق ، فأخذتهم السيوف والطعن بالرماح ، والفرق فى المياه ، فقتل من المشركين عدد عظيم لا يحصى كثرة . ومات اكثرهم بالتردي ودرس بعضهم بعضا ، وصاروا بعد المطاعنة والمجالدة بالرماح والسيوف الى قذف الحجارة واكثروا الحراس بالمخائض ، ووعروها بالخشب ، وحفروا الحفائر ، وخندقوا الخنادق ، ونزلت الامطار ، وكان قد فرغ ما كان لأعداء الله من المرافق ، وضاق الحال ايضا بالمسلمين فقفل عبد الكريم ظافرا لسبع خلون من ذى القعدة . » (1)

والملاحظ على تلك الحملة ذات الأهمية العظيمة للجانبين الاسلامى والمسيحي أن الجانبين فيها قد أدركا عدم جدوى مثل هذه الحملات المتبادلة ، وأدى ذلك الى ايجاد نوع من السلام المؤقت بين الحكم بن هشام وبين الممالك المسيحية .

وفى مواجهة الفرنجة ، اغزى الحكم ابنه الأمير عبد الرحمن فى جيش كثيف لانقاذ طرطوشة من حصار الفرنجة ، وانتصر على جيش الفرنجة انتصارا حاسما ، ولم يعاود بعده ملكهم لويس بن شارلمان الكرة مرة أخرى على طرطوشة ، ولكن أمام عيثهم فى الثغور أثناء اشتغال الأمير بالخارجين عليه ، خرج الحكم بنفسه لملاقاتهم سنة 197 هـ / 813 م واكمل عمله ضدهم بغزوة عام 199 هـ / 815 م المشهورة الى برشلونة بقيادة ابن عمه (عبد الله البلنسى) ، وفيها انتصر على الفرنجة وهزمهم وقتل عامتهم وفرق جموعهم ولما انجلت الحرب نصب قناة طويلة وامر بالرؤوس فجمعت وطرحت حول القناة حتى غابت القناة فيها .

وعلى ضوء احداث هذه العلاقات وفى محاولة تحديد الخريطة السياسية للامارة الأموية ، يتضح مما سبق ان الامارة فى اسبانيا الاسلامية

---

(1) ابن عذارى ، البيان ، جـ 2 ، ص 75 .

قد بدأت بخط من الحدود يمتد من قلمرية Coimbra فى الغرب عبر قورية Coira وطلبير Talavera وطليطلة Tolido ووادى الحجارة Guadaljara وتطيله Tudela الى بمبلونة Pamplona فى الشرق . والى الشمال من هذا الخط ؛ امتدت تلك الأراضى القاحلة التى سبق ان سكنها البربر فى بداية الفتح الاسلامى وهجروها بعد مجاعة الخمس سنوات التي شهدتها اسبانيا فى منتصف القرن ورحلوا عنها الى شمال افريقيا . والى الشمال الشرقي ؛ قامت حكومة الثغر الأعلى الاسلامى فى سرقسطة Saragossa والتي مارست سلطات ذاتية على القطاع الأوسط من ضفاف نهر ابره R. Ebro .

وفى عهود اسلاف عبد الرحمن الاوسط تذبذبت حدود الامارة الاموية بين المد والجزر لتتحدد فى بداية عهده بخط يمتد من قلمرية فى الغرب عبر شلمنتقة Salamanca وصمورية Zamora الى تطيلة فى الشرق . وتعنى هذه الحدود أن مملكة اشتوريس Asturias قد توسعت فى حدودها الجنوبية عبر خط يمتد من برتقال Porto فى الغرب على طول نهر دويرة R. Duero عبر شلمنتقه وبلد الوليد Valladolid وبرغش Burgos وقلهره Culahorra الى بمبلونة Pamplona فى الشرق . هذا مع اعتبار الأراضى الجنوبية ؛ المطلة على هذا الخط من الحدود المسيحية ؛ خالية بسبب طبيعتها الجبلية القفراء ؛ بينما مناطق الكثافة السكانية الاسلامية على طول هذا الخط تتحدد بثغور اربعة هي : الثغر الأدنى فى ماردة Merida والثغر الأعلى فى سرقسطة Saragossa والثغر الأوسط فى طليطلة Toledo واشبونة Lisbon . وجاء عبد الرحمن الأوسط عام 206 هـ / 822 م ليتولى دفة الحكم فى قرطبة وينهض بدوره التاريخى المتميز فى تغيير معالم اتجاه تلك العلاقات .

(يتبع)

الرباط ابتسام مرعى خلف الله

سَيّد و مَسُود

مقبولة الحلي

أتقـول سيـدتى وانـك سيـدى وتهيـم فى شفتى ، وعطرك فى يـدى
أنعيـش فى أمـل ويحرقنـا الظمـا ونـعـود بعـد القـرب لـم نـرد
حـتـام تغويـنـا المنـاهـل ثـرة والام تغريـنـا . . . ولـم تـجـد
وعـلام نقربـهـا ونخشى نـارهـا ونقـول : يـا هـذا الظمـا لـغـد
أهى الـحـرام وانـت صاحبـهـا أبـداً . . فلـم يسبـقـك من احـد
ولأنـت مالكهـا وان لـم ترتشـف من نبعهـا شيئـا . . . ولم تـكـد

* * *

ثغـرى وثغـرك بالظمـا احترقـا شـوقـاً وان يتـلاقـيـا يـزد

وعليهمـــا ألـــف ابتهـــال محـــرق ويحوم حولهما نداؤهمـــا الصـــدى

كأسان كم ملئا ــ ولم نشربهما ــ برحيقنـــا النـــادى الذى لم ينفـــد

شر البلـــيـــة أن فيـــنـــا رغـــبـــة لا تنقـــضى وان امتـــنعنـــا تـــزود

بـــغـــداد مقبولة الحلى

شعراء العراق
وأحداث المغرب الأقصى

● عبد الرزاق الهلالي

العراقيون ، كما هو معلوم فى طليعة ابناء الامة العربية استجابة للواجب القومي واستنفارا للهمم والمشاعر فى سبيل خير العرب وخلاصهم، وان نظرة الى دواوين شعرائهم تعطي الدليل القاطع على ما نقول :

واني لأذكر نشيدا كنا نقرأه فى المدارس تقول كلماته :

بلاد العرب اوطاني من الشام لبغداد
ومن نجد الى يمن الى مصر فتطوان

واذكر ما كنا نحفظه للشاعر العراقي الكبير المرحوم الشيخ محمد رضا الشبيبي وهو قوله :

انني ذاك العراقي الذي ذكر الشام وناجى اليمنا
انني اعتد نجدا جنتي وارى جنة عدني عدنا

واذكر ما قاله الشاعر المرحوم السيد سعيد كمال الدين وهو يتطلع الى الوحدة العربية ويقول :

أيجمع شملي من عـراق وتونـــس   مع الشام مع لبنان مع نجد مع مصر
من اليمن الميمون ثم مراكـــــش   أيجمع هذا الشمل يا فرحة العمر

اقول هذا وهو قطرة من بحر ، لأخرج الى القول ، بأن مواقف شعراء العراق مع المغرب الاقصى هي المواقف نفسها مع بقية الاقطار العربية فى مثل هذه الظروف والاحوال .

فاذا كان الامر كذلك ، فما الذي قاله بعض شعراء العراق بالاحداث التي جرت فى المغرب الاقصى ؟

وللاجابة على هذا التساؤل ، سنقدم للقارىء نماذج من قالوه ابتداء من الحرب التحررية التي اندلعت نيرانها ضد الاستعمار الاسبانـــي فى (منطقة الريف) فى أوائل العشرينيات ، بقيادة البطل عبد الكريم الريفي ومن ثم من بعده ابنه محمد بن عبد الكريم الذي حمل الراية بعد أبيه وأبلى بلاء حسنا فى هذه الحرب الوطنية الكبرى التي جعلت ابناء الشعب العربي فى جميع اقطارهم (وكانوا اذ ذاك كلهم ، مبتلين بالاستعمار) يعيشون فرحة غامرة للنصر المؤزر الذي حققه هذا البطل الثائر .

فهذا هو الشاعر المرحوم الشيخ محمد علي اليعقوبي ، وهو شاعـر كبير يحيي هذه الثورة ، ويحيي ابطالها قائلا :

احبـاي على (الريـــف)   لقد حـن لكـم قلبـــي
أعدتم سالـف المجـــد   وقمتـم عنـه للـــذب
صبوتم للعـلا وصبـــت   اليكـم والعـلا تصبـــي
أتـى البرق لنـا ينبـــي   عنكـم بالـذي ينبـــي

ثـــم يقـــــول :

سقى الريـــف ومن قـــــد　　حلى فيه واكـف السحـــب
وحيـــا اللـــه ابطـــالا　　بـــه كالأســـد الغلـــب
كـــرام وردوا الحتــــف　　ورود المنهـــل العـــذب
جلال عبد الكريـــم بهـــم　　دياجي الهـــم والكـــرب
وقام ببيضهـــم يحمـــي　　ذمار الديـــن والشعـــب
واقدم خائضـــا فيهـــم　　غمار المـــوت والحـــرب

* * *

وقد ظل الشعب العربي فى مكان يتغنى بالانتصار الذي حققته هذه الثورة التحررية ، حتى اذا تحالف الاستعمار الفرنسي مع الاسباني وزحفت جيوشهما واساطيلهما لضرب الثوار الابطال ، لم يعد بالامكان الوقوف امام هذه القوة الغاشمة ، ولذلك خبت نار الثورة ووقع بطلها فى الاســـر فكان لهذا الخبر وقع الصاعقة على النفوس ، وهذا الشاعر العراقي العصامـــي المرحوم عبد الرحمن البناء يقـــول :

عبد الكريم جرى فى إسرك القلـم　　وخانك الدهر لا الاقدام والهمـــم
يا مساءا ذكر الافرنج موقفـــــه　　بالفافقي فزاد الغيظ عندهـــــم
تالبوا واتـــوا للانتقـــام معـــا　　لولا تالبهم أضناهـــم السقـــم

اما الشاعر اليعقوبي ، فقد آلمته هذه النتيجة ولكنه مع هذا ، راح يخفف على البطل الاسير ويقول :

يا بطل الريف عليـــك الســـــلام　　فى الحرب والسلم رعيت الذمـــام
إنت على الحالين حزت الثنـــــا　　خـــلاك ذم وعـــداك المـــلام
وفيت بالعهد وصنت الحمـــــى　　ان الوفا بالعهـــد فرض لـــزام

أنبأنـــا البـــرق بأن العـــــدا قد ادركت منك المنـــى والمـــرام
فاي قلب لم يـــذب حســـــرة وأى طرف ليس يجفو المنـــــام

ثـــم يقـــــول :

يا نفس ذوبي أسفا واجزعـــــي قد طرقت ام الدواهي العظـــــام
بكت اغاديـــر وحنـــت اســـــى فجاوبتها بالحنيـــن الشـــــام
شبوا على الاولى ضـــرام الوغـــى فاصطلت الاخرى بذاك الضرام (1)
وابتهجـــت باريس جذلانـــــة مفتـــرة الثغريـــن بالابتســـــام
ان (كريم) القوم ، حلف الابـــــا أصبح مأسورا بأيدي اللئـــــام
اتصرع الذؤبان ليث الشـــــرى وتخطف الصقر بغات الحمـــــام

* * *

وصادف وقوع هذا الخبر المؤسف والحدث الاليم ايام العيد ، وقد خرجت عامة الناس تحتفل بالعيد ، كعادتها ، اما الشاعر اليعقوبي نفســـه فقد عجب من هذا الموقف قائلا :

أرى الناس فى عيد يحيي به الفتى أخاه عناقا والثغـــور بواســـــم
وقد احدقت فى الشرق من كل وجهة مصائب تبكيها العلى والمكـــــارم
احاذر اما بحت فيها مصرحـــــا وها انا فى رغم الحقيقة كاتـــــم
فقد نالت (الاسبان) بالريف قصدها وجلق تغشاها العدا وتهاجـــــم

---

(1) كانت الثورة السورية قد اندلعت نيرانها ضد الفرنسيين ايضا فى الوقت نفسه

ربوع عليها البغي جارت صروفـــه فاقوت معالي اهلها والمعالـــــم
فيا ليت شعري أي عيد لأمــــة تصدع منها شملها المتلائـــم ؟

ولهذا الشاعر الكبير قصيدة أخرى قالها بمناسبة احداث الريف ، راح يعاتب فيها الشعب العراقي أيضا ، قائلا :

أشعب العراق متـــى ترتقـــي وتدرك مـــا فات فيمـــا بقـــي
الام وأنت رهيـــن الخمـــول أسير يد الجهل لـــم تطلـــق
تاخرت فى حلبـــات العلـــى وكنت بشـــأوك لـــم تلحـــق

ثـــم يقـــول :

على الريف اسكب دمـع العيـون اذا ما جـــرى ام على جلـــق ؟
اتزهق انفس قومـــي هنـــاك ونفسي تعـز ولـــم تزهـــق ؟

* * *

اما الشاعر الاستاذ خالد الشواف ، فقد تتبع الحركة الوطنية والثورة العارمة التي اشتعلت نارها فى المغرب العربي ، ولذلك يقول :

المغرب العربـي يعرف دربـــه ليست دروب السالكيـن ســـواءا
نبذ الدروب الدائرات بخطـــوه عبثا وشق طريقـــه حمـــراءا
ثمن الحياة دم يسيل وأنفـــس تشقى واجسام تصيب عنـــاءا
من شاء اخذ الحـق من متجبـــر نبذ الخنوع وعـــاف الاستخـــذاءا
والحق يسمع للأزيز ويجتـــوي محض البلاغة فيه والانشـــاءا

ثم يلتفت الى فرنسا ، مشيرا الى الدعوى القائلة بانها هي التي فتحت للشعوب طريق الحرية قائـــلا :

ايه محررة الشعوب أأنـــت مـــن رفعت امام الثائريـــن لـــــواءا
دعواك امس خرافة مستـــــورة اليوم عنها تكشفيـــن غطـــــاءا
قسما بتموز الـــذي أغرقتـــــه بدم كمثل السيل راح غثـــاءا
ان الذين سفحت من مهجاتهـــــم وعروقهم ما خضب الغبـــــراءا
لم يثو فى الباستيل أروع منهـــم عنـــد المنون ترفعـــا وابــــاءا

* * *

ولا يتخلف الشيخ اليعقوبي رحمه الله ، عن الاعراب عن مشاعره تجاه ما لقيه الشعب فى المغرب الاقصى او فى مراكش كما كنا نعرفها بهـــذا الاسم ، فها هو ذا يترنم بثورة الشعب الثائر قائلا :

عرب لنيل العـز ثـــــاروا والنصر يسري حيث ساروا
ثاروا وليس سوى القضـــا ء على الطغام لهم شعـــــار
ثـــاروا على المستعمريـــن فانهـــم ظلمـــوا وجــــاروا
لم تـــرع يومـــا ذمـــــة منهم ولم يحـم الدمـــــار

ويخاطـــب فرنســـا قائـــلا :

ذوقي فرنسا ما جنيـــــت فغاية الضغـط انفجــــار
لـــك عنـــد اولئـــك الا حـــرار اوتـــار وثـــار
أو ما اعتبرت بما مضـــــى لو يردع الباغي اعتبــــار
وذكرت باريـــس التــــــي بالامس حاق بها الدمـــار
فدعـــي البـــلاد لأهلهـــــا فوراء ذاك الزنـــد نـــار
هيهات مالـــك فى مراكـــش مطمـــان او قـــــرار

فالقوم قد طلبوا حقوقـــــا لا تـبـــاع ولا تعـــــار
فخذي حـــذارك منهـــم لو كان يغنيك الحـــذار
حان الجـلاء ونجـــم سعـــــدك قد دنـا منـــه الســـرار
واذا ذهبت نقـــول (لا رجعـــت ولا رجع الحمـــار) !

* * *

اما الشاعر الاستاذ مهدي المقلد فيقول هو الآخر في قصيدة عنوانها (مراكش الثائرة) :

بوركت يا وطن المفاخـر والوفـا بدم بكى اسفا له حتى الصفـــا

ثـــم يقـــول :

اسفا عليك مراكش يـوم اعتـــدى الباغي وسل على بنيك المرهفـــا
ورماهـــم بفيالـــق جبـــارة حتى اذا صالوا عليه تكشفـــا
طلبوا مساواة الحقوق فهالـــه ما طالبوا من حقهم وتعسفـــا
زارت غرائمهم وصلـت مثلمـــا صل الحديد بحومـة وتقصفـــا

* * *

ومن الحوادث السياسية الهامة التي وقعت في المغرب الاقصـى وراح صداها يتردد في مختلف ارجاء العروبة بل وفي العالم كله ، حادثة اقدام السلطات الفرنسية على التآمر لخلع الملك الشعبي المغفور له الملك محمد الخامس ، وقد كان لها صداها في العراق ، فها هـو ذا الشاعـر الاستاذ نعمان ماهر الكنعاني يسجل مشاعره تجاه هذا العمل الغاشم قائلا:

غضب السيف فهز الحـــــددا   أيهـا المغرب بوركـــت يـــــدا
وانتخى العزم فيا جاني أفـــــق   هو ذا الثائر يبقـــى القـــودا
هو ذا الثائـــر خلـــى أمســــه   كافرا بالصبر واستبقى غـــــدا
وعلى رسم الحق سارت أمـــــة   لتذود الباطـــل المحتشــــدا

ثـــم يقـــــول :

يا دماء (المغرب) المشـــرق فى   غرة الفخـــر ابـــاءا ونـــــدى
خبري العالـــم ما ذا لقيـــــت   منك باريس وما كان الفـــــدى
يا دماء (المغرب) الطالــــع فى   أفق العرب سراجـــا موقـــــدا
قد رويناك حديثـــا مسنــــــدا   ورصدناك على بعـــد المــــدى
وهتفنـــا لـــك من أعماقنـــــا   وسالنـــا الله فيـــك الأيـــــدا

ثم يختم هذه القصيدة قائلا .

شرف الحرب وأمجاد الوغـــــى   وبطولات النضـــال المقتــــدى
بك يا (مراكش) اليوم زهـــــت   ألف مرحى لـك يا أم الفـــــدى
قد أطعت الصبر حتـى نفـــــدا   وعصيت العزم حتـى حصـــــدا
والفحيها مثل ما شـــاء الأبـــــا   شعلة تنجب نـــورا سرمــــــدا
وابعثيهـــا ثـــورة عـــاصفــــة   يحسد الفارس فيها المقعـــــدا
وامنحي التاريـخ فى نشوتـــــه   خيـــلاءا من دمـــاء الشهـــــدا

* * *

وتفجع اكادير بالزلزال المدمر ، ويذهب ضحيته الالوف من ابنائها ، فيهز هذا الحادث المفجع مشاعر العراقيين ، وهذا هو الشاعـر الاستاذ عبد الله الجبوري يقول :

ايه اكادير اصبـــري جبـــارة   فالصبر عند النـــازلات وقـــاء
هاج البلاء عليـك فى زلزالـــه   ونزت عليك فواجـــع ســـوداء
ارخى عليك السقم من اذيالـــه   حتى طغـــى وتفشـــت الادواء
رزءان كيف تلاقيـا فى محنـــة   ثار الوبـــاء عليـــك والدامـــاء

اما الشاعر الاستاذ حارث الراوي فقد وقف متسائلا فى قصيـــدة جـــاء فيهـــا قولـــه :

اغادير ماذا يفيـــد القريـــض   إتجديك مني اغانـــي الكـــدر
اغاديـــر ايـــن رواء الربيـــع   اغاديـــر اين مغانـــي الاســـر
احقا تواريت تحـــت الثـــرى   ولم يبق فوق التـــراب حجـــر
وامسيـــت مقبـــرة الآمنيـــن   وكان محياك يغـــري النظـــر

* * *

وحين قام جلالة المغفور له الملك محمد الخامس بزيارته الى العراق فى عام 1960 ، رحب به العراق شعبا وحكومة ترحيبا عظيما ، لانه بطـل من أبطال النضال الوطني ، وقد حياه العديد من الشعـــراء وحيـــوا فى شخصه جهاد الشعب العربي فى المملكة المغربية الفتية .

واذكر انه حين زار مدينة النجف الاشرف رحب به الشيـــخ محمد علي اليعقوبي ببضعة ابيات منها هذان البيتان :

يا من بطول جهاده فى المغرب الـــ   ـــعربي مجد العرب عاد مجـــددا
خضت الغمار تذود عنه مجاهـــدا   وخرجت منه صور اللواء مؤيـــدا

ولعل قراء هذه المجلة الزاهرة ، يذكرون تلك القصيدة العصماء التي انشدها الشاعر العراقي الكبير الاستاذ محمد مهدي الجواهري عند ما كان فى الرباط سنة 1974 ، واعنى بها قصيدته التي جعل عنوانها (الصحراء فى فجرها الموعود والتي مطلعها :

صحراء فجرك موعود بما يلـــد والمغربيون أكفاء بما وعـــدوا

وخاطب فيها جلالة الملك الحسن الثاني قائلا :

يا حارس الوطن المرهوب جانبـه عليه مما بنى تاريخـه رصـــد
فاءت اليك بما ضمت وما تلـــد كما يفيء لظل الوالـــد الولـــد

ثـــم يقـــول :

مشى اليك يجد البيعة البلـــد عليك فى الخطب بعد الله يعتمـــد
يلقي بأثقل حمليـه على كتـــد من عاتقيك اذا ما خانـه كتـــد
واستعصمت بك احزاب وقادتهـا يلتف مقترب منهـم ومبتعـــد

ويختم هذه القصيدة الطويلة بقوله الذي يؤرخ فيه مشاركـة ابطال المغرب فى حرب تشرين سنة 1972 :

يا ناثرين على البلوى نفوسهـــم طوعا فهم كسر فى سوحها قصـد
يهدون للشرق أرواحا اذا عصفـت بالموت ريح لها من قرة صـــرد
وزارعين على بعـــد قبورهـــم نوم الغريب على الاحجار يتســد
نهجتم الدرب سمحـاء شريعتـه بالتضحيات لمن يسعى ومن يفـد

* * *

ويطيب لنا ان نشير بعد هذا الى ان شعراء العراق كانوا وما يزالون شركاء فى السراء والضراء يعربون عن مشاعرهم الصادقة فى مثل هـذه الاحداث ، فهذا هو الاستاذ الجواهري يبكي الزعيم المراكشي الكبير المرحوم (علال الفاسي) حين وافاه نبأ وفاته واعرب عن مشاعره فى قصيدة عنوانها (علال يا شيخ الكفاح) ومطلعها :

نمضي هباء والنجوم سواري ... ونغوص فى فلك بنا دوار

ثم يقول :

فى كل يوم ماتم لمشيع ... فى أمس كان محجة الزوار
علال يا شيخ الكفاح وخلفه ... زحف الشباب بجيشه الجرار
يا فارس المضمار بئت ساعة ... نشر الحداد بها علي المضمار
رانت على الفرسان فيه غمامة ... فكأنها منه مثار غبار
هفت الجموع عساك تطلع بينها ... رؤيا هلال العيد للافطار

ثم يقول :

قد كنت تهديها وانت محلق ... عال على الاسماع والابصار
واليوم تهديها وانت مغيب ... كالشمس تصعد من وراء جدار
علال سوف يظل بعدك عامرا ... سمر الندى وندوة السمار

ثم يختم هذه القصيدة العامرة بقوله :

علال ما ذا نستطيع وكلنا ... فى قبضة الآجال رهن اسار ؟
انرد صوتا غال قبل (محمدا) ... وانصب قبلكما على (المختار) ؟
ام هل نثور على السماء وحكمها ... ام هل يد طالت على الاقدار ؟
نم عند ربك فى أعز جوار ... صلى الاله عليك من مغوار

فهذه هي نماذج من قصائد الشعراء العراقيين ، وهي غيض من فيض، لم يكن لدي متسع من الوقت لكي اعطي نماذج اكثر ، وهي كما يرى قراء هذه المجلة الزاهرة ، تكشف عن مشاعر اخوان لهم فى المشرق العربي ، كلما الم بهم حادث او اصابتهم مصيبة أو تعرضوا لطغيـــان الاستعمـــار الفاشم ، جئت بها لأضع بين يدي أبناء هذا البلد الامين (المغرب الاقصى) اضمامة من هذه المشاعر ، ليعرفوا قرب هؤلاء الاخوان منهم وتأثرهم بكل ما يقع لهم من احداث ، حفظ الله هذه البلاد ومتعها بالعز والسعادة والرقي والتطور وابقاها سندا للامة العربية فى هذا الجناح من وطنهـــا الكبيـــر انـــه سميع الدعـــاء .

بغـــــــداد عبد الرزاق الهلالي

صدى الشرق في تاريخ المغرب عام 1921

لوحة تاريخية

من ملفات الوثائق البريطانية

د. ابراهيم شحاته حسن

يخص هذا الموضوع نشر ترجمة احدى الوثائق البريطانية الخاصة بموضوع المغرب الذى تضمه اعداد عديدة من الملفات السرية لوزارة الخارجية البريطانية والمحفوظة الآن فى دار الوثائق البريطانية Public Record Office فى لندن بعد السماح بالاطلاع عليها بحكم قانون المحفوظات البريطانية الذي يقصر السرية على 30 سنة (1) .

وحسب منهج الدراسة التاريخية ، أقدم لنص تلك الوثيقة بمقدمة تلتزم أساسا بالنقاط الرئيسية الواردة فى الوثيقة بهدف توضيحها وشرح الظروف التاريخية المحيطة بها .

والمعروف أن انجلترا لها تاريخ طويل فى قضية المغرب الى اعلان الحماية الفرنسية فى 30 مارس 1912 . والدارس لتاريخ تطور المسألة

---

(1) تزخر الفترة بين الحربين العالميتين والى عام 1946 بعدد كبير من ملفات وزارة الخارجية البريطانية المحفوظة بدار الوثائق بلندن تحت عنوان (المغرب Morocco وقد اطلعت على جانب كبير منها بهدف اعداد دراسة تاريخية عن ((المغرب فى العلاقات الدولية فيما بين الحربين العالميتين)) لم أنته منها بعد . وان البحث الاولى فى تلك

المغربية (2) يدرك حقيقة مؤداها ان نظام الحماية الفرنسية قام بالمغرب بعد أن اجتاز (النظام) العديد من العقبات الدولية وانتهى الى اتفاقات قانونية بشأنها ، فانفرد فى الاخير بمحمية المغرب خالية من اى قيود او التزامات دولية ذات شأن . وجاءت الحرب العالمية الاولى لتضفي على اجراءات الحماية الفرنسية ثوبا من الشرعية الواقعية فى عالم شملته احداث هذه الحرب وشهدت بلدانه تحركات الجيوش على أراضيها فى عملياتها العسكرية المتصاعدة . بل ربطت الدعاية الفرنسية بين التضحيات الفرنسية والتضحيات المغربية فى الميدان الفرنسي للحرب العظمى ، وتطلع ليوتي الى أمل أن تذكى الدماء المشتركة روح الوحدة بين الدولة الحامية ومحميتها (3) .

وبخلاف ما كان من أمر الدعاية الالمانية المضادة التي واجهها نظام الحماية بالمغرب فى مرحلة الحرب العالمية ، خرجت المغرب من هذه الحقبة التي بلغت بعمر الحماية بها ثمان سنوات حتى عام 1920 وقد أحكمت السلطات الفرنسية اغلاق ابواب البلاد فى وجه العالم الخارجي . وبعد الحرب رأى ليوتي الاستمرار فى غلق ابواب المغرب ، وتعلل بالنسبة لعلاقتها ببقية العالم العربي بأن هدفه من ذلك الحفاظ على الشخصية المتميزة للمغرب ، وكثيرا ما ردد قوله : (4)

Ma plus vive préoccupation fut de le garder ainsi, passionnément provincial, ayant conservé un fort mauvais souvenir des invasions arabes.

الملفات قد يضلل الدارس بسبب عدم مطابقة ارقام الوثائق فى الفهارس مع الارقام الواردة فى الملفات الامر الذي يدعو الدارس الى البحث فى الملفات اساسا حتى لا يقع فى لبس الاعتقاد بان الكثير من تلك الوثائق مفقود لمجرد انها ليست فى موضعها من الملفات تبعا لارقام الفهارس ، بينما فى الحقيقة أن تنظيما اجرى على موقعها فى الملفات على اساس تصنيفها موضوعيا .

(2) انظر للمؤلف مقال ((المغرب فى العلاقات الدولية عشية الحرب العالمية الاولى)) فى العدد القادم من مجلة ((المناهل)) .

(3) Bidwell, Robin. Morocco Under Colonial Rule, French Administration of Tribal Areas (1912-1956) (London, 1973), P. 23.

(4) Gaulis, B-G. Lyautey Intime (Paris, 1938), P. 208.

وادرك ليوتي فى هذا الصدد ضرورة تقديم نظام تعليمي اسلامي متقدم لطلبة المغرب لتفادي طلباتهم للدراسة فى بيروت أو مصر . وان جميع الصحف العربية تقريبا ، بما فيها تلك التي تنشر فى الجزائر (تحت الاحتلال الفرنسي) وتونس (تحت الحماية الفرنسية) وطنجة وتطوان ، قد منع تداولها فى المحمية الفرنسية بالمغرب (5) .

ومع ذلك ، ورغم استحكامات الرقابة من قبل سلطات الحماية ، تطلعت انظار المغاربة الى الشرق من مطلع تاريخ الحماية . وفى عام 1916 نشرت صحيفة L'Afrique Française تقريرا يفيد بمتابعة المثقفين المغاربة للثورة فى الحجاز (ثورة الشريف حسين) بشغف كبير (6) .

واذا كان لنا أن نصل الماضي البعيد بالماضي القريب فى هذا الشان، فلا يسعنا غير ترديد ما قالته الاميرة للا عائشة فى خطابها الذي القته فى طنجة : L'Egypte, cette seconde patrie pour tous les Arabes, cette Egypte chérie, peut prétendre à l'éminente dignité de diriger tous les peuples arabes et de se charger de les conduire vers leur plus glorieux et grand avenir.

فالرباط الذي شد المغاربة الى الشرق رباط ادركوا مداه السياسي والايديولوجي فى وعيهم التاريخي ، ولم يكن مجرد انجذاب أعمى او عبادة « تمثال الشرق » كما تصور المستوطن الفرنسي فى نظرته للمغربي : (7)
Les Maghrébins sont des Pygmalions qui adorent une statue de l'Orient qu'ils ont eux mêmes sculptée : si belle et sans défauts.

---

(5) Bidwell, R.Op. Cit. P. 20.
(6) L'Afrique Française (Juin-Août, 1916).
(7) Bercher, Dr. Louis, « Le protectorat des puissances au Maroc ». L'Année politique (1950).

كذلك كان المتوقع ـ حسبما تفيد الوثيقة ـ أن تتطور فاس ، لو لم تنتقل العاصمة الى الرباط ، فتغدو مركزا اسلاميا كبيرا يشد انظار المسلمين فى العالم العربي والشرق الاسلامي وأن تترك مدارسها الفكرية صدى واضحا على الفكر العربي والاسلامي فى الشرق (8) .

والوثيقة المذكورة والتي نقدم لها تدور فى جوهرها حول صدى الحرب التركية ـ اليونانية (1921 ـ 2) فى المغرب . وتفيد الوثيقة بأن حركة دعائية كبيرة قد نظمتها سلطات الحماية لهذا الحادث ، وان هذه الحركة كانت ذات وجهين : أحدهما لصالح فرنسا والاخر ضد انجلترا . وتعلقت الحملة الدعائية بأهداب دعوى الدفاع عن الاسلام . فكلا الدولتين (فرنسا ـ وانجلترا) لهما تاريخ طويل مع العالم الاسلامي وقام جانب كبير من اعلامهما فى مخاطبة الشعوب العربية على دعوى الدفاع او الحماية للاسلام والمسلمين . بل ان فرنسا كثيرا ما استعملت تعبير « الدولة الاسلامية » وهي تقصد به نفسها ومعناه فى أذهان الفرنسيين ان فرنسا تحكم عددا كبيرا من الشعوب الاسلامية فى مستعمراتها حتى ان البعض من نواب فرنسا كان يقول ان فرنسا هي ثاني دولة اسلامية وتأتي قبل مصر ، على أساس تعداد رعاياها من المسلمين (9) .

وكانت تركيا فى عام 1921 ما زالت تقوم على حكمها السلطنة العثمانية . فانقلاب كمال اتاتورك واعلان الجمهورية فى تركيا قد وقعا فى العام التالي (1922) . ولذلك ، فان الحديث عن تركيا فى هذه السنة ، وقد ارتبطت احداثها بحرب الاسترداد القومي من جانب اليونانيين ، يعني احياء ذكريات مشاعر وحدة الحركة الاسلامية ضد الحركات القومية (المستوردة) خصوصا فى البلدان الاسلامية التي تعلقت حركاتها السياسية قبيل الحرب العالمية الاولى وأثناءها بالسند العثماني (المقاومة السنوسية

(8) انظر : الوثيقة فى نهاية المقال .
(9) المقاد ، صلاح . المغرب العربي (القاهرة ، 1969) ، ص 254 .

فى ليبيا ضد الايطاليين ، المقاومة التونسية للحماية الفرنسية ، ثورة الملا ــ محمد عبد الله حسن ــ ضد الايطاليين والانجليز فى الصومال) (10) .

وقد خشيت انجلترا من الدعاية الفرنسية المنظمة فى مراكش وفاس حول موقفها من الحرب التركية ــ اليونانية (11) .

ففي عام 1918 ، بعد انتهاء الحرب العظمى ، كانت تركيا نتيجة لهزائمها قد تقلصت وصارت امبراطورية فى مساحة من نحو 300 الف ميل مربع فقط . ورفض السلطان العثماني قبول معاهدة Sèvres التي قدمتها اليه الدول المنتصرة فى عام 1920 ولم يقبلها الا بعد قيام القوات البريطانية باحتلال القسطنطينية . غير أن الجمعية الوطنية فى انقرة هاجمت الاتفاقية و السلطان معا ونظمت حركة قومية للدفاع عن البلاد ومقاومة القوات البريطانية . وفى هذه الاثناء (1921) نزل الجيش اليوناني فى Smyrna فتندلع الحرب بين تركيا واليونان التي انتهت بسحق اليونانيين سنة 1922 . وقد وقعت هزيمة اليونانيين فى أغسطس من هذا العام بعد ان انعزلت قواتهم على اثر اتفاق كل من فرنسا وايطاليا مع تركيا فى اتفاق انقرة ــ المذكور فى الوثيقة . فظهرت انجلترا وحدها الى جانب اليونان ضد تركيا وظل الامر كذلك الى أن حصل الاتراك فى معاهدة لوزان (1923) على شروط أفضل بشأن حدود دولتهم ومستقبلها (12) .

وفى المغرب ، سمحت سلطات الحماية الفرنسية بتداول مقالات الصحف التونسية حول الموضوع (13) . وربطت الوثيقة البريطانية بين هذا الموقف وحاجة هذه السلطات الى تغطية حدث آخر (تبرعات الاهالي فى فاس ومراكش لمشروع بناء مسجد باريس ، واستيائهم من الاسلوب

---

(10) راجع تطور الفكرة السياسية وتياراتها فى تاريخ العالم العربي الحديث انتقالا من مرحلة الفكرة الاسلامية الى مرحلة الفكرة الاسلامية العربية ثم الفكرة العربية القومية: أنظر للمؤلف : مصر والسودان (الاسكندرية ، 1971) ، الوحدة السياسية فى الوطن العربي (الاسكندرية ، 1972) ، ريجنالد ونجت فى الصومال (القاهرة ، 1973) .

(11) انظر : الوثيقة .

(12) Baumont, Maurice, La Faillite de la Paix, 1918-1939 (Peuples Et Civilisations, Histoire Générale. XX-I. Paris, 1951), PP. 176-80.

(13) الوثيقة .

المتبع فى جمع التبرعات وارسالها الى باريس) كانت له نتائج سيئة على نظام الحماية .

والراى عندي ان هدف التغطية هذا لم يكن السبب الوحيد فى القيام بالدعاية الفرنسية المذكورة . فالى جانب هذا السبب هناك ذلك الدافع الذي يتعلق بالموقف بين انجلترا وفرنسا حول المعلقات الدولية فى تاريخ المسألة المغربية والتي بشأنها تمت اتفاقات تقرير نظام الحماية بالمغرب واضفاء الشرعية الدولية عليه قبل 1912 وعادت فرنسا فى عام 1918 بعد انتهاء الحرب العظمى الى فتح الملف المغربي من جديد بينها وبين انجلترا واسبانيا (14) . كذلك يتعلق سبب الدعاية الفرنسية تلك بأساس هام من اسس سياسة ليوتي فى المغرب ، وهو استغلال كل حدث او بادرة فى صالح نظام الحماية ، فمفهومه السياسى فى حكم اهالى أو مواطنى المحمية يقول (15) أن « فى السياسة الوطنية ، لا توجد اشياء صغيرة . ويجب عدم ترك أى حجر فى مكانه دون تعديل أو تبديل » مرددا بذلك المقولة المأثورة عند الفرنسيين : Il faut faire flèche de tout bois.

واتصلت الدعاية الفرنسية حول اتفاق انقرة بموضوع مصر ومستقبلها والسياسة البريطانية منها . وفى عام 1921 كانت انجلترا تعد لالغاء نظام الحماية فى مصر بعد تطور أحداث ثورة المصريين منذ مارس 1919 (16). وموضوع الحماية فى مصر يختلف تماما فى ظروفه التاريخية وأسلوب الحكم عن موضوع الحماية فى المغرب . وليس هنا مقام البحث فى تلك الظروف والاسلوب المتبع فى تسيير شؤون الحماية ، ونكتفي بالاشارة الى ان الوجود البريطاني فى مصر قد سبق نظام الحماية بنظام للاحتلال والحكم غير المباشر من جانب بريطانيا منذ عام 1882 ، وكان اعلان الحماية البريطانية بعد 32 سنة من الاحتلال انما لوضع هذا الاحتلال فى اطار الشرعية الدولية التي افتقدها من قبل ، وكان يتحايل عليها بدهاء كرومر

---

(14) مقال المؤلف السابق الذكر .

(15) Lyautey, Pierre (ed.). Lyautey L'Africain (Paris, 1953-57), Vol. III. P. 150.

(16) انظر : عبد الرحيم مصطفى ، احمد . مصر والمسالة المصرية (القاهرة ، 1965).

واساليبه ، وكاد أن يتعرى من كل مبرر للوجود فى مصر بعد إعلان تركيا ـ صاحبة السيادة ـ الحرب على بريطانيا (17) .

وكانت القيود الدولية التي أحاطت بالاحتلال البريطاني قد اضعفت كثيرا من قوة الوجود البريطاني فى مصر ، فاتجهت انجلترا مـع انتهـاء الحرب العظمى وفى مواجهة أحداث الثورة المصرية الى الاخذ بفكرة الغاء الحماية واستبدالها باستقلال اسمى صدر من جانب واحد هو الجانـب البريطاني فيما يعرف بتصريح فبراير 1922 .

وان مجرد اعلان تصريح بريطاني باستقلال مصر كان يعني فتح ملف الحماية الفرنسية من جانب المغاربة بغض النظر عن عمر هذه الحماية وانها لم يمض عليها بعد غير سنوات قليلة . فها هي تونس وقد طلعت صحافتها الوطنية تطالب الحكومة الفرنسية بموقف مماثل للموقف البريطاني (18) . ويكفي المغرب والمغاربة ـ بغض النظر عن ثورات قبائلهم ـ لكي يتطلعوا الى نفس الموقف ما يقوله المقيم العام الفرنسي (ليوتي) عن تاريخهم ونظم دولتهم : (19)

Alors que nous nous sommes trouvés en Algérie en face d'une véritable poussière... au Maroc, au contraire nous nous sommes trouvés en face d'un empire historique et indépendant, jaloux à l'extrême de son indépendance, rebelle à toute servitude qui, jusqu'à ces dernières années, faisait encore fugure d'Etat constitue, avec son hiérarchie de fonctionnaires, sa représentation à l'étranger... il existe encore au Maroc nombre de personnages qui, jusqu'il y a six ans, furent ambassadeurs du Maroc indépendant à Pétersbourg, à Londres... hommes d'une culture générale, qui ont traité d'égal à égal avec les hommes d'Etat européens.. rien de similaire n'existe en Algérie ou Tunisie.

أما الوثيقة (20) وقيمتها التاريخية كمصدر للحقيقة ، فان كاتبها هو مستر كلارك كير Clark Kerr القائم بأعمال المعتمد البريطاني والقنصل

---

(17) انظر : غربال ، محمد شفيق . تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية (القاهرة 1952).
(18) الوثيقـــة .
(19) Lyautey, Marshal. Paroles d'Action (Paris, 1927), P. 172.
انظر بالعربية : لاندوم ، روم . أزمة المغرب الاقصى (الترجمة ، القاهرة 1961) ج 1 ص 94 ـ 5 .
(20) دار المحفوظات البريطانية (P.R.O.) : F.O. 371/7086

العام فى طنجة (21) ، وكان نفسه شاهد عيان لما أورده فى رسالته (الوثيقة) الرسمية (الموثوقة Confidential رقم 491) الى الماركيز كيرزون Curzon of Kedleston – وزير خارجية انجلترا – فى 8 ديسمبر 1921 . وفيما يلي نص ترجمة الرسالة .

سيدى اللورد ،

أثناء زيارتي الاخيرة الى المحمية الفرنسية ، امضيت بضعة ايام فى مراكش حيث قضيت معظمها بين الاوساط الوطنية . وكانت دهشتي بالغة امام شواهد واسعة الانتشار عن الدعاية الموالية للاسلام التي تنظمها فى الوقت الحاضر السلطات الفرنسية والصحافة الفرنسية فى المحمية بشأن الاتفاقية المعقودة مع حكومة انقرة .

ومن الواضح جدا أن هذه السلطات وصحافتها تستغل الاتفاق كأساس تبنى عليه الادعاء بأنها وحدها صديقة المسلمين الحقيقية ، وانها بعملها هذا ستصل حتما الى اقامة الفروق التي تميز بينهم وبين حكومة صاحب الجلالة وبما يسيىء بشدة للاخيرة . وليس هناك شك فى ان هذه الدعاية قد بدأت تحدث تأثيرها ، حتى على الجاهلين ، الذين لا يعنيهم من الحياة شيء (happy-go-lucky, care free people) من اهالي مراكش ، فعلى الدوام كانت الاستفسارات توجه الى من الاهالي عما اذا كانت حقا بريطانيا العظمى ، التي كانت صديقة للاسلام زمنا طويلا ، قد صارت الان بالفعل عدو الاسلام . واذا كان الامر كذلك ، فما هو السبب فى تغيير سياستها ؟ ولماذا نتخلى عن مكاننا لفرنسا ؟ واني لست فى حاجة الى القول باني لم ادع فرصة تمر من غير أن اوضح القول باننا ، بغض النظر عن الصورة التي قدمت اليهم عن سياسة حكومة صاحب الجلالة ، ففي الواقع لم نتخل بالمرة عن صداقتنا التقليدية للاسلام .

---

(21) كان كلارك كير القائم باعمال ((المعتمد البريطاني والقنصل العام فى طنجة)) بعد استقالة هربرت وايت فى اكتوبر 1921 . وقد حل محل وايت فى هذا المنصب مستر ماكدونالد . ا . روبرتسون الذي لم يصل الى طنجة لممارسة اعمال منصبه الا فى شهر نوفمبر .

وفي ذات الوقت ، فقد فهمت من دكتــور فــردون E. Verdon الذي عاد الان من رحلة طويلة الى فاس ، أن دعاية مماثلة على قدر كبيــر من النجاح الملحوظ قد شاهدها في ذلك المكان . هذا وقد أمضى دكتور فردون سنوات عديدة في فاس عندما كان طبيبا للسلطان السابق مــولاي عبد العزيز ، وكان له بين المغاربة عدد كبير جدا من الاصدقاء الشخصيين الحميمين ، واكتسب لنفسه قدرا كبيرا وخاصا من الاحترام الراجع الى حقيقة كونه احد الرجال الشرفاء القلائل بين مجموع المغامرين البريطانيين الذين احاطوا بالسلطان السيىء الحظ . واخبرني بأنه ادرك وقوع تغيــر ملحوظ جدا في مشاعر الفاسيين ، الذين كانوا دائما في الماضي يتمسكون بشدة بالاعتقاد في أن بريطانيا العظمى هي الدولة المسيحية الوحيدة التي يمكن أن يعتمد عليها المسلمون ، بينما الان يتجهون الى الاقتناع بأن ثقتهم لم تكن في محلها . فقد تناقش مع بعض أصدقائه القدامى حول سبب هذا التغير ، واخبره بأن ذلك قد حدث في تاريخ قريب جدا وقام من جــراء الدعاية المتواصلة التي تلت توقيع اتفاقية انقرة . ولعدة سنوات مضت ، كانت فاس مغلقة أمام جميع انباء العالم المحمدي خارج المغرب ، كما جاء في رسالتي رقم 591 بتاريخ أول ديسمبر 1920 (22) . وعلى أيــة حال ، يبدو أن ابوابها قد فتحت فجأة امام فيضان من الصحف الغوغائية القادمة من تونس والتي افادت بأن حكومة جلالته بعد أن صارت عدوا للاسلام قد باعتهم لليونانيين (23) وغدرت بالاتراك كما فرضت على الوطنيين في بلاد ما بين النهرين (Mesopotamia ـ العراق) اميرا أجنبيا عنهم يعــد مرتدا عن الاسلام . وعندسؤالهم عن سبب اعتراضهم على الامير فيصل :

---

(22) كانت مراسلات القنصلية العامة بطنجة حتى اكتوبر 1921 باسم القنصــل العــام هربرت وايت الذي كان يشغل منصبه هذا منذ عام 1915 الامر الذي يضع علامــة استفهام حول عام (1920) المذكور في الوثيقة .

(23) مما يلفت النظر في موضوع الحرب التركية ـ اليونانية والاتهامات الموجهة لانجلترا بشأنها وعلاقة ذلك بالمغرب ، أن الصحافة الاسبانية المعاصرة عرضت لموضوع تلك الحرب . وفي مقال لصحيفة El Liberal الاسبانية بعنوان ((جواري التاريخ)) ربطت الصحيفة بين الدور البريطاني في الحرب اليونانية ـ التركية والدور البريطاني في حرب الريف بالمغرب ، ورأت أن كلا من اليونان واسبانيا في حربهما وهزيمتهما كانت تخدم الدور البريطاني والاستراتيجية البريطانية دون أن تستفيد شيئا من دروس التاريخ وعبره . دار الوثائق البريطانية : FO. 371 / 8342 .

أجابوا بأنه قد حارب ضد الاتراك وحاول انتزاع الخلافة من سلطان تركيا(24) وكدليل على ان حكمه قد فرض على العراق بالقوة . أشاروا الى أن صور تتويجه المنشورة فى الصحف المصورة لا تظهر أى شخص محمدي بينما احاط به الضباط البريطانيون . والموقف بالنسبة للخلافة أمـــر يدعـــو للدهشة ذلك ان المغاربة طالما اتجهوا الى احتقار الاتراك ورفضوا الاعتراف بدعوى السلطان التركي فى أن يكون خليفة (25) وفضلوا وصل هذا الحق برأس أسرتهم الشريفـــة .

كذلك ، افادت أخبار دكتور فـــردون بأن الضبـــاط السياسييـــن الفرنسيين فى فاس يشاركون بنشاط وفى علانية أغلب الاحوال فى هذه الدعاية باتباع تقليد يتمثل فى استدعاء أعيان المغاربة والقاء المحاضرات عليهم فى موضوع عداء بريطانيا العظمى للاسلام ، موضحين أننا حقا كنـــا مخلصين للاسلام فى فترة الحرب (26) ولكن سياستنا بعدها قد تغيرت كلية وأنه لا حاجة بالمرة الى الثقة بنا سواء بالنسبة لوعودنا أو بالنسبـــة لقصدنا المعلن بشأن منح الاستقلال لمصر . وعلى أية حال ، فان تشاؤما ما قد سرى مؤخرا بين السلطات الفرنسية من جراء وصـــول صحيفـــة

---

(24) ان قصة الامير فيصل بن الشريف حسين مع انجلترا لها أكثر من فصـــل فى تاريـــخ الشرق العربي وثورته على الحكم العثماني (1916 – 1918) وانتهت القصـــة مـــع اقرار نظام الوصاية والانتداب . وكانت السياسة البريطانية ، فى عرض عرش العراق على فيصل فى 17 ديسمبر 1920 بشرط التوقيع على معاهدة تحالف ، قد مهدت لذلك بنفي طالب النقيب الى سيلان . وكان الاخير يعتبر نفسه أفضـــل مرشـــح للعـــرش العـــراقـــــي .

(25) للخلافة الاسلامية فى تاريخ الدولة العثمانية طابـــع خاص تـــدرج بمفهـــوم الخلافـــة العثمانية من المعنى التقليدي الذي تعلق باللقب فحسب عند ما تلقـــب آل عثمـــان الاوائل بلقب الخليفة ضمن ألقابهم ولم يعنوا به الخلافة العامة للمسلمين فى وقت كانت هذه الخلافة فى بني العباس بالقاهرة وانتهت خلافة الموحدين بالمغرب . وبعد انتهاء الخلافة العباسية فى القاهرة ، استمر السلاطين العثمانيون على ألقابهم القديمة واهتموا بلقب جديد هو لقب ((حامي حمى الحرمين الشريفين)) الذي كان يتلقب به المماليك فى وجود الخليفة العباسي . وبينما أحيا السعديون فى المغرب الخلافة بها، حكم العثمانيون امبراطوريتهم لثلاثة قرون أخرى أو يزيد قبل أن يضفوا على لقـــب الخلافة العمق الديني الاعلامي فى اطار دعوة الجامعة الاسلامية فى القرن 19 . أنظر للمؤلف : مصر والسودان ، المصدر السابق .

(26) المقصود بذلك التمويه هو الرد على الحقيقة الخاصة بتحالف فرنسا مع انجلترا فى مرحلة الحرب ضد ألمانيا وحليفاتها فى المحور .

تونسية الى فاس . وهي من الواضح ليست من تلك الصحف الخاضعة للاشراف الحكومي . وفى مقال رئيسي ، طالبت الصحيفة فرنسا بأن تمنح شعب تونس الحرية بنفس درجة التسامح التي على وشك أن تقدمها بريطانيا العظمى لمصر . ومع ذلك ، فى وسط هذا القدر الضخم من الكتابات المعادية لبريطانيا ، فان هذا المقال لم يحدث من الاثر غير القليل وبدا اغلب سكان فاس يخضعون للمؤثرات التي تفرض عليهم (27) وصاروا على اقتناع بأن المباحثات الدائرة بين سعادتكم اللورد وعدلى باشا مجرد خدعة . وقد سبب هذا الاعتقاد انطباعا اليما . بينما لا يسمح بالدخول الى فاس لاى صحيفة من مصدر سوري او مصري .

وطالما ان فاس فى سبيل أن تصبح مركزا من أعظم المراكز نشاطا فى مجال الدعوة الاسلامية (28) ، فان هذه الدعاية السيئة المضادة لبريطانية قد تكون لها اهمية كبيرة ويغدو لها صداها فى مصر وفلسطين وغيرهما بشكل يضر بالمصالح البريطانية . وعلى ذلك ، ففي رايي ان من الواجب ان نتتبعها فى حذر .

ووسط هذه الحملة الناجحة بشكل ملحوظ ، فان الفرنسيين يعانون من آثار غلطة نظامية (تكتيكية) خطيرة الى حد ان اتفاق انقرة لم ينجح فى تخفيفها . فكما هو معلوم لديكم سعادة اللورد ، وضعت الحكومة الفرنسية منذ وقت مضى مشروع تشييد مسجد فى باريس . وعندما انتقل المشروع الى حيز التنفيذ ، دعى باشوات الاقاليم المختلفة فى المفرب الفرنسي (29)

---

(27) أثبتت الاحداث أن خضوع اهل فاس لمؤثرات الدعاية الفرنسية تحت نظام الحماية كان الى حين محدود . وفى فاس ذاتها سرعان ما بدأ شبابها المتعلم حركة المقاومة العلنية منذ عام 1930 . وكانت صدمة فى حينها لسلطات الحماية الى حد ان كاتبا فى L'Afrique Française (اغسطس 1930) قد اعتقد أنها بتدبير هيئة المخابرات البريطانية أو مؤامرة من قبل الالمان او الايطاليين او الروس .

(28) ينعقد الامل حاليا فى أن تعود فاس الى شغل مكانتها العلمية التي تتفق وتاريخها الاسلامي المجيد ، وذلك بعد ان فازت بعناية السياسة التعليمية لحكومة الوزير الاول احمد عصمان فى عهد جلالة الملك الحسن الثاني ، وصارت لها جامعتان مستقلتان : جامعة فاس (جامعة محمد بن عبد الله) وجامعة القرويين التي انضمت بدورها الى اتحاد الجامعات العربية (الحديثة) فى دورة الاتحاد بالرباط (ابريل 1975) .

(29) جرى استخدام مثل هذا التعبير (المغرب الفرنسي) ـ وهو تعبير غير رسمي ـ فى مناطق التقسيم الاستعماري كالمغرب والصومال والكنغو ... الخ .

لجمع التبرعات لتغطية تكاليف البناء . فقدم باشا كل من مراكش وفاس مبالغ ضخمة ، هذا فى الوقت الذي انشغل مع قواد المناطق بجمع المال من الناس . وفى مراكش وفاس ، أجبر كل مالك منزل وصاحب محل تحت التهديد بالسجن على الاكتتاب بمبلغ معين فى حملة التبرع وتحدد قدر الاكتتاب على اساس تدريجي لا يقل ، حسب علمي عن 100 فرنك . وكان حتما أن يؤدي هذا الامر الى ارتكاب أخطاء جسيمة ، فبينما ارسلت حقا عدة ملايين من الفرنكات الى باريس ، فان مئات الالوف منه ذهبت الى جيوب الموظفين الوطنيين . ومن الطبيعي أن يثير هذا الاجراء مشاعر الغضب الشديد وبشكل واسع الانتشار ، ولكن ما يدهش المرء له ان يلاحظ فى الوقت الذي كان الاستياء من هذا العمل محدودا جدا بالنسبة للموظفين الوطنيين ، باعتباره أمرا طبيعيا ، فان السلطات الفرنسية التي خططت للموضوع قد تحملت قدرا من اللوم والكراهية لا يزيلهما غير الزمن (30) .

الرباط **د . ابراهيم شحاتة حسن**

(30) لا شك ان الدهشة التي أبداها مستر كير ـ صاحب الرسالة ـ عن وجود موقفين للمغاربة ازاء موضوع تبرعات مسجد باريس ، تتبدد اذا ما كان قد ربط بين الموقف من السلطات الفرنسية وبين الشعور الوطني الرافض للحماية الاجنبية ، وهو الشعور الذي سرعان ما يتفجر لتبدأ حركة الاستقلال المغربية التي تضمن نشاطها فى المرحلة المبكرة من تاريخها ـ رغم صرامة اجراءات الرقابة ـ توزيع المنشورات المطبوعة ضد نظام الحماية . منشور : (فرنسا تستهزىء بعواطف المسلمين ـ مليونان ونصف من الفرنك لتنفيذ الظهير البربري) : دار الوثائق البريطانية : 15740 / 371 .

ابن سيده المرسي

دراسة في حياته وآثاره

5

بقلم: المستشرق الاسباني
الدكتور داريوكابانيلاس رودريكس
ترجمة وتعليق: حسن الوراكلي

مدخل لدراسة « المحكم » :

أسلفنا الاشارة فى الفصل السابق الى أن جميع مترجمى ابن سيده الذين نفيد منهم فى هذه الدراسة باستثناء الحميدى والضبى ، يذكرون « المحكم » فى جملة تصانيف ابن سيده ، وعنوانه الكامل ، على ما كان شائعا عصرئذ من التزام السجع فى أسماء الكتب ، هو : « كتاب المحكم والمحيط الاعظم فى اللغة » .

ومن حسن حظنا ، أن يشق « المحكم » اليوم ، وبعد مرور تسعة قرون على وفاة مؤلفه ، طريقه الى النور بفضل سهر اللجنة الثقافية لجامعة الدول العربية التى رأت ــ كما يقول الدكتور طه حسين فى تصديره لهذا المعجم ــ (أن نشر هذا الكتاب خدمة جليلة للغة العربية ، فهو احياء لكتاب خطير يجب أن يحيا ، وهو احياء لعالم جليل من أئمة اللغة فى الاندلس ، ومن حقه أن يظهر فضله ، وينتفع الناس بعمله فى

هذه العصور الحديثة ، كما انتفع به القدماء قبل ان تعرف المطبعة ويسهل النشر ، ويتاح للناس احياء ما مضى من مجد أجيالهم القديمة (1)) .

وفى هذا الفصل الذى أردنا أن نلم فيه بمقدمات ((المحكم)) سنعنى بالدرجة الاولى بابراز نواح ثلاثة ، هى :

ا — دواعى تاليــف ((المحكم)) :

ينبغى ان نذكر قبل كل شىء الدواعى التى حملت ابن سيــده على تاليف ((المحكم)) وفى مقدمة هذا المعجم يتحدث ابن سيده فى اسباب عن ذلك ويقول بانه الف ((المحكم)) تلبية لأمر الامير مجاهد الموفــق صاحب دانية الذى كان يود ان يتولى هو بنفسه تاليف معجم كامل لو لم تكــن تكاليف الدولة ومهامها تعوقه ، وها هو ذا حديث ابن سيده عن ذلك (2) : (وذلك انه أدام الله مدته ، وحفظ على ملكه طلاوته وجدته — لما جمع العلوم النافعة ، من الديانيات واللسانيات ، فسلك مناهجهــا ، وشهر بمقدماته نتائجها ، وذلل من صعابها ، واخضع بفهمه من صيد رقابها ، وعلم منتهى سبارها ، وميز بالتامل اللطيف طبقات اقدارها ، وضح له فضل هذا الكلام العربى ، الذى هو مادة لكتاب الله جل وعز ، وحديث النبى صلى الله عليه وسلم ((وشرف وكرم)) ، فلما وضــح لــه مكان الحاجة الى هذه اللسان الفصيحة ، الزائدة الحسن ، على ما أوتيــــه سائر الامم من اللسن ، اراد جمع الفاظها ، فتامل لذلك كتب رواتهــــا وحفاظها ، فلم يجد منها كتابا مستقلا بنفسه ، مستغنيا عن مثله ، مما الف فى جنسه ، بل وجد كل كتاب منها يشتمل على ما لا يشتمل عليــه صاحبه ، وشل [لا] تعاند عليه وراده ، ولا لا تحاقد فى مثله رواده ، لا تشبع فيه ناب ولا فطيمة ، ولا تغنى منه خضراء ولا هشيمــة . . .

(1) المحكم ، ج 1 طبعة الاستاذين مصطفى السقا ، وحسين نصار ، (القاهرة 1377 هـ / 1958 م ، وفى نفس السنة ظهر الجزء الثاني) ، والنص من تصدير الدكتور طه حسين، هذا وقد قدم الاستاذان السقا ونصار بين يدي المحكم دراسة قيمة افدت منها فى هذا البحث ، واني اغتنم الفرصة لازجي خالص الشكر للدكتور حسين مؤنس مدير معهد الدراسات الاسلامية بمدريد (سابقا) على ارساله لي نسخة مصورة لبعض الصفحات التي كان الوقوف عليها ضروريا لي من طبعة المحكم المذكور .

(2) مقدمة ابن سيده للمحكم ، طبعة السقا ونصار ، ج 1 ، الصفحات 3 — 6 .

فلما راى ايده الله تلك الكتب المصنفة فى هذه اللغة الرئيسة ، الرائقة النفيسة ، لم يرضها اسلاكا لتومها ، ولا أفلاكا لطوالع نجومها ، فازمع التاليف ، واجمع بذاته فيها التصنيف ، ليودعها صوانا يشاكل قدرها ، وايوانا عاديا يمـاثل خطرها ، وهذه عادة همته فيما يـبتغيه من علي المفاخر ، وتقتنيه من سنى المآثر . . . ثم انه عاقه عن التصنـيف فيهـا ما نيط به من علائق السياسة ، وأعباء الرياسة ، وشغله عن ذلـك ما حبى به من ادارته الممالك ، وتأمينه المسالك ، وخوضه بقداميس الجيوش المهالك ، أروى الله سنانه ، واطال بنانه ، وزاد حياة جنانه ، وامهى فى مدة البقاء عنانه ، فالتمس من يؤهل لذلك من لباب عبيده ، وصياب عديده ، فوجد منهم فضلاء خيارا ، ونبلاء احبارا ، لكن رآنى اطولهم يدا ، وابعدهم فى مضمار العتاق مدى ، فأمرنى بالتجرد لهـذه الارادة ، وكسانى بذلك ثوب التنويه والاشادة ، وأرانى كيف املك عنان الحقيقة ، ومن اى المآتى اسلك متان الطريقة ، فاطعت وما اضعت ، واجدت كلما اردت ، فاعلقت وافلقت ، والفـت كتـابى الملخص ، الذى سميته « المخصص » ، وهو على التبويب ، فى نهاية التهذيب . ثم امرنى بالتاليف على حروف المعجم ، فصنفت كتابى « الموسوم بالمحكم (3) ») .

وقد تصدى ابن سيده حينئذ لتاليف معجمه ، مستخدما منهجا شادا وعسيرا ، لكنه فى جملته وتفصيله لم يكن من ابتكاره ، ذلك انه منذ فترة غير قصيرة كان الناس فى الشرق وفى الغرب قد عرفوا هذا اللـون من المعاجم التى الفها اصحابها وفق ترتيب هجائى خاص ، وفى الوقت الذى كان التاليف المعجمى على النحو المذكور يوشك ان يفنى وتنطفىء جذوته قيض الله له من يجدد شبابه — ولو لآخر مرة — فى اسبانيا على عهد ملوك الطوائف .

ب — منشا المنهج واصله :

حوالى عام 175 هـ / 791 م وافت المنية فى خراسان بفارس ابـا عبد الرحمن الخليل بن احمد بن عمر بن تمام الفراهيدى الازدى وهو الذى

(3) فى الفصل التاسع سنحاول ان نوضح عما اذا كان المحكم اسبق تاليفا من المخصص او العكـس .

ابتكر او طبق المنهج الذى نحن بصدد الحديث عنه ، وكان العمل الذى اذاع صيت الخليل هو معجمه المعروف باسم أول ((كتبه)) الستة والعشرين وهو كتاب ((العين)) .

وكان هدف الخليل هو تسجيل وحصر كل اصول اللغة العربية ، وليس يعنى هذا بالضرورة حصر كل ألفاظ اللغة ، فهذا شأن آخر ؛ وما من شك فى أن الخليل بعد البحث والتجربة الاوليين ، انتهى الى أن خير وسيلة لتحقيق هدفه هى تناول كل حرف من الحروف الهجائية فى ترتيب دورانى وملاحظة الاصول أو المفردات التى يوجد بها ذلك الحرف باعتباره عنصرا أساسيا أو ((مؤلفا)) للبنية الاصلية للمفردة ، ومعنى هذا أنه يوجد ((كتاب)) لكل حرف ـ باستثناء ما سنشير اليه فيما بعد ـ وان حجم الكتب المذكورة سيتضاءل كلما انتقلنا من كتاب الى آخر ، وهكذا فكتاب ((العين)) يحتوى على كل الالفاظ التى يعد حرف العين من حروفها الاساسية سواء وقع ذلك الحرف فى أول المفردة أو فى وسطها او فى نهايتها ، وكذلك يستوعب كتاب ((الحاء)) المفردات التى يرد فيها هذا الحرف ايا كان موضعه شريطة ألا تكون تلك المفردات قد سبق ادراجها فى كتاب ((العين)) (4) ، وهكذا تتوالى ((كتب)) المعجم الباقية ، وفيها يضرب المؤلف صفحا عن تسجيل كل المفردات التى سبق تسجيلها فى احد ((الكتب)) المتقدمة ؛ وهذا هو السبب فيما نلاحظه من ضخم ((الكتب)) الاولى وفيما يطرأ على حجم ((الكتب)) التالية من نقص كلما تقدمنا فى سلسلة الحروف الهجائية بحسب ترتيبها الذى سار عليه الخليل فى معجمه .

---

(4) حرف العين ليس أقصى حروف الحلق وابعدها ، فالهمزة والهاء والالف ، اقصى مخرجا منه ، كما يقول سيبويه فى ((الكتاب)) ولم يخالفه من البصريين فى مخرجي الالف والهاء غير الاخفش الذي لم يقدم احد الحرفين على الآخر وارتضى راي سيبويه النحويون المتاخرون (انظر ، د. حسين نصار : المعجم العربي ، ج 1 ، ص 238) وبرغم ذلك فان الخليل لم يبدا بها ، ولعل السر فى ذلك على ما يقال هو ان الهمزة غير ثابتة بل هي عرضة للحذف والتغيير ، والهمزة مهموسة وخفية كما ينص استاذنا الدكتور امجد الطرابلسي . (انظر ، كتابه ، نظرة تاريخية فى حركة التاليف عند العرب فى اللغة والادب ، ص 23) .

ـ المترجم ـ

ولترتيب الحروف الهجائية فى العربية طريقتان معروفتان : اولهما هى الطريقة الابجدية ، وهى تقوم اساسا على الهجائية السامية القديمة ، وتستعمل بالخصوص حين يراد من الحروف أن تقوم مقام الارقام ، على نحو ما يعرف فى العبرية والسريانية ، وثانيتهما ، وهى الاكثر شيوعا ، تتضمن تعديلا طفيفا فى الطريقة الاولى ، وتحوى جميع الحروف التى يتطابق شكلها ويميز بينها فقط بالاعجام ، وذلك مثل : ب ، ت ، ث ، ج ، ح ، خ ، الخ . على أن الخليل لم يتخذ احدى الطريقتين اساسا له فى ترتيب مواد معجمه ، بل آثر أن « يبتكر » طريقته الخاصة ، رتب فيها الحروف بحسب مخارجها أو قل بحسب موضع مخرجها فى المسالك الاصاتية ، فابتدأ بالحروف الحلقية ، واولها العين وهو اقصاها فى الحلق ، وانتهى بالحروف الشفوية ، واولها الميم وهو اظهرها فى الشفتين ، وهكذا استوت لديه طريقته فى ترتيب الحروف على هذا النحو : ع ، ح ، ه ، خ ، غ ، ق ، لا ، ج ، ش ، ص ، ض ، س ، ز ، ط ، ت ، د ، ظ ، ذ ، ث ، ر ، ل ، ن ، ف ، ب ، م ، و ، ي ، ا ، ء .

ولم يقسم الخليل معجمه الى تسعة وعشرين « كتابا » على عدد الحروف الهجائية ، بل قسمه الى ستة وعشرين « كتابا » وادرج فى آخر كتاب منها حروف العلة الاربعة ، اى : الهمزة والياء والواو والالف ، ثم عاد فقسم كل « كتاب » الى ابواب وفق عدد العناصر فى كل اصل او مفردة مقصيا الاصول او المفردات التى تتضمن حروف علة ، وهكذا تطالعنا فى « كتاب » العين الابواب التالية : باب الثنائى المضاعف الصحيح (5) (عم) ، وباب الثلاثى الصحيح (عمد) ، وباب الثلاثى اللفيف (عوق) ، وباب الثلاثى المعتل بحرفين (عوى) ، وباب الرباعى (عربد) والخماسى (تعربد) .

ثم يعمد الخليل فى كل باب من ابواب « كتبه » فيعالج الاصول او المفردات على طريقة جناس القلب او التصحيف ، وذلك بان يحشد فى

---

(5) يسميه الخليل كذلك المضاعف ، ويرى الدكتور حسين نصار ان (التسمية الثانية ادق ، لانه ـ الخليل ـ يتناول فيه ـ الباب ـ الثلاثي المضاعف مثل عق وعك وامثالها) وربما كان السبب فى تسميته بالثنائي تالفه ظاهريا من حرفين أو لانه حين قلبها لا تاتي منها الا صورتان ـ المترجم ـ

باب كل بناء ما يتفرع عنه من مقلوبات ـ تأتى نتيجة تبديل موضع احد حروف البناء ـ حتى ولو لم يكن لها وجود فعلى فى اللغة ؛ وهكذا مثلا نجده يذكر مقلوبات « عدم » فاذا هى : « عمـد » ، دعـم ، دمـع ، معد ، مدع ، وهو يعترف بأن المقلوبات لا تستعمل كلها فى اللغة وخاصة فى الرباعى والخماسى ، فهذا الاخير انما يستعمل أقله ويلغى أكثره » ، ولذلك لا تفوته الاشارة الى « المستعمل » منها ؛ أى الموجود فى اللغة .

ومع أن هدف الخليل كان ـ كما أسلفنا ـ هو ادراج كل الاصول العربية فى معجمه فانه لم يحاول جمع كل الكلمات المشـتقة من تلـك الاصول ؛ وليس من الميسور ، الآن ، تحديد المقياس الذى سار عليه فى عملية الانتخاب والاختيار من مشتقات الاصول ، وربما كان قصده يتلخص فى تسجيل الكلمات الاكثر استعمالا سواء على ألسنة الناس فى حياتهـم اليومية أو فى الآثار الادبية جاهليـة واسلاميـة ، ومن نحو آخـر فان الخليل لا يسير على قاعدة ثابتة فى ايراد أو احصاء الكلمات المشتقة من نفس الاصل ، فهو يبدأ ، احيانا ، بالفعل ، وأخرى بالاسم أو الصفة .

وليس يخفى ما فى منهج معجم العين من مشقة وعسر ، الامر الذى دفع بكثير من الدارسين الى التساؤل عما أغرى الخليـل بابتـكار هذا المنهج أو تبنيه ، فى حين أن ذكاءه المفرط كان ينبغى أن يحمله على رفضه والاعراض عنه ، ويـرى الاستاذ هايـوو (أن) اقبـال الخليـل على هذا المنهج الشاق العسير يعود الى روحه الرياضية التى تتـراءى من خلال تقنينه البحور الشعرية وحصرها ومن ميولاتـه الموسيقية ، فقـد « زم أصناف النغم وحصر أنواع اللحون فى الموسيقى » ، ومما لا شك فيه أن الخليل لو سار فى تأليف معجمه على الترتيب الهجائى المعروف ولـم يعن بمقلوبات الابنية وفصل كل بناء منها حسب عـدد حروفـه ، لكان بوسعه ادراج كل الاصول فى معجمه ، غير أنـه لمـا كانت « عمليـة التبديل » تشكل الى حد ما لعبة محببة لدى رجل الرياضيات فعلينا أن نتصور أن الخليل ، وقد لمعت الفكرة فى ذهنه ، ما كان ليستطيع التخلى عنها ، فطبقها فى معجمه مفسحا لها بذلك المجال للتأثير فيما سيؤلف من معاجم استقبالا .

ومع انه من شأن الروح أو الذهنية الرياضية للخليل أن تبرز لنا من جهة على الاقل تبنيه المنهج الذى وصفناه ، فانه ليس يمكن التأكيد ، اطلاقا ، على أنه هو الذى ابتكر هذا المنهج ابتكارا اذا كنا نفهم من ((الابتكار)) الاصالة التامة . لقد ألف الخليل معجمه فى خراسان الواقعة فى الطريق التى تربط فارس بالهند ، وساعده فى ذلك أحد سكان تلك المنطقة (6) ، وحسب ما يلاحظ بعض الباحثين فان ترتيب الحروف عند الخليل يعكس تشابها شديدا بترتيبها فى الهجائية السنسكريتية ، وذلك برغم أن جزئيات بعينها — وبعضها يعود الى خصائص الحروف العربية — تجعل ترتيب الحروف عند الخليل يتميز عن ترتيبها فى السنسكريتية وذلك مثل عده الحروف الهوائية ضمن الحروف الحلقية ، والحروف الصافرة ضمن الحروف الحنكية فى حين يأتى ترتيب كل من الحروف الهوائية والصافرة فى السنسكريتية بعد الحروف الشفوية وحروف اللين ، اى فى نهائية الهجائية (7) ، كما يظهر أن الخليل فى

---

(6) لست أدري على وجه التدقيق ما ذا يقصد المؤلف بهذا ، ولعله يعني ما ذهب اليه بعض الباحثين من ان الخليل ربما عرف من حنين بن اسحاق اليونانية او عرفه بما فيها من معاجم ، وقد استنتجوا ذلك من قول ابن ابي أصيبعة عن سليمان بن حسان — عيون الانباء فى طبقات الاطباء ؛ ج 1 ص 189 — (ان حنينا نهض من بغداد الى أرض فارس ؛ وكان الخليل بن أحمد النحوي بأرض فارس فلزمه حنين حتى برع فى لسان العرب ، وأدخل كتاب العين بغداد) وقد ظهر بطلان هذا الخبر حين تقرر أن الخليل توفي قبل 175 هـ بينما كانت ولادة حنين عام 194 هـ ، فهما لم يتقابلا ؛ بل لم يتعاصرا.

— المترجم —

(7) لم ينته الدارسون الى الجزم بتأثر الخليل فى ((العين)) بالترتيب الالفبائي السنسكريتي ، وأن دون الجزم بذلك حوائل ، منها أنه اذا كان الهنود قد (وصلوا الى نظام المخارج — كما يقول الدكتور نصار — بفضل ترتيلهم للقيد المقدسة فليس ما يمنع العرب ان يصلوا اليه بفضل ترتيلهم للقرآن الكريم) ومنها أنه ليس من الميسور نقل ترتيب حروف من لغة الى أخرى بسبب اختلاف النطق وتباينه بين أمة واخرى ؛ وقد لمح المؤلف الى هذه النقطة . — المترجم —

فصله الأبنـية نتـيجة لعدد الحروف فى كل بنـاء كان متأثـرا بمعاجم سنسكريتية رتبت فيها الكلمات وفق عدد مقاطعها (8) .

ومهما يكن من أمر فلقد كان فى المنهج الذى سار عليه الخليل وتعقده ما حال دون شيوع معجمه ، واستعاض الناس عنه بما ظهر بعده من معاجم مرتبة على الطريقة الهجائية المألوفة ، ومع ذلك فليس من سبيل الى انكار قيمة ((كتاب العين)) وفضله باعتبـاره أول معجـم عربى ، استطاع صاحبه أن يحقق به الهدف من تأليفه حين لفت الانـتباه لثراء العربية ومهد السبيل للمشتغلين بالدرس والبحث لتأليف معجم كامل ، وأبرز أهميته القواعد الاصاتية ، ودل الباحثين على الوسائل العلميـة لكشف الكلمات الاجنبية ؛ بل اننـا لنستطيع القول بأن مقدمة الخليـل لمعجمه كانت عامل انعاش وتنشيـط للتفكير اللغوى والبحث فى طبيعـة اللغة العربية مما أضفى عليها – أى المقدمة – أهميـة ليست للمعجم نفسه ، يدلنا على ذلك توارد مؤلفى المعاجم عليها ينقـلون تعاريفهـا ويفـيـدون منهـا .

ج – المعاجم المؤلفة قبل المحكم :

يمكن تصنيـف مؤلفى المعاجم بعد الخليـل فى اتجاهين أساسين ، ينضوى فى أحدهما الذين تبنوا منهج صاحب ((العين)) وينضوى فى الثانى الذين ساروا على منهج جديد (9) .

---

(8) للزيادة من التفصيلات حول الخليل ومنهجه ، انظر
A. Haywood, «Arabic Lexi » cography », 20-40
وقد تضمن حديث هايوود تلخيصا جيدا لهذا الموضوع ، افاد فيه من دراسات جيده من مثل : البلغة فى اصول اللغة لحسن خـان (اسطنبـول ، 1296 هـ / 1879 م) ودراسة F. Krenkov عن
The Beginnings of Arabic Lexicography till the ti-
me of Jauban, en « Journal of The Royal Societe », Cent. Suppl. (1.924), 255-270.
كما افاد من كتاب ((المعاجم العربية)) للدكتور عبد الله درويش ، (القاهرة 1376هـ/ 1956 م) .

(9) انظر حول الاتجاهين مقدمة محققي ((المحكم)) ج 1 ، ص 15 – 16 .

ومن أصحاب الاتجاه الثانى — ولا شأن لنا بهم فى دراستنا هذه — من التزم منهجا وفق فيه بين ترتيب الحروف المألوف وبين بعض مظاهر من ترتيب الخليل مثل ابن دريد (— 323 هـ / 934 م) فى « الجمهرة » وأحمد بن فارس (— 390 هـ / 1000 م) فى مقاييس اللغة (10) ، بينما سار آخرون على الترتيب الألفبائى المألوف ، فطبقوه على آخر حرف فى الكلمات أولا ، فأولها ثم وسطها ؛ وهذا الترتيب الذى عرف باسم الترتيب باعتبار أواخر الكلمات هو الذى اتبعه الجوهرى (توفى حوالى 398 هـ / 1007 م) فى « تاج اللغة وصحاح العربية » وهو الاسم الكامل لمعجمه الذى يعرف بـ « الصحاح (11) » ، وكل هؤلاء الذين تقدم ذكرهم سبقوا ابن سيده ، أما بعده فقد انتهى منهج الجوهرى الى الترتيب الألفبائى الذى نجده عند مؤلفى المعاجم الحديثة ، وكان اول من سار على هذا الترتيب الزمخشرى (— 538 هـ / 1144 م) فى معجمه « اساس البلاغة (12) » .

وليس من شك فى أن هذا التطور الذى حظيت به المعجمات العربية كان يستجيب لحاجيات الفترات التى ألفت فيها ، فلما كانت المعاجم الاولى محدودة التداول لم يكن المنهج المتبع فى تأليفها يكتسى أهمية بالغة ، وحين أقبل عدد كبير من الناس على تداولها واستعمالها كان منطقيا وضروريا فى الآن عينه أن يتبع فى تأليفها منهج أسهل .

وينبغى أن نذكر فى الاتجاه الاول ؛ أى أولئك الذين اتبعوا منهج الخليل ، خمسة مؤلفين : اثنان منهم مشرقيان ، وهما : أبو منصور الأزهرى (— 370 هـ / 981 م) مؤلف « تهذيب اللغة » ، واسماعيل الصاحب بن عباد (— 385 هـ / 995 م) مؤلف « المحيط فى اللغة (13) »، وثلاثة أندلسيون ، وهم : أبو على القالى — الوافد على الاندلس — (— 356 هـ / 967 م) مؤلف « البارع فى اللغة » وأبو بكر محمد

---

(10) انظر عن ابن دريد وابن فارس ،
Haywood, « Arabic Lex » pp. 44-45, 98-102

(11) هايوود ، نفس المرجع ، الصفحات 68 — 76 .

(12) هايوود ، نفس المرجع ، الصفحات 104 — 107 .

(13) انظر عن الازهري وابن عباد ، هايوود ، نفس المرجع ، الصفحات 53—56—62—64 .

بن الحسن الزبيدى (ـ 379 هـ / 989 م) مؤلف « مختصر العين (14) » وابن سيده مؤلف « المحكم (15) » .

على أنه برغم اتباع الأزهرى والصاحب ابن عباد وأبى على القالى والزبيدى وابن سيده لمنهج الخليل فانهم اختلفوا فى بعض تفاصيل هذا المنهج وجزئياته ، فأدخل كل منهم عليه التغييرات المناسبة التى رأى أن من شأنها تنقيحه وتبسيطه وتيسيره وجعله أسهل تناولا .

وفيما يتصل بترتيب الحروف وكذلك بترتيب « الكتب » ، لم يعدل من مؤلفى المعاجم سابقى الذكر عن منهج الخليل غير أبى على القالى ، فرتب الحروف على النحو التالى اعتمادا على ما لدينا من معلومات :

ه ، ح ، ع ، خ ، غ ، ق ، لا ، ض ، ج ، ش ، ل ، ر ، ن ، ط ، د ، ت ، ص ، ز ، س ، ظ ، ذ ، ث ، ف ، ب ، م ، و ، أ ، ي ، ء .

وهذا الترتيب يدلنا على أن القالى ، مثله مثل الخليل ، يبدا بالحروف الحلقية ويختم بالحروف الشفوية وحروف العلة ، لكنه يخالفه فى ترتيب بقية مجموعات الحروف بل يتباين ترتيب هذه داخل كل مجموعة عما هو عند الخليل (16) ، وعن القالى أخذ الزبيدى هذا المنهج ، ولو أن الزبيدى نفسه يقول بأن أول من أدخل معجم الخليل الى الاندلس كان هو ثابت ابن عبد العزيز السرقسطى وابنه القاسم (17) .

وبصرف النظر عن التغييرات المتعلقة بترتيب « الكتب » تطالعنا الفروق الواضحة بين معجم الخليل وبين معاجم المؤلفين الخمسة

---

(14) بالاضافة الى النسخة المخطوطة من مختصر العين الموجودة بالاسكوريال والتي يشير اليها المؤلف فى حاشية (1) من صفحة (73) توجد منه نسختان خطيتان ، احداهما بدار الكتب المصرية رقم 386 ، والاخرى بالخزانة التيمورية برقم 1 لغة ، وقد ظهرت قطعة منه (1963) بتحقيق الاستاذين علال الفاسي ومحمد بن تاويت الطنجي ـ يرحمهما الله ـ ـ المترجم ـ

(15) انظر عن القالي والزبيدي وابن سيده ، هايوود ، المرجع السابق ، الصفحات : 56 ـ 61 ، ـ 61 ـ 62 ـ 64 ـ 67 .

(16) مقدمة محققي المحكم ، ج 1 ، ص 16 ، هايوود ـ المرجع السابق ص 60 .

(17) الزبيدي ، كتاب طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق أبي الفضل ابراهيم (القاهرة 1954) ص 309 .

المذكورين الذى اتبعوا منهجه ، فى ابواب كل ((كتاب)) ، فالأزهرى ، مثلا ، يغنى الابواب المذكورة على الخصوص بوفرة ما يورده فيها من شواهد شعرية جديدة ، وعلى العكس نجد الصاحب ابن عباد يقصر همه على تقديم المادة اللغوية بأوجز أسلوب ؛ أما القالى فيفرد فى كل كتاب بابا خاصا بالحواشى أو الأوشاب ، يجمع فيها (الحكايات والزجر والاصوات والمنقوصات ، وما اعتل عينه ولامه أو فاؤه ولامه أو فاؤه وعينه ، أو كان فاؤه ولامه ، أو فاؤه وعينه ، أو لامه وعينه ، بلفظ واحد) ، وهو يقسم فصول كل ((كتاب)) بين الثلاثى والثنائى ، والثلاثى المعتل بحرف أو حرفين والأوشاب والرباعى والخماسى فى حين نجد الزبيدى وقد أخذ نفسه بتلخيص كتاب ((العين)) وتسهيل تناوله ، يضرب صفحا بوجه عام عن أيراد الشواهد الشعرية وأسماء المصادر التى اعتمدها الخليل ، وفى ذات الوقت يصحح بعض الاخطاء التى وقع فيها الخليل بوضعه بعض الكلمات فى غير مواضعها المناسبة ، وحذفه ، بدون مبرر ، كلمات أخرى (18) .

تلك هى ، بعامة ، الأشواط التى قطعها منهج الخليل منذ ظهور ((العين)) فى أواخر القرن الثامن الميلادى الى الوقت الذى تهيأ فيه أعمى مرسية لبعثه وتجديده حوالى منتصف القرن الحادى عشر .

تطوان   حسن الوراكلى

---

(18) ينبغي أن نضيف الى الدراسات التي كتبت حول المعاجم العربية والتي تقدم ذكرها. الدراستين الآتيتين نظرا لاهميتها الخاصة ، الاولى هي
SUTDIEN ZUROLTARABICHEN LEXIKOGRAPHIE
ومؤلفها هو : JOBGKHAEMER
والدراسة الثانية هي ((المعجم العربي ، نشأته وتطوره)) (القاهرة 1375 هـ/1956م جـازن) ومؤلفها هو الدكتور حسين نصار .
هذا ويقدم هايوود فى نهاية دراسته التي أشرنا اليها مرارا ، جدولا جديرا بالتقدير ادرج فيه أسماء أهم مؤلفي المعاجم الذين يمثلون التيارات الرئيسية فى التأليف المعجمي عند العرب ، وهي : طريقة الخليل ، والترتيب باعتبار أواخر الكلمات والمنهج الكوفي ، والمعاجم الحديثة ، وللاطلاع عن تفصيلات حول هذه الاتجاهات ولا سيما الاول والثاني ، انظر : مقدمة محققي المحكم ، ج 1 ، ص 15 ـ 16 .

فِيثنطِي اَلِكسَندرِي مَرلو

(؟ -1898)

شاعر وناثر . ولد بمدينة اشبيلية . درس تعليمه الثانوى بمدينة « مالقة » . اشتغل بالمحاماة بالعاصمة الاسبانية . بدأ بنشر أشعاره فى مجلة « الغرب » ، كما نشر فى أكبر المجلات الشعرية الاسبانيـــة . فى سنة 1933 أحرز جائزة الدولة فى الآداب . عضـــو المجمــع الملكى الاسبانى منذ سنة 1949 . يعيــش حيــاة هادئــة بعيــدة عن الاجتماعات والاحتكاك بــالـــنــاس .

أثر فى الشعر الاسبانى بمدرسته الجديدة التى لقحت الشعر الاسبانى المعاصر بلقاح جديد لم يعهــده من قبــل ، حتى عــد من أكبــر شعــراء اسبــانيا . ومن دواويــنـــه :

« سيوف كالشفاه 1932 » ، « الهلاك أو الموت » 1935 » ، « ظــل الفردوس 1944 » ، « الولادة الأخــيرة 1953 » ، « تاريــخ القلــب 1954 » .

وفى ما يلــى ترجمة لفقرات من قصيدة طويلة تعرف القراء بعالمــه الشعرى ، وهى مترجمة بـــتصرف :

الموت ..

آه ! أنت هو . أنت هو . ذلك الاسم الخالد
بدون تأريخ .
ذلك الصراع الموجود بين البحر والعطش

* * *

أنت هو . يا ظل البحر الجبار ،
المتموج بالعبقرية الخضراء الحاقدة .
وبالأسماك المتحجرة التى تعلو فى الهواء .
على حياتى تهجم شفقة أو حرباً .
كحب ينتهى بالموت .

* * *

اقتلنى اذا شئت ، يا أيها البحر الرصاصى
بدون رحمة .

* * *

اقتلنى بخنجر ، أو بشمس ملتهبة نيرة ،

أو بنظرة طائشة من عين بريئة .

* * *

آه ! حالا ، حالا ، أريد أن أموت ،

وجهاً لوجه ، أمامك يا أيها البحر ؛

أمامك يا أيها البحر ، العمودى ، الذى يطرق

برغونه السماوات .

* * *

تعال ، واغمرنى برغوتك الزجاجية

المكسرة .

أحب اللون الوردى أو الحياة .

أحب الأحمر ، أو لونه الاصفر القاتم .

أحب ذلك النفق الذى يذيب اللون ، فيصبح

أسود وامضاً .

حيث الموت يضحك من فمه .

* * *

مـوت كأنـه اقـتـحـام من رمـل ،
كأنـه مـاء : فى مرورد يبـقى وحيـداً .
كـذاك الخفاش الذى يعلوه لون الـدم .
ـ فى منتصـف اللـيـل ـ
فـوق بـحـر لا وجـود لـه .

ترجمـة المناهل

ذيل وتعليق
حول
« قضية » المعتمد بن عباد

القسم الخامس

عبد الرحمن الفاسي

المعروف من الروايتين العربية (1) والاسبانية ان ((الفنش)) (السادس) قد كان لاجئا فى بلاط طليطلة حينما وجه عنه الى ((برغش)) لينصب ملكا على قشتالة خلفا لأخيه ((شانجه)) ، الذى قضى غيلة (اكتوبر 1072) فى كمين حين كان يحاصر أخته أراكة فى حصن ((سمورة)) ، وما كاد يتم تنصيبه باسم ملك ((قشتالة)) و ((ليون)) (2) ، وقبل أن يتم له توحيد ممالك ((قشتالة)) كلها تحت لوائه ، حيث

(*) وقع غلط مطبعي فى الجزء الرابع من : ((المناهل)) (الذيل الرابع) ، الصحيفة : 306 ، حيث حرفت كلمة ((بلنسية)) الى ((اشبيلية)) ، مع العلم بأنها رسمت على الوجه الصحيح فى الصحيفة : 308 ، من نفس الذيل ، مقرونة بذكر صاحبها ابى بكر بن عبد العزيز ، كما حذفت كلمة بعد : ((اثر كلمة الثلاثة)) فى نفس السطر ، وبذلك يصير التصحيح هكذا : وبعده ابو بكر بن عبد العزيز ، صاحب ((بلنسية)) وثالث الثلاثة بعد المستشار ((ششنند)) .

(1) الذخيرة لابن بسام القسم : 4 ، ج : 1 ، ص : 124 ، ـ اعمال الاعلام ، جزء الاندلس، الصحيفة : 381 ، طبع : الرباط ، ويعتبر المختصر الذي أورده ابن الخطيب آخر الجزء الخاص بالاندلس من كتابه : ((أعمال الاعلام)) للتعريف بملوك النصارى بالاندلس، أوسع ما فى الموضوع وقد استقى معلوماته من مدونة ((الفونسو العاشر)) المعروف بالعالم وبالحكيم ، وذلك بواسطة احد التراجمة اليهود .

(2) ورد اسم ((ليون)) معربا على لسان المؤرخين تارة حسب نطقه بالافرنجي : ((ليون)) وعليه درج المقري فى النفح ، وتارة برسم لاون ، وعلى هذا درج الادريسي وغيره .

كان اخوه الاصغر « غارسية » يتحفز للعودة من منفاه فى اشبيليـة الى كرسى امارته فى جليقية ، حتى خف الى توجيـه نشاطه نحـو الممالك الاسلامية ، وكأن اقامته تسعة أشهر كاملة فى طليطلة (يناير ـ أكتوبر 1072) ، قد حببت اليه تلك الديار ومن سكنها ، فبرح به الحنين اليها !!

والواقع أن من اليسير أن نفهم أنه بالرغم عن القوة التى أظهرها سلفه « شانجه » فى معاملة المسلمين ، وما أعنتهم بـه من روادف الجـزى والاتاوات ، فقد طرأ على حركة الاسترداد همود طوال سنوات التطاحن الذي استحر بين الاخوة أبناء « فرذلنـد » (1067 ـ 1071) ، وقـد فرغت اليوم زعامة الاسترداد لتعيدها جذعة ، وهيمنة سارية فى الساحة الاندلسية ، وغولا مرسلا على أبصار وأذهان الدهماء ، وكابوسا مزعجا فى اليقظة والمنام ، للملوك والرؤساء .

وقد يصح أن يلتفت فى هذا المقام إلى أن ارهاصات الحملة الصليبية الاولى التى انطلقت بالمشرق من نداء البابـا « أربانوس » بعيـد هذا التاريخ بقليل ، وواكبت عصر « الفنش » ، قد كانت ـ فيما يظهر ـ من حوافز عودة حركة الاسترداد الى الميـدان بالفلاظـة والطغيان ؛ وان قيام دير « ساهاجون » (3) مخدع الآباء « البندكطيين » فى منطقة « ليـون » ، وهى مملكة « الفنش » الاصيلة ، لما يحث الباحث على هذا الالتفات ، لاسيما وهذه الفرقة معروفة بعصبيتها الدينية الجهلاء ، بقدر ما هى مشهورة بالرهبنة فى المعرفة ، وبما ينسب اليها من مدارس العلم ، والرهبان العلماء ، وقد كانت بانعزالها عن الميدان الاسلامى ، منفصلة عن جو الاختـلاط المسيحى الاسلامى ، المعـروف فى مجتمـع الجزيرة ، ومن ثم استحجرت عقلية هؤلاء الآباء ، وطغت فيهم وحشية العصبية الجنسية والدينية ، وعملت عملها فى منطقة الشمال ، فأرثت وقدة حركة الاسترداد بعد ذلك الهمود حتى انقلبت الى بركان ، وانطبع واقع عهد « الفنش » فى نصوصنا التاريخية مجللا بالجهامة والقتام .

وذلك ما كان . . وهو مصداق قـول ابن الخطيـب (4) : (وهذا « الفنش » المعمر هو الذى طغى واستحـوذ على مـلوك المسلمين) ،

---

(3) اسم « ساهاجون » الجديد : « بلنسية دي سان خوان » .
(4) اعمال الاعـلام ، جـزء الاندلس ، طبع : الرباط ، الصحيفة : 381 .

وفى نفس السياق قال : (واستخدم ملوك المسلمين بالجزيرة) .

ومن المفهوم أن حصيلة المكاسب التى حققتها الحركة على عهد ((فرذلند)) قد مهدت لزعيمها الجديد أرضية باردة ، وخصما ذلولا ، فما اكتوى بنيران مصاولات ، ولا ارمضته مجابهات حاميات ، فالهدف محدد مرسوم ، ومعلوم عند النصارى وعند المسلمين بصريح الاقوال والاعمال ، ويتلخص فى الكلمتين الخفيفتين اللتين كان يلقى بهما ((فرذلند)) مباشرة فى وجوه ملوك الجزيرة : (انما نطلب الارض التى غلبتمونا عليها فى أول أمركم) ؛ وبالواسطة أيضا سمعوها ، ووعوها عن مستشاره ((ششنند)) الذى أداها الى الملك عبد الله صاحب غرناطة ، وبأوضح وأبسط من هذا حسب ما سمعنا فى صفحات سالفات ، وفى بعض فقراتها قال : (5) : (وانما كانت الاندلس للروم فى أول الامر ، حتى غلب عليهم العرب ، وألحقوهم بابخس البقاع جليقية ، فهم الآن عند التمكن (طامعين) فى أخذ ظلاماتهم) .

والى جانب الهدف المعروف ، خطة سلكها والده ((فرذلند)) ، وآتت اكلها ماديا ومعنويا مع تعاقب السنين ، ومع توالى الارداف على ملوك الجزيرة بالاتاوة والحصار ، فأحدثت ثغرتها المنشودة فى مطاوى النفوس ، وفى خزائن المال وكنوز الذخائر ، وفى أمنع الحصون والمعاقل .

وبهذا أصبح لسيادة قشتالة على ممالك المسلمين فى عهد ((الفنش)) مظاهر ثمرات العهد السابق ، وأبرزها :

ـ تدخل مباشر فى شؤون الملوك والرؤساء ، وتوجيه لحركات وسكنات كبيرهم وصغيرهم ، كما يشاء .

ـ تركيز وجود قشتالة العسكرى فى قلب التراب الاسلامى ، ولم يعرف قبل فى عهود استعلاء حركة الاسترداد .

على أن الظاهرة التى أضفت على عهده طابعا خاصا هى ظاهرة تأثير منفاه فى تصرفاته ، وفى سرعة خطواته ، فبدا جانحا الى المواجهة

(5) كتاب التبيان (مذكرات الامير عبد الله) الصحيفة : 73 .

وسرعة الانجاز ، والاختلاط بالمجتمع الاسلامى ، سواء بنفسه او بواسطة الاتباع والاجناد ، وذلك على عكس ((فرذلند)) الذى اقام سياسته على كامل الاحتراس ، والتمهل فى الخطوات ؛ كما بدا ((الفنش)) مستهدفا فى جميع تحركاته الظفر بالاستيلاء على طليطلة ، ومندفعا نحوها بعاطفة جياشة ، ونفسية ملتهبة ، توحى للباحث ان عنصرا نفسيا جديدا جـد فى نشاط حركة الاسترداد ، وأخذ يلهبها للسير فى سمت يمتـد قدمـا تجاه معاهد منفاه ، والى طليطلة بالذات ، وكانت اشبيلية حجر العثرة فى السير ، فاتجهت فى عهده نحوهما معا دفة العدوان .

وكادت كل من الرواية العربيـة والقشتاليـة أن تحـوم حـول هذه الظاهرة ، ولكنهما اقتصرتا على نقرهـا من بعيد ، ومن غير نزوع الى التعمق واستقراء تاثيرها فى سير الاحداث التى استقبلها ((الفنش)) ، واستجلاء ما أنشأت فى نفسه من طماح وتطلع ، فلم تزد الرواية العربية التى سجلها ابن الخطيب على هذه الكلمات عند ذكر فرار ((الفنـش)) من منفاه الاول فى دير ((سفقند)) ، القابع فى العراء ، وذلك حين قال : (واحتال فهرب منه ، ولحق بطليطلة ، وبها يومئذ ملكها المامون ابن ذى النون) ، المشبوب الطماح لزعامة الاندلس ، المستميت فى الاستظهار بالنصارى من غير احتراس ، (فئاواه وأجاره وسكـن عنـده ؛ وسكناه بطليطلة ، واطلاعه على عوراتهـا هو الذى أوجب تملـك النصـارى بها (6)) وأما الرواية القشتالية ، وهى من طريق مدونة دير ((سيلوس)) فلم تزد على هذه الافادة غير تعليقات وذيول ، مما يوحى به عادة جو ديرة الرهبان على مر العصور ، واذا هى تقول : (7) (ان النفى الدى كان يعانيه ((الفنش)) بين هذه الفخامات كان وكانه مقصود من العناية الالهية حسبما يقول لنا مؤلف تاريخ ((سيلوس)) ، فقد كان ملك ((ليون)) المخلوع ، يختلط بالسكان المسلمين ، ويتريض فى جنبات المدينة الحصينة، ويفكر من أى الاماكن ، وبأى نوع من أدوات الحرب يمكن اقتحامها) ، ثم يضيف صاحب الرواية مؤكدا عزمـة الضيف على خيانـة المضيف ، فيقول : (ان ((الفنـش)) انتفـع بوقتـه فى دراسة خطط المدينـة ،

(6) اعمال الاعلام ، جزء الاندلس ، طبع : انريك ، الصحيفة : 381 .
(7) دول الطوائف ، للاستاذ محمد عبد الله عنان ، الطبعة الاولى ، الصحيفة : 377 .

والاحتمالات التى تمكنه من تنفيذ مشروعه العظيم فى الاستيلاء عليها) .

وهذا حقا منطق الرهبنة الذى يعرض عليك رذائل طبائع النفوس ، وسوءات العقول ، على أنها من إفضال السمـــاء ، وارهاص من الملائكـــة الحافين بعرش الرحمان .

على أن الاستيلاء على قرطبة لم يتم بمعرفة طبوغرافية ، ولا عبقرية عسكرية ، وانما بمحض خيانات اندلسية ، ولولاهـــا لتجمدت القـــوات النصرانية فى ارباض طليطلة من عواصف البـــرد ، وحرارة الجـــوع ، ولطار ((الفنش)) فى مهبها شعاعا ، ولذهب ضياعا .

والرؤية التى نراها اليـــوم من وراء العصور ، ومن بين سطـــور المخطوط والمطبوع ، ليست من تلك الزاوية التى أطلت منها المعيـــة ابن الخطيب ، ولا من هذا المنحنى الذى ركزت عنده رهبنة الدير منظارها لتقرا وجه المستقبل فى أعلى عليين ، فالأمر لا يتعلق بأثر هذا المنفى فى كيفية الاستيلاء على طليطلة لاسيما وقد قضى الامر فيها بما قدر وكان ، وانما يتعلق باثر ذلك المنفى فى نفس ((الفنش)) ، وما كان له من ضغط ضاغط فى توجيه سياسته ، والتحكم فى انتصاره ، وهزيمته .

ولقد كانت وضعية ((الفنـــش)) حين آوتـــه طليطـــلة مما يفتـــح الاستعدادات لمختلف المؤثرات التى تطبع تصرفات الانسان بطابع خاص ، وتنقله من حال الى حال .

ومن اليسير ان نقع على مأتى هذا التأثير ، وأن نسبر مداه اذا تمثلنا وضعية ((الفنش)) فى حالة شخصه كانسان ، وفى ظروف شخصيته عند منفاه كصاحب عرش وتاج ، ولا نذهب بعيدا فى تمثل ما كان عليه الانسان الاوربى يومئذ ، فى حالته المادية أو الفكرية ، والعلية والسوقة فى ذلك سواء ، وانما نكتفى بشهادة شاهد عيان كان فى جملـــة شيوخ طليطلة الذين وفدوا على ((الفنش)) حينما هد الحاضرة البائسة هول الفتنة ، وأنهكها الحصار ، وقد كان الطاغية تسلل الى قصر المنصورة ، واتخذ من ساحاته معسكر جنده ، ومن أبهائه مرابض لخيلـــه ، وكان قصارى ما سعى اليه شيوخ طليطلة أن يظفروا منه بقبول فدية ، ولـــو بلغ ما بلغ حجمها ، أو نوعها من متمول ومال ؛ وبعد انتظار طويل كادهم

به ، ادخلت عليه منهم جماعة ، فوجدوه ، كما يقول شاهد العيان (8) : (يمسح الكرى من عينيه ، ثائر الرأس ، خبيث النفس ، وجعلوا ينظرون اليه وهو يضغت ثغام رأسه ، فما نسوا دفر أطماره ، ودرن أظفاره ، ثم أقبل عليهم بوجه كريه ، ولحظ لا يشكون أن الشر فيه) .

وان الباحث من جهته لن ينسى أيضا أن طليطلة التى يحاصرها اليوم — فى هذا السياق — وسنرى بعد لحظات أنها آوته فى رحاب قصر ملكها ، وآنست غربته قرابة عام ، قد أشرعت فى حوماتها وأحيائها أبواب تسعمائة حمام لعامة الناس ، ومن تراتيب كرم الضيافة فى تلك الحاضرة وبنياتها وأخواتها من حواضر الجزيرة أن يهيأ الحمام للضيف بمختلف المعدات ، من قوارير البلور والفضة المترعة بالغوالى الزكية (المتخذة من خالص المسك التبسى ، ومحض العنبر المغربى) ؛ ومما درجوا عليه وأخذوا أنفسهم به اخذهم لها بالوضوء عند كل صلاة ، استيعاب غسل أيديهم قبل كل طعام وبعده ، وتنشيفها بمناديل (يتضاءل أمامها ما عليهم من سنى الكسوة) وقد نديت كمناشيف الحمام بشآبيب ماء الورد ، أو الزهر ، طبقا لما تقتضيه طبيعة الفصل ، وجريا على مسنون تقاليدهم المؤثلة لطلب المجانسة فى كل ما يستعملون ، والقران بين أضداد الالوان والنظائر والاشباه ، فى كل ما يلبسون وما يأكلون ويشربون .

وأما محنة عرشه فتبتدىء بمحاولة أخيه « شانجه » الاستيلاء على « ليون » و « آنشترويش » ، المنجرتين له من قسمة والده ، وقد اذاقه مرارة الهزيمة مرتين ، وسلبه الامارتين ، وطوح به مونجا (9) فى دير على رسم ائزهاد ، ومرقبا عليه ، ليظل رهين المحبسين ، غيابات الدير ، واليأس الغالب المستطيل ، ولكن حسن الطالع واتاه بفرصة الانفلات والانعتاق ، فأهطع الى طليطلة ناظرا الى ان جباية جزيتها هى من قسمته فى تركة والده « فرذلند » ، وهكذا آواه قصر « المكرم » الزاهى ضيفا مكرما فى أحد أجنحته ، وفى مقاصير الضيافة المبثوثة فى جنباته ، وهو القصر الذى تمثلت فيه بدائع التحضر الاندلسى ، وخلاصة

---

(8) الذخيرة لابن بسام ، القسم : 4 ، المجلد : 1 ، الصحيفة : 129 .
(9) أعمال الاعلام ، جزء الاندلس ، الصحيفة : 380 ، طبع : الرباط .

ما انتهى اليه التمدن الاسلامى ، ولم يكن يضاهيه غير قصر المنصورة ، واليهما حشر المامون كل حسن ، وباهى بهما جنـــة عدن ، ولم يـــر فى دنيا الناس اثمن ولا انفس من فاخر ما تالق فى ابهائهما ومجالسهما من رياش وادوات ، وآنية واثاث ، وفى بحيرتيه اللجينـيــتين المزدانــتين بتماثيل مرمرية لكل سابح وطائر وزآر من السباع ، سال قلـم شيــخ المؤرخين الادباء ابن حيان بصفحات ، وعن قبتــه التى كانت ترفــل فى غلالة من الماء ، تحدث شارح العبدونية بما يضع امام نظـــر القارىء سادسة عجائب الزمان .

وفى رحاب ضيافة المامون ابن ذي النـــون قدر لابن ((فرذلنـــد)) الطريد ان يقضى ايام منفاه فى نعيم ، طرد عن نفسه اليـــأس ، وازهر فى خلده بشعاع التطلع الى الفـــد .

وقد كان المستشرق الاستاذ ((ل . بروفانصال)) دقيقـــا ، صادق التعبير حين عبر عن هذا الملجأ السحري بالقفص الذهبي ، وما احســب ان هذا المستشرق الذي اغرم بالحضارة الاندلسية الى حـــد الهيـــام ، وقدرها حق قدرها باخلاص ، لم يقصد بفقرته الذهبية هذه اكثر من ان ((الفنش)) قد عوض بالقصر البهى الرحيب عن ذلك الدير المعتم البهيم ، وانما تمثلت فى مخيلته اكثر من صورة ، وندت الى فكره اكثر من فكرة ، وتدافعت فى مخيلته اكثر من خاطرة ! ! !

فهو ، ولا شك ، تمثله خارجا من عصور اوربا المظلمة الى عصور النور ، ولالاء الحضارة الاسلامية .

وتصوره مستدبرا سهوب جليقيـــة الجـــرداء ، الى فجـــاج ارض المسلمين الفيحاء ، الى مدينة الله الحقيقية ، تلك التى جلـــت العبقرية العربية تحت سمائها عن جمال الله فى طبيعته ، وفى اذهان خلقه ، وفى الانسان الذى اصطفاه الله ليستخلفه فى ارضـــه ، وما زال يملى لـــه ببسطة الحياة على ثرى جزيرته .

ولم يكن من الصدفة ولا من طبيعة المنهاج ان يغمر الاستاذ فيض من وراء ذلك القفص الذهبى ، فيندفع مستطردا وصفا مسهبا لمباهـــج قصر طليطلة ، ومقتبسا فقرات من ابن حيان فى صميم اطرهـــا ، حتى

لكانه يحافظ على مآثر القصر ، فلا يشينها بزيادة او نقص ، وهى ظاهرة استطراد تثير الانتباه ، وتشى بما قــام فى نفسه من التفــات الى هذه الفروق ، بين دنيا هنا ، ودنيا هناك .

وهذا نفس ما يخالج أى باحث حين يتمثل ما كان يضطرب فى نفس ((الفنش)) يقظان ونائما ، وهو منبهر الانفاس تجـاه مشاهـــد القصــر السحرى ، الذى حطته فيه الاقدار على غير ميعاد ، ويا ما اكثر خوالجه التي انبثقت منها تطلعات واطماع ، وما اضعف البشرية البدائيــة التـــي تحول الغبطة الى حقد مشبوب ، وينقلب معهــا المحروم الى حيــوان منهوم ، فتأخذه سورة التصورات ، وتراوده حالا على حال ، فيخيــل اليه معها أن الاستيلاء على مرابع الضيافة فى طليطلة بالذات ، والتربع فى قصرها ، والتزيى بزى اهلها كاف ليجعل فى يده مفتـــاح الحضارة ، وخلاصة التمدن ، بين عشية أو ضحاها ، وليضفى على عيشته ومجتمع قومه مقومات الكمال فى رمشة عين ، ويغديها فى لحظات بسر العلــم ، وبلباب الحياة الذى اثلته الاجيال ، وابتدعتــه عبقريــات وخصائــص ومميــزات .

واذا كان للخيال فى مده وجزره حــد محــدود ، فسيظــل ادنى ما يخامر ((الفنش)) ، ولا يكاد يفصم عنه ان يتمثل نفسه قائما مقــام الملك المسلم فى هذا القصر ، وفى حكم هذا الشعب ، وفى مجتمع سعت اليه الدنيا بما لا عين رات ؛ وعندها . . يبدو وكان مبــدا اجلاء السكان المسلمين عن الجزيرة ، والالقاء بهم فى اثباج البحر ، قد اصبح فى مثــل هذه اللحظات الحالمة مكتنفا فى خياله بنتف من ضباب ، وهو المبدا الذى اعلنوا عنه فى جو الصحو والجهارة من قبل ، ونفذ بالفعل على يـــد ((فرذلند)) ، وفى منطقــة لشدانية (10) (لوزيتانيــا) مــا بين نهــر ((التاجه)) ونهر ((دويره)) ، وهى من ارض البرتغال الحالية .

وليس هذا الذى اسجله من عدوى خيال ((الفنــش)) ، واحــلام قصه الذهبى المسحور ، وانما هى مما يقــرا فى سطــور المعــاهدة

(10) ((المناهــل)) ، العــدد الثانــي ، الصحيفــة : 346 .

التى وافانا بها النص الفريد ، الوارد فى كتاب « الاكتفـــاء » (11) حيث سجل مؤلفه ابن الكردبوس من بين بنود معاهدة استيلاء « الفنـــش » على طليطلـــــة :

(على ان يؤمنهم فى نفسهم واموالهم وبنيهم)

(وان من احب منهم الخروج لم يمنع منه ، ومن احب المقام لـــم يلزمه سوى اداء الجزية على عدد ما عنده من الاشخاص ، وان رجع بعد رحيله نزل على ما كان بيده من عقار دون تعرض عليه ، لا فى كثيـــره ولا فى قليـــله) .

وانه تعهد لا يعنينا منه فى هذا المقام ما كان منه صادقا ، وما كان مجرد حبر على ورق ، لفرض تامين وضع الامضاء على الحيازة والتملك فى الحال ، وانما يعنينا منه أنه يشير الى تحول ، ولو عابر فى الرؤيـــة تجاه هؤلاء الذين كان العزم على أن يقذف بهم الى طريق العودة نحو بـــر العدوة الذى عبروا منه الى هذه الجزيرة .

على أن تلقبه بملك الملتين اثر فتحه « طليطلة » ، وكما سجله فى كتابه الى المعتمد بن عباد ، يفيد ان فكـــرة الحكم ، واستغلال المواهب قد خطرت بالبال ، ورجحت ــ ولو موقتـــا ــ على اتجاههـــم نحـــو الطـــرد والاجـــلاء .

ولم يكن « الفنش » وحده الذى تلمظ للذاذات طراز الحكم العربى بقصوره ، و (فخاماته) على حد تعبيـــر مدونــــة الديـــر ، وبعطـــوره وطيوبه ، وبحاشيته وقيانه ، وبمجالى مجتمعه التى لا تغرب عنها شمس الضياء ، لا فى نهاره ، ولا فى ليله ، وبروائح الجنــــة التـــي تنفـــح بين الغادين والرائحين فى سككه وساحاته ، وانما كانت تلك ايضا آخر امانى وشهوات الفـــارس القشتالى « روديجو ديـــاث » المعـــروف بالسيـــد القمبيطور ، فبعدما خدم ملـــوك النصارى والمسلمـــين على السواء ، وحارب هؤلاء وهؤلاء ، وتردد بين بـــلاط تغطى ارضيتـــه الحشـــائش

---

(11) كتاب : « الاكتفاء » لابن الكردبوس ، طبع : معهد الدراسات الاسلاميـة بمدريـد ، وتحقيق : الاستـــاذ المختـــار العبـــادي ، ص : 85 .

والاعشاب ، وبلاط يتماوج على ارضيته ضياء المرمر الوهاج ، وتشع منها ألوان زرابى الحرير المثقلة بالعقيان ، وعندما ادركته خيل أمير المسلمين ، وترددت فى أرجاء ((بلنسية)) أصداء طبول جيش المرابطين ، طما ما فى نفسه على لسانه ، فاعلن ان أمانيه قد انحصرت فى أن يصفو له الحكم فى بلاد اسلامية ، فيعيش بين اهلها ، وعلى طراز حياتهم ، وتقاليد لباسهم ، وترانيب موائدهم ، وصبوحهم وغبوقهم .

ولن يعزب عن البال فى المقام ، أن طليطلة قد كانت نقطة الانسياح الطبيعى لحركة الاسترداد فى تراب الاسلام ، بالنظر الى امتداد اعمالها على طول امتداد نهر ((التاجه)) شرقا وغربا ، والى جبال قرطبة جنوبا ، فهى بذلك الثغر الواقى لمواسطة الاندلس ، ونقطة الاتصال بين الثغرين الآخرين ، ولكن الملحظ الذى اشير اليه فى المقامينظر بجانب ذلك الى شهوة نفسية خاصة ، ارى أنها أصبحت تكون عنصرا نفسيا جديدا ، وعاملا بين العوامل الدينية والجنسية الدافعة لحركة الاستيلاء والاسترداد ، وقد أثارت ــ فى أدنى تقدير ــ النحائز البشرية ، وهيجت الاطماع ، وبدت بعض احداث العهد الذى سنستقبله ، مسومة بآثار اقامة ((الفنش)) فى منفاه ، وكأنها دليل الباحث الى ذلك السمت الذى سار فيه ((الفنش)) ، الى ان تربع حاكما فى قصر ابن ذى النون .

وها نحن نواكب ((الفنش)) فى جولته الاولى ، وزادنا فيها معلومات سالفة حول ما جد فى الساحة الاندلسية ، منذ ادبر والده عن دنياه ، وانصرف خلفه ((شانجه)) لحرب الاخوة والاخوات ، وسنلقاه كما سنتوقع متجهما ، منفوش شعر الرأس ، وهو يحرق الأرم ، ويزفر زفرات صديقه ومضيفه ابن ذى النون ، صاحب ((طليطلة)) ، فهمهما اليوم واحد ، ومنصب على المعتمد بن عباد ، وقد عبر لسان الدين ابن الخطيب عن واقع الحال حين قال اثر ذكر وفاة ((فرذلند)) (12) : (وقام بعده ولده فشغل بابن عباد) .

ويعتبر هذا منساقا مع ما وعيناه من الفصول السالفات ، لا بالنسبة الى المامون (13) ، ولا بالنسبة ((للفنش)) ، فليس ببعيد

(12) أعمال الاعلام ، جزء الاندلس ، طبع : بيروت ، الصحيفة 148 .
(13) مجلة ((المناهل)) ، العدد : الرابع ، الصحيفة : 295 .

عنا خبر اختطاف ابن عباد عاصمة الخلافة القديمة قرطبة من بين فكى المامون ، وكانت منه حركة شطار ، مستوحاة من روح المعتضد ، ومن وحى دهائه الوقاد ، فقد أذاقت المامون مرارة هزيمة الحرب ، ومرارة اخلاف الوعد ، وكان المعتضد قطع على نفسه ترك المجال له فى قرطبة ، وما كان منه غير علالة كاذبة ، ومحض مناورة ، ثم مرارة ضياع « حصن المدور » (14) الذى دارت فيه الدائرة عليه ، فضاع الحصن وضاعت معــه قرطبـــة .

وبالنسبة « للفنـــش » فمن المعروف أن لحركـــة الاسترداد (15) سياسة مرسومة ورأيا قارا فى حياد قرطبة ، وبقائها بمنجاة من اطماع الكبار الذين كانوا يتطلعون الى الظفر بها استظهارا بمعنوياتها ، لتوسيع النفوذ والسيادة على الصغار ، وذلك اذا حصل ، فمن شأنه أن يخل بميزان القوى الذى كان « فرذلند » ينظر اليه حتى تبقى قرطبة كما هى ، على حالتها الحاضرة صغيرة بحجمها ، وهينة بنى جهور القائمين يومئذ عليها ، وبذلك يتلافى نشوء قوة واستنسارها ، وقد تعننه وتنال من السورة النصرانية ، ولربما أدت الى تكتل يوقفها عند حدها ، وذلك أيسر التقدير المتوقع الذي يحسب له الحساب فى أمرها .

وازاء هذا تشاء الاحداث أن تسرع فى جريها ، وفى طيهـــا وفـــاة صادب غرناطة « باديس » عام 465 هـ ــ 1072 م ، وتنصيب حفيـــده الصبى عبد الله بن بلقين خلفا له على عرش الحاضرة ، ووقوف وزيره سماجة الصنهاجى على تربيته والقيام بتدبير دولته ، وهنا ينتفض المعتمد ابن عباد كمن أزاح عنه موت « باديس » حائـــلا دون متابعـــة مشـــروع والده المعتضد فى الامتلاك والامتداد ، ففى السنة بعدها (466 هـ) ، خف الى الانتزاء على « جيان » مقتطعا بذلك بعض الحصون فى شمـــال المملكة الغرناطية ، ويظهر أنه اغتنم فرصة ضعف واليها عم الملك عبد الله الذى عدل أهل الحل والعقد عنه الى ابن أخـــيه عبد الله ، لمـــا عرف به هذا العم من فسولة وانهماك فى اللذات ، ثم لم يلبث المعتمد أن (حشد واستكثر) ولوى أعنة فرسانه نحو الحاضرة بالذات ، وقد كانت

---

(14) اعمال الاعـــلام ، جـــزء الاندلس ، طبع : بيروت ، الصحيفة : 238 .
(15) مجلـــة « المناهـــل » ، العـــدد : الثالـــث ، ص : 351 ـ 352 .

وثبة عبادية أطارت صواب « الفنش » ، وتفصد لها عرقه ، فتشبح له المعتمد معتضدا جديدا يطغى فيه كوالده الاباء ، ويصول بالمنعة والحول والطول ، وستعود اشبيلية كعهدها قبلة الانظار ، ويرفع صاحبها عقيرته بالنكول عن أداء المفروضات ، وينتهي الى ما حاول أن يبتدىء به من العودة الى سنة العباديين فى التوسع والانسياح .

ونسير مع « الفنش » . . ويعرضه علينا الملك عبد الله فى كتابه عن دولة قومه (16) على أبواب غرناطة بواسطة رسوله « باطروشوليش » مهطعا اليها مع من أزعجهم الطمع فى ملكها (من أجل الضعف وسن الصبا) كما عبر عن نفسه الملك عبد الله ، ولقد جاءه الرسول برسم طلب الضريبة فى بادىء الامر ، ويظهر أنها المرة الاولى التى تفرض فيها قشتالة الجزية على غرناطة ، وبملاحظة ان المدة بين موت « باديس » 1072 م ، وانتصاب « الفنش » ملكا على قشتالة و « ليون » فى ربيع الثانى 466 هـ — ديسمبر 1072 م ، لم تكن تتجاوز بضعة أشهر ، يتأكد أن فى هذه المطالبة عجلة مقصودة تنبىء عن ارادة اثبات الوجود القشتالى فى الساحة العربية ، وذلك فى الوقت الذى غيبت فيه المنون أحد كبار ملوك الجزيرة ، وفى هذه العجلة تطلع منتظر ، وشره واضح يكاد يمثل للعيان بعين زائغة فى أكداس التحف والذخائر ، وكنوز « باديس » المتوهجات ، ولن تكون الا على قدر عظمة وحجم ذلك الذى كان (أرفع املاك البرابرة شأنا ، (17) وأشدهم سلطانا ، وأكثرهم رجالا ، وأوسعهم أموالا) ، وامتدت مملكته ما بين كورتى « بسطة » و « جيان » الى بابى « مالقة » و « استجة » ، وما يقع جنوبا حتى اقليم « قرطبة » ؛ ومن المعروف أيضا أنه عهد بتدبير دولته الى اليهوديين « ابن نغرلة » ، ثم من بعده ولده يوسف ، فلا ريب أنه أخذ عنهما طرائق كنز الاصفر النضار ، والجرى وراء الدانق الرنان ، حين ينفلت من الكيس على غرة ، وينطلق فى جريته المعهودة ليقبع بعيدا عن الانظار .

---

(16) كتاب « التبيان » أو مذكرات الامير عبد الله ، الفصل الخامس ، ص : 69 .
(17) أعمال الاعمال ، جزء الاندلس ، ص : 264 ، ط : الرباط .

ويشاء الملك عبد الله أن يدس فى رأس القارىء — وهذا من مقاصد كتابه — أنه امتنع عن « الفنش » ، وانصرف الرسول ، بغير المأمول ؛ والملك عبد الله يقصد بهذا أن يفهم عنه أنه لم يكن من أولئك الراغبين فى التقرب من « الفنش » ، وفى الزلفى اليه والتحصن به صنع غيره من الملوك والرؤساء ، كما يضيف أن الرسول ما كاد يفصل عن الحاضرة غرناطة حتى اعترضه وزير المعتمد أبو بكر بن عمار ، وقد كان متربصـــا له فى « باغه » (18) ، واذا هو يعرض عليه تلك الصفقة الخطيرة التى عرف القارىء خبرها فى سياق آخـــر من صفحات سالفـــات ، فلنستمع القصة فى معرضها الثانى على لسان الملك عبد الله نفسه وبلهجته حين يقول (19) : (وان ابن عمار انتهـــز هذه الفرصـــة ؛ وكان منتظرا له « بباغه » ، مرتقبا لما يصنع معنا ، فلما رأى أنه لم يتم له عمل ، ألقى يده فيه على المقام وقال له : « ان كنتم منعتم عشرين ألف دينار (وهى التى سأل عن ضريبته) ، فنحن نعطيكم خمسين الفا ، على أن نعاقدكم على غرناطة : تعطونا القاعدة ، ولكم ما فيها من الاموال ! » فعاقدوه على ذلك ، واتفق رأيهم على أن يبنوا على غرناطة معقلا يضيق عليها حتى تلقى يدها) .

ثم ينطلق الملك عبد الله بعدها فى ذكر قصة هذا المعقل وهو حصن « بليلش » الذى جدد (20) بنيانه ، ووسع أركانه ابن عمار ، وزيـــر المعتمد بن عباد مستعينا فى ذلك بجند قشتالة ، وذلك لغرض (تجميـــد رابطته فيه مضيقا على من بالحضرة) . ويذكر الملك المؤلف هذا فى نطاق قصده الى تعداد الضغوط التى حاقت به ، والى تصوير المضيق الخطير الذى ألجىء اليه حتى انقطع رجاء الناس من الدولة (لاجتماع المطالبين عليها مع الرومى) على حد تعبيره ، وكان ذلك مدعاة لندمه لما فرط منه من صرف رسول قشتالة ، دون موافقة على مطلب الرسالة .

---

(18) ترسم بغين مضمومة بعدها هاء ساكنة غير منطوقة ، وهذه الهاء تقوم مقام واو الحمل، ومثله نطقهم بكلمة : نهر « التاجه »، بضم الجيم مع الوقف على الضم ، وهو اصطلاح أندلسي معروف فى النطق والرسم .

(19) مذكرات الامير عبد الله ، ص : 69 — 70 .

(20) أعمال الاعلام ، جزء الاندلس ، طبع : بيروت ، ص : 234 ، — مجدة : « المناهل »، العـــدد : 4 ، ص : 309 .

وهكذا يقول بعد الاشارة المتشكية من التضييق الذى أصابه من الحصن (21) : (فكانت ((بليلش)) قد أفسدت ، وضيقت على فحص غرناطة ؛ ولم يكف ما حل من أجلها حتى جعلنا ((الفنش)) أن نغرم ما فاته منا ، تباعة وتذنينا لرفضنا اياه ، واستدفاعا لما يتقى من تماديه على الطلب ، وابن ذى النون فى هذا يتوسط له بالامر ، ويسعى فى تصيير المال اليه ، يرضيه بذلك وينتظر فساد مملكتنا ، فيفترصها هو أو يأخذ منها حصته ، فكان — على ما قدمنا ذكره — عدوا فى الباطن ، صديقا فى الظاهر ، وهو مع ذلك لا يزال يداخل قرطبة ، ويسعى جهده فيها) .

وهذه النصوص كما ترى تعرض علينا بالشاهد الماثل بالاسم والصفة وبالتلبس ، تلك المظاهر الحية التى تطور اليها ذلك الاستعداد الذى نشأ فى نفس الاندلسى لقبول الدنية ، أو كما عبر الامام ابن حزم لالقاء اليد فى اليد ، وهو التعبير الذى استعمله أيضا ملك غرناطة ، فى معرض التشهير بسوءات وسيآت خصومه فى هذه الصفحات ، وذلك أيضا مصداق ما جاء فى نص سابق للمؤرخ ابن الكردبوس ، وهو يصف ما صارت اليه حالتهم مع ((الفنش)) : (وصاروا ((للفنش)) عمالا يجبون له الاموال ، لا يخالف أمره أحد ، ولا يتجاوزه أحد) .

وان وشيجة التعامل بين ((الفنش)) وابن عمار على النحو الذى سمعنا من قبل ، ونسمع الآن ، وسنسمع من بعد ، ليؤكد ما سبقت الاشارة اليه من أن هذه الخدمات هى الاصل والسر فى قولة ((الفنش)) السائرة حين أطلق عليه (22) لقب (رجل الجزيرة) ، ونعلم أيضا أن كلمة تشجيع وتقدير لخدمات ابن عمار قد أرسلها ((الفنش)) امعانا فى استدراجه الى شباكه حين قال : (رجال الاندلس ثلاثة : أبو بكر بن عبد العزيز ، وأبو بكر بن عمار ، وششنند) ، ولقد كان هذا التنويه بابن عبد العزيز لنفس المعنى ونفس الغرض ، كما سيوافينا فى سياق بعد .

---

(21) مذكرات الامير عبد الله ، ص : 70 — 71 .
(22) المعجب للمراكشي ، طبع : سلا ، ص : 69 .

وأما المامون ابن ذى النون صاحب القفص الذهبى ، الذى تدنى الى درك السمسرة كما سمعت ورأيت ، فقد وفاه ضيفه المتوج الثمن بالاعمال لا بالاقوال ، ونفذ معاهدة الصداقة المبرمة تحت ظلال بستان قصر طليطلة ، فمكنه من آخذ ثاره على هامش المصلحة القشتالية التى قضت أن تكون قرطبة لغير الاسرة العبادية ، ففى معترك هذه المناورات التى كانت تحاك ضد غرناطة ، استطاع المامون ابن ذى النون فى جمادى الاولى 467 هـ — ديسمبر 1074 م ، أن يفوز باسترجاع قرطبة من يد ابن عباد بعد مرير انتظاره للسند والمظاهرة على ظفره بأخذ الثأر .

وقد نبهت الرواية النصرانية على أن ((الفنش)) قد رد الجميل لضيفه المامون ابن ذى النون ، فآزره بجنده على استرداد قرطبة ، وأنه واكبه (23) على رأس كتائبه الى الأرباض ، وعاث فيها بغارات .

اما الرواية العربية فلا تتحدث ولا تشير الى استعانة المامون ((بالفنش)) ، واكتفت بعزو هذا الفتح الى المغامرة التى قام بها ابن عكاشة ، قائد أحد الحصون المتاخمة ، وصرفت عن البحث عما وراء ذلك ، مأخوذة بمأساة مصرع حاكم قرطبة المامون ابن المعتمد بن عباد ، الذى القى شلوه فى العراء ، واحتز رأسه ، وطيف به فى البلد صنع ما درجوا عليه يومئذ من طرائق التشهير بالانتقام ، وأخذ الثأر ، وهى المأساة التى ارتبطت بصورة امام أحد المساجد الذى كان يدلف فى غلس الفجر لصلاة الصبح ، حين اعترضه الشلو المضرج بدمه فى العراء ، فدفعت به الشفقة الى أن ينتزع رداءه عن منكبيه ، ويستر به الجثة المبتورة بين يديه ، وكأنه يستر بعمله تلك الفاجعة التى شاء لها القدر أن تظل مكشوفة مشهرة برنات أسجاع الفتح ابن خاقان (24) ، وبالبيت الشعرى الفريد الذى أودع فيه المعتمد مدامع وزفرات سنين أبكمه خلالها المصاب ، الى ان أرسل آهته متقطعة فى هذه الشهقات :

ولم أدر من ألقى عليه رداءه ... سوى إنه قد سل عن ماجد محض

---

(23) دول الطوائف ، للاستاذ محمد عبد الله عنان ، الطبعة الاولى ، ص : 380 .
(24) قلائد العقيان ، ترجمة المعتمد ، ص : 13 ، ط : الجزائري .

غير ان طبيعة سلسلة الاحداث تتتالى متساوقة ، وعلى نسق ، تتوضح للباحث معه وجهة سيرها ، وتقدم له رباط الحلقات مرهصة ارهاصا بمقدم حادث قرطبة على ذلك الوجه ، ومن غير وناء وبطء ، فلا مفاجأة مطلقا فى هذا الفتح،لا سيما وملك قشتالة قد دخل الصراع من باب صداقة طليطلة وسياسة قشتالة ، وذلك من بديهيات السياق الفنية عن رواية نصرانية أو اسلامية ، ويمكن أن يقال فى الجمع بين الروايتين ان كتائب المامون ابن ذى النون المعززة بالقوات القشتالية قد قامت بغارات تمهيدية مضللة ، كان الغرض منها تغطية العملية السرية التى سينفذها ابن عكاشة بواسطة عصابته فى قلب الحاضرة ، ولا سبيل للقول بأن المامون وصل الى مراده بمحض وسائله ، أو بمجرد عزمه ، فما كان ابن عكاشة الا مسخرا ، وما كان المامون فى صبره المرير الطويل الذى كاد يظهر يأسه على طمعه ، الا لانتظار مدد يأتيه ، ومساندة تؤمن له انزال الهزيمة بأعاديه .

والغريب أن الملك عبد الله الذى يعنيه نبش الاسرار ، وخبايا الزوايا ، ولا سيما بالنسبة للمامون الذى اكتشف فيه عدوا فى صورة صديق ، لم يسجل عن الحادثة غير فرصة الغدر التى افترصها ابن ذى النون ، والواقع أنه لا ينتظر فى هذا المقام من الملك عبد الله أن يثير قضية الاستظهار بقوة النصرانى ، فى الوقت الذى كان يستعد فيه هو نفسه لاستقبال حامية نصرانية للمقام بغرناطة ، وعلى كل حال ، فقد كان الحادث مفاجئا بالنسبة الى مشاكله ، واخطرها حصن « بليلش » ، الذى ضيق عليه الخناق ، فكان له متنفس فى هذه الداهية التى شغل بها ابن عباد حسبما أفاد ؛ ولكن ابن عمار ما زال بالمرصاد ، ويفهم من سياق كلام الملك عبد الله ان وزير ابن عباد الذى هاجت فيه الاطماع ، لم يكن حتى هذا التاريخ قد فاز من « الفنش » باكثر من المساعدة على بناء الحصن الذى سرعان ما صفرت ساحته ، وخلت شرفاته باثر انهيار حكم بنى عباد فى قرطبة كما تحكى المذكرات ، فما كاد الملك عبد الله يسترد انفاسه حتى فوجىء بمداخلات ابن عمار تراود « الفنش » من جديد على الصفقة ، وفى صورة جديدة اتى بها وأوحى مصاب المعتمد فى ولده ، وفى هيبته ، وفى قرطبة التى كانت مناط

سياسة رجال أسرته ، وعلى تخومها تكسرت عزماتهم ، وأريقت دمـاء أبنائهم ، وصفوة عسكرهم ؛ وازاء حالة الضعف والانهيار التى ساورت المعتمد بن عباد ، استيقظت فى ابن عمار المغامر استعداداته ، وطفى فيه طماحه ، واذا هو يطلب ملك غرناطة لنفسه ، ويعطى ((للفنش)) لقاء مساندته الكثير ، ويعد بالوفير ، ويتعهد بكل مذخور أموال ملـك غرناطة الصغير ؛ والنص التالى من كلام الملك عبد الله فى هذا الصدد يفيد ــ ان كان صادقا فيما أفاد ــ أن هناك سابقة فى خيانة ابن عمار غير خيانته فى ((مرسية)) التى ظلت فى كـلام المؤرخين حتى اليـوم ، وكأنها الوحيدة من نوعها من بين ما عد وذكر عن أسباب البطشة التى دحرجت هامته بضربة الطبرزين من يد ولى نعمته ، ورفيق شبابه المعتمد، وهكذا يقـول الملـك عبد الله عن ابن عمـار (25) : (فعـاد ثانيـة الى النصرانى ((الفنش)) ، وزين له أمر غرناطة ، وصورنا عنـده فى صورة من لا يقدر على شىء من أجل الضعف وسن الصبا ، وأنه ضامن له أموال غرناطة لتصير اليه بأسرها ، على أن يعاقده ، اذا تمكن من البلدة ، أن يجعلها ملكه ، وله مـا لقى من أموالنـا ، وألقى يـده فى ((الفنش)) عازما عليه فى الاقبـال اليهـا ، وأعطى على ذلك أمـوالا جسيمة ، ووعده بخمسين الف مثقال اذا تمت القضية ، سيعطيها زائدة على ما يجد ، لمساعدته على السير) .

وحتى عند هذا الحد لم يكن ابن عمار قد فاز بطائل ، وانما هو تواطؤ صورى ، ووعد مناور .

وهنا يقدم لنا الملك عبد الله صفحة أخرى من صفحات مذكراتـه التى تعرضه علينا أحيانا فى لحظات صحو فكره ، فيبدو متقد الذهن ، ملما بما يجرى حوله ، نافذا الى دخائل النفوس ، ومعربا عن حديثها حين يقول : (26) (فأدرك الرومى من ذلك طمع كبير ، وقال : ((هذه نصبة لست أخلو فيها من فائدة ، وان لم تحصل البلدة ! وأى فائدة لى فى اعطاء بلدة من واحد لآخر الا تقويته على نفسى ؟ وكلما كثر الثوار ، ووقع بينهم التنافس ، كان لى أفيد !)) فاتى على نية أخذ مال الفريقين ،

(25) مذكـرات الاميـر عبد الله ، ص : 72 .
(26) مذكـرات الاميـر عبد الله ، ص : 72 ــ 73 .

يكسر رؤوس بعضهم ببعض . ولا كان أيضا في أمله أن يأخذ البلاد لنفسه ؛ فانه عمل في ذلك حسابا أن قال : ((أنا من غير الملــة ؛ وكل النـــاس يشنأني ؛ فبأي وجه أطمع في أخذها ! ان كان من باب الطاعة ، فامـــر لا يمكن ؛ وان كان من وجه القتال ، فيهلك فيها رجالي وتذهب أموالي ، وتكون الخسارة على اكثر مما نرجوه ان صارت الي ، ولو صارت ، لم تتمسك الا بأهلها ؛ ثم لا يؤمنون ! ولا من الممكن أن نستبيح أهلهـــا ونعمرها بأهل ملتي ! ولكن الرأي ، كل الرأي ، تهديد بعضهم ببعض ، وأخذ أموالهم أبدا ، حتى تــرق وتضعف ؛ ثــم هي تلقى بيدهـــا اذا ضعفت ، وتأتي عفـــوا) .

ففي هذه الصفحة يلخص الملك عبد الله ، وهو يترجم حديث نفس ((الفنش)) ، خلاصة سياسة حركة الاسترداد ، وخطة زعمائها القائمة على الاستنزاف ، حتى اذا لم يبق مـــال أخذوا البـــلاد من غير كلفـــة ولا اجهاد ، كما سمعنا الآن ، وكما لا نزال نذكر من تصريحات المستعرب ((ششنند)) ؛ وكذلك جعلوا المال والمتمول قبلة أنظارهم ، وكانت ذخائر القصور العربية ، ونفائس مكنوناتها تثير شرههم ، والخيرات التي ينعـــم بها المجتمع العربي تبهرهم ، وتهيـــج نهمهم ، ومن هنا يبـــدو بالنظرة العجلى أنهم كانوا يسيرون سير المنهل الواني ، الذي ليس من همـــه احتلال ولا استرداد ، وانما مقصدهم الاول والاخير استنزاف الاعلاق ، واحتجان الذخائر والاموال ، وأقرب مشهد يثـــب الى الذهن كمثـــال لجشعهم وترامیهم على المـــال قبـــل سواه مـــا حصل عند محـــاصرة ((شنترين)) (27) على عهد المظفر صاحب مملكة بطليوس فقد أرســـل عليها ((فرذلند)) سرية معصبة بقومس من قـــواده ، و ((شنـــترين)) مفتوحة بطبيعتها لوقوعها فوق ربوة من تراب ، وغير محصنة بأسوار ، فلا وجه للحصار ، وانما هي وجهة الدرهم والدينار ، وكل ما حصـــل أن القومس ــ جابي الاموال في ثياب قائد الاجناد ــ انتظـــر الى حين وصول المظفر الذي كان غائبا ، ثم لم يلبث أن حضر ، وكأنه على ميعاد لفك الحصار بجزية سنوية وقعت فيها المهاودة الى أن تمـــت الصفقـــة على خمسة آلاف دينـــار .

(27) الروض المعطار ، صفة جزيرة الاندلس ، ص : 113 ــ البيان المغرب ، ج : 3 ، ص : 238 . ــ مجلة ((المناهل)) ، العدد : 1 ، ص : 236 .

ولم يكن حصار ((فرذلند)) الشهير لاشبيلية عام 456 هـ ، الا من هذا القبيل (28) ومن أبعد البعيد بالنسبة الى ((فرذلند)) ، وهو المعروف بالحيطة والاحتراس ، أن يغامر يومئذ بالنزول الى غرب الجزيرة ، قصد احتلال حاضرة كثيفة السكان ، والخطوط من ورائه دنيا اسلامية ، وهى وان كانت تدين له بالطاعة واداء الجزية ، الا أن احتلال اشبيلية يومئذ لن يتم بأى تدبير دون تأمين احتلال الثغور الاسلامية الثلاث ، لاسيما وموسطة الاندلس كلها قد تصبح مدافعة حامية للحاضرة العربية ، وهى اعتبارات ان لم تضعف رواية القصة من الاساس — وقد انفردت بها الرواية النصرانية — فان الحصار ان صح وهو فى مهب هذه الملحوظات الدافعات ، فلن يكون لأكثر من الحصول على مكاسب آنية من ذخائر واموال ، وذلك كان مآل غير ما حصار شدده ((الفنش)) على اشبيلية ، ويعد من هذا القبيل حصارها الذى ظل مخلدا بقصة الشطرنج (29) حين ادعى ابن عمار وأذاع على الملا أنه استطاع بفضلها ان يرد الجيوش النصرانية عن الحاضرة الاسلامية ((اشبيلية)) .

والواقع أن شرههم الى الكنوز والنفائس العربية ، قد خلف فى نفوسهم نهما مصعورا ، واستحوذ على ضمائرهم ، فلم يخلف فيها حتى بالنسبة لأهل ملتهم اى أثر أو مراعاة لدين أو مروءة أو قرابة ، وفى سبيل الفوز والاستئثار بنفيس التحف ، وكريم الاعلاق العربية أرسل ((فرذلند)) جيشه ، وعلى قيادته ابنه وخلفه ((شانجه)) الى مملكة سرقسطة على جعالة مالية ، وهدايا نضارية ، ليحارب فى صف المقتدر ابن هود وضد خصمه راميرو الاول ملك ((ارغون)) ، وهي الموقعة التي هزم فيها راميرو عند بلدة ((جرادوس)) سنة 1063 ، ولقى مصرعه تحت اسوارها عقبى لتواطؤ من أهل ملته وقرابته كما هو معروف .

ولقد تجلى ان نهم ((الفنش)) كان أفظع وانكى بعدما انفغر بصره وبطنه لما عاين وعرف فى قصر ابن ذى النون من كرائم المبثوث والمكنون ، وبعدما سخر له الضعف السارى فى النفوس اسباب التيسير لجرف

---

(29) المعجب للمراكشي ، ط : سلا ، ص : 69 — 70 .

المال وفاخر المتاع ، بشتى الوسائل والاسباب ، واذا هو يحيي أكداسها بالمداخلة المباشرة ، وبالمناورة والمداورة ، كما نسمـــع الآن من حديث قصة فرض الجزية على غرناطة ، وبموالاة التهديد والارداف بالمحاصرات ، جمعا بين الغارة على المعنويات والماديات .

ونراه الآن فى جولته الثانية واقفا بنفسه على مشارف غرناطة ، وبرفقته ابن عمار فى انتظار خروج الملك عبد الله اليـــه ، وهو مشهـــد يوحى لأول لفتة مثلما أوحى لصاحب المذكـــرات ، أن الصفقة تمت بين الرجلين (الفنش وابن عمار) ، وأنهـــا ساعة التنفيـــذ حانت وجاءت بهما على ميعـــاد .

وهنا نلتقى بصاحب المذكرات يمارس مناورة أخرى ، ولكن تجاه القارىء ، لاتجاه الغرماء ، فيحيط افاداته باطـــار يشى بمرمـــاه ، حيث نلاحظ أنه نفس الاطار بذاته وصفاته ، الذى أسبغه على قصـــة وقوف أمير المسلمين على مشارف قصره ، حين عزم عـــزل ملوك الجزيرة ، فالملك المؤلف قد حشر فى الاطار هنا وهناك جملة من صور تعرضه على القارىء متمسكا بالامتناع والاباء عن الرضوخ ، وعن الاستخذاء للخروج ، والحبو الى من يستدرجه للوقيعة ليدلف مختارا اليها،ويثنى ركبتيه لها،فهو فى هذا المشهد يعرض علينا رجاله وأهل شوراه فى جهد جهيـــد لاقناعه بالخروج ، وهم يعددون أوجه نهايـــة ما سيحدث ليسارع باللقـــاء ، ويقارنون بينها وبين مغبات العنـــاد ، والتحصن بالاشاحة عن الطالـــب القائم بالصولة والاصرار ، وهى حالة من حشره المقـــدور فى مضايق ، لا يرجى منها انفلات ، ولا مجال للاختيار ، وهذه النهاية تدق عليه الباب .

والى جانب هذا الاطار نلاحظ أن غرضه فى تصيد القارىء يسبقه الى نشر الشباك ، وذلك حين يوطىء لما جرى بما يوحى أنه كان على بيـــنة مما سيتم عليه الاتفاق فى آخر المطاف ، وهكذا رشح قلمه بمـــا سيكون ، ولوح بأنه لم يكن بالبدع بين القوم ، الذين جرى عليهم ما جرى عليه ، فقال : (فكان الجميع يساير الامور ، ويدافع الايام ، ويقول من هنا الى أن تتم الاموال ، وتهلك الرعايا بزعمهم ياتى الله بالفرج وينصر المسلمـــين) .

وهذا لون آخر من التقية التى تشبث بها كل من أعطى الجزية ، على سنة الاعتياد والنشأة ، ومنهم ابن عباد ، وقد ظل مناصروه كابن الخطيب ، يعلنون فى مبدا التقية وجه العذر لهذا الملك الضليل (30) .

وعلى كل حال ، فالمؤلف يضعنا الآن أمـــام عقـــدة من مركبات الاسطورة أو القصة لتنتهي ــ فى نظره ــ بالمفاجاة المعهودة بالامل بعد اليأس، والاقبال بعد الادبار ، وبالفرج بعد الشدة .

واخيرا ، أخذ الملك عبد الله الأهبة ، وخرج للقاء ، تحدوه وتطن فى أذنيه نصيحة أهل شوراه : (فاعزم على لقائه ، وقل له قولا لينـــا ، ولله أن ينفـــذ قضـــاءه) .

وفى وصف لقائه قال (31) : (ولقـــيناه على مقربة من المدينة ، وبالغنا بالضرورة فى اكرامه ، فعرض علينا وجها بسيطا ، وخلقا حسنا ، ووعدنا انه يحامى عنا كما يحامى عن بلده) ! !

وعند هذه الكلمة المختصرة قطع الملك عبد الله كلامـــه ، وانصرف عن زيادة البيان المنتظر ، الى الافادة بما يعد ذيولا ، تجاه الامر الجلل ، الذى تم عليه الاتفاق ، فسجل حديثا صريحا « للفنش » ، يعتبر مشوقا ، وكالطعم يلقى للسمكة ليصرفها من اتجاه الى اتجاه ، حتى يلهى قارئه عن ظاهرة هذه الحماية التى تثير بلفظها التساؤل عن هويتها ومدلولها ؛ ومدى ما ينتهى اليه ؛ ويشوق القارىء حقا أن يسمع « الفنش » متحدثا عن مزايدات ابن عمار بهذه الكلمات : (انى قد تشبثت فى الأمر ، ولم نعجل حتى نسمع ما عندكم ، فان جاملتمونى ورأيتم لقصدى وجها ، انصرفت عنكم على خير ، والا ، فها أنا مع من عاقدنى) .

وقد يلهي الباحث حقا أن يسمع الملك عبد الله أيضـــا يتحدث عن مزايدات « الفنش » بهذه الكلمات (32) : (وطلب خمسين الف مثقال ، فشكونا اليه قلة البلاد ، وان ذلك لا يقدر عليه ، وفيـــه من القطع لنـــا

---

(30) الاحاطة ، الجزء الثاني ، تحقيق : محمد عبد الله عنان ، ص : 110 .

(31) مذكــرات الامير عبد الله ، ص : 74 .

(32) مذكـــرات الاميـــر عبد الله ، ص : 75 .

ما يفترصنا به ابن عباد ؛ فانه ، لو أخذ غرناطة ، قوى عنصـــره ، ولــم ينطع اليك ، فخذ ما نقدر عليه ، واترك رمقا لا نستأصل من أجلـــه ! وما تركت ، تجده عندنا متى ما طلبت !) فقبل العذر بعد جهد عظيم ، وقاطعناه لقصده بخمسة وعشرين الفا ، نصف العدد ؛ ثم أعددنا له من الفرش والثياب والآنية كثيرا ، استدفاعا لشره ؛ وجمعنا ذلك كلـــه فى خباء كبير ، ودعوناه اليه ، ولما راى الثياب استحقرها ؛ ووقع الاتفاق معه على زيادة خمسة آلاف مثقال لتتم بها ثلاثون الفـــا ؛ فأكملناها له لئلا ينفسد الاكثر عن الاقل ، فشكر على ذلك كله ، وطابت عليه نفسه ، ورجع الى ابن عمار يقول له : (كذبت لى فى قولـــك ان غرنـــاطة فى ضعف ، وان صاحبها من صفر سنه لا يعقـــل ! ورايت من رتبـــتــها وأحوالها ما خالف قولك !) .

ولكن القارىء ، وان وجد طعما مستجادا فى سماعه من الملكين ، فسيظل متشوفا لما وراء كلمة الحماية التي تثيره بحروفها لما تشير اليه من جديد جد فى طبيعة علاقات ملوك الجزيرة مع ملوك النصارى تجاه ما درجوا عليه من استظهار بهم ، والالتجاء الى مددهم ، وقد عهدنـــا هذا منذ منبعث الفتنة ، واعتدنا أن نرى بين الجيوش المسلمة المتطاحنة أجنادا نصرانية مرتزقة ، لفائدتها الخاصة ، أو محترفة مسوقة بأمـــر ملك نصرانى لنجدة حليفه العربى لقاء جعالة رتيبة ، من احمال النضار ، وأكياس المال ، المعجلة والنسيئة ، والمعروف (33) ان جيش المامون ابن ذى النون كان (يجمع الالوف ذوى السنة شتى ، وبطارق اغرة ، تعرب عنهم التراجمة) ، وأكثر ما اتخذت هذه المعاملات صبغة احلاف فى مملكة سرقسطة التى تبدو على الخريطة جزيرة محاطة بالممالك النصرانية ، فكانت وضعيتها هذه تدفعها الى التوقى من نصرانى بنصرانى ، فنـــرى مثلا أنه أتيح لها بهذا تلافى اعطاء جزيتين ، حيث كانت تتجاذب الجزية احيانا كل من قشتالة وارغون ، او ارغون ونبرة ، ولطالما استغل المقتدر ابن هود الذى طـــال عهده (438 هـ ــ 474 هـ) ، هـــؤلاء النصارى الفرقاء ، وخصوصا قطلان كونتية برشلونة (34) ، وساعدته أموالـــه

(33) الذخيرة لابن بســـام ، القسم : 1 ، المجلد : 2 ، ص 128 .
(34) ترد فى المخطوطات مرسومة بالشين ، وتارة بالجيم مع كسر الباء فيهما .

الوفيرة ، وذخائره الذهبية الطائلة ، على ان يدفع الجزية المفروضة عليه مقرونة بالهدايا الثمينة من كريم الاحجار ، وفاخر الرياش ، فكانت الضريبة المفروضة تبدو فى اطار أحلافه ، وفى مجرى فيوض سيبه ، وكأنها جعالة محمولة على التزام المحاربة فى صفوفه ، ولو ضد اخوانهم فى الدين ، كما نعرف من خبر مصرع راميرو الاول الذى كان ابنا غير شرعى لسانشو الكبير .

ويعنينا من هذا ان هذه الاحلاف كيفما كانت صبغتها ، لم يعبر عنها من قبل باسم الحماية ، مثلما نسمع الآن ، وقد تبين أن من وراء هذا التعبير مدلولا جديدا تحرج الملك عبد الله من الابانة عنه ، ولكن الرواية القشتالية كشفت عنه ، واظهرت خبيئته ، وذلك على هامش أخبار الصراع الذى كان مستحرا فى بلاط « برغش » بين النبلاء ، وينقل الينا المستشرق الفرنسى الكبير ليفى بروفانصال نباهم فى معرض كلامه (35) عن المنافسة الحامية بين الفارس القشتالى السيد القمبيطور (الكونت رودريجو دياث ، المعروف بالسيد الكمبيادور) ، وبين النبيل فارس البلاط الرسمى يومئذ ، الكونت غرسية أوردونيث ، وذلك حيث يقول المستشرق المذكور : (وأهم الدول الاسلامية التى كانت تؤدى الجزية وقتئذ لبلاط « برغش » بمقتضى معاهدة قديمة هما مملكة طليطلة ومملكة اشبيلية ، فكانت تفد على هاتين الحاضرتين الاسلاميتين كل عام سفارة قشتالية أو ليونية لتتلقى منهما الجزية ، ولعل ألفونس السادس قد عهد فى نهاية عام 1079 الى « السيد » برئاسة الوفد الذى توجه الى المعتمد ابن عباد ملك اشبيلية ، وذلك على الرغم من اننا لا نجد ذكرا لهذه السفارة فى كتب التاريخ العربية ، وكان من شأن الدور الذى قام به القنبيطور فى هذه المناسبة أن يؤثر تأثيرا خطيرا فى اتجاه نشاطه فيما بعد وفى علاقاته مع مولاه الملك ألفونس السادس ، فعندما وصل الوفد القشتالى الى اشبيلية كان المعتمد فى حرب صريحة مع عبد الله الزيرى ملك غرناطة . . . وكان هذا الامير ايضا قد رضى قبل ذلك بقليل ، بأن

---

(35) كتاب « الاسلام فى المغرب والاندلس » ، ص : 181 ، وهو مجموعة بحوث للمستشرق بروفانصال ، ترجمها الدكتور السيد محمود عبد العزيز سالم والاستاذ محمد صلاح الدين حلمى .

يدفع الجزية لملك قشتالة ، وعقد معه ــ كما يتبين ذلك من كتابه ــ علاقات سياسية ، وكان جيش ملك غرناطة يضم فى ذلك الحين نسبة كبيرة من جند قشتالة ، ولعل ألفونس السادس وضعهم تحت تصرفه رغبة فى اقامة توازن بين الجيوش الاسلامية المتعادية فى جنوب شبه الجزيرة ، وفى الحد من أطماع ملك اشبيلية ، وكان يرنو الى توسيع رقعة ملكه ، ومن هنا اشتمل جيش ملك غرناطة على ممثلين لطبقة النبلاء بقشتالة ، وكان منهم الكونت غرسية أوردونيث نفسه ، خصم السيد ، وما أن وجد رودريجو دياث نفسه فى اشبيلية يحيط به جو الحرب من كل جانب حتى خاطر بالمساهمة شخصيا مع قوته الصغيرة فى الدفاع عن مملكة اشبيلية بحجة أن صاحبها مشمول بحماية ملك قشتالة ، وعلى هذا نشبت معركة قرب (قبرة) (36) اشترك فيها فرسان مسيحيون وطنيون ، فريق فى جيش ملك غرناطة وفريق فى جيش ملك اشبيلية) .

ويعنى الباحث من هذا النص ظاهرة تركيز وجود قشتالة العسكرى فى قلب التراب الاسلامى ، والاستهتار بحرمته التى داستها خيل فارسين نصرانيين ، يتناطحان بينهما داخل حريمه ، فى صراع شخصى ، وذلك من مظاهر استفلاظ الاستعلاء المدرجة فى طالعة هذا الفصل من بين مميزات وطابع عهد « الفنش » .

وبهدى هذه الافادات التاريخية ، يسهل على الباحث أن يفسر انطلاقة الملك الصغير منذ هذا التاريخ لشن غاراته الانتقامية على تراب اشبيلية ، وهى مصاولة تعد أكبر حجما من غرناطة حفيد « باديس » ، لاسيما وقد اقتطعت منها مدينتها وحصنها الشمالى « جيان » ، واستبد بمدينة « بسطة » (37) ، وهى أيضا من حصون المملكة ، عاملها ابن ملحان ، ولعل العدوى أصابتها لقربها من جيان ؛ والخلاف مع ابن صمادح صاحب « المرية » لا يهدأ على المعاقل والحصون ، والمهادنة معه على

---

(36) بفتح القاف بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا ــ صفة جزيرة الاندلس عن الروض المعطار ، ص : 149 .

(37) بفتح الباء ، على بعد ثلاث مراحل من جيان ، الواقعة شمال المملكة ، وقريبة أيضا من وادي آش ــ صفة جزيرة الاندلس ــ عن الروض المعطار ، ص : 44 .

دخن ، ولو مرت عليها الايام والشهور ، والخلاف مع الوزير ((سماجـة)) ينذر بتفكك عروة المملكة وانفلات الزمام ، وتربص ((ماكسن)) ، عـم الملك الذي فوتت عليه فرصة التملك ، مما يشغل البال ، ويقتضي المراقبة والاحتراس ؛ ومن تم فان انطلاقة الملك الصغير ما كانـت الا من وحى الحامى الكبير ، ولا مـراء .

ونتطلع بعدها الى المشهد الاخير من قصة ضرب الجزية على صاحب المذكرات لنعرف التدبير الذى لجأ اليه ابن عمار ، بعدما خابت صفقته ، وصرحت عن موقف ((الفنش)) عزماته واتجاهاته ! وفى تتمة كلام الملك عبد اللهعنابنعمار ما يضع أمام البصر نوعا من موقف التراجع،الذييفيء اليه صاحبه ، فيتعلق بأدنى ما يمكن التمسك به ، لا عن اقتناع أو قناعة ، وانما للحفاظ على الوصلة ، والابقاء على الرباط ، ولـو كان هذبـة أو شعرة ، وذلك ما نقرؤه من بين سطـور صاحب المذكرات فى خاتمـة مطافات القصة حين قال : (38) (فرجع ابن عمار يسأله أن يعقد بيننا عقدا يوقف عنده ، واستماله على أخذ ((اسطبة)) من عندنـا ؛ وكانت معقلا عظيما مما يلى جهات اشبيلية ، قد كان أخذه قائدنـا كبـاب فى الفتنة ، وسألناه نحن خبر القلعة ؛ فوقع الاتفاق على أن تكون قلعـة ((أسطلير)) عوضا من ((اسطبة)) وكانت ((قاشتره)) و ((مارتش)) المعقلين اللذين على جيان ، ومن أجلهما انقطع صاحبهما عمنا ((ماكسن))، ولم تكن لجيـان معنى الا بهما ، فترامى ابن عمـار فى أمرهمـا على ((الفونش)) ، ووعده على ((مارتش)) بأموال كأنه يشتريها منه ، فعزم علينا فيها للطمع فى المال ، ووعدنا نحن على ((قاشتره)) بالمطمر ، وكان أيضا حصنا قد اشترك نظره مع نظرنا بيد ابن ذى النون ؛ فضمن خبره أنه يعطيه لنا عوضا منها ؛ فدافعنا الأمر جهدنا : فلم نقدر على أكثر فعل القوى مع الضعيف ، ثم انه عقد العقد بين يديه على ذلك ، وأن لا يتعدى منا أحد على صاحبه ، وذكر فيه ما نعطى كل عام من الضريبة : فجعل علينا عشرة آلاف مثقال فى العام ، وطيب لنا الكلام بأن قال : ((طمـع ابن عمار أن نغدر بك ؛ ومعاذ الله من ذلك ان يشيع فى الدنيا أن مثلى كبيرا فى الروم يقصدك ، وأنت كبير فى جنسك ، ثم نغدر بك ! فابق على

---

(38) مذكـرات الاميـر عبـد الله ، ص : 75 .

أمان ! لا أكلفك الا الضريبة ، توجه الى بها فى كل عام دون مطل ؛ وان تأخرت بها ، أتاك رسولى عنها ، وتلزمك عليه نفقات ؛ فبادر بها ! فقبلنا قوله ، ورأينا اعطاء عشرة آلاف فى العام ندفع بها مضرته خيرا من هلاك المسلمين وفساد البلاد ، اذ لم تكن بنا قدرة على ملاقاته ومكابرته ، ولا وجدنا من سلاطين الاندلس عونا عليه الا من يسوقه الينا لهلاكنا ، فبقيت الامور على مصالحة ومهادنة ورفاهية ، لا يسمع فيها بفتنة) .

هذا كلام ! ولكن لا مناص لقارىء أمام واقع الحاقة التى انزلها سلاطين الاندلس بالملك عبد الله الا أن يقول على البديهة : أفلح ان صدق ، وهو صادق كل الصدق فى هذا البوح ، غير أنه لا نصيب له فى فلاح ، لأنه داخل دخولا أوليا فى هذه الكبائر والموبقات ، ولو أنصتنا الى ما قيل عن اجهاد السعى من بنى عباد (39) فيما يقمع المشركين ، وعن بثهم الرسل لتأكيد التبصرة بما يحيق بالمسلمين ، وتلاوة المواعظ واستثارة الحفائظ ، ثم تصامم المسامع عن التذكرة والتبصرة ، والتثاقل عن هذه المنازع بانصياع القوم الى الاعداء ، واهطاعهم الى تلك الابواب ، لند قول القارىء والباحث بأن المعتمد شبل ذلك الاسد ، وسلطان المفلحين على الاطلاق ، ولكنه ابن بيئته ونشأته ، وهوى جيله معروف ، والاستعداد النفسى عند جميعهم لهذه ولمثلها ، قد جرى فيهم مجرى الدم بغير محاشاة أو استثناء ؛ فلنعد عن هذا الى ما ينبث فى نص صاحب المذكرات من عبارات تعلن عن التبعية « للفنش » بالتلقائية وأصالة التلاقى والاندماج ، وانظر قوله : (فعقد العقد بين يديه) ، وانظر الاخرى (وأن لا يتعدى منا أحد على صاحبه) ، فقد نصبوا « الفنش » للقضاء فيما شجر بينهم من خلاف ، فهو يوزع المعاقل والحصون بالمخارجة القائمة على الشائق وعلى الهوى ، بالتنفيذ لهذا ، وضرب الوعد لذاك ، ويا سعد من فاز الحاجه (وتراميه) بمطلبه على أية حال ، وانه لمشهد لا يختلف عن مشاهد المسرحيات فى نهاية فصولها التى يرسل عليها الستار ، حيث يحتشد طقم الممثلين على الخشبة ، وتنفرج العقدة بدلالات الاقوال والملامح والهيآت والبزات .

(39) رسالة الوزير الاديب أبي الوليد ابن المعلم ، التي كتبها عن المعتمد ، ـ انظر مخطوط القسم الثاني من ذخيرة ابن بسام ، بالخزانة الملكية ، تحت رقم : 7753 ، عند ترجمة الوزير المذكور .

وما كان هذا بالمشهد الاول ولا الاخير الذى يعد مصداقا لما ورد فى طالعة هذا الفصل بين ابرز مظاهر تصرف ((الفنش)) وميزات العهد ، ومنها : (تدخل مباشر فى شؤون الملوك والرؤساء ، وتوجيـــه لحركات كبيرهم وصغيرهم كما يشاء) فامامنا ـ فيما بعد ـ مشاهد من هذا القبيل ومظاهر لكلبه على المال ، بفرض الجزية على الصغار بعد الكبار ، وجولات مغامرة لأبى بكر بن عمار ، لعب فيها على الاذقان ، والمسيرة بعد الى طليطلة ما زالت ذات مسافات وأبعاد ، وكل هذا لا مجال لعرضه الآن ، فقد صرفنا عنه بحادث الساعة الفاجىء ! الذي ملأ الدنيا ، وشغل الناس ! !

فقد طوى الجزيرة ، حتى جاء الى المعتمد بن عباد خبر فزع فيـــه بآماله الى الصدق الصراح !

لقد قيل : عاجل سم زعاف المامون ابن ذى النون ، فقضى ، ولما يمض على استمتاعه بدخول قرطبة غير ستة أشهر معـــدودات ، بالايـــام والســاعـــــات !!

الربـــــاط عبد الرحمن الفاسى

حكايات من الفلكلور المغربي

التناول الصحيح للتراث — سواء على صعيد الجمع أو الدراسة — يعنى موقفا من هذا التراث قائما على رصد موضوعى نزيه ورأى مدعم مقنع ، وان تباين التذوق أو اختلفت الرؤيا سلبا وايجابا اليه .

والموقف الذى اتخذناه والتزمنا به ودعونا له — ولا نزال — ينطلق من النظر الى التراث من خلال مفاهيم العصر ومناهجه وقضاياه ، بما يتيح لنا الكشف فيه عن جوانب القوة والفعالية ، ويجعلنا — اذا نحن ضبطنا هذه الجوانب — قادرين على امتلاك التـــراث فى الصميـــم وعلى اخضاعه للواقع وربط حركيته فى التاريـــخ القريـــب والبعيـــد بصيرورة المســـتـــقـــبـــل .

وتحقيقا لهذه الغاية لم نفرق فى التراث بين ما هو مدرسى وما هو شعبى ، واعتبرنا هذا مكملا لذاك ، لما يمتـــاز بـــه من خصب وغنى

* تقديم كتبه ع. الجـراري للجزء الاول من المجموعة التي ستصدر قريبا للاستاذ يسري شاكر بعنوان ((حكايـات من الفولكلور المغربي)) .

وحيوية وتلقائية . وزادنا الحاحا على هذا الاعتبار ما وجدنا في التراث الشعبي المغربي من تنوع وغزارة واحتفاظ بملامح الاصالة والعراقة ، مع النزوع المستمر الى التطور والتجدد . واذا كانت هذه السمات تعد في خصائص مجموع تراثنا الشعبي ، فهي في الجانب الادبي منه أوضح وأبرز لتوسل هذا الجانب بألوان من فنون القول واشكال من القوالب وانماط من أدوات التعبير متنوعة وغنية بتنوع البيئة المغربية وغنى روافدها ؛ ولكنها أبدا تلتقي في البوتقة الوطنية لتكشف عن وجدان مغربي موحد قادر على التكيف والامتصاص بعفوية وتلقائية غريزيتين .

ومع ذلك فان الرأي العام الادبي في المغرب — والمثقف عموما — مازال يبدي حذرا شديدا من الادب الشعبي لعدم ادراك قيمة مضامينه وجودة فنيته ، ثم لخوفه من العامية على اللغة المدرسية وما يرتبط بها من تعريب حين يتعلق الامر بالادب الشعبي الصادر بالعربية ، أو لخوفه من اللهجات الامازيغية على الوحدة الوطنية حين يكون الامر متعلقا بأدب هذه اللهجات .

واذا كنا بالنسبة للعامية العربية قد فرغنا من القول حين كشفنا عن ايجابية العناية بها ؛ فاننا بالنسبة للهجات الاخرى لا نملك الا أن نؤكد جدوى الاهتمام بها وما صدر فيها من آداب ، دون أن ننسى قرابتها مع العربية في الاصل ؛ ودون أن ننسى كذلك مدى ما اقتبسته منها خلال العصور . سواء على صعيد اللفظ أو التركيب ، فضلا عما نقلته من مضامين .

واذا كنا ذهبنا في السابق الى حاجة اللغة العربية — فيما تحتاجه للتطور والتجدد والتوسع — الى العامية وسيلة من وسائل الاغتناء وتقريب الهوة بين أداتي الكتابة والتخاطب ، فاننا نزعم أن اللهجات الامازيغية ، بما لها من خصائص قريبة أو بعيدة من خصائص العربية ، قادرة على اغناء هذه اللغة وعلى ايجاد قنوات للاتصال تذيب قليلا أو كثيرا مما بينها من فوارق .

وهناك حذر آخر يبديه بعض المثقفين تجاه مضمون الادب الشعبى حين يتعلق الامر بالحكاية الشعبية ، اذ يرون أن انتشارها يزيد فى شدنا الى أرضية التخلف ، لأنه لا يدل الا على خرافية عقلية متداوليها وعلى عدم وجود وعى لديهم يدركون به مختلف الظواهر والحقائق والتناقضات السياسية والاجتماعية ، ولا يدل فى النهاية الا على أنهم كانوا أبدا خارج التاريخ بعيدين عن التخطيط لمصيرهم وتحقيقه أو التحكم فيه على الاقل ، وانهم لجأوا الى الخرافة لمجرد التعويض .

ولسنا نشك فى أن الخرافة كانت مجالا واسعا للتعبير فى المجتمع خلال مراحل من تاريخه لم تكن تتسم بالرقى والتطور ، ولكن استمرار انتشارها يعنى — بالاضافة الى الجانب الترسبى فى الذهن والفكر — أن المجتمع كان يلجأ الى التعبير بها حين لا تتاح له حرية التعبير ، وحين يفرض عليه توجيه من شأنه أن يثبت لعقلية معينة . من هنا كانت الخرافة متنفسا له يرفه بها عن نفسه ويعبر عن موقفه ويبعد بواسطتها آلامه ويقرب آماله ، بل انه كان يجد فيها الحل أو السبيل الى الراحة والاطمئنان حين تضغط المشاكل عليه فيقف أمامها حائرا أو غير قادر على المواجهة .

ومع ذلك ، واذا كنا لا نستطيع أن ننكر أن هذا النوع من الادب يزيد انتشاره فى البيئات التى تعانى من التخلف ، فاننا نلاحظ ميلا يكاد يكون غريزيا الى الخرافة حتى فى المجتمعات التى تخطو نحو التعلم ، كما هو الحال فى المجتمع المغربى والعربى عامة ، حيث يتضح هذا الميل ليس فى الايمان والاعتقاد فحسب ، بل حتى فى الممارسة والسلوك وهذه حقيقة لا تؤكد الا أن العلم فى مجتمعنا ليس غير مادة نظرية لم تتحول بعد الى تطبيق . وهى تؤكد بالتالى أن متعلمينا لم يتعمقوا المفهوم الحقيقى للعلم ولم يدركوا أبعاده ولم يتشربوا روحه وأنهم فى النهاية لم يربطوه بالحياة .

حقا ان الانسان مدفوع بالغريزة والتفكير معا ـ سواء على النطاق الفردى أو المجتمعى ـ الى معرفة ذاتـه من حيث الخصائص والطاقات والامكانات والقدرات على الاضافة والعطاء . وحقا ان عناصر تركيـبة هذا التراث تتغير على مر العصور كما تـتغير المؤثرات الفاعلة فيهـا ، ولكن الجوهر يبقى الى حد بعيد ، وخاصة عند الطبقات البسيطة ميالا الى الاحتفاظ بمقوماته العقلية والذهنية ، لارتبـاطه بواقع مادى ونفسى معين ، وان مال الى بعض التطور بقدر ما يتطور التاريخ فى هذا المجتمع . وهو بهذه الملامح أكثر ظهـورا فيما يمارس الشعب من عادات وتقاليـد وما يبدع من آداب وفنون وخاصة فى مجال القص والحكى .

وهذا ما يحفزنا ـ ونحن مازلنا بصدد مرحلة البحث عن الذات ـ للعناية والاهتمام بهذا النوع من الادب الشعبى والدعوة الى جمعه أولا والى دراستـه ثانيـا ومن جوانـب مختلفـة أنتروبولوجيـة ونفسيـة وتاريخيـة وأدبـيـة .

من هنا كان تقديرنا لهذا العمل الذى أنجزه صديقنا المصرى الاستاذ يسرى شاكر فى اطار جمع الحكايات الشعبية المغربية . وهو عمل جليل وضخم تطلب منه سنوات طويلة من التتبع والجمع فى غير قليل من المعاناة المضنية المرهقة . وكان سبق له أن اطلعنا على مشروعه منذ أزيـد من عامين فأشفقنا عليه مما قد يصيبه من المشقة والعناء ، ولكننا لم نلبث أن شجعناه حين ألفيناه مصمما وبروح قومية عالية على المضى فى البحث الميدانى عن الحكاية هنـا وهناك وعلى مواجهـة كل الصعوبـات التى تعترضه مادية ومعنوية . وكنا قبل ذلك قد تعرفنا عليه من خلال مسلسل « للاغنو » الذى قدمت التلفزة المغربية حلقاته الناجحة ، فأعجبنا بالعمل وقدرنا صاحبه . ولا شك أن الحس الفنى الذى يتمتع به الاستاذ يسرى باعتباره مخرجا تلفزيونيا ساعده الى حد بعيد على انجاز مشروعه الذى يقدم فى هذا الكتاب أولى مجموعة منه .

والحكايات الشعبية التى تعرض هذه المجموعة تمثل أقاصيص قديمة لا يعرف مؤلفها ولا زمن انشائها ، وان كانت فى معظمها ترجع الى عهد ضارب فى عمق التاريخ لما تكشف عنه من ملامح عريقة . وقد انتقلت عبر

العصور والاجيال — ولا تزال — عن طريق الرواية الشفوية وأن وجدنا بعضها مدونا عند الذين عنوا بها فى مرحلة متأخرة وخاصة من المستعربين.

وهى ابداع شعبى صرف يعكس مدى الثقافة والخيال لدى المجتمع المنتشرة فيه ، على الرغم مما قد يلاحظ من تشابه بينها وبين حكايات متداولة فى مجتمعات اخرى كالمجتمع المصرى . وتلك ظاهرة لا تعنى النقل والتقليد بقدر ما تعنى التماثل فى التجربة والتقارب فى الاصول الفكرية . كما أنها تؤكد عملية التبادل الثقافى الذى كان أبدا موجودا بين الشعوب ، وخاصة حين تجمع بينها أواصر الجنس والعقيدة وروابط اللغة والتاريخ ووحدة قضايا المصير .

ويمكننا أن نميز من بين حكاياتنا الشعبية ما يعتمد التاريخ وسير الانبياء والابطال ، وما يتخذ شخوصه من الحيوانات الوحشية والأليفة ، وما يلجأ الى الجن فى ابراز لعلاقات بينه وبين الانس تختلف تأييداً ومحاربة ، وقد تصل الى حد الحب والعشق والزواج . ومنها قبل هذا كله نوع يرتكز على الاساطير . والاساطير لا تعنى كل ما هو خارج أو بعيد عن الواقع ، أو كل ما هو غير موجود فيه ، كما أنها لا تعنى كل ما هو خارق وفوق الحول الانسانى ، ولكنها نمط فى التعبير عن واقع معين ووجود متميز يتوسل بالخوارق ، انطلاقا من تصورات معينة للكون والانسان تكشف عن حقائق ترتبط بتاريخ المجتمع وواقع عقليته وتفكيره وعقيدته عبر الزمان ، وهى حقائق تدل على مدى ما كانت تقوم به من وظائف ثقافية منبثقة فى الغالب من قيم خلقية أو دينية . فمثل هذا القصص يحكى تجارب الانسان فى حياته الخاصة والعامة ، ويعكس صورة ممارسته للوجود بما تفرض من مواجهة وصراع لم يكن فى المرحلة البدائية الاسطورية قادرا على التعبير عن موقفهما دون التوسل بما يسعفه به الكون — والعلوى خاصة — من صور وأنماط مرئية ومتخيلة . ثم لم يلبث أن تخلص فكريا ونفسيا وذهنيا من التعلق بهذا العالم ليرتبط قليلا أو كثيرا بالارض ، ولكنه حتى فى هذه المرحلة المتطورة أعمل خياله وتصور أن الارض تتسع لمخلوقات خارقة ومهولة فأنشأ أقاصيص خرافية .

والحكاية الشعبية بعد هذا تلح على التجسيم فى تناول الوقائع وعلى تشخيص الحيوان والجماد . وقد يصل هذا التشخيص الى حد ايجاد

تداخل بينها وبين الانسان سواء فى الشكل او الصفات ، حيث نصادف اناسى بأطراف حيوان كما نصادف بهائـــم وأحجاراً تفكـــر وتنطق . وهى تنصل الاحداث وان لم تهتم بعناصر الدقة والتحليل لعدم استنادها الى علم او منطق أو عقـــل .

ثم انها تعتمد على الدين وترتبط به حتى ما كان منها يرجع الى أصل بدائى ، بل انا نجد خرافات الخوارق تعتبر ان فى الجـــن مسلمين وغير مسلمين . ويبدو أن الارتكاز على الدين ــ والجانب الغيبى منه خاصة ــ كان دائما يقرب الخرافة الى الجماهير ويجعل لها فى نفوسهم تأثـــــيرا اقـــوى واعـــمـــق .

والغالب أن يلتزم القاص الشعبى تصميما فنيـــا يطرح فى بدايتـــه الاحداث والشخوص ، وهم فى العادة بدون تعريفات خاصة ، وانمـــــا يحملون أسماء مثل السلطان والوزير والفقيه والساحر والعجوز واللص والحطاب والصياد . ثم يصل الراوى الى العقدة وقمة الصراع بمـــا فى ذلك من تأزيم للوضع أو الموقف ومن احراج يختبر فيه ذكاء البطـــل أو قدرته الجسمية . وقد يبدو انفراج فى الازمة بتمويه فى الحل ينطلق من افتراضات ناتجة عن مواقف . وفى النهاية يتضح الحـــل الصحيـــح وهو غالبا ما يكون انتصارا للبطل أو لقيمة الخير .

وللقاص تقاليد فى السرد حيث يبدأ ويختم بعبارة معينة ، كما أنـــه يستعين بالغناء والدعاء ، وقد يتوسل بالحكم والامثال وعبارات الوعظ وبالكلمات المسجوعة والتراكيب الالغازية ، وخاصة فى تجسيـــم لأحـــد المواقف أو الرمز لقيمة ما ، بالاضافة الى ما للغـــز من دور محورى فى الحكاية حين يتعرض البطل للحظة دقيـــقة يضطـــر فيهـــا الى اظهـــار القـــدرة على حـــــله .

والقاص الشعبى لا يهتم كثيرا بالشكل والاطار ويتعامل مع الحكاية بحرية تتدخل فيها عناصر ثقافته ومزاجه وذاكرتـــه وظروفه الزمانيـــة والمكانية وموقف القص . ولكنه اذا كان لا يحفل بالشكل الفنى فانه يحفل بالجوهر والمضمون لارتباط الحكاية بأدوار تؤديها تهدف الى التوجيـــه الخلقى والى نقد أنواع معينة من السلوك ، وتهدف الى التوعية الوطنية

والقومية والى بث القيم والمثل الانسانيــة ، كما تهــدف الى التسليــة والترفيــه والترويــح .

وبعد ، فان المجموعة تحتاج الى دراسة ترصد جوانب كثيرة كمــا اسلفنا . وقد كان على الاستاذ يسرى شاكر ان يشــير بعضها فى المقدمة التى كتب ، ولكن حسبه أنه قصد الى جمع شتات مبعثر ، وذلك فى حد ذاته عمل له قيمته يستحق عليه كل تنويه ، على أنه وعــد بانجاز مثل هذه الدراسة فى الجزء الثانى من المجموعة ، وما أظنه الا موفيا بوعده وموفقاً الى ذلك .

واذا كنا ندعو الى دراسة هذه الحكايات فاننا لا نخفى أن مهمــة دراستها ودراسة الادب الشعبى عامــة ليست سهلــة على الاطلاق ؛ فهى اذا كانت تحتاج الى شجاعة أدبية لخوض غمار الريادة فيها فانها تحتاج أكثر من ذلك الى حس وطنى والى ضمير واع يلزمهما فى الدارس حتى يهتدى الى العناصر الحية والجوانب الايجابية فيلح عليها ويبرزها ويلغى من الساحة كل الشوائب والسلبــيات . ولا شــك أن طلابنــا فى الدراسات العليا ممن يميلون للتراث الشعبى مهيأون ليــنهضوا بهــذه المسؤولية ، وهم مطالبون بذلك حتى لا يتركوا المجال فارغــاً للبــاحثين الاروبيين والامريكيين الذين يقبلون على دراسة آدابنا وفنوننا الشعبية وكذلك على العادات والتقاليد بايعاز وتشجيع من حكوماتهم التى ترصد الاموال لذلك وتهيىء المراكز والمعاهد . وأظننا فى غنى عن الاشارة الى ما يشوب اعمال هؤلاء وما لهم فيه من خلفيات . ولعله خير لنا ان نبادر الى دراسة آدابنا الشعبية بروح وطنيــة وقوميــة من ان نترك المجال للمحرفين والمغرضين يعبثون به ويوجهونه لخدمة أهداف هدامة .

الــربــاط　　　　　　　　**عباس الجرارى**

الإعلام الثقافي

مناهل الأطفال

تستعد وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية (مصلحة الانتاج الثقافي) لاصدار العدد الثاني من مجلة « مناهل الاطفال » ، وسيكون هذا العدد مشتملا على أناشيد ، وقصص ، وأشعار ، ومسليات ، وما الى ذلك من المواضيع الطفولية الشيقة الطريفة التي ستفيد الاطفال في مختلف مستويات أعمارهم — مزينا بصور توضيحية ملونة .

وحرصا من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، على أن تؤدي « مناهل الاطفال » رسالتها التربوية والتهذيبية والتثقيفية على الوجه المطلوب مضموناً ، واخراجاً ، رأى وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، أن تؤلف لجنة من بعض أدبائنا ، وشعرائنا ، ومربينا ، وفنانينا ، بقصد عقد اجتماع لدراسة كيفية صدور العدد الثاني ، في ضوء تجربة العدد الاول الصادر من هذه المجلة .

* * *

وفعلا ، تألفت هذه اللجنة وعقدت عدة اجتماعات تدارست فيها هذا الموضوع من كل جوانبه .

الذكرى المائوية لميلاد الشاعر الالماني
راينير ماريا ريلك
1975/1875

بمناسبة الذكرى المائوية لميلاد الشاعر الالمانى الكبير راينير ماريا ريلك ، نظم معهد غوتة بالتعاون مع المركز الثقافى الفرنسى بالرباط احتفالا أدبيا تخليدا لهذه الذكرى بقاعة المحاضرات بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية . القيت فيه قصائد الشاعر ، ومجموعة من الكلمات التى تعرضت لحياته الادبية ، وروائعه الشعرية .

كما القت فى هذا الحفل الاستاذة حبيبة البورقادية (رئيسة مصلحة النشاط الثقافى) عرضا تحليليا عن المحاضرة التى سبق أن القاها الاستاذ الكبير السيد الحاج محمد ابا حنينى ، منذ أكثر من ثلاث وثلاثين سنة ، بنادى الادباء بمدينة سلا . عن الشاعر المذكور ، وختمت السيدة البورقادية عرضها بالقاء ترجمة الاديب المبدع الوزير الاستاذ الحاج محمد ابا حنينى للرسالة الاولى التى وجهها الشاعر ريلك ، جوابا على رسالة شاعر ناشىء .

ويسر « الاعلام الثقافى » أن يثبت فيما يلى نص كلمة الاستاذة حبيبة ، وترجمة السيد الوزير :

ولولا خلال سنها الشعر ما درى   بناة المعالى كيف تبنى المكارم

تحل اليوم ذكرى الشاعر الكبير « راينير ماريا ريلك » ونحن نجهل ان من بين أدبائنا الافذاذ من حاضر عنه منذ ثلاث وثلاثين سنة أو تزيد بنادى الادباء بمدينة سلا . الا وهو وزيرنا فى الثقافة الحاج محمد أبا حنينى فقد قدم اذ ذاك « لريلك » بمقدمة نقدية تدخل فى عداد الدراسات النقدية المقارنة النادرة المثال عند دارسى الادب فى ايامنا هذه . وقد لفت الاديب الاريب نظر المنتدين وبينهم النخبة من ادبائنا المغاربة الى وجوب الاهتمام بالادباء الغربيين ذاكرا : (ان احساسنا بجمال آدابنا لا يزداد كل يوم

قوة الا بامعاننا فى الآداب الغربية والاطلاع على ملامـح الجمال فيهـا ولنا ربح جزيل فى الجمع بين طريف الغرب وتالدنا) .

وحلل اثر ذلك تعريف القدامى للشعر والشعراء مناقشا ابن رشيق فى تعريفه للشاعر ، ذاكرا ان هذا الاخير (لا يقيم وزنـا للاحساس الصادق) ومعقبا على صاحب زهر الآداب بأنه (قال كلاما تأنق صاحبه فى وصف الفاظه وليس فى وصف الشعر الجميل ؛ وذلك ان الصفات التى ذكرها هى الغموض والابهام بحيث يمكن ان تطلق على اصحاب الفطـر الحية وما ينظمه من اعوزتهم هذه الفطر) .

ويقف وقفـة طويلة عند الجرجانى وابن قتيبـة وقدامة بن جعفر وغيرهم من النقاد القدامى . محللا تعريفـاتهم مظهرا جوانب الجـودة والضعف فيها مشيرا الى الاجحاف أحيانا .

ويقول : ان قدامة قد اغفل أمرا ذا أهميـة (وهو أن الشاعـر لا يكون شاعرا كبيرا الا اذا كان متصفا بصفة يمتـاز بهـا عن سائر الشعراء . فالغاية التى يجب أن يسعى اليها ناشئـة الادب مـا هى الا النفور من كل ما من شأنه أن يفقدهم ما وهبـوه من المزايـا الفطرية ويرديهم فى هوة غيرهم) .

ويكتشف الاستاذ الوزير خيوط الالتقاء بين مـا سطره (ريلـك) وبين ما جاء فى وصية أبى تمام للبحترى (ولتكن كأنك خياط تقطع الثياب على مقادير الاجساد فاذا عارضك الضجر فأُرح نفسك ولا تعمل شعرك الا وانت فارغ القلب واجعل شهوتك لقول الشعر الذريعـة الى حسن نظمه فان الشهوة نعم المعين) ويعلق على هذا التعريف قائـلا (ليس عجيبا أن يتفـق الشاعـران العربى والغربى فى هذا المطلب فان كل من مارس صناعة الشعر يعلم أن النظم الجيد لا يسهـل الا عنـد الرغبة والاستعداد) ثم يعتب على قدامة تقصيره ويشهد لابى القاهر الجرجانى بالأصالة ويقدمه مثالا حيا لما بذله النقاد العرب من جهد كبير فى دراستهم للشعر وخصائصه الفنية مشيرا الى أن الجرجانى يستجيب فى نظرياته فى الشعر مع بعض علماء الجمال فى العصر الحديث ويضيف قائـلا (يكاد على ما اعلم أن لا يكون لعبد القاهر الجرجانى نظـير فى النقـد

العربى القديم) مؤكدا اننا لا نستطيع الكشف عما فى النقـد القديم من نفائس الا اذا تم اطلاعنا على الدراسات النقدية الحديثة . ويعود ليحدثنا عن (ريلك) الناقـد من خلال رسائله « عظـات للشعراء الاحداث » هذه الرسائل التى ترجم الوزير جملة منها ترجمة الاديب الشاعر الذى يتحسس الالفاظ ويغوص فى اغوارها فعبر عن المعنى بدقة متناهية فى أسلوب جميل يحتفظ للعربية بأصالتها وللمعانى بطراوتها وجدتها .

وللترجمة لدى الباحثين فى الادب المقارن أساس لمعرفة ما لقيـه الكتاب والشعراء من حظوة لدى الشعوب التى ترجمت كتبهـم . وبهـا يعرف مدى تأثر غيرهم من الكتاب فى تلك الشعوب وقد بلغ من شهرة بعض الكتاب أن لاقوا نجاحا فى غير لغتهم اكثر مما لاقـوه لدى ابنـاء ادبهـم ومعـاصريهم .

ويعتقد الاستاذ الحاج محمد ابا حنيـنى أن ترجمته كانت لترجمة (كبوس) وان النص الفرنسى قد ينقصه الثراء حسب مـا عبر عنـه المختصون فى اللغة الالمانية وأساليبها البلاغية ثم يذكـر أن المترجم كان موفقا بتوفر نصه على حسن الديباجة وقوة التعبير . وأنـه أضاف الى النصوص الادبية الغربية نصا جديدا . واضيـف : ان النـص العربى للترجمة الفرنسية قدم للغة الادبية نصا جميل الديباجة ، متين الاسلوب ، يلفت أنظار المترجمين من الادباء الى ما يجب أن يبذله الاديب اذا أراد أن ينقل نصا ادبيا الى لغة قومه فيطلعهم على ما تكتنفه من معان عميقـة وأخيـلة دقيقـة .

واليكم ترجمة الاستاذ الوزير الحاج محمد أبا حنينى للرسالة الاولى التى وجهها الشاعر « راينير ماريا ريلك » ردا على رسالة شاعر شاب على درب الادب وقد كان ذلك فى شهر فبراير من سنة 1903 .

ترجمة الرسالة

سيـدى العـزيـز

لم يرد علي كتابك الا منذ عهد ليس ببعيد واني لأحمد لك ما ابديت

لي فيه من ثقة ثمينة واسعة ، حسبى هذه الكلمة فلست بمتعرض لاسلوب نظمك لأننى لست من الذين يتخذون النقد صناعة على أننى لا أرى عبارات اقل دلالة على كنه الآثار الفنية من تلك العبارات التى اصطلح عليها الناقدون ، ان لغة الناقدين لتؤدى الى أحوال متشابهات تختلف بين الحسن والسيىء وانهم لواهمون أولئك الذين يريدون ان يحملونا على الاعتقاد بأن الاشياء جميعها يمكن أن يتناولها الاخذ او يتصدى لها البيان ، وذلك ان الحوادث الوجدانية تكاد تكون جميعها مما تتعذر الابانة عنه لأنها تتكون فى جانب من نفوسنا لم يتح بعد للالفاظ ان تلجه ، وان أشد الاشياء استعصاء على التبيان للآثار الفنية ، تلك الاحياء التى لا حد لحياتها والتى تسايرها حياتنا العابرة .

وبعد فلا أزيد على هذا الا أن شعرك لا ينبىء بنمط خاص بك على أنه ليس خاليا من بذور الشخصية المستقلة ولكن هذه البذور ما زالت محجوبة وكأن بها استحياء .

لقد شعرت بهذا الامر وانا أقرأ قصيدتك التى اسميتها « روحى » فانها تنم على شيء خاص بك يود لو يجد مسلكا للظهور ويريد أن يتخذ له شكلا ، كما أن القارىء يحس وهو يقرأ قصيدتك المعنونة « الى ليوباردى » بشيء من القرابة بينك وبين هذا الامير حبيب العزلة .

وعلى هذا كله فليس لشعرك حياة خاصة به وليس له استقلال ولا استثنى من هذا قصيدتك الاخيرة ولا قصيدتك « الى ليوباردى » ولقد أبنت لى فى كتابك الذى أصحبته شعرك ضروبا من التقصير فيما نظمته لم تغب عنى وانا أقرأ ما نظمت ، ولكنى عجزت عن تسميتها .

وسألتنى هل استحسن شعرك ؟ لقد ألقيت على هذا السؤال ، وسألت غيرى من قبل ما سألتنى ، وانك لتقدم شعرك الى المجلات وتقارن بين ما تنظمه أنت وما ينظمه غيرك ، وتجزع كلما رفضت هيئات التحرير محاولاتك الشعرية . وما دمت قد اذنت لى فى اسداء النصيحة اليك ، فانى أرجوك أن ترغب فى مستقبل الايام عن هذا كله اننى لأراك موليا وجهك نحو ما يحيط بك وهذا هو ما ينبغى لك خاصة ان تجتنبه

منذ الآن . اذ ليس لأحد من الناس أن يسدى اليك النصيحة او يعينك بشيء وليس لك الا ان تسلك سبيلا واحدة ، وهى أن تلج اغوار نفسك وتلتمس فيها الحاجة التى تدفعك الى نظم الشعر فابحث فى قرار نفسك وانظر هل تغلغلت هذه الحاجة فى اعماق قلبك وحاول ان تتبين هل انت لاق حتفك لا محالة ان حيل بينك وبين النظم . وانصح لك خاصة ان تتساءل فى اكثر ساعات ليلك هدوءا هل انت مكره حقا على الكتابة واذهب فى نفسك بعيدا التماسا لأعمق الاجوبة فاذا ظفرت بالجواب الايجابى وكنت قادرا على ان تواجه ذلك السؤال الخطير بهذه الكلمات القوية البسيطة : ((يجب علي ذلك)) فاقم عندئذ حياتك على هذا الاضطرار ، وستصبح حياتك ولا ريب حتى فى تلك الساعة التي لا تكترث فيها لشيء ، والتى تشعر فيها بالفراغ دليلا وشاهدا على هذا الحفز وهذا المد ، فادن حينئذ من الطبيعة وحاول ان تفصح عما ترى وعما تعيشه من الوان الحياة وعما تحبه وعما تفقده ، وكن فى هذا الافصاح كانك اول انسان ظهر على وجه الارض ، ولا تنظم شعرا موضوعه الغرام ، فأول ما يجب ان تتجنبه تلك الاغراض المتداولة بين الشعراء فهى اشد الاغراض عسرا ، لأن الشاعر لا يستطيع ان ياتى بشيء عليه سمته وطابعه حيث تكثر تقاليد متأصلة ، وسنن قد تكون لامعة الا يوم تكتمل قوته نضجها ، فتحاش جلائل ابواب الشعر ، واقصر عنايتك على ما تقدمه لك الصحيفة اليومية من المواضيع ، واجعل همك فى التعبير عن احزانك ورغباتك وخواطرك التى تسنح لك ، وايمانك بصنف من اصناف الجمال ، وليكن تعبيرك عن هذا كله بصدق خالص ، هادىء ، خاشع ، واستعن على الاداء والتعبير بالاشياء المحيطة بك وبصور احلامك ومادة ذكرياتك ، فاذا خطر لك أن الصحيفة اليومية مجدبة فلا تتهمها ، بل اتهم نفسك بانك لم تبلغ بعد من الشاعرية تلك المكانة التى تستطيع معها أن تستدعى اليك ثروة الصحائف السيارة . ان المبدع الحق لا يرى شيئا من الاشياء مجدبا ، ولا وجود فى نظره لمكان فقير ، ولا لموضع غير خليق بالاكتراث ، وهبك فى سجن كثيفة جدرانه ، لا تخترقها جميع اصوات الدنيا اليس لديك من طفولتك ثروة ثمينة فاخرة وكنز من الذكريات فلتنتقل بفكرك الى هذه الناحية ، ولتجتهد فى رد ما رسب من صور هذا الماضى الشاسع الى الحركة والاضطراب ، فانك ان فعلت ذلك مفن

شخصيتك ومالىء وحدتك ، وجاعل من هذه الوحدة سكنـا يلـذك فى أوقات يومك المريجة موصدا لا يلفه صخب ما يحيط بك . فاذا تيسر لك شعر بعد هذا المتاب الى نفسك والغوص فى عالمـك الخاص بك ، فلن يخطر ببالك حينئذ أن تسأل هل شعرك جيد ولا ان تحاول ان تستميـل المجلات الى عملك هذا ، لأنك ستستمتع به استمتاع الحائز بلا نـزاع أو رب الملك بملك لديه أثير ، وستتملاه ضربا من ضروب حياتك ولونـا من ألوان بيانك . ان الأثـر الفنى لا يكـون جيـدا الا اذا كان وليـد الاضطرار . فالقول الفصل فى هذا المضمار لطبيعة الباعث على التأليف ومن أجل هذا فلم يسعنى — سيدى العزيز — الا ان اقدم لك نصيحة واحدة الا وهى أن تلج رحاب نفسك ، وتسبر الاعماق حيث يتفجر ينبوع حياتك ، فهناك الجواب على سؤالك : هل يجب عليك ان تبـدع ؟ فاذا ظفرت بهذا الجواب فخذ منه جرسه ولا تستكره معناه ! وربما آنسـت من نفسك بعد هذا انجذابا نحو الفن فخذ اذن ما قدر لك ، وانهض بما لهذا القدر من ثقل وعظمة ، ولا تتقاض ابدا ثوابا يمكن ان يخلص اليك من الخارج ، لأن المبدع يجب ان يكون عالما باكمله لنفسه ، وان يجد كل شىء فى نفسه أو فى تلك الحصة من الطبيعة التى آثرهـا بالالتحـاق ، وقد يكون من نتائج هذا النزول الى سريـرة نفسـك ، والى ذلك المكان الموحش من طويتك ان ترغب عن الانتمـاء الى زمـرة الشعراء ، وفى (اعتقادى انه يكفى أن يشعر المرء بان حياته غير رهينة بالكتابة لتصبح هذه امرا محظورا) . فاذا استقر رايك على العدول عن قرض الشعر فان ذلك الايغال الذى نصحت لك أن تتخذه ذريعـة وسببـا لن يذهب عبثا ، لأن حياتك ستكون مدينة له على كل حال بما شرع امامها من سبل بينة لا تلتبس بغيرها . وانى اتمنى ان تكون لـك هذه السبـل صالحة سعيدة شاسعة الاطراف . وان ما اتمنى لك من هذا الامـر ليعجـز عن تبليغـه الكـلام .

وماذا عساى ان ازيد بعد ما اسلفت ذكره ؟ انه ليخيل الي انـنى وفيت كل شىء يهم حقه من الكلام . والحقيقة اننى لم انصح لك الا بالخضوع فى نشوئك الخاص بك الى ناموس طبيعتـك وذلك فى وقـار وهدوء . واعظم اضطراب تلحقه بسير تطورك لن يكون الا ناتجا عن توجيه نظرك

الى ما هو خارج عنك وانتظارك لورود الاجوبة المنشودة ، مما يطيف بك خارج نفسك ، تلك الاجوبة التى لا يمكن أن يوردها عليك الا أعمق وجدانك فى اسكن ساعات ليلك .

المحافظ الجديد لخزانة القرويين

تم مؤخرا تعيين الدكتور محمد ابن شريفة ، محافظا لخزانة القرويين ، خلفا للاستاذ المرحوم السيد العابد الفاسى ، الذى قام بخدمات جليلة لفائدة هذه الخزانة .

والاستاذ ابن شريفة شخصية معروفة بثقافتها وانتاجها العلمى فى الاوساط الثقافية والجامعية .

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم في مؤتمرها الرابع

ايمانا من وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، بما للتعاون فى مجالات الثقافة والتربية والعلوم من آثار فعالة على المجتمع العربي ، وما يؤدي اليه ذلك من تطور وتقدم يبرز الشخصية العربية ويحفزها للمساهمة فى بناء الحضارة الانسانية ، فانها تحرص على المشاركة فى المؤتمرات والحلقات والدورات التدريبية المعدة من طرف المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، والتي يعد المغرب عضوا رسميا فيها . ولذلك فقد حضر المغرب الدورة الخامسة عشرة للمجلس التنفيذي المنعقد بمقر المنظمة من 20 دجنبر الى 26 منه ، وقدم خلالها المسؤولون المباشرون منجزات المنظمة خلال سنتي 74 و 75 ومشاريعها لسنتي 75 ـ 76 .

وقد عقب الدورة المذكورة المؤتمر العام الرابع ـ الذي انعقد بمقر جامعة الدول العربية من 27 دجنبر الى الفاتح من يناير 1976 وحضره عدد كبير من وزراء الثقافة والتربية فى الوطن العربي .

وتراس المؤتمر وزير التربية بالمملكة العربية السعودية ، وكان مقررا عاما له الاستاذ علي بابكر عضو المجلس التنفيذى بالمنظمة ، وممثل جمهورية السودان ، وشارك فى المؤتمر نيابة عن وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، الاستاذان المهدي الدليرو وحبيبة البورقادية ، وعن وزارة التعليم العالي الاستاذ محمد ابن البشير ، وعن وزارة الدولة المكلفة بالاعلام الاستاذ عبد الرحيم ابن حساين .

وقد أسفرت إعمال المؤتمر العام عن قرارات مهمة منها :

- الابقاء على مقر المنظمة بجمهورية مصر العربية .
- انتخاب المدير العام الجديد الدكتور محيى الدين صابر وزير التربية السوداني سابقا ورئيس الجهاز العربي لمحو الامية حاليا .
- استبدال مركز الخرطوم بمعهد الخرطوم لاعداد متخصصين لتعليم اللغة العربية لغير الناطقين بها .
- دعوة الدول الاعضاء التي لم تشكل لجانا وطنية لاتخاذ اجراءات ، تشكيل لجان وطنية لها ، وذلك لتيسير سبل الاتصال فيما يتعلق بعمل المنظمة .
- انشاء معهد عربي لبحوث تطوير الجامعات والتعليم العالي ، ويستكمل مشروع الدراسة اتحاد الجامعات العربية .
- انشاء المركز العربي للوسائل التعليمية بدولة الكويت .
- انشاء المركز العربي للاجهزة العلمية ، ويعد المشروع خبراء من الدول العربية .
- استكمال دراسة مشروع تنمية تدريس اللغة العربية بالباكستان ، من حيث عدد المنتفعين به وتطويره لتوسيع قاعدة المستفيدين منه.
- انشاء مركز تدريب المتخصصين فى محو الامية وتعليم الكبار بالجمهورية العربية الليبية ، وانشاء مركز مماثل بدولة البحرين .
- اعداد دراسة كاملة لانشاء مؤسسة عربية تهدف الى توحيد وتجميع الجهود العربية لنشر الثقافة واللغة العربية ، ثم تعرض الدراسة المذكورة على الدول الاعضاء لابداء رايها فيها حسب تجاربها ومعطياتها .

— اصدار حولية الثقافة العربيــــة فى جزئيـــن ، الاول عن الفتــرة (1963 — 1970) والثاني عن الفترة (1971 — 1976) .
— عقد المؤتمر الثاني للآثار بمدينة مراكش ، وسيدرس المؤتمر المذكور حركة التنقيب عن الآثار فى الوطن العربي ، والتعاون مع البعثـــات الاجنبية وتكوين الاطر الوطنية ، ودراسة الاساليـب الحديثــة فى التنقيـــب عن الآثـــار .
— عقد المؤتمر الثالث للتعريب بالجمهورية العربية الليبيــية .

كما تقرر بالاضافة الى ذلك ، عقد عدة اجتماعات للجان متخصصـــة من الخبراء ، ودورات تدريبية ، وحلقات دراسية فى مختلـــف المجالات الحيوية للثقافة والتربية والعلوم ، وتعقد جميعها خلال سنتي 76 — 77 .

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم تعقد حلقة حول التكامل بين أجهزتي التعليم والثقافة

اقيمت بطرابلس حلقة المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم من 17 الى 22 يناير من هذه السنة فى موضوع التكامل بين اجهزتى التعليم والثقافة فى العالم العربى ، شاركت فيها عدة أقطار عربية .

وقد أوفدت وزارة الدولة المكلفـــة بالشؤون الثقافيــــة مندوبها فى الشمال ، السيد المهدى الدليرو لحضور هذه الحلقة .

محاضرات بوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية

اغتنمت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، فرصة حلـــول السادة العلماء — اعضاء اللجنة الاستشارية للمكتب الدائـــم لتنسيـــق التعريب — بالمملكة المغربية فنظمت لجمهور المثقفين ثلاث محاضرات :

1) العربيــــة لغـــة العلـــم والتكنولوجيا

القاها الدكتور ابراهيم مذكور ، رئيـــس مجمع اللغـــة العربية بالقاهرة ، والامين العام لاتحاد المجامع العربية . مساء الخميس 20 محرم 1396 الموافق 22 يناير 1976 .

2) بين التطويـر والتغيير فى الشعـر المغربى

القاها الدكتور عبد الرازق محي الدين رئيـس المجمـع العلمى العراقى ، مساء الجمعة 21 محرم 1396 الموافق 23 يناير 1976 .

3) قـضـايـا عـربـيـة مـعـاصرة

القاها الدكتور ناصر الدين الاسد المديـر العام المساعد بالمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ، مساء الثلاثاء 25 محرم 1396 الموافق 27 ينايـر 1976 .

وقد غصت قاعة الوزارة بجمهور غفير من كبار المثقفين والادباء وبعض رجال الدولة ، فاستمتعوا بهذه المحاضرات القيمة .

حفلة تكريمية لأعضاء اللجنة الاستشارية للمكتب الدائم لتنسيق التعريب في الوطن العربي

أقام وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية الاستاذ السيد الحاج محمد ابا حنينى ، مأدبة عشاء ، تكريمـا لاعضاء اللجنـة الاستـشارية للمكتب الدائم لتنسيق التعريب فى الوطن العربى ، حضرها بعض الوزراء ، وبعض رجال السلك الدبلوماسى العربى ، بالاضافـة الى مجموعة كبيرة من رجـال الآدب والفكر .

وقد شارك الجوق الاندلسى بنغمـاته فى هذا الحفـل الثقـافى التكـريـمـى

ندوة بمدريد حول الإنسية الإسبانية في العالم العربي

نظم المعهد الاسبانى ـــ العربى بمدريد ، ندوة ثقافية فى موضوع : « الانسية الاسبانية فى العالم العربى » ، التى عقدت بالعاصمة الاسبانية من 24 الى 27 فبراير 1976 ، دعا للمشاركة فيها أدباء ، وشعراء ، ومفكرين من الاقطار العربية .

ومن المغرب ، شارك فى هذه الندوة السيد محمد الصباغ ممثلا لوزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية .

نتيجة جائزة المغرب لسنة 1975

في الساعة السادسة من مساء يوم الجمعة 16 ذي الحجة 1395 الموافق 19 دجنبر 1975 ، استقبل السيد وزير الدولة المكلف بالشؤون الثقافية ، بقاعة الاجتماعات بالوزارة ، أعضاء اللجنة العامة لجائزة المغرب لسنة 1975 المؤلفة من واحد وعشرين عضوا من كبار الاساتذة المختصين الذين درسوا الكتب المرشحة لنيل الجائزة ، دراسة امعان واستيعاب ، في نطاق النصوص التشريعية الصادرة في هذا الصدد ، وبعد أن رحب السيد الوزير بهم ، ونوه بكفاياتهم ، وشكر تفضلهم بالاضطلاع بمهمة الفحص والتقويم ، أعرب عن يقينه بأن جائزة المغرب بأصنافها الثلاثة ستمنح — لا محالة — لمستحقيها لما يتوافر لاعضاء اللجنة من مزايا المعرفة الواسعة ، والاضطلاع الكبير ، والتجرد ، والاخلاص .

وعقب هذا الاستقبال ، تفوغت لجنة التحكيم العامة الى ثلاثة لجـــن :

1) لجنة العلوم الانسانية والاجتماعية .
2) لجنـــة العلوم والرياضيات .
3) لجنـــة الفنـــون والآداب .

واختلت كل لجنة من هذه اللجن في قاعة خاصة . وبعد مناقشات ومداولات دامت أربع ساعات ، استقر الرأي على منح :

جائـــزة العلــــوم الانسانية والاجتماعية :

— للدكتور رشيد الازرق ، تقديرا لكتابه « النـــزاع الترابي بين المغرب واسبـــانيـــا » .

— الاحتفاظ بجائزة العلوم والرياضيات .

— الاحتفاظ بجائـــزة الفنـــون والآداب .

وتأمل الوزارة ، أن يقدم اليها في العام المقبل ، انتاج في مستوى الجائزة ، ويسعدها من جهة اخرى ، أن تشيـــد بالجو العلمي الرفيـــع الذي ساد المداولات والمناقشات .

وكانت لجنة التحكيم في هذه السنة تتألف من السادة :

الدكتور عبد المجيد ابن الماحي ، د . أحمد الجبلي ، د . مصطفى ابن يخلف ، د . محمد ابن شقرون ، د . شوقي عطـــا الله الجمـــل ،

عبد الكريم غلاب ، د . حسان تمام ، د . عــزت حسن ، عبد الجليــل الحجمرى ، د . محمد ابن شريفــة ، د . عبد اللطيــف ابن شقرون ، محمد الفردوسى ، محمد البصرى ، د . عباس الجرارى ، محمد المنونى ، محمد ميكــو ، محمد ابن تاويت ، عبد الوهاب التازى ، د . عبد الواحد ابن القزيز ، د . عبد الكريم الابيض ، محمد الصباغ .

جائزة الحسن الثانى للمخطوطات والوثائق لسنة 1976

فى اطار التعريف بالتراث التاريخى والحضارى بالمغرب ، وجريــا على العادة المألوفة التى سلكتها وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، فى تنظيم جائزة الحسن الثانى للمخطوطات والوثائق ، يسرها أن تعلــن للجمهور المغربى الكريم فى هذه السنة عن الجائزة الثامنــة للمخطوطات والوثائق التى خصصت لها مكافآت مالية تتصاعد حسب أهمية المخطوط أو الوثيقة التى توجد فى الملكية الخاصة .

ومن المعلوم ان جل ما هو مخطوط يعتبر ذخيرة ، كان مكتوبا على الورق ، أو الرق ، أو الالواح ، ولهذا فان الجوائز ستخصص لما يلى :

اولا : للأهم من الكتب المخطوطة ، مؤلفــات وتقاييــد وكناشات علمية ، ومذكرات شخصية وخطوط العلماء ، وكنانيش ونسخ الملحون ، ومجموعات الفتاوى أو الرسائــل ، ودواوين الاشعــار ، والمجموعات الموسيقية ، وكل ما هو مخطوط ولو على ورقة او ورقات معدودة .

ثانيــا : للوثائق أيا كان عصرها وموضوعها ، ظهائــر ورسائل رسمية أو شخصية ورسوم عدليــة ومحاسبــات واجــازات علميــة وشهادات الانساب وغير ذلك .

هذا وستشرف لجنة برئاسة معالى السيد وزيــر الدولة المكلــف بالشؤون الثقافية على فحص هذه المخطوطات وتقييمها ، واصدار بلاغات حول نتــائج الجائــزة .

وتؤكد الوزارة انها اتخــذت كل الاحتياطــات لضمــان ارجــاع المخطوطات الى أصحابها كاملة غير منقوصة ، بدون ابطاء ولا تأخير ، فور انتهاء المعرض واشغال اللجنة المختصة .

والجدير بالذكر ان قيمة المخطوط او الوثيقة انما تتجلى فى مدى ما قد يستفيد منها تاريخ الامة وحضارتها ، وان ضياع وثيقة مهمة نتيجة آفة من الآفات تعد خسارة فى ثروتها الفكرية ، لهذه الاعتبارات كلها ، قررت وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية ، تصوير المخطوطات والوثائق النفيسة لتحفظ فى المكتبة العامة بالرباط ، للاستفادة منها ، وخشية مما قد يعتريها من ضياع ، كما أن تصويرها لا يمكن أن يصيب المخطوط او الوثيقة بأى ضرر ، ولا يفقد ايا منهما ماله من قيمة كمستند خطى .

ورغبة من الوزارة فى الحصول على مخطوطات ووثائق جديدة تؤكد للسادة المساهمين فى هذه الجائزة ان المخطوطات والوثائق التى سبق عرضها وتقديمها لن تقبل فى المسابقة الحالية .

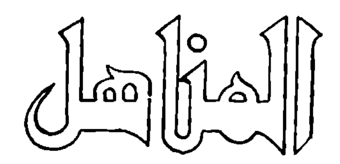
فعلى من يتوفر على شيء من هذه الذخائر ، أن يتقدم بها من الآن وحتى نهاية شهر فبراير 1976 الى احد المراكز التالية :

العمالة أو الاقليم	اسم المركز وعنوانه	اسم المكلف
عمالة الرباط وسلا	وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية شارع غاندى — الرباط	**السيد عبد المالك الانبارى**
عمالة الدار البيضاء **عمالة اقليم سطات** **عمالة اقليم خريبكة** **عمالة اقليم الجديدة** **عمالة اقليم بنى ملال**	النيابة الاقليمية للشؤون الثقافية ، شارع الزيراوى رقم 133 — الدار البيضاء	**السيدة نعيمة الخطيب**
عمالة اقليم فاس **عمالة اقليم تازة**	مكتبة البطحاء « بطحاء الاستقلال » — فاس	**السيد المختار القادرى**
عمالة اقليم مكناس **عمالة اقليم خنيفرة** **عمالة اقليم قصر السوق**	مكتبة الجامع الكبير، زنقة العدول — مكناس	**السيد احمد اجانا**

العمالة أو الاقليم	اسم المركز وعنوانه	اسم المكلف
عمالة اقليم القنيطرة عمالة اقليم الخميسات	مكتبة القنيطرة طريق عين السبع — القنيطرة	السيد محمد الوكيلي
عمالة اقليم مراكش عمالة اقليم ورزازات	مكتبة ابن يوسف العمومية — مراكش —	السيد الصديق ابن العربي
عمالة اقليم اكدير عمالة اقليم تزنيت عمالة اقليم طرفاية	مكتبة المجلس البلدي بأكادير	السيد الحسن العبادي
عمالة اقليم اكدير زاكورة — ارفود — تارودانت —	مكتبة الامام على بتارودانت	السيد احمد شاعري
عمالة اقليم وجدة عمالة اقليم فكيك عمالة اقليم الناضور	مكتبة الشريف الادريسي ، ساحة القصبة — وجدة	السيد زجلي عبد الله
عمالة اقليم تطوان عمالة اقليم الشاون عمالة اقليم الحسيمة	المكتبة العامة للكتب والمخطوطات ، شارع محمد الخامس — تطوان	(السيد المهدي الدليرو
عمالة اقليم تطوان — العرائش — القصر الكبير — عرباوة	المكتبة البلدية — بالقصر الكبير	السيد مصطفى الشاوش
عمالة اقليم طنجة	المكتبة العامة ، شارع الحرية 71 طنجة	السيد محمد ابن تاويت
عمالة اقليم آسفي	مكتبة المجلس البلدي — باسفي	السيد اسرموح محمد
الصحراء المغربية	مراكز السلطة المغربية بالصحراء المغربية	



الفهرس

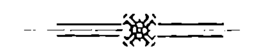


تصـدرهـا :

وزارة الدولة المكلفة بالشـؤون الثقافيـة

زنقة غانـدي ـ الربـاط ـ المغـرب

التليفون : 318.91 / 92 / 93



AL - MANAHIL

Publication du

MINISTERE D'ETAT CHARGE DES AFFAIRES CULTURELLES

Rue Ghandi - Rabat (Maroc)

Tél. : 318-91/92/93



ثمن النسخة : 2،50 د .